

دوافع نحو منهج أهل البيت عليهم السلام

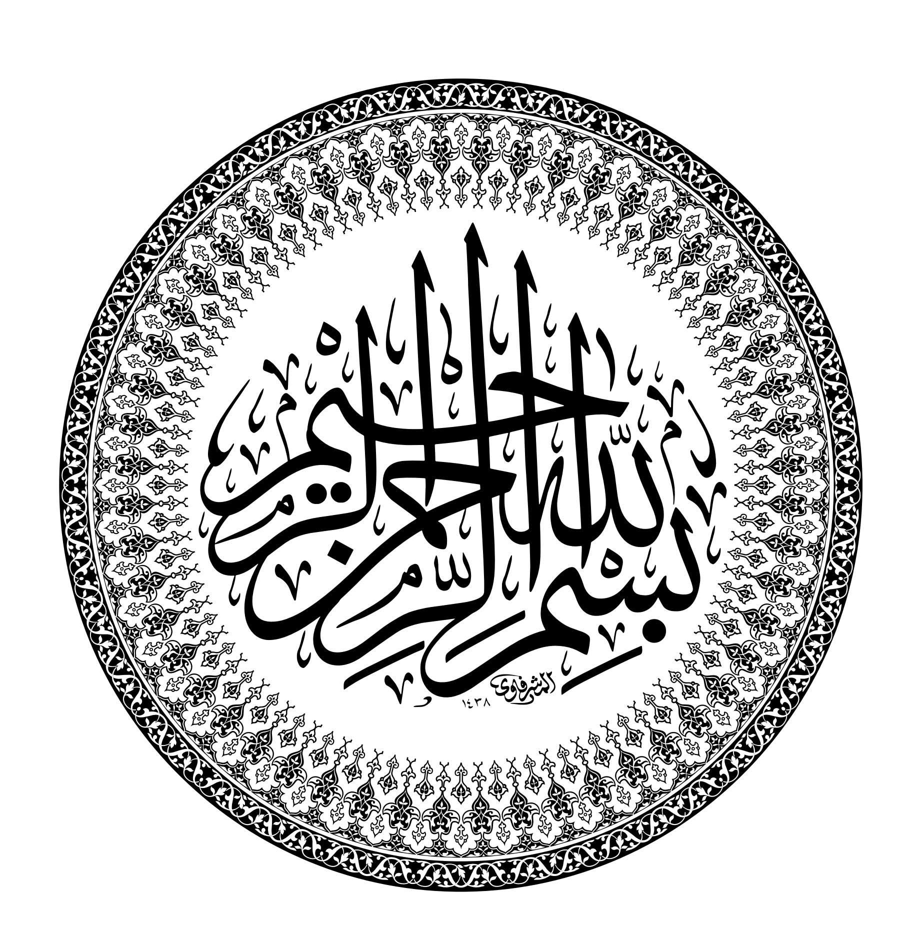
تأليف

محمد الرصافي المقداد

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

إصدار [illegible] | ٦١٠

[illegible] | ٨١

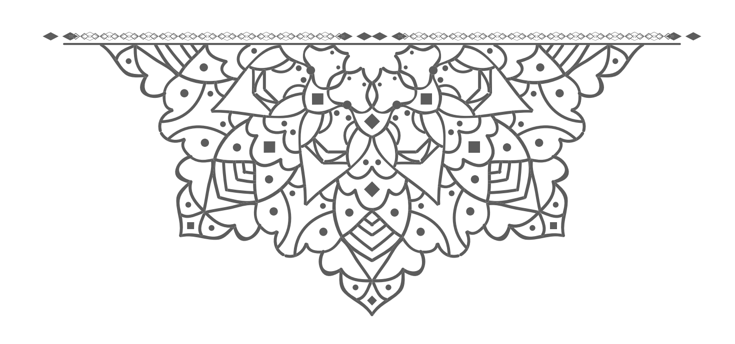

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق – وزارة الثقافة العراقية ٢٢٧– لسنة ٢٠١٩

مصدر الفهرسة:	IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda
رقم تصنيف LC:	BP٢١٢,٥ .M٨٧ D٣ ٢٠١٩
المؤلف الشخصي:	**المقداد، محمد الرصافي، ١٩٥٣– ، مؤلف.**
العنوان:	**دوافع نحو منهج اهل البيت عليهم السلام /**
بيان المسؤولية	**تأليف الباحث التونسي المستبصر محمد الرصافي المقداد.**
بيانات الطبعة:	**الطبعة الاولى.**
بيانات النشر:	**كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الدينية، شعبة النشاطات الدينية، ٢٠١٩/ ١٤٤٠ للهجرة.**
الوصف المادي:	**٤٩٥ صفحة ؛ ٢٤ سم.**
سلسلة النشر:	**(العتبة الحسينية المقدسة ؛ ٦١٠).**
سلسلة النشر:	**(شعبة النشاطات الدينية ؛ ٨١).**
تبصرة ببليوجرافية:	**يتضمن ارجاعات ببليوجرافية.**
مصطلح موضوعي:	**عقائد الشيعة الامامية – دفع مطاعن.**
مصطلح موضوعي:	**الشيعة الامامية (فرقة اسلامية).**
اسم هيئة اضافي:	**العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق). قسم الشؤون الدينية. شعبة النشاطات الدينية – جهة مصدرة.**

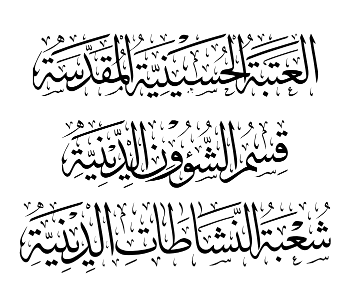
تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة الفهرسة

دوافع نحو منهج أهل البيت عليهم السلام



تأليف

محمد الرصافي المقداد



طبع برعاية

العتبة الحسينية المقدسة



العراق: كربلاء المقدسة – العتبة الحسينية المقدسة

كلمة أُولى

إنَّ الدافع الأساس من كتابة هذا المؤلف، هو التعريف بمنهجٍ إسلاميٍ عريق، امتلك من قوة الدليل، ما جعله محطَّ سخط الظالمين وأتباعهم عبر العصور، تعريفاً يعيد له اعتباره، بين من جهلوه من أبناء أُمَّتنا الإسلامية، ويضعه على صعيد واحد متكافئ، مع بقية المناهج الإسلامية في مقدّمة، رأيتها ضرورية للتأليف والتقريب بين أتباعها.

ولمَّا كان العلم بالشيء، يتأسس على معرفته، والإحاطة به، فإنَّ تعريفنا هذا، بإمكانه أنْ يرفع الشّبهة، التي زرعها أعداء المنظومة الإسلامية ككلّ، لضرب بعضها ببعض، إذكاءً للفتنة التي حرص على زرعها الحكام الظلمة، لاستدامة حكمهم، ومزيد سيطرتهم على رقاب المسلمين.

كما أنَّ تأليفي لهذا الكتاب، لم يكن من أجل دعوة أحد من المسلمين، وإقناعه إلى ترك مذهبه، وتبني منهج أئمة الهدى من أهل بيت النبوة – فذلك ما لم أقصده

- وإنَّما هي خاطرة سنحت لي، وفكرة تفاعلت معها، فكان قلمي الأقرب إلى الإمساك بها ومعالجتها، فكتبتها من أفواه أصحابها، ممّن توّجوا أبحاثهم بالانتقال إلى مدرسة الإمامية الاثني عشرية، سليمة من عاهة التحريف، نقيّة من شائبة الأراجيف، محكومة بالنصوص التي ألزمتهم مضامينها، فأحدثت فيهم قناعة، ازدادت تأصّلاً بمرور الأيام، بأنَّ الحق لا يعدو أئمة الهدى من أهل بيتٍ اصطفاه الله، ليكون منهم حفظة دينه الخاتم، ووعاة شريعته الكاملة.

طالما أنَّ الاختلاف والافتراق في الأُمَّة الإسلامية قد وقع، وظهرت آثاره، وتعددت مدارس فرقه لأسباب مختلفة، وإنْ أمكن أنْ يكون الحق مبضّعاً فيها، فإنَّ جملته ومحصّل كماله، قد ظهرت في ثقل أوصى به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، سميّاً للقرآن، وترجماناً لآي الرحمن، وحفظة لأحكام خاتم الأديان، حبل الله المتين، وعروته الوثقى التي لا انفصام لها، وبيان ذلك ستجده أخي القارئ مضمّناً هنا، فألقي السّمع وأحسن الظن، وأمعن بتدبّر ما سيأتيك، والله المستعان على كلِّ ذلك، فالدين دينه والصراط صراطه.

ما دونته في هذا الكتاب، هو جملة تجارب لأشخاص، تفاوتت مستوياتهم الاجتماعية والعلمية والعمرية، أفرزت في نهاية المطاف، قناعاتهم بتبني عقيدة وفكر أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأكرم به من بيت اصطفاه الله، وأذهب

عن أصحابه الرجس وطهرهم تطهيراً، كان يجب عرضها على ذوي البصائر والألباب، لدفع شبهات أوجدها أعداء هذا المنهج الأصيل، لأجل الحيلولة بين حقيقة التشيع لأهل البيت عليهم السلام، وما روجه أعداؤه عنه من أساطير وأباطيل وخرافات، ليس لها أساس ولا وجود، إلّا في عقول من اختلقها وروّجها.

لذلك فإنَّ الغاية من تأليف هذا الكتاب، انحصرت أساساً، في دفع شرِّ تلك الأباطيل، التي حاكها أعداء الإسلام المحمدي الأصيل، قبل استجلاب خير بدائلها، بالحقائق التي اشتمل عليها منهج إسلامي، يعدُّ الأعرق والأشمل، من بين المدارس الإسلامية الباقية منها والمندثرة.

وطالما أنَّ في المسلمين عقولاً، مدركة وواعية بمخططات أعداء الإسلام، فإنَّ مخاطبتها بهذه القناعات، يرفع الشبهة لديها، ويبعد عنها الأذى ببقائها عليها، وينمّي الثقافة المعرفية لفرقة إسلامية، عرفت بأنَّ أئمتها هم أئمة العلماء والفقهاء جلّهم، إنْ لم نقل كلّهم.

وما أحوجنا في هذا العصر، إلى إرساء ثقافة التعريف العلمي الصحيح للإسلام عقيدة وشريعة، كمقدمة للتأليف بين مختلف أتباع الفرق الإسلامية، لأنَّ المصدر وإنْ تعددت طرقه، فغايته الكتاب العزيز، والسنة النبوية الصحيحة، وترك هذا الباب على جهالة من أمره، يعطي فرصة للاستكبار والصهيونية وأذنابها في

البلاد الإسلامية، ليمرروا مخططاتهم، وينفذوا مؤامراتهم في تفريق علماء الأُمّة وجماهيرها، ودفعها إلى العداء والتناحر، وهي التي أُمرت بالوحدة والأُلفة، بل وأكثر من ذلك، فقد دعاها الخالق جلَّ شأنه، إلى كلمة سواء مع أهل الكتاب، فكيف نرضى فيما بيننا بما هو دون ذلك، فيستبيح بعضنا دماء بعض، وتنتهك الحرمات باسم الدين الإسلامي، وهو براء من كلِّ تلك التجاوزات الخطيرة؟

ونحن اليوم كمسلمين، ونرى بأُمِّ أعيننا ديننا الإسلامي، وقد تكالبت عليه القوى المعادية له، لضربه وإفشال أهدافه، في نشر العدل والأمن بين البشرية، ندرك أنَّنا في أمسِّ الحاجة إلى التماس الأعذار لبعضنا البعض، على قناعاتنا الفكرية، التي لم تكن بدعاً من القول، وإنَّما شهد التاريخ على أصالتها وتجذرها، واعتبار أنَّ التنوع الفكري، من شأنه أنْ يثري الساحة الإسلامية، ويعطيها فضاءً من التجانس والتعاون، وإن اختلفت قراءاته في بعض المسائل، فلا ضير في أنْ تتعدد وتتنوع، بما يثري الحركة العلمية والفكرية للدين، طالما أنَّنا نتحرّك في مجال ما يسمح به الاجتهاد، لمن خولت له المنزلة لذلك المقام، ويجب أنْ لا يتعدى إلى حالة الجهل والفوضى، بوابة الفتنة ودابة الشيطان، في تفريق الأُمَّة وجرّها إلى الخسران.

وحتى يستأنس الجاهل وقليل الاطلاع، بالتشيع الإمامي الاثني عشري، نشرت كتابي هذا، ليطّلع من بعدت عليه شقة المعرفة، فيكون بذلك أقرب إلى فهم

قناعات، أخذت بأعناق أصحابها، إلى اتباع منهاج أئمة الهدى، من أهل بيت المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلم، فيعذرهم فيما توصلوا إليه، وينزع عنه غشاوة اللبس، في تخطئة مسار عريق، متأصل في الإسلام، هو الأول في التأسيس، والكامل بكلِّ المقاييس، لا يزال يقدم للأُمَّة الإسلامية علماً وعملاً، ما يضيء غدها المرجو، بالعلم النافع من أجل إقامة حكومة العدل الإلهي المرتقبة.

محمد الرصافي المقداد

تونس

تقديـم

ليس من السهل على من اعتقد رجحان فكرة، أو تيقن ثبوت عقيدة، ترسخت في خلده، ونمت في عقله وقلبه، وعمل على ضوئها ردحاً من عمره، أنْ يتخلى عنها إلى فكرة أُخرى، وإنْ كانت من بنات جنسها، لأنَّ المعتقد إذا أُخذ مسلَّماً، لا يمكن أنْ يستبدله المرء بسهولة أبداً، إلَّا إذا كان البديل يمتلك من الأهلية، ما يمكّنه من الحلول محلّ المعتقد الأول وإلغائه، بما امتلكه من قوة دليل، وإثبات أحقية، وقوام حجة، ومنطقية إجابات، تقنع الباحث بلزومها، وتدفعه إلى تبنيها، دفعاً لا مناص له من الإذعان لها وتبنّيها.

وأكثر من ذلك، إذا كان المعتقد الأول يضم بين مكوناته، ما يرجح أحقية المعتقد الثاني، حينئذٍ لا يبقى مجال للتردد، في الانتقال والتحول من المحتج عليه من مصادره ذاتها، إلى المحتج الذي يمتلك رصيداً تراثياً مهماً، زيادة على حججه المتعددة، سبل إقناع عقلية ومنطقية، قد أنزل الجهل ستاره عليها عند الآخرين، فلا

يرى منها إلَّا ما رضي الحكام من مظاهرها، وشتان ما بين المظهر والجوهر.

لقد عرفت المجتمعات الإسلامية عموماً، والعربية خصوصاً، حالة من الركود، في تقصّي حقائق الدين، ومعرفة علل تشريعاته وأحكامه، بسبب الثغرات التي بقيت مفتوحة خلاله دهراً، ومنها دخلت أهواء الناس فيه، ووصل الأمر إلى اعتماد النص ونقيضه في المصدر نفسه، بل في الباب والصفحة نفسها، كما هي حال البسملة في الصلاة، التي أورد مسلم في جامع أحاديثه عن أنس، ما استشف منه أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم صلَّى بفاتحة الكتاب بالبسملة، وصلَّى من غير بسملة (راجع كتاب الصلاة).

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحدِّ، بل وتجاوزه إلى التضارب في الأحكام والتشريعات، مع أنَّ الإسلام الذي جاء به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم واحد، لا اختلاف فيه ولا تناقض من حيث المبدأ، فالخمر مثلاً في عينها نجسة محرمة منذ أنْ وجدت، لكنَّنا وقفنا على جملة من قالوا بأنَّها حرمت تدريجاً على ثلاث مراحل، تأويلاً خاطئاً للآيات التي نزلت مستنكرة تعاطيها، وهي التي حرمت البتة في الديانات التي سبقت الإسلام، فكيف بالإسلام وهو خاتمها؟

ولو أنَّ المسلمين امتثلوا لوصية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، في اتباع أهل

بيته عليهم السلام، لما اختلفوا في دينهم، ولتبين لهم حلال محمّد وحرام تشريعه، فحكم الخمر عندهم محرمة البتة في كتاب الله، وقد نزلت آية مكية تحرمها وهي: ﴿قُلْ إِنما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

والإثم كما هو معلوم لغة عند العرب هو الخمر، يقول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

فمن كانت له مصلحة في إبقاء الخمر حلالاً إلى السنة العاشرة من الهجرة، أي قبل وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بأشهر، وهي في ذاتها نجسة منذ وجدت على الأرض؟

ومن اقتضى حكمه في إمضاء حدِّ السارق، وبتر يده من المعصم، مع أنَّ الحدَّ لا يتجاوز الأصابع الأربع، إذا ما توفرت شروط إقامة الحدِّ جميعها؟

ومن أرغم المسلمين على تغيير حكم الوضوء، من مسح ظهر الرجلين إلى غسلها، مع جلاء الآية، ووضوح دلالتها إعراباً ومعنى، غير قابلين للتناقض مع آية التيمم؟ (راجع تفسير الرازي الآية إعراباً).

(١): سورة الأعراف: ٣٣.

ومن فصل الدين عن الحياة، وأوقف تفاعله في المجتمعات الإسلامية، سعياً إلى إفراغه من أسباب التواصل؟

ومن ابتدع باباً في الفقه عنونه برضاعة الكبير، مختلقاً رواية باطلة ركيكة، نسبها إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، يأمر فيها زوجة أبي حذيفة، بإرضاع سالم مولاه، مع أنَّه ذو لحية (بلغ مبلغ الرجال)، فهل كانت تلك الرضاعة ستمرّ على خير، أو أنَّ لها حيزاً في تحريم ما حرم بالرضاعة؟

ومن أدخل في الدين موالاة الظالمين، واتباع أئمة الجور، وحرمة الخروج عليهم، ما داموا مقيمي الصلاة؟ ومتى كانت الصلاة ذات جدوى، وهي لا تنهى عن فحشاء ومنكر، وإنَّ أنكر الأعمال عند الله الظلم، وقد حرّمه على نفسه، فكيف نرى هؤلاء يجوزونه على أدوات الحكم الغاصبة، والمسلطة على رقاب المسلمين؟

ومن جوز في العقيدة الإسلامية نسبة التركيب والجهة والحركة للذات الإلهية المقدسة، وفسّر آيات الصفات على ظاهرها، والذي لا تحتمله، لبطلان إجرائها على ذلك النحو المخل بالآيتين: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢)، ﴿إنما أَمْرُهُ

---

(٢): سورة الشورى: ١١.

إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٣]، ومن نسب إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم جملة من قبائح، لا يجرؤ مؤمن بسيط على فعلها، لعفة نفسه منها، فضلاً عن نكارتها وحرمتها؟

ومن نسب إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إهمال كتابه، وعدم جمعه قبل وفاته، وهو من مستلزمات حفظ كلام الله تعالى، وصيانة شريعته، ومدعاة لتجنيب الأُمَّة خطر التحريف، الذي ابتليت به الأُمم السابقة، هذا والإسلام كما أخبر عنه البارئ تعالى هو خاتم الديانات؟

ومن تعمد منع أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من التداول، وأحرق منها ما أحرق، ومنع تدوينها إلى القرن الثاني، ثمَّ عمل على الانتساب إلى سنته، وهو من أهملها، وأسهم في ضياع قسم كبير منها، ودخول مفتريات الوضاعين فيها؟ ومن ادّعى أنَّه يحفظ مائة ألف حديث صحيح، لم يخرج منها سوى أربعة آلاف ونيف، وقد كشف الباحثون تضمنها لأساطير بني إسرائيل؟

ومن سدَّ باب الاجتهاد في الفقه، ليوقفه على مذاهب أربعة، مع وجود أَساتذة هؤلاء، وظهور مدارس أُخرى لا يقل أصحابها قيمة عنهم؟

---

(٣): سورة يس ٨٢.

ومن ألزم الناس على اتباع تلك المذاهب بعينها دون غيرها، مع رفض أصحابها تقليد الناس لهم، حتى أصبحت تمثل شرعية حصرت فيها، فعدت قاعدة الإسلام وغيرها استثناء؟

أسئلة فرضت نفسها عليَّ، لم تأتِ صدفة، لأنَّ الذي فرضها هو البحث والتقصي، والتأمل والمقارنات، التي حتمت فصل الغث عن السمين، وتمييز السقيم من السليم، في جهد ما كان لأصحابه أنْ يحققوه، لولا عناية الله سبحانه وتعالى، في هداية أوليائه الذين وعدهم وعد الصدق، وأسبغ عليهم رحمته ظاهرة وباطنة.

وحتى يقف قارئ هذا الكتاب على ما توصل إليه عدد من المسلمين، ممّن تركوا تدينهم الوراثي، إلى الإسلام المحمّدي الأصيل، الذي لم يستطع جور الظالمين، ولا دهاء الإسرائيليين، اختراقه ووضع سمومهم بين طيات تراثه، إسلام أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومنزل الوحي، ومختلف الملائكة، أئمة الهدى، وأعلام التقى، والعروة الوثقى، وحجة الله على أهل الدنيا، المستحفظين على دين الله، والقائمين عليه بالحق، ثقل كتاب الله، وسفينة نجاة الأُمَّة، التي من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، صراط الاثني عشر إماماً، الذين بشّر بهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لكنَّ الأُمَّة تنكبت عنهم، خوفاً من إرهاب الظالمين وبطشهم، والناس كما قيل على دين ملوكهم.

ولست في هذا المقام، طالباً من القارئ الكريم، أنْ يرفع أشرعة سفينة إبحار عقله، إلى أئمة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام، فذلك شأن لم أضعه سبباً من أسباب كتابة هذا المؤلف، وإنَّما كان قصدي أولاً وأخيراً، أنْ يتعرف المسلمون على الدوافع الوجيهة والحجج الدامغة، التي ألجأت عدداً من المنتمين للمذهب المالكي في تونس والجزائر والمغرب وليبيا، إلى تغيير نمط تعبدهم، وتبنّي إسلام أهل البيت عليهم السلام، المعروف بالشيعة الإمامية الاثني عشرية، ومن الأحاديث المعتمدة عند ما اصطلح عليه بأهل السنة (حنفية، مالكية، شافعية، وحنابلة في الفقه)، وما عرفوا بالأشعرية في الأُصول الاعتقادية، والمسألة هي بالأساس تأويلية، وفهم مختلف للنص عند هذا وذاك، لا يجب أنْ ترقى إلى أنْ يخرج عن جادة الصواب، هؤلاء الذين رفعوا صفة الكفر، وألصقوها بإخوانهم المسلمين الشيعة الإمامية الاثني عشرية.

إذن من أجل رفع هذا التوّهم الذي أَسسه الظالمون، وتبعه عليهم أولياء الظلم قديماً، وورثه أتباعه دون قصد حديثاً، وقد جلله حكام العمالة للغرب والتبعية لرؤوس النفاق، ودعاة الجهالة والبغي، أرسلنا القلم ليبدد الوهم، ويرسي قاعدة الأُخوّة الإسلامية من جديد، على دعامة المعرفة والفهم، والتماس العذر فيما اختلفنا فيه، ولا ضير فيما لم نتفق عليه، لأنَّه لا يخرج عن الإطار الإسلامي العام،

فهو يخص نظام الحكم في الإسلام، الذي نراه إمامة هادية بأمر ربِّها، ويراه إخوتنا خلافة على منهاج النبوة.

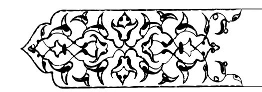
وها أنا ذا أضع هذا العمل المتواضع بين يدي سادتي وموالي، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، راجياً من الله تعالى ومنهم القبول، وآملاً من طالب الحق إلى مبتغاه الوصول، والله المؤمل من وراء ذلك والمأمول، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

محمد الرصافي المقداد

تونس

تمهيد

التقيت بهم بعد أنْ وجهت إلى كلٍّ واحد منهم دعوة، ليدلي بإفادته، عن أمر مهم تعلق بالدنيا والآخرة، في مكان قد تعودوا على الالتقاء فيه من قبل، يتحسسون الأُلفة والأُنس، وتبادل الرأي، وتمتين رابطة الأُخوّة، وأواصر الصداقة، في عصر قلت فيه الأُخوّة، وهجرت الصداقة قلوب أغلب الناس، وانعدم الشعور بالراحة والأُنس والطمأنينة تجاه الآخر، ولم يعد للرأي والمشورة نصيب، حتى الدين الذي له من القداسة والخشية في القلوب، لقي من العنت والتطاول، ما جعل الجرأة عليه أكثر من أيِّ شيء آخر، وعوض أنْ يكون مقدم اهتمام الناس، تحول بفعل هجمة أولياء الدنيا، وعبيد متاعها، إلى مؤخر اهتمامهم، فقد سلبتهم بقية ما بقي لهم من دين، وكان ذلك كلُّه بإرادة السلطان وبطانته، وقد قيل قديماً: يؤخذ بالسلطان ما لا يؤخذ بالقرآن، والناس على دين ملوكهم، ممّا يفسّر الهشاشة التي أصبح عليها الدين والعقيدة في قلوب الناس.



وبقدر تدخل الحكام على مدى الأزمنة في الدين، تدخلاً خاطئاً أضرَّ بأدبيّاته، محاولة منهم للسيطرة عليه وعلى أوليائه وأتباعه، بقدر تخوف الناس وتهيبهم من مقاربة الشعائر الدينية، وبخاصة ما هي مرتبطة بروحه ومتعلقة بأساسه، كالحكومة الإسلامية وواجباتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ممّا سلب منه فاعليته ونزع حيويته، فغدا جسداً بلا روح، وهيكلاً بلا حركة، يرثي الرّاثي لحاله، بينما يطبل له الحكام، ويجلبون عليه بما أوتوا من مكر ودهاء، ليطمئنوا الغافلين على بقاء الدين كما أُنزل، بفضل رعايتهم وعنايتهم، تنكشف الحقيقة للباحث المنصف، فيقف على هول ما لقي الدين من ظلم وتحريف، كلَّما تعمق في البحث، متجرداً عن هوى النفس وعصبية الانتماء.

إذن في عصر طغى فيه الاستبداد، وعمت الأنانية النفوس، حتى ذهبا بفلسفة الخلق وطبيعة النشأة، لم يعد يعني لوجود الإنسان الذي كرمه الله تعالى، وفضّله على سائر مخلوقاته، غير المظاهر المادية، وعلامات الترف والاستعلاء، وعوض أنْ يتقيد بتعاليم خالقه، أصبح في كثير من الحالات، أكثر جرأة على مقام الخالق، فلم يعد يثنيه شيء عن اقتحام مسالك السخط والنقمة، وفي تعامل البشرية اليوم شبه كبير بتعاملها بالأمس القريب والبعيد، وآخر شيء يحسب له حساب هو الله سبحانه وتعالى.

وسط تلك الأجواء كان اللقاء.. وحصل التعارف لمن لم يلتقِ بالبعض، من أجل إحياء الروح الإيمانية، التي تكاد تتلاشى من مجتمعاتنا الإسلامية، وعملاً على صياغة الفرد المؤمن، من خلال إرساء وتأصيل الثقافة فيه والأخلاق الإسلامية، المستمدة من سيرة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، وبناء علاقة أساسها الحبّ في الله تعالى، وما الدين في جوهره وحقيقته إلَّا تولياً وتبرياً، ولم توجد على مرِّ تاريخ البشرية، نماذج كثيرة من هذه العلاقات، إذا استثنينا حركة المعصومين في مجتمعاتهم -وأعني بهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام- أو مجالات تحرك المرجعيات، وعلماء الأُمَّة رضوان الله تعالى عليهم.

وطبيعي في هذه الحالة، أنْ ينتابني شعور بالغبطة والاعتزاز والرضا، وأنا أرمق تلك الوجوه المحيطة بي، قد زانها الله تعالى بنور الإيمان، وأسبغ عليها من فضله، في إدراك ما لم يهتدِ إليه آخرون، وذلك فضل الله.

افتتحت اللقاء المبارك بسؤال عام، وجهته إلى من حضر تباعاً، ليتحدث كلُّ واحد، عن السبب الذي دفع به، إلى الخروج عن معتقد المجتمع وموروث الأُسرة، والانتقال منه إلى فضاء اعتقاديٍّ آخر، يختلف في بعض تفاصيله، وكثير من بواطنه عما كان يتعبد به سابقاً، الغاية واحدة والأسباب كثيرة، متنوعة بتنوع عقول الناس وأفئدتهم، والمنهج التعبدي الجديد امتلك من قوة الدليل، بحيث تنوعت وتعددت

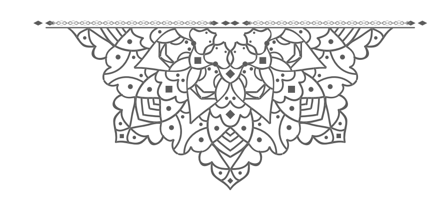
براهينه على أحقيته، بأنْ يكون له الحق - بما اجتمعت فيه من حجج- في امتلاك عنوان الإسلام المحمدي الصافي من كلِّ الأدران، التي أحكمت طوقها عليه، وأسرت جمعها فيه، ورمت بمن لاذ بها إلى الشبهة والظن والهوى، قامعة إياهم بمقامع الظالمين، المؤسسين الحقيقيين للتحريفات، التي ابتلي بها الإسلام، فرأيت أنْ أجعل أسباب تشيع هذه الثلة المباركة، موضوع هذه الدراسة، لعلَّها تكون الدافع القوي، لمن لم يطلع على هذه الأسباب التي أدّت بكثير من المسلمين، إلى تحريك عقولهم نحو نور الإيمان الحق، نور محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلم، وفاطمة وعليٍّ والحسن والحسين، والأئمة التسعة الأطهار من ذرية الحسين عليهم السلام، بهم حفظ الله دينه من أيدي العابثين، ومنهم فاضت معالم الدين القيم على المؤمنين على مرِّ العصور.

دفعني الأمل في ظهور الدين على يد المصلح العظيم

محمد الرصافي المقداد

قابس – تونس

دفعني إلى منهج أهل البيت عليهم السلام
الأمل الحقيقي عند المسلمين الشيعة في ظهور الدين
على يد المصلح العظيم المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف



فرج... هو واحد من أولئك الذين اكتشفوا خطأ الطريق، الذي كان يسلكه في تدينه، تحسس علاقته بخالقه تعالى، من خلال ما كان يقوم به من عبادة، فرآها هزيلة، لا تكاد تسفر عن إشراقها في روحه، رتيبة جافة، لم يجد فيها مع مرور الأيام، ما يؤشر على تواصل بينه وبين خالقه، كان بعيداً كلَّ البُعد من أنْ يبحث تلقائياً عن الإسلام، الذي اعتنقه وراثياً، لأنَّه لم يكن يتصور أنَّ هناك إسلاماً، غير الذي وجد عليه آباءه وأجداده، إسلاماً ارتضته الحكومات التي تعاقبت على رقاب المسلمين، خدمة لبقائها وإحاطة لها في ظلمها وجورها، والذي يقيم عليه الغالبية العظمى من المسلمين، لذلك فهو لم يلتفت إلى أنَّ هناك طرحاً إسلامياً آخر، غير الذي اعتنقه وراثياً، بسبب الدعايات المغرضة التي أُلصقت بواجهته، والتي كان للطغاة والمستبدين بسلطة الإسلام والمسلمين، اليد الطولى والدور الأكبر في تأسيسها.

وقع بين يديه في يومٍ من الأيام كتاب للسيد سابق (وهو عالم سني مصري) تناول فيه العقائد الإسلامية عند أهل السنة، فقرأه وكان منطلقاً بالنسبة إليه للبحث عن الحقيقة.

يقول فرج:

كنت من المغرمين بالمطالعة، رغم إنهائي لمراحل التعليم، ولم يصرفني عن ولعي بها شيء آخر، مع تواجد المغريات التي قد تقطع السبيل على الكتاب وقراءته، وتدفع بالشباب إلى متاهات لا حدَّ لها، عديمة الفائدة وكثيرة التبعات.

ذات يوم، وبينما كنت أتصفح كتباً في مكتبة أحد الأقارب، إذ استرعى انتباهي كتاب السيد سابق، أحد رواد الثقافة الإسلامية في مصر، تحدث فيه عن الإسلام عقيدة، فأخذته على أساس مطالعته.

ما لفت انتباهي فيه الباب الذي أفرده كاتبه، وحدث فيه عن أمر مهم، تعلق بمستقبل الدين الإسلامي، وهي عقيدة الإسلام في المهدي المنتظر، عجل الله تعالى فرجه الشريف.

اهتمامي بما أخرجه السيد سابق، نبع من محصلة كانت لدي، قرأتها وسمعتها مراراً وتكراراً، تقول لا مهدي غير المسيح عيسى ابن مريم.

ودعاية جانب من مثقفي وقياديي الخط (السني)، بما حوته أجنحته المعتدلة منها كجماعة التبليغ والدعوة، وجماعة النهضة، أو المتطرفة منها كالوهابية (السلفية)، وما تناسل منهما، كالقاعدة والتكفير والهجرة وغيرهما، والتي تنكر مسألة وجود المهدي المنتظر إنكاراً شديداً، غير خافية على جميع من يتابع الحالة الإسلامية بجميع تفاصيلها.

قرأت إذن الأحاديث النبوية التي نقلها السيد سابق، والمتعلقة بالإمام المهدي عليه السلام، والتي أخرجها حفاظ الخط (السني)، وبخاصة منهم أصحاب من لقبوهم بالصحاح، ومنحوهم من القداسة ما لا يستحقونه في الحقيقة، بسبب ما تضمنته تلك الكتب، من افتراء على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومساس بشخصه المقدس، فصدمت لنكران الناكرين، وكانت المفاجأة ذات وقع شديد عليَّ، شككتني في كلِّ ما أُلقي إليّ، من خلال بوابة التقليد الأعمى، فرأيت أنْ أعود بالبحث عن تلك الروايات، في المصادر المشار إليها، فازداد استغرابي واستهجاني للمساعي الباطلة، التي ركبها المنكرون لشخص الإمام المهدي، بسبب كثرة طرق أحاديث البشارة، التي أطلقها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، عن منقذ البشرية، والتي بلغت أكثر من ثمانين طريقاً، من الخط الأشعري (السني) الذي كنت فيه، مع العلم أنَّ السيد سابق ناقل بعض تلك الروايات، لم يكن من المنكرين لخروج

الإمام المهدي في آخر الزمان، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وإنَّما كان على الرأي التقليدي للأشاعرة، من كونه يولد في آخر الزمان.

فآمنت بالفكرة، وتشوقت لذلك المنقذ أيما شوق، وتساءلت في نفسي كيف السبيل إليه؟ متى يخرج المنقذ ليخلصنا من ظلم الظالمين؟ وهل من وسيلة لمعرفة المزيد عنه؟

اقتربت من أحد أئمة المساجد، لأسأله عن المهدي، لكنْ لسوء حظي، وجدت أمامي وهابياً كلوحاً، أجابني بجفاء وحدة: أعرض عن هذا، فهي فكرة يدعيها الروافض ويروجون لها. فقلت له: من هم هؤلاء؟ فقال: هم الشيعة الذين يسبّون السلف الصالح، ويتبرؤون من الشيخين. فقلت له: ألا تعتقد أنت بأنَّ الفكرة وجيهة ومنطقية؟ فأجاب قائلاً وهو يتحرك منصرفاً: لا مهدي بعد محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

بعد تلك المحاورة القصيرة، وجدت نفسي مندفعاً للنظر في ذلك الخط، الذي حذرني منه إمام المسجد، فقد يكون ما حمله عنهم خطأً، ومجرد دعاية أُلصقت بهم لسبب ما، كما بدأت أعتقد بصحة فكرة المهدي المنتظر، رغم التقصير الأشعري (السني) في هذه النقطة.

إذن تطورت فكرة الإمام المهدي عندي، قبل أنْ أقرأ عنه في كتب الشيعة، تلك الفرقة التي حاصرها الطغاة والجبابرة والظالمون، على مدى العصور الماضية، وعلى مرِّ التاريخ، وقد عرفني كتاب (الشيعة والحاكمون) للشيخ محمد جواد مغنية، بالواقع المأساوي الذي عاشه الشيعة طيلة خمسة عشر قرناً، وعلى صغر حجم الكتاب، فإنَّه قد أدّى الفكرة، وأعطى بصورة مجملة، ما كان يرجوه مؤلفه من إبراز لمظالم تعرض لها شيعة أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منذ أنْ وجدوا، ولا يزالون كذلك إلى هذا العصر في العراق، وفي باكستان، وفي أفغانستان ـ وما حصل لقبائل الهزارة الشيعية في باميان ومزار شريف، من تنكيل وإبادة من طرف طالبان والقاعدة ـ ضريبة موالاة الأئمة الأطهار عليهم السلام، ويتقرب بها فسقة الوهابية (السلفية) إلى شياطينهم بعنوان الجهاد ومقاومة الشرك.

وكان دليلاً آخر اعتمدته عندي، ويقيناً ازداد لدي، من أنَّ الذي لا يراعي حرمة الإنسان، فضلاً عن كونه موحداً ومؤمناً بالنبيِّ الخاتم صلَّى الله عليه وآله وسلم، لا يصح اعتباره مسلماً ولا حتى إنساناً، والإنسان كما يقول الإمام عليٌّ عليه السلام: «**إمَّا أخٌ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق**»، بمعنى أنَّه لا مفرَّ من التعامل معه، واحترامه كانسان، له كامل الحقوق في العيش الكريم وحرية المعتقد.

بماذا سيعتذر هؤلاء القتلة عن جرائمهم يوم الحساب الأكبر، أمَّا الحساب

الأصغر فهو قريب لا محالة، ولا أرى تكالبهم على المسلمين الشيعة، إلَّا شعوراً منهم بالخطر الذي سيداهمهم وعقائدهم الفاسدة، ويعرضهما للفناء، خروج ذلك المصلح العظيم، الذي تبرؤوا منه، لعلمهم بأنَّه ليس من خطهم، ولا يمكن أنْ يكون على شاكتهم في الفظاظة والغلظة والإجرام.

لقد جاء الإسلام كشريعة ودين خاتم ليشيع الأمل، ويبعث الرجاء بين معتنقيه، من أنَّ هذا الدين، سيكون في يوم من الأيام، مهيمناً على الدين كلِّه، فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(٤).

ولَمَّا كان الظهور الحقيقي بكلِّ معانيه وأبعاده، لم يتحقق في عصر الرسالة وما تلاه، ولم تسعد البشرية كلُّها تحت ظله السعادة الموعودة، وهو الذي لم يمتد ليعمَّ الأرض بأكملها، بسبب تقصير المسلمين أنفسهم، وانحرافهم عن ولاية الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام، فإنَّ الأمل يحدونا في يوم حقيقي، يخرج فيه ذلك المصلح العظيم عجل الله تعالى فرجه، لينصر الدين الخاتم، وهو اليوم الذي تنبأ به الوحي، وأشارت إليه عدد من الآيات القرآنية مجملاً، وأخبر عنه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في معرض بيانه لما أُنزل إليه من وحي.

---

(٤): سورة التوبة، الآية: ٣٣.

الروايات في أغلبها ذكرت بأنَّ المهدي المنتظر، هو من سلالة عليٍّ وفاطمة، فقد أخرج أبو داود في سننه بإسناده عن أُمِّ سلمة، قالت: سمعت النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**المهدي من عترتي من ولد فاطمة**»(٥) .

لذلك لم يكن من السهل على المخالفين لخط الإمامة، أنْ يقبلوا بمهديٍ من ولد عليٍ عليه السلام، طالما أنَّهم لم يقبلوا بإمامة عليٍ نفسه وحكومته فحاربوه، وقدَّموا عليه من لا يساويه في سبق ولا جهاد ولا نسب ولا علم، وتآمروا عليه، وقد كانوا على عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، تحت لوائه وإمرته.

إنَّ العداء المعلن للصفوة الطاهرة، تحت عناوين ومسميات مختلفة، قد أنهك الأُمَّة الإسلامية وضيّع وحدتها، وفرق جمعها، ولا أعتقد أنَّ هناك فكرةً تجمع المسلمين اليوم، وتدعوهم إلى الوحدة، غير فكرة الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، والتفافنا حوله كقيادة ربانية هادية، وتوجهنا إلى نهجه، الذي هو نهج آبائه الكرام البررة، الأئمة الأحد عشر الذين سبقوه، ومضوا بعد أنْ قاموا بواجبهم تجاه الدين الإسلامي والأُمَّة الإسلامية، وبقي دوره عليه السلام ليعيد للدين عزّته وينزله منزلته، فتقام به دولة العدل الإلهي، ويتحقق الوعد الذي أطلقه

(٥): سنن أبي داود كتاب المهدي ح٣٧٣٥.

الله تعالى في كتابه، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون﴾ (٦).

وعدم ظهوره الشريف إلى الآن، سببه تفريطنا في ديننا ومقدساتنا، ورضانا بتحكيم غير الشريعة الإسلامية السمحاء، وإلَّا فإنَّ اللطف الإلهي ممكن في كلِّ زمان، بشرط أوحاه الله تعالى إلى نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (٧).

وقد جاءت رواية أبي داود الثانية، لتؤكد على حتمية الإمام المهدي وحكومته، ولو بقي من الدنيا يوم واحد، تأكيداً على حتمية ذلك الوعد الإلهي.

عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**لو لم يبقَ من الدنيا إلَّا يوم، لطول الله ذلك اليوم، حتى يبعث فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً**»(٨).

لذلك نجد أنفسنا أمام خيارين:

---

(٦): سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٧): سورة الرعد، الآية: ١١.

(٨): سنن أبي داود كتاب المهدي ح٣٧٣٣.

الأول: أنْ نسعى ونبذل قصارى الجهد، لتحصيل شرائط ظهور الإمام المهدي عليه السلام، وتحقيق اللطف الإلهي.

الثاني: أو أنْ نرضى بالواقع الذي فرض علينا من طرف أعداء الدين، والجاهلين بتفاصيله، فلا يتحقق الأمل، إلَّا من جهة إتمام حجة الخالق على الخلق.

إنَّ الاعتقاد بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ينقلنا بالضرورة إلى مسألة الإمامة والأئمة الاثني عشر، الذين أخبر عنهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وهم على الترتيب الذي أورده خط أهل البيت عليهم السلام، أوّلهم عليٌّ بن أبي طالب، استناداً إلى نصوص عديدة، لم يجد الحفاظ المخالفون للإمامة بُداً من إخراجها، نظراً لكثرة طرقها، وسعة انتشارها، وآخرهم الإمام المهدي عليه السلام، فلماذا نقبل بإمامة الأول والأخير، ونسكت عن البقية؟ وهم أساتذة فقهاء المذاهب، كالإمام السادس جعفر الصادق إنْ لم يكن هنالك تعامٍ على مسألة الإمامة، ومحاولة طمس معالمها.

من هذه العقيدة عرفت الحق، وسلكت نهج آل محمّد صلَّى الله عليهم، موقناً أنَّ الحق معهم، منذ وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لم يغادرهم لحظة إلى غيرهم، فحمدت الله تعالى، على منة الإيمان بولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام،

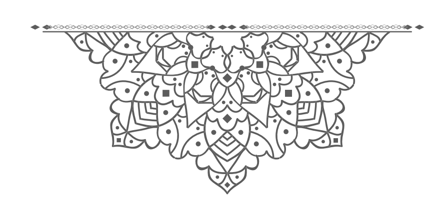
وموالاة الإمام المهدي المنتظر عليه السلام قبل خروجه، وأُثني عليه مجدداً، فبرحمته خرجت من ظلمات بعضها فوق بعض، تاركاً أولئك الذين يدّعون الحق ولا يمتلكونه، بين ركام اختلط فيه السقيم بالسليم، وسط مجتمعات لا يتبع أغلبهم فيها غير الظن، ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(٩)، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

(٩): سورة النجم، الآية: ٢٨.

الدافع الثاني إلى منهج أهل البيت

مظلومية الزهراء وأهل البيت عليهم السلام

عناصر تشيعي



كانت إجابة أحمد... سريعة ومتحمسة، فقد انبرى قائلاً: الحمد لله تعالى الذي هداني إلى معرفة أهل ولايته، واستنقذني من عمى الضلالة، وتيه سبل الانحراف، لقد عرفت الحقيقة، ووقفت على صدق الدعوى التي رفعها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والأئمة الأطهار من أهل بيته عليهم السلام، بخصوص ولايته على الأُمَّة، وولاية أهل بيته من بعده، رغم محاولات الطمس التي تعرضت لها قرون عديدة، صحيح إنَّ تضافر الأدلة، التي احتج بها أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، على أحقية الأئمة الهداة في قيادة الأُمَّة الإسلامية، بعد وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لا تدع لمؤمن وجهة يقصدها غير أبواب الهداة الطاهرين، التي جعلها الله تعالى قبلة وملاذاً للمسلمين، وأودع في بيوتهم العلم والحكمة ومكارم

الأخلاق، ففاضت على العالمين خيراً وبركةً.

كلُّ الأدلة التي قرأتها، وتثبتُّ في صحة مصادرها، أقنعتني وزادتني تثبيتاً ويقيناً، من أنَّ الحق هو في هذه الأُمَّة، الموالية لأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قلباً وقالباً، وليس عنواناً يدّعى بلا تطبيق، كما يمارسه مخالفوهم، غير أنَّ التي أراحتني مطلقاً وهزّت مشاعري، وأوقفتني وحدها على الحقيقة، هي مظلومية السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، بنت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وما لقيته من هضم وإجحاف ونقيصة وغميزة في حقها، من طرف من كان يشاهد ويسمع ويرى، ما كان يفعله ويقوله ويطبّقه في شأنها، والدها النبيُّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

فمن تكون فاطمة الزهراء سلام الله عليها؟ وما هي خصائصها؟ وكيف ظُلمت؟ ومن ظلمها؟ ولماذا ظُلمت؟

يمكنني القول، إنَّ الزهراء سلام الله تعالى عليها، هي التي فتحت قلبي قبل عينيَّ على الحقيقة التي تقول، إنَّ الإسلام المحمّدي الأصيل والصافي، لا يوجد إلَّا عند الصفوة الطاهرة عليهم السلام وشيعتهم، الذين باركهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في عدة أحاديث، من بينها قوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مشيراً إلى عليٍّ

عليه السلام: «**إنَّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة**»(١٠)، وقد نقل هذه الرواية، عدد من مفسري وحفاظ المخالفين لخط أهل البيت عليهم السلام، تسالماً منهم على صحتها.

لكنْ قبل أنْ أُقدم دليل استبصاري، اسمحوا لي بالتطرق ولو بإيجاز، إلى هذه الفاضلة العظيمة سلام الله تعالى عليها، جعلنا الله من شفعائها يوم القيامة.

من هي فاطمة الزهراء عليها السلام؟

هي بضعة المصطفى أبي القاسم محمّد، خاتم الأنبياء والمرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلم، وريحانته، ومهجته، وقلبه، وروحه التي بين جنبيه، أحبُّ أهل بيته لديه، ومن شدّة حبّها وتقديرها له، لقبّها بأُمِّ أبيها، تعظيماً منه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لشأنها، وتقديساً لمقامها، حسب الأحاديث التي ذكرها صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بخصوصها.

ولدت على أشهر الروايات في السنة الخامسة بعد البعثة، وقد استبشر أهل السماء بولادتها قبل أهل الأرض، وتولت ولادتها في مقاطعة وغياب نساء قريش،

---

(١٠): المناقب للخوارزمي ص ١١١ / تاريخ ابن عساكر ج٢ ص ٣٣٣ / أنساب الأشراف البلاذري ج١ ص١٨٢/ شواهد التنزيل الحاكم الحسكاني ج٢ ص ٤٦٧ / جلال الدين السيوطي تفسير الدر المنثور سورة البينة، الآية: ١١.

عدد من نساء أهل الجنة، أرسلهن البارئ تعالى، ليكنّ أُنساً وخدماناً للوالدة والمولودة.

أمّا أُمُّها فهي السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام، تلك الفاضلة التي واست النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بنفسها ومالها، إلى أنْ قال فيها: «**لولا مال خديجة، وسيف عليٍّ، لما قام للإسلام قائمة**»(١١).

خديجة التي بشرها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، بأنَّها رابع أربعة سيدات نساء العالمين، بقيت تحت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلى أنْ ماتت، ولم يتزوج عليها، تعظيماً واحتراماً لها، بينما تزوج على غيرها تسعاً، وبقيت أحبّ أزواجه إليه، إلى أنْ مات صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولم تُنسه واحدة ممّن تزوجهن بعدها، ذكر خديجة، وأيام خديجة سلام الله عليها.

خصائصها عليها السلام

خصائص الصديقة الطاهرة أكثر من أنْ تعد، فهي كما وصفها أبوها صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حوراء إنسية، قلباً وقالباً، روحاً وعقلاً، فهماً وعلماً، والشيء من مأتاه لا يستغرب كما يقولون.

---

(١١): تنقيح المقال ج٢ ص٧٧ / الأمالي الطوسي ٤٦٨.

ورغم كثرة تلك الخصائص، فإنَّني لن أُطيل في هذا المقام، لأنَّ الجلسة لا تحتمل ذلك، لذلك سوف أذكر بعض الخصائص الكبرى المتفق عليها عند كلِّ الفرق الإسلامية:

الخاصية الأولى: كونها سيدة نساء العالمين

فقد ذكر النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ذلك، في عدد من الأحاديث، منها ما صرحت به عائشة قالت: أقبلت فاطمة تمشي، كأنَّ مشيتها مشية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقال مرحباً بابنتي، **ثمّ أجلسها عن يمينه، ثمّ أسرَّ إليها حديثاً فبكت، ثمّ أسرَّ إليها حديثاً فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم أقرب فرحاً من حزن، فسألتها عمّا قال فقالت: ما كنت لأفشي على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم سرّه، فلمّا قُبض سألتها فأخبرتني أنَّه قال: إنَّ جبريل كان يعارضني بالقرآن في كلِّ سنة مرة، وإنَّه عارضني العام مرتين، وما أراه إلَّا قد حضر أجلي، وإنَّك أول أهل بيتي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك، فبكيت، فقال: ألا ترضين أنْ تكوني سيدة نساء العالمين فضحكت**[١٢].

وتشترك السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في هذه الخاصية مع أُمِّها السيدة

---

(١٢): الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج٨ ٢٦٥-٢٦٦.

خديجة، لذلك فإنَّنا نفتخر كمسلمين بأنَّ لنا نصف سيدات نساء العالمين، وأهل الجنة اللاتي عدتهن أربع.

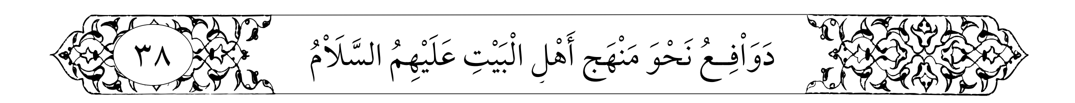
سيدة النساء تفيد الكمال في هذا الإطار، والسيادة لا تعني في لغتنا غير العلو والرفعة والتميز والتفوق، وقد نالت فاطمة عليها السلام السبق إلى كلِّ المكارم، التي يمكن للكائن الإنساني أنْ يصلها، وهي زيادة على كونها بضعة من الرسول الخاتم صلَّى الله عليه وآله وسلم.

ذلك الكائن الذي تمكن من مجاراة نسق طاعة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وطاعة الوصي إمام الأُمَّة عليِّ بن أبي طالب عليه السلام، فخرجت من بين القمتين المستعصيتين على الخلق، قمة أُخرى لا تنال بلحظ ولا تدرك بعمل.

وهذا دليل آخر، يمكن وضعه في خانة نسبة العصمة إلى فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنَّ من تشارك مريم العذراء في الاصطفاء، لا بُدَّ أنْ تكون معصومة، وآية التطهير ﴿إِنما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [١٣] تأخذنا أيضاً إلى هذا الفهم.

---

(١٣): سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.



الخاصية الثانية: كونها أمَّ أبيها

وقد لقبها أفضل المخلوقات صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بهذا اللقب، لأنَّها كانت بالفعل البنت والأُمَّ في الوقت نفسه، وقد استطاعت بحنانها الفياض، أنْ تملأ عليه الفراغ الهائل، الذي تركته زوجته وحبيبته، خديجة بنت خويلد عليها السلام، ولم تستطع واحدة من نسائه التسع، اللاتي تزوجهن بعدها، أنْ ينسينه خديجة عليها السلام، ممّا أثار حفيظة إحداهن، وهي التي امتلأ قلبها حقداً وغيرة عليها، كلّما رأت النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يهتم لصاحبات خديجة عليها السلام، ويفرح بهن عندما يأتينه لحاجة أو زيارة، إلى درجة وصفها لخديجة بالعجوز الحمراء الشدقين.

وكان النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، يحظى من فاطمة عليها السلام بفائق العناية والاهتمام، فقد كانت إذا دخل بيتها قامت إليه، وقبّلته واحتضنته وأجلسته مجلسها، وكانت إذا دخلت عليه، قبّلها واحتضنها وأجلسها مجلسه(١٤)، وهذا من لطيف ما ذكر من سيرتها العطرة.

---

(١٤): سنن الترمذي ج٥ ص٧٠٠ / فضائل الصحابة النسائي ص ٦٨.

الخاصية الثالثة: كونها الصديقة

ولقبت بالصديقة، لاشتراكها مع أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام في مقام الصدق، ونزل فيهم قرآن يحثنا على أنْ نكون معهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(١٥) .

وطالما أنَّ الصدق صفة نسبية في الناس، ولا يمكن إطلاقها إلَّا على القلة القليلة منهم، فقد اتجه إلحاقها بمن كانت إرادتهم متطابقة دائماً مع إرادة البارئ تعالى، وتفسير الآية متعلق بهم.

والصّدِّيق صفة مبالغة من الصدق، هؤلاء الذين كانوا دائماً وراء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، تصديقاً وعملاً بمقتضاه، يتفق معهم هذا اللقب اتفاقاً كاملاً بمقايسته ببقية الخصائص، ويختلف مع غير هؤلاء لعدم ثبوت العصمة فيهم، بينما ثبتت العصمة في أهل البيت عليهم السلام، بالنصوص التي في حوزتنا، وعملياً بما لم يسجل عليهم التاريخ زلة واحدة، أو غميزة تزحزحهم عنها.

الخاصية الرابعة: كونها محدَّثة

لقبت فاطمة عليها السلام بالمحدَّثة، لأنَّ الملائكة كانت تحدثها، وتأنس إليها

---

(١٥): سورة التوبة، الآية: ١١٩.

في أكثر الأوقات، بل وتعينها في بعض الشؤون، وقد جاء جبريل عليه السلام بعد وفاة والدها لتعزيتها ومواساتها[١٦].

الخاصية الخامسة: كونها طاهرة

وآية التطهير التي شملتها، والتي أقرّت بإذهاب رجس الشيطان عنها، وتطهيرها تطهيراً كاملاً، دليل على كمال الزهراء عليها السلام وعصمتها.

الخاصية السادسة: كونها الكوثر

وقد لقبها البارئ تعالى بالكوثر، مبشراً نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلم، بعدما شنأه العاص بن وائل والد عمرو بن العاص، وكان معدوداً من المبغضين للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأهل بيته عليهم السلام، معيراً إياه بالأبتر- الذي لا عقب له- بسبب أنَّ الذي لا يخلف ولداً ذكراً، يعتبر لا عقب له بمنظور المجتمع الجاهلي، فاغتم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لذلك، ولجأ في ذلك إلى الله تعالى، فأنزل عليه سورة الكوثر، تطييباً لخاطره وبشارة له، بكون عقبه سيكون من فاطمة الزهراء عليها السلام، ولقبها بالكوثر لكثرة نسلها من الصالحين، وجاء بيانه على ذلك بقوله صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**كلُّ الأنبياء أبناؤهم من أصلابهم إلَّا أنا**

(١٦): دلائل الإمامة لمحمد بن جرير بن رستم الطبري.

فأبنائي من عليٍّ»[١٧].

الخاصية السابعة: كونها الزهراء

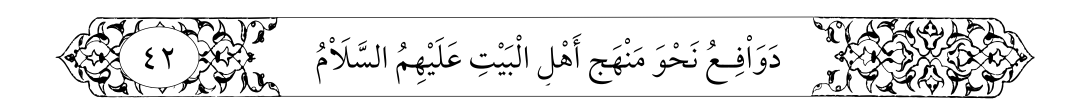
لقبت فاطمة عليها السلام بالزهراء، للنور الذي يزهر منها إلى عنان السماء، إذا قامت في محرابها للصلاة[١٨].

وفاطمة عليها السلام ضاهت، بل فاقت مريم العذراء في تهجدها وعباداتها، لذلك كساها البارئ تعالى من نوره ظاهراً وباطناً، وأسبغ عليها من نعمه ومننه، حتى جعل غضبها من غضبه، ورضاها من رضاه، وهذا مقام لم يستطع أحد من العالمين الوصول إليه غيرها، ولا عجب في من خرجت إلى الدنيا من نور حبيب الرحمن، وتربَّت بين سيد النبيّين صلَّى الله عليه وآله وسلم، وسيدة نساء أهل الجنة خديجة عليها السلام، وملائكة مقربين يحوطون الجميع بالحفظ والعناية والتسديد، ثمّ انتقلت إلى بيت سيد الوصيين عليه السلام، لتتولى دورها المهم، في تنشئة وإعداد أنوار الأُمَّة وهداتها.

---

(١٧): تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣.

(١٨): دلائل الإمامة لمحمّد بن جرير بن رستم الطبري.



كيف ظُلمت؟

مظلومية فاطمة عليها السلام، غير خافية على المتتبع لأحداث ما بعد موت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقد اقتحم عليها بابها، الذي جعله الله تعالى قبلة ومقصداً للمسلمين، وحادثة سدّ البواب إلَّا بابها من أوضح الواضحات، لا ينكره إلَّا جاحد.

انتهكت حرمة بيتها، ووجئ بطنها، فأسقطت محسناً، وضربت وكُسر ضلعها، من طرف الغاصبين للحكومة الإسلامية، وبلغ بهم الأمر، حتى كادوا يحرقون عليها بيتها بمن فيه[١٩]، مع علمهم التام ويقينهم بمقامها، ومكانة زوجها الرفيعة، التي لا يشك فيها إلَّا منافق خبيث الولادة.

ذلك التعدي الصارخ على حرمتها، لم يكن وليد تلك اللحظة، بل إنَّ فيه ما يشير إلى أنَّ أضغان المعتدين، كانت مضطرمة قبل ذلك بكثير، فقد كانت قلوبهم تتقد حقداً، وأفئدتهم تشتعل حسداً، كلَّما رأوا النبيَّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مهتماً بذلك البيت الطاهر، ومعتنياً بأفراده المميزين عليهم السلام، مشيراً إلى فضلهم، ناصاً على منزلتهم الرفيعة عند الله تعالى، وعنده صلَّى الله عليه وآله وسلم[٢٠].

---

(١٩): تاريخ الطبري ج٣ ص١٩٨.

(٢٠): الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٥٠.

لماذا ظُلمت؟

أمّا لماذا ظُلمت الزهراء سلام الله عليها، وهي على تلك المنزلة الرفيعة والمكانة الخصيصة؟ وهل يعقل أنْ تُنسى مكانة الزهراء عليها السلام، حتى يُتعامل معها بذلك الأُسلوب المخزي؟ السبب متعلق كما أشرنا بمسألة حساسة، وهي الحكومة الإسلامية، والتي هي على ارتباط وثيق، بزوجها أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، والنصوص المشيرة إليه عديدة، ومكانته من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم واضحة، وتفانيه من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، لا ينكرهم إلَّا معاند، لذلك لم تكن ردود أفعال الغاصبين تجاه أصحاب الحق، إلَّا دليلاً على أحقيتهم، ولو لم يتعامل الغاصبون مع أهل البيت عليهم السلام بكلِّ تلك القسوة والفضاضة، لما أمكنهم أنْ يحافظوا على الحكم، لأنَّهم يدركون جيداً من يواجهون، ويعلمون يقيناً من هو صاحب الحق، في سياسة الأُمَّة الإسلامية بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

احتجاجها عليها السلام

لم تبقَ فاطمة الزهراء عليها السلام مكتوفة اليدين، بعدما تناهت إلى أسماعها، أنباء استيلاء الغاصبين على الحكم، وتجاهل حق الإمام عليٍّ عليه السلام، في قيادة الأُمَّة الإسلامية بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فخرجت عليها السلام ليلاً

مع زوجها أمير المؤمنين عليه السلام، تستحث الأنصار على بيعة سيد الوصيين عليه السلام، وتذكرهم حقّه الذي خصّه الوحي به، إلَّا أنَّ بيعة القوم كانت قد انعقدت للغاصبين، وأحجم أكثر الناس عن خلع بيعتهم، لأسباب مختلفة، منها ما هو متعلق بالخوف، ومنها ما يتصل بطبيعة أولئك الممتنعين، ومنها العامل الزمني الذي استغله الغاصبون لصالحهم، على الوجه الذي ثبتت فيه أُمورهم[٢١].

لذلك لجأت سلام الله تعالى عليها إلى أُسلوبٍ آخر من إقامة الحجة، فطالبت حقها في ميراثها من أبيها صلَّى الله عليه وآله وسلم، فكذب الغاصبون للحكم عليها، وادعوا أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قد قال: (نحن معشر الأنبياء لا نورث)[٢٢].

فخطبت في الردِّ على تلك الفرية خطبة بليغة، أفحمت فيها الظالمين، وقصفت بهتانهم من الأساس، مستدلّة في بيان أحقيتها وصحة دعواها، بما أخرس نعيق الباطل فقالت في آخر كلامها: «... **وأنتم الآن تزعمون أنْ لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون، أفلا تعلمون، بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية، أنِّي ابنته، أيّها المسلمون أأُغلب على إرثيه؟**»

---

(٢١): الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري.

(٢٢): التمهيد لابن عبد البر ٨: ١٧٥.

«**يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله أنْ ترث أباك، ولا أرث أبي؟ قد جئت شيئاً فرياً، أ فعلى عمد تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول:** ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[٢٣] ، **وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا عليه السلام إذ قال:** ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[٢٤] . **وقال:** ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[٢٥] .

وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[٢٦] **وقال:** ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٢٧] .

وزعمتم أنْ لا حظوة لي، ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أ فخصكم الله بآية، أخرج أبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منها؟ أم هل تقولون إنَّا أهل ملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه، من

---

(٢٣): سورة النمل: ١٦.

(٢٤): سورة مريم: ٥ ـ ٦.

(٢٥): سورة الأنفال: ٧٥.

(٢٦): سورة النساء: ١١.

(٢٧): سورة البقرة: ١٨٠.

أبي وابن عمّي، فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلم، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكلٍّ نبأ مستقر فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم»(٢٨).

مفندة بذلك مزاعم البغاة، من أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا يورث من جهة، وأنَّه قد ترك وصيته لأهله وأُمَّته من جهة أُخرى، لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أول المكلفين، والمطبقين للأحكام النازلة عليه، ووجوب الوصية غير خافٍ في هذه الآية، وحث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم على القيام بها، جاءت به عدد من الروايات، فلا تصح دعوى ترك الوصية عند من أطلقها، لأنَّها عارية من الدليل، وأدلة إثبات الوصية قد بلغت من القوة، ما دفع بالمنكرين إلى مزيد الكذب على الله تعالى، ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، فلم يزدهم ذلك من الله إلَّا بُعداً. لكنَّ البغاة على سيدة نساء العالمين عليها السلام، لم ينثنِ عزمهم، ولا فتر جهدهم في منعها حقها، فتمسكوا بالرواية المكذوبة، وأصرّوا على إنفاذها إصراراً عجيباً، ولما لم تجد منهم آذاناً صاغية، رجعت لتطلب نحلتها في فدك، التي نحلها إياها والدها بعد فتح خيبر، وهي ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، ونزل جبريل عليه

---

(٢٨): الاحتجاج ج١ص ١٣٨-١٣٩.

السلام بقوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[٢٩].

وأمره أنْ يعطي فدكاً لفاطمة عليها السلام. فكانت تحت يدها على عهده صلَّى الله عليه وآله وسلم، فلمّا توفي افتكت منها، ولم يرجعها إلى ذريتها إلّا عمر بن عبد العزيز الأُموي، الذي أراد الله تعالى، أنْ يتم كشف الحقيقة على يديه، وفضح أُكذوبة ابن أبي قحافة وصاحبه.

لكنَّنا مع إثبات الزهراء عليها السلام لحجتها بالكتاب العزيز، وبقوة الدليل، نستهجن أنْ تترك الأُمَّة حجة فاطمة الزهراء عليها السلام، التي أذهب الله تعالى عنها الرجس وطهرها تطهيراً، لتستأنس بإعادة الخليفة الأُموي لحقها في فدك إلى ذريتها من بعدها، فهل قصرت شخصيتها المباركة الطاهرة، حتى يلتفت إلى إثبات غيرها، وتصديقها من ذلك الطريق، وقد نزل في خصوصها ما نزل، وقال فيها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ما قال؟

ومنذ متى كان لذلك البيت الذي ينفق من الخصاصة، ويعطي من القلة، بعدما طلق الدنيا ثلاثاً، هم أو مطمح دنيوي؟ ألم تكن فدك في أيديهم أكثر من سنتين، ومع ذلك لم يخزنوا من نتاجها شيئاً، ولا أُثر عنهم طرق وأساليب الناس في جمع الحطام؟ دأب ذلك البيت دائماً الإنفاق في سبيل الله، بطريقة لا يستطيعها

(٢٩): سورة الإسراء، الآية: ٢٦.

غيرهم، يعطون عطاء من لا يخشى الفقر، تارة يخرجون من أموالهم كلِّها، وتارة يقاسمونها الله تعالى، مقاسمة بالنصف كما أُثر عنهم عليهم السلام، فهم أهل آخرة لا يهمهم من الدنيا إلَّا مقدار ما يوصلهم إلى غايتهم، ومن هنا جاء سبب حجب حقوقهم عنهم، لئلا يستميلوا بها سواد الناس، وتكون لهم عوناً على استرداد أحقيتهم في الحكم.

لقد مضى والدها صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بين هؤلاء كالحلم، فلم يفهموه ولا فهموا مقامه، إلَّا قليل من المؤمنين، وقد لقي من عجرفتهم وتعنتهم واستكبارهم ما لقي، على قصر المدّة التي قضاها بينهم، فهل تراهم يقدرون ابنته عليها السلام من بعده، ويضعونها موضعها الذي تستحق؟

لم يكن شيء من ذلك حصل، بل لقد حصل الأسوأ، كأنَّما قدر هذه الأُمَّة أنْ تحذو حذو بقية الأُمم في التنكر لأنبيائها، وتحريف أحكام شرائعها، وتطويعها حسب مشيئة هذا الحاكم أو ذاك.

أهم ما قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في شأنها:

واصل أحمد حديثه فقال: مضافاً إلى كون فاطمة الزهراء عليها السلام من أهل البيت الذين نزلت فيهم آية التطهير، وتحديد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم

لعدد هؤلاء، كما صرحت بذلك كلٌّ من عائشة وأُمِّ سلمة، وهم محمّد وعليٌّ وفاطمة والحسن والحسين صلَّى الله عليهم وسلم[٣٠]، وقد صرح والدها صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في شأنها بقوله: «**يا فاطمة إنَّ الله يرضى لرضاك ويغضب لغضبك**»[٣١].

وقد ماتت الصديقة شهيدة، من جراء الضرر الذي لحقها من اقتحام الغاصبين لبيتها، غاضبة على أولئك الذين تعاونوا على صرف الحكومة عن زوجها، الأَولى والأَحق بذلك المقام، صرح بذلك عدد من الحفاظ من أتباع خط السقيفة، منهم البخاري الذي يعتبر أكثرهم تحفظاً على إخراج ما يتعلق بأهل البيت عليهم السلام، ولا أراه قدم على بقية الحفاظ إلَّا من هذه الجهة.

هل بايعت الزهراء؟

يضيف أحمد قائلاً: نحن نعلم جيداً أَنَّ فاطمة الزهراء عليها السلام هي سيدة نساء العالمين، بضعة المصطفى، ومهجته، وروحه التي بين جنبيه، وهي أول الناس دخولاً إلى الجنة كما صرّحت بذلك عدد من الروايات، وأنَّ شفاعتها يوم القيامة أكبر من أنْ تقدر بعدد، وكما نعلم بحسب محصل الروايات، فهي لم تبايع الغاصب الأول للحكم، ولا حكي عنها ذلك إطلاقاً، بعد ما ثبت لدينا موتها، ولحاقها بأبيها

---

(٣٠): مسند أحمد ج١ ص٢٣٠.

(٣١): كنز العمال ج٦ ص٢١٩.

صلَّى الله عليه وآله وسلم، وهي غاضبة عليه وعلى أعوانه، تاركة وصية لزوجها عليٍّ عليه السلام، بأنْ لا يأذن لأحد منهم حضور جنازتها، ووجوب البيعة أمر لا يختلف عليه اثنان، بل لقد قرن النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عدم بيعة ولي الأمر بالجاهلية، فقال: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[٣٢]. فمن بايعت الزهراء إذن؟

التفت إليَّ أحمد بوجهه الصبوح المنشرح وقال: هذه هي النقطة التي أوصلتني إلى الحقيقة، وعند هذه الحجة، انقطعت حجتي في اتباع خط السقيفة، صحيح أنَّ الزهراء سلام الله تعالى عليها قد قطعت وجهة المتعلل، في مسألة المطالبة بميراثها ونحلتها وسهمها، إلَّا أنَّ مسألة بيعتها هي التي أماطت عن بصيرتي، حجب الضلالة التي كنت أتخبط فيها.

واختتم أحمد كلامه قائلاً: في الأخير أودُّ أنْ أختم كلامي، بالحديث عن واجب من الواجبات الأكيدة، التي أمر بها الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه فقال: ﴿ذَلِكَ الذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٣٣].

---

(٣٢): صحيح مسلم ج ٣ ص١٤٧٨/ ١٤٧٩ / كتاب الإمارة ح١٨٥١ بثلاث طرق.

(٣٣): سورة الشورى، الآية: ٢٣.

وقد أجمع المفسرون إلَّا من شذَّ منهم، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه، من أنَّ فريضة المودّة هذه، متعلقة بأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فمودتهم تستوجب محبتهم، ومحبتهم تستوجب تقديمهم، وتقديمهم يستوجب مولاتهم، فأين مودّة هؤلاء الذين انتهكوا حرمة فاطمة الزهراء عليها السلام؟ أم أنَّهم مستثنون من تلك المودّة؟ ولماذا أُعفي قبرها، وهي التي من المفترض أنْ تكون مدفونة إلى جانب أبيها ظاهراً، ومشهدها غير مخفي ولا مجهول؟ لا شكَّ أنَّ من خلص معدنه وصفي باطنه، سيدرك المعنى جيداً، ومن كان خلاف ذلك فهو كمثل الذي تحدثت عنه الآية: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٣٤]

لهذا أود أنْ أوجه ندائي إلى عامة هذه الأُمَّة المغلوبة على أمرها، والمضيعة لحقوقها والتاركة لواجباتها، من أنْ يقفوا وقفة تأمل، وليسألوا أنفسهم كما سألنا أنفسنا نحن: ماذا لو كان الخط الذي يسلكونه منحرفاً عن منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام، الذي يمثل الإسلام المحمّدي في أجلى مصاديقه؟ لأنَّ الشك طريق إلى اليقين، وليبحثوا بعدها في الحجج التي ذكرتها، وأثبتها غيري، فإنَّني على يقين أنَّهم سيدركون الحقيقة بكلِّ يسر، بمشيئة البارئ سبحانه وتعالى.

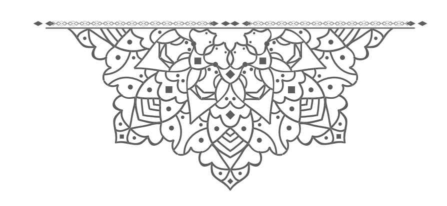
---

(٣٤): سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

الدافع الثالث إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

عقيدة أهل البيت عليهم السلام في التوحيد

هي التي شيعتني



ما إنْ أتمَّ أحمد... حديثه حتى انبرى صالح... قائلاً: أمَّا أنا فقد شيعني التوحيد الخالص، وبقية العقائد الصافية، للأئمة الهداة من أهل بيت المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وهو دليل قاطع، يؤكد صحة الخط، الذي عليه المسلمون الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، ويؤكد سقوط بقية الخطوط في تيه لا نجاة منه، بتشويهها للتوحيد الخالص، واعتمادها لعقيدة التجسيم والتشبيه، جرياً على اعتقادات المشركين من الأُمم السابقة، مصورة المولى سبحانه وتعالى جسماً، على صورة آدم عليه السلام، وأنَّ له أعضاء كاليدين والرجل، وجوارح كالعينين، وأنَّه ينزل إلى السماء الدنيا، كأنَّما هو في حيز، ويحتاج في تدبيره للكون إلى حركة، ويضع رجله في النار، فيزوى بعضها إلى بعض، كأنَّما خلقها أكبر ممّا قدره لها من العصاة

والكافرين، ويتنكر يوم القيامة فلا يكشفه غير المؤمنين، إلى غير ذلك من الترهات، التي مررها كعب الأحبار عبر أبي هريرة الدوسي، وأثبتها فيما بعد منظرو الخط السلفي، والمعروفون أيضاً بأهل الحديث، كالحنابلة ونحوهم.

شاء القدر أنْ يضع في طريقي أحد فضلاء الشيعة، أثناء أدائي لعمرة مستحبة، وقد كنت محظوظاً في ذلك، لأنَّ تعرفي على ذلك الشخص، قد قلب كياني وأوقفني على حقيقة التوحيد.

شاهدني الرجل متلهفاً، لأخذ كتاب التوحيد للمبتدع محمد بن عبد الوهاب، فقد كنت أراه قمة البيان والبرهان في التوحيد الخالص، والصافي من شوائب الشرك، ابتدرني قائلاً وعيناه ترمقان الكتاب بنظرة فيها شيء من الأسى: السلام عليكم. فرددت عليه السلام، قال: هل تؤمن حقيقة بما جاء في هذا الكتاب؟ فقلت له: أفي الله شك فاطر السماوات والأرض. قال: ليس القصد في أصل الاعتقاد بالله تعالى، لأنَّنا كلّنا نعتقد بوجوده ووحدانيته تقريباً، وقد يشترك معنا فيه كلُّ المخلوقات حتى المشركين، لقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٣٥].

---

(٣٥): سورة الزمر الآية ٣٨.

لكنَّ المراد من سؤالي، هو ما حواه الكتاب من إساءة لله تعالى، وسوء تقدير له، ووضعه موضع المحتاج، وتشبيهه بخلقه، والاعتقاد بأنَّ له أعضاء وجوارح كالمخلوقات.

فقلت له: هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة، والتي كان عليها السلف الصالح، وأخذها عنهم التابعون لهم بإحسان، ولكنْ ما هو توحيدك أنت حتى تتهمني بفساد العقيدة؟

قال: هو توحيد خاتم الأنبياء والمرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذي علمه لعليٍّ بن أبي طالب وأهل بيته عليهم السلام، وتعلمه صفوة الصحابة، أمثال أبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، والمقداد وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم.

فقلت: وعلى أيِّ أساس انبنى توحيد أهل البيت رضي الله عنهم؟

قال: انبنى على تنزيه الله تعالى عن كلِّ النقائص، وإثبات كلِّ كمال فيه جلَّ شأنه، وتوحيده في الذات والصفات، والخلق والرزق والحاكمية والعبادة، إلهاً واحداً أحداً، لا مثيل له، ولا شبيه، ولا ندَّ، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

قلت: فهل لك من بينة من كلام أهل البيت رضي الله عنهم في التوحيد؟

قال: لقد كان جلُّ كلام أهل البيت عليهم السلام، منصباً في بيان مقام الخالق سبحانه وتعالى، لعلمهم بأنَّ عدم بيانه - رغم أنَّه من أجلى الموجودات على الإطلاق- لا يؤسس لعقيدة سليمة، ولا يفوتني هنا، أنْ أستحضر إحدى خطب أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام في التوحيد، والتي منها:

«... أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلِّ صفة أنَّها غير الموصوف، وشهادة كلِّ موصوف أنَّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم؟ فقد ضمنه، ومن قال علام؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلِّ شيء لا بمقارنة، وغير كلِّ شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده...»(٣٦).

وقد سلك أبناؤه الكرام البررة، هداة الأُمَّة وربانيوها، مسلكه في الدفاع والذبِّ عن الدين الإسلامي الصافي، عقيدة وشريعة، فجاءت خطبهم،

---

(٣٦): نهج البلاغة ج١ ص ١٦.

ومناظراتهم، وبياناتهم، ودروسهم، حتى في أحلك ظروف الحبس والجبر والقهر، جاءت دعواتهم وبياناتهم مصداقاً للعقيدة الربانية الحقيقية، التي لم تخضع يوماً لظالم، ومرّت إلينا بعد تضحياتهم الجسام، التي كلفتهم حياتهم، شهداء من أجل دين الله تعالى بالسيف أو بالسم، ومعاناتهم عبر الزمن، ولولا أئمة أهل البيت عليهم السلام، لما وصلنا من الدين الذي جاء به سيدهم الأكبر صلَّى الله عليه وآله وسلَّم شيء يعتمد عليه.

اندهشت من دقة كلام الإمام عليٍّ عليه السلام، وعمق معانيه، ووقفت بسرعة على حقيقة تقول بأنَّني غير متجه بعقيدة محمّد بن عبد الوهاب في التوحيد الوجهة الصحيحة، لكنَّني استدركت قائلاً: إذن فما معنى هذه الآيات والروايات التي اعتمد عليها ابن عبد الوهاب في كتابه؟

قال: إنَّ الابتعاد عن النبع الصافي الذي تركه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لأُمَّته، كتابه وثقل أهل بيته عليهم السلام، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قد ورث للناس ديناً وعقيدةً بتراء عرجاء، لا تنتج غير الأبتر والأعرج، فأهل البيت عليهم السلام، هم أهل الذكر الذين أشار القرآن إلى سؤالهم، وهم الصادقون الذين أمرنا أنْ نكون معهم، وهم الأبواب التي أمرنا أنْ نأتي منها، طلباً لأحكام الله تعالى، وهم العروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهم حبل

الله المتين الذي أُمرنا بالاعتصام به، وهم الراسخون في العلم، الذين إذا سئلوا أجابوا، ولم يقل أحد: «**سلوني قبل أنْ تفقدوني**»(٣٧) غير عليٍّ عليه السلام، بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فوجب إرجاع المتشابه إليهم، والرجوع في كلِّ ما نحتاجه من دين ودنيا، إلى رحلهم، لأنَّهم ثقل الكتاب العزيز، ووعاته ومستحفظوه.

أمَّا الآيات التي اعتمد عليها ابن عبد الوهاب في بيان عقيدته الباطلة، فهي لا تفيد ظاهراً بما رأى، لأنَّ كلام الله تعالى، جاء محاكياً لبلاغة العرب، في الاستعارات والكنايات والتشبيهات، وعندما قالت العرب: قامت الحرب على ساق، فمعناه أنَّه ليس للحرب ساق، وإنَّما المقصد منه، اشتدت وحمي وطيسها. كذلك في قوله تعالى:

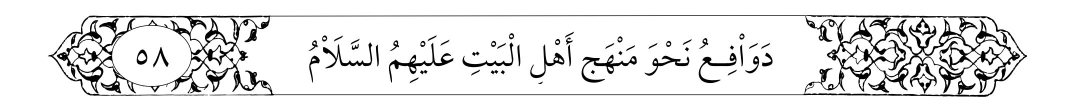
﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(٣٨).

كذلك معنى اليد، والذي يفيد القدرة، والاستواء معناه التمكن والهيمنة، وغير ذلك ممّا يجب أنْ يجرى في التفسير، مجرى المجاز لا الحقيقة، باعتماد الأصل في مفهوم التوحيد الذي يقول:

---

(٣٧): وفيات الأعيان لابن خلكان ١١-٤٠: ٦٣٨/ تاريخ الإسلام للذهبي.

(٣٨): سورة القلم، الآية: ٤٢.



﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٣٩).

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٤٠) ذلك هو الخالق المتعالي عن خلقه، واحد أحد لا يتجزأ في حقيقة ولا وهم.

هكذا أنهى ذلك الرجل العارف كلامه، واضعاً إياي على المنهاج المحمدي الأصيل، في التوحيد الذي جاء به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فكان له الفضل في إرشادي، وتوجيهي إلى حيث التوحيد الخالص، خط إسلام أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومدَّني بكتاب «عقائد الإمامية» للشيخ المظفر، تناول العقيدة الصافية، التي شربها من معين أبي القاسم محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأئمة أهل بيته البررة عليهم السلام، لا شائبة فيها، ولا شبهة تعتريها، فعليٌّ عليه السلام، هو باب مدينة علوم النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، منه ومن ذريته الطاهرة عليهم السلام، فاضت علوم الإسلام الحق على كلِّ المسلمين، الذين جاؤوا فنهلوا منها، وتمسك منهم من تمسك بها، وتركها من تركها على عمد، خوفاً وفرقاً من الظالمين، أو تعاون من تعاون من أجل محاربتهم، فأتى بدين باطل متلبس ببعض الحق، فشبه

---

(٣٩): سورة الشورى، الآية:١١.

(٤٠): سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

للبسطاء وعبيد الدنيا، فأخذوه وهم لا يدرون أنَّه خليط، ولو علموا وهنه لما اتبعوه.

والعجب ليس في هؤلاء العامة، الذين يتعبدون بالتبعية، إنَّما العجب من هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم موضع علمائهم، وقد غرقوا في مستنقع التشبيه، حتى كادوا يساوون الله تعالى بمخلوقاته، الله تعالى الذي ليس كمثله شيء، يوضع موضع المحدثات، وينزل من علياء جبروته منزلة المخلوقين، هكذا هي عقيدة ما يسمى بأهل السنة والجماعة، وما حوته من أشعرية وسلفية، فتمام الاعتقاد بالتوحيد الخالص عند هؤلاء، الإيمان بأنَّ لله تعالى جسماً، لكنّه ليس كالأجسام، فهو جسم بلا كيف، وله جوارح بلا كيف، ويرى في الآخرة مع احتمال رؤيته في المنام بلا كيف، وينزل إلى السماء الدنيا ليلة الجمعة، وليلة النصف من شعبان بلا كيف، ومحله الذي استوى فيه على عرشه فوق السماوات.

وقد أطنب علماء ذلك الخط، في الدفاع عن عقيدة التجسيم والرؤية، دفاع المستميت، ضاربين في ذلك عرض الحائط بالعقل والمنطق، والنصوص الصحيحة، التي لا تعترف بتشويه عقيدة التوحيد، وجعلها في مرتبة واحدة مع عقائد عبدة الأوثان، بل أدهى وأمر، لأنَّه لو علم عبدة الأوثان حقيقة الخالق، لما شبهوه بمصنوعات أيديهم، كما لو علم هؤلاء الذين يدعون بهتاناً وزوراً، أنَّهم أصحاب

التوحيد الصحيح الخالي من الشرك، أنَّ الله لا تدركه الأوهام، فضلاً عن الأبصار، ولا يستطيع أحد أنْ يحيط به علماً، لما أقاموا على اعتقاد أنَّه جسم ليس كالأجسام، ووجه ليس كالوجوه، ويدان ليستا كالأيدي، وعينان ليستا كالأعين، إلى غير ذلك من الترهات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

تبرير طالما ردّده أتباع خط التشبيه، وهو إجراء معاني الآيات القرآنية على ظاهرها كما وردت عليه، وإيكال تفسيرها إلى خالقها، مع ما ركنوا إليه من اعتماد بعض الروايات التي نزع مضمونها إلى تشبيه غريب، يجزم المطلع عليه أنَّه مختلق، لم يتفوه به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لأنَّه لا يتفق مع حقيقة الذات الإلهية المقدسة، التي ليست جسماً بالتأكيد، حتى تكون لها جوارح كالإنسان، ولا هي في حيز، حتى تحتاج إلى الحركة، من نزول ونحوه.

وطالما أنَّ الله تعالى ليس بجسم، فهو بالضرورة لا يرى بالعين الباصرة، ودعوى كونه جسماً ليس كالأجسام، عارية من البرهان والإثبات، فإمّا أنْ يكون جسماً فيكون محلاً للحوادث، وإذا كان محلاً للحوادث، صار ممكناً، فلا يكون خالقاً، وإمّا أنْ لا يكون كذلك، فيكون واجباً ليس كمثله شيء غير محتاج ولا مركب، وذلك هو المولى سبحانه وتعالى.

في إحدى الجمعات حضرت صلاة الجمعة، تحدث فيها الخطيب عن فضيلة

ليلة الجمعة، وذكر حديث نزول الربِّ تبارك وتعالى، في الثلث الأخير من ليلتها، منادياً سائلاً مستفسراً[٤١]، الرواية معروفة، ومتسالم على صحتها، عند أتباع خط التشبيه والتجسيم، لكنَّني قلت في نفسي: طالما أنَّ الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا فأين يكون؟ أفي السماء الأخيرة؟ أم فوق السماوات جميعاً؟

ولماذا ينزل، طالما أنَّه غير محتاج إلى النزول؟ هو الذي أخبر عن نفسه بقوله: ﴿إِنما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٤٢]

لقد انطلى نزول المولى إلى السماء الدنيا على الأجيال الإسلامية، التي لم تكن تعرف كروية الأرض، وأنَّ الليل لا ينقطع منها مثله مثل النهار، يتقاسمان التنقل، بدوران الأرض حول نفسها قبالة الشمس، أما وقد تغير الحال، فإنَّ علماء الإسلام الحقيقيين، قد فندوا رواية نزول المولى تعالى إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، لعدم انقطاع الليل عن الأرض، ممّا يحتم على المعتقد بصحة الرواية، القبول بأنَّ الله نزل منذ أول الخلق، وبقي في محلِّ نزوله، لاستمرار الثلث الأخير من الليل على الأرض.

وتذكرت إمام الجمعة بعد ذلك، عندما قرأت ما دونه الرحالة الشهير ابن

---

(٤١): الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ٩٣-١٠٤.

(٤٢): سورة يس، الآية: ٨٢.

بطوطة في المسجد الأُموي بدمشق، عندما حضر خطبة جمعة ألقاها ابن تيمية، على جموع المسلمين في ذلك العصر، وروى حديث نزول ربِّه إلى السماء الدنيا، ونزل مرقاة أو مرقاتين، محاكياً عقيدته في النزول، وقال: (كنزولي هذا)(٤٣). فحمدت الله تعالى على أنَّ جرأة ابن تيمية على الله تعالى، لم تكن عامة في جميع خطباء الجمعة، وإلَّا لكانت المصيبة أعظم على الأُمَّة، التي أُدخلت في تيه صنعه لها أناس تصنعوا العلم، وركبوا مطية أنفسهم المستكبرة، فضلوا وأضلوا.

إلى جانب من أفرط في التشبيه كابن تيمية، ومن نحا نحوه، نجد شقاً آخر من الخط المنحرف نفسه، أفرط هو أيضاً في التنزيه، حتى أفرد كتاباً خلص فيه إلى أنَّ الله ليس بشيء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

المدرسة التي شربت من عقائد اليهود إلى حدِّ النخاع، ونهل رواة حديثها من حافظة كعب الأحبار، وتابعه أبو هريرة الدوسي، جاءت بعقيدة في التوحيد، شبيهة بعقائد اليهود والنصارى، التي قصرت فهمها للخالق سبحانه وتعالى، فقرنوه وشبهوه بعباده، لأنَّ اليهود عندما قالوا عزير ابن الله، والنصارى عندما قالوا المسيح ابن الله، كانوا يعتقدون بالشبه بين الخالق والمخلوق، لم يرضهم أنْ تخلص عقيدة المسلمين، وتصفو عن عكر عقائدهم، فدسوا من بين عوام المسلمين دهاة

---

(٤٣): رحلة ابن بطوطة ١١٣.

أحبارهم ورهبانهم، ادعوا دخول الإسلام، فأفسدوا التوحيد في عقول من اتبعهم، وجعلوه شبيهاً بعقائدهم.

من بين تلك الروايات، أستحضر رواية متناقضة في محتواها تقول:

جاء حبر إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا محمد أو يا أيّها النبيُّ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة يحمل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، يهزهن فيقول أنا الملك.

قال فضحك النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثمَّ قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٤).

لم أفهم الغاية من هذه الرواية، التي دفعت بحبر من أحبار اليهود، إلى أنْ يأتي للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ويخبره عن الله يوم القيامة؟ فهل جاء مستفسراً، أم جاء مبيناً، الرواية لم تحدد ذلك ممّا يوهن متنها.

أَمَّا ما جاء في مضمونها، فإنَّه لم يكفِ واضعيها بأنْ صوروا أنَّ الله تعالى له

---

(٤٤): سورة الزمر، الآية: ٦٧.

يدان، فأضافوا إليهما الأصابع، وهي ستة وليست خمسة، كما هي حال أصابع المخلوقين سوياً، وهل يمكن أنْ تكون يد بلا أصابع؟ وهل يمكن أنْ تكون هناك أصابع بدون لحم وعظام وعروق وعصب؟ وهل يمكن أنْ تكون كذلك وليس لها حدّ ولا جهة؟

أمّا دعوى ضحك النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فهي عارية من الصحة لسببين اثنين:

الأول: لا يسوغ لعاقل، فضلاً عن النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، أنْ يضحك على كفر وزندقة، مثل التي لاكها الحبر بلسانه وألقاها، والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منزه عن الوقوع في مثل هذه السقطات، وتكليفه ببيان وبلاغ العقيدة والدين الحق، عليه مدار نبوته، ولو كانت الرواية صحيحة، لصدر منه غضب شديد.

الثاني: تصديق النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لليهودي في الرواية، استنتاج من الراوي أو الناقل عنه، وليس موقفاً أو دلالة من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، بل إنَّ الآية التي قرأها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، تفيد تكذيب اليهودي في عقيدته السخيفة، وهي: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ

قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(٤٥) .

لم يكن من السهل عليَّ أنْ أُقرّ بانحراف الخط الذي كنت فيه، فقد كنا جميعاً نقرأ ونسكت، ولا نُعمل عقولنا ونحكمها في مثل هذه الحالات، تهيباً من المصادر، وخوفاً من أنْ ينعتنا المتعصبون من بني ملتنا بالردّة والنفاق، لأنَّ التزييف والتمويه الذي أُلقي إلينا، عبر بوابة الوراثة وتبعية السلطان، أحكما غلق منافذ النجاة، على الذين قنعوا بذلك الركام، وتعبدوا به على أساس أنَّه الدين الإسلامي في أجلى مظاهره، ولو التفت الناس إلى ما حولهم، وتعرفوا على ما يحيط بهم من نظريات وأفكار، لتبين العقلاء منهم مورده، ولصحح طريقه.

وإنَّني كلَّما عادت بي الذكرى إلى ما كنت فيه من تيهٍ وضلال، واسترجعت ذلك الاعتقاد الذي لا يمتُّ بحقيقة التوحيد الإسلامي الصافي بصلة، حمدت الله تعالى على استنقاذي من عبادة الشبه والوهم، وهداني إلى توحيد آل محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذي غرسوه في خلص أتباعهم، وانتقل منهم إلى المؤمنين في كلِّ عصر.

---

(٤٥): سورة الأنعام: ٩١.

لذلك فإنَّني أنصح من بقي بعيداً عن هذه المنن الإلهية والعطايا الربانية، أنْ لا يتردد في بذل الجهد لمعرفة الحق، لأنَّ الجزاء الذي أعدّه المولى سبحانه وتعالى لأوليائه ليس سهلاً، ولا يعطى لكلِّ من ادّعى الإسلام بلا بينة.

وأقول له: تعالَ إذن واسلك صراط الله تعالى، فإنَّ صراطه واضح، ونهجه للسالكين ميسر، فقط طهر قلبك، وألق من على كاهلك أوزار غيرك، فإنَّك ستصل بحول الله تعالى، إلى ما وصلت إليه أنا من نعمة لا تضاهيها نعمة، وهي موالاة الطاهرين واتباعهم، أئمة الدنيا والآخرة، فالحمد لله على كلِّ حال، ونعوذ به من حال أهل النار.

الدافع الرابع إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

عقيدة أهل البيت عليهم السلام في النبوة

هي التي شيعتني



جاء دور عبد الرحمن... فتحدث عن السبب المباشر لاستبصاره وقال: لقد كانت عقيدة النبوة التي اعتمدها المالكية، وبقية ما يسمى بأهل السنة والجماعة مختلة البناء، لا تستقيم وحقيقة النبوة والنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولا الغاية من بعثته المباركة، وقد كنت غير مقتنع منذ الدراسة الثانوية، بالتفسير الذي لقنوه لنا بالصف، في تفسير آية ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[٤٦]، فقالوا لنا حسب ما ورثوه، ودون أدنى نظر، أنَّ العبوس والتولي صدر من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، عندما جاءه ابن أُمِّ مكتوم الأعمى، وسألت نفسي يومها: كيف يعقل أنْ يصف المولى سبحانه وتعالى نبيه المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلم، بصاحب الخلق العظيم، وبالرؤوف

---

(٤٦): سورة عبس، الآية: ١.

الرحيم على المؤمنين، ثمّ يعود فيصفه بوصف مخالف لذلك الخلق، وتلك الرأفة والرحمة، بل ويضعه في المقام نفسه مع عدوه الوليد بن المغيرة - والد خالد بن الوليد - عندما حكى عنه بقوله: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾[٤٧].

فيكون عيسى عليه السلام في القرآن أكثر إنسانية ورحمة، بإبرائه الأعمى والأكمه والأبرص وإحيائه الموتى، من النبيِّ الخاتم صلَّى الله عليه وآله وسلم؟ وباعتبار أنَّني لم أجد بين يدي تفسيراً آخر يقدم البديل الصحيح، بقيتُ في هذه النقطة على شك، من صحة نسبتها للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

ومرت الأيام، وكبرت معها، وازداد عقلي رجوحاً، وفكري تيقظاً وفطنة، وزادت لهفتي على الكتاب والمطالعة، بعد إنهائي للدراسة، فكانت المكتبات العامة والخاصة، أماكن تواجدي المفضلة، مستأنساً بمؤلفات الذين تركوا أثرهم في الحياة الدنيا ورحلوا عنا، منهم من كان متيقناً أنَّه قدَّم شيئاً لله تعالى وللبشرية، ومنهم من لم يكن على يقين من أمره، كجلِّ الذين كانوا في خدمة الطغاة والظالمين.

في أحد الأيام انزعجت كثيراً، وأنا أقرأ تفسير الدر المنثور لجلال الدين السيوطي، ففي تفسير سورة النجم، ساق صاحب الكتاب في بيان تفسيره لآية:

---

(٤٧): سورة المدثر، الآية: ٢٢.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى (*) وَمَنَاةَ الثالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[١] عدداً من الروايات المتنافرة والمتناقضة، التي تقول إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نطق الشيطان على لسانه والعياذ بالله، وقال كلمات فيها إعلاء لآلهة قريش، وترجي شفاعتها، وختمت الروايات بسجوده لها، يومها فهمت أنَّ هذا الخط، لا يتورع في ذكر أيِّ شيء يحطّ من مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، من دون نظر وتثبت.

صاحب الدر المنثور لم يكن وحيداً، في نشره وحفظه لروايات تشويه النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلم، وما هو في هذا الإطار، إلَّا ناقل عن أُمَّهات الكتب المعتمدة، عند خط تشويه الاعتقاد في عصمة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذي لم يكتفِ بذلك التشويه، فثنى على ذلك بأنَّه من أتباع سنته.

البخاري ومسلم وغيرهما من الكتب الروائية، اتفقت على إخراج كلِّ ما من شأنه أنْ يزعزع عقيدة المسلمين، في طهارة الأنبياء ونزاهتهم وعصمتهم، فألصقوا بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، كبيرة لا تليق إلَّا بمنافق، فنقلوا عن أبي هريرة، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أنَّه عليه السلام كذب ثلاث كذبات[٢]، وأُلصق وأُلصق به أيضاً أنَّه شكَّ في عقيدته، وعلق النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حسب

---

(١): سورة النجم، الآية: ١٩والآية ٢٠.

(٢): صحيح البخاري: ٤/ ١١٢.

زعمهم بقوله: نحن أحق بالشك من إبراهيم[١]. وجعلوا موسى بن عمران عليه السلام، في مرتبة لا يرضاها إلَّا الأشرار والصعاليك، بضربه لملك الموت وفقئ عينه[٢]، وأنَّ بني إسرائيل ادعوا عليه أنَّ به عاهة، فبراه الله سبحانه وتعالى بأنْ أخرجه من مغتسله عرياناً يجري وراء حجر هرب بثيابه، (هل سمعتم بحجر يتحرك ويهرب بثياب نبيٍّ مرسل ومن أولي العزم؟)[٣]، حتى أوقفه أمام بني إسرائيل، ووقفوا على خطأ دعواهم.

تصوروا إنْ أمكن لكم ذلك، ولا أراه ممكناً إذ كيف يمكن أنْ يكذب خليل الرحمن، أو يشك في دينه، أو يمكن لنبيٍّ مهما أُوتي من قوة أنْ يفعل شيئاً مع ملك من ملائكة الله المقربين، أو أنْ يفرَّ حجر جامد بثياب نبيٍّ، لتبرئته ممّا أُلصق به، كأنَّما تلك الطريقة المخالفة للأخلاق والدين، هي السبيل الوحيدة للتبرئة؟ هل يعقل أنْ ينبري حافظ إلى نقل ترهات كهذه ليقول بعد ذلك إنَّها أصحُّ الروايات، وأنَّ كتابه أصحُّ الكتب، ونحمل عنه ذلك محمل التصديق والتعبد، دونما نظر ولا روية ولا تفحص؟

---

(١): صحيح البخاري: ٥/ ١٦٣.

(٢): صحيح البخاري: ٢/ ٩٢.

(٣): صحيح البخاري: ٤/ ١٢٩.

أمَّا بالنسبة للنبوّة عموماً، فقد كنت معتقداً كما هو حال جميع العوام، أنَّ الأنبياء عليهم السلام كلَّهم غير معصومين في ما عدا الوحي، وقد ذكر من تسموا بسنته كذباً وتلفيقاً وبهتاناً -وخرجوا منها عملاً وفعلاً، بما ألزموا به أنفسهم من هذه الخزايا والترهات- جملة من الروايات التي عددت أخطاءه، أغلبها لا تجوز على البسطاء، فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام، وباعتباري كنت سنياً مالكياً، فقد تعبدت بتلك العقيدة رغم شكِّي في صحة صدورها، لا أجد مفراً منها إلى غيرها، ولا بديلاً عنها، للاعتقاد السائد عند أغلبية أبناء ذلك الخط، بأنَّ الإسلام هو ما في حوزتهم، بعدما وصف أوائل صانعي عقيدتهم كالأشعري ونحوه، بقية المسلمين ونعتوهم بنعوت شتى، تنفر النفس المحترمة منها.

اكتشفت صدفة، وتحديداً في معرض للكتاب عقيدة أهل البيت عليهم السلام، عندما وقع بين يدي كتاب عن عقائدهم، للسيد عبد الله شبر، عنوانه حق اليقين في معرفة أُصول الدين، فاقتنيته وعرفت من خلاله، أنَّ عقيدة أهل البيت عليهم السلام في النبوة، هي الأصح والأصوب، والتي يجب على كلِّ مؤمن، أنْ يتعبد ويتقرب بها إلى الله تعالى، فالأنبياء عليهم السلام كلُّهم معصومون، والنبيُّ الأعظم محمّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، إمامهم وخيرتهم، حبيب الرحمن، ذو الخلق الذي عظمه الله لتمامه وكماله، وصاحب لواء الحمد، والحوض،

والشفاعة، والصراط، والمقام المحمود يوم القيامة، لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة، عمداً ولا سهواً، من ولادته حتى وفاته، بل إنَّ جميع آبائه مؤمنون موحدون، وليس كما يدّعي أهل الباطل والزيف، من أنَّ أبويه ماتا على الشرك، وما لفقه عليه الملفقون، فهو محض كذب، وادعاء بلا بينة، والأدلة القرآنية في إحقاق العصمة كثيرة، فمن شاء طلبها من مضانها.

أمَّا ما قاله هؤلاء الجهلة الذين يدّعون العلم، وليس العلم فقط، بل اتباع سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فهو أدهى وأمرّ، فقد نقلوا أنَّه قبَّل وباشر وهو صائم[١]، وأنَّه باشر زوجته وهي حائض[٢] والعياذ بالله، وأنَّه كان يطوف على نسائه التسع، في ليلة واحدة وبغسل واحد[٣]، وأنَّه بال واقفاً[٤]، وقد نهى عن ذلك، وأنَّه نسي بعضاً من القرآن، فذكره فيه قارئ بالليل في المسجد[٥]، وسحره يهوديٌّ فبقي ثلاثة أشهر لا يدري ما يفعل[٦]، وجاء إلى الصلاة وهو جنب، ولما تذكر ذهب ليغتسل، وترك الناس وقوفاً ينتظرونه ثمّ ما لبث أنْ عاد إليهم ورأسه يقطر ماءً

---

(١): صحيح البخاري ٢ / ٢٣٣.

(٢): صحيح البخاري ١/ ٧٨.

(٣): صحيح البخاري ١ / ٧٥، وصحيح مسلم ١ / ١٧١.

(٤): صحيح البخاري ١ / ٦٢.

(٥): المستدرك على الصحيحين ج١ ص ١٨٥.

(٦): صحيح البخاري ج٦ ص١١١.

فصلَّى بهم[٧]، وصلَّى إحدى صلوات العشي ركعتين، ولم ينتبه إلى ذلك حتى نبهه أحدهم[٨]، إلى غير ذلك ممّا قد استخرجه علماء الأُمَّة العدول من شيعة أهل البيت عليهم السلام من كتب مخالفيهم، ممّن يدّعون أنَّهم على سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وبينوا بطلانه، وذكروه في مواضعه، ليقف المسلمون على حقيقة عقيدة النبوة، نقية من الزيف، الذي لفقه عليها أعداء الإسلام المحمّدي الأصيل.

هذا المحكي في كتب هؤلاء القوم، والمنسوب للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، يثير الاشمئزاز ويدعو للنفرة، وهو مدعاة إلى أولئك الذين يحاربون الله تعالى، ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ودينه القيم، إلى التشنيع والتشهير والحرب، بل هي الحجة التي ضرب بها سلمان رشدي لعنه الله وأمثاله، الرسول الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، والإسلام بتفاصيله كافة.

إذن فهؤلاء الذين ادّعوا اتباع سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأعلنوا نظرياً حبَّه، ليس هذا فقط، بل حاولوا سلب بقية المسلمين من التشرف بالانتماء لسنته، والإعلان من خلال ذلك بأنَّهم من أتباعه، بلغ بهم حبُّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، واتباع سنته إلى حدٍّ انقلبوا فيه من حفظ السنة الصحيحة، إلى التمسك

---

(٧): صحيح البخاري ج٤ ص٩١ وج ٧ ص ٢٨/ ٣٠.

(٨): صحيح البخاري ج١ ص٧٢/ ٧٣.

بمفتريات، يهتز لها من في قلبه مثقال ذرة من ولاء لله تعالى، ولرسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم غضباً وأسفاً.

لم يكن القصد من سلب العصمة عن النبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، إلَّا غلق الباب في وجه من يدعيها من غير مقام النبوة، فأهل البيت عليهم السلام هم من أولئك الذين عصمهم الله تعالى، ليكونوا للأُمة منار هداية، وعناصر حفظ لشريعة خاتمة، نزل فيهم ما نزل من القرآن الذي أفاد عصمتهم كآية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[9].

وحديث الثقلين الذي قرن فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل، بالعترة الطاهرة عليهم السلام، وصرّح بعدم افتراقهما عن بعضهما، وجعل التمسك بهما معاً عاصماً من الضلالة[10]، كلّها أدلة على عصمة أهل البيت عليهم السلام.

لذلك فإنَّ الإقرار بعصمة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مطلقاً، يؤدي إلى الاعتراف بعصمة أهل بيته الأطهار عليهم السلام، وذلك مدعاة إلى نقض ما بناه الغاصبون من وهم، في مقابل حقوق خلفاء الرسول الحقيقيين، من كون أنَّ نظرية

---

(٩): سورة الأحزاب الآية: ٣٣.

(١٠): سنن الترمذي ٥: ٣٢٩.

الحكم في الإسلام بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، هي على أساس من الشورى والاختيار البشري، وليست بالنص كما يحتج بذلك المسلمون الشيعة وأئمتهم عليهم السلام، فاتجهوا إلى الحط من مقام سيدهم الأكبر حتى يهون مقامهم.

هكذا إذن، بخس حق إمام المرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلم، واستغفل أتباعه، فتطاولوا على شخصه ومقامه، وبقوا على تلك الحال، رغم النداءات المتكررة، التي أطلقها أهل البيت عليهم السلام وعلماؤهم وأتباعهم، والتي دعت إلى إنصاف النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وإعادة الاعتبار لحقه، في كونه أفضل المخلوقات على الإطلاق، وما يترتب على ذلك من الإقرار بعصمته الكاملة، وردِّ جزء من الجميل الذي قدمه للأُمَّة الإسلامية، ومودة قرباه الذين نكل بهم الظالمون، في تفريط وغفلة وسهو من أسلافنا، إنَّنا جميعاً مطالبون أمام الله بالوفاء بتكاليفنا، ومن أخلّ بأيِّ واجب فإنَّما يسيء لنفسه، والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ليس محتاجاً منّا للوفاء بتكاليفنا تلك، بقدر ما نحن في أمسِّ الحاجة إليها، تبرئة لذممنا تجاهه، وطاعة لله تعالى في تكريم رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وتعظيمه وطاعته ومحبته واتّباعه.

وإذا كنتم أيّها الإخوة بالفعل تحبون النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فلماذا تعكفون على باطل مثل هذا الذي أُلصق به، لماذا لا تتبرؤون من معتنقي مثل تلك

الخزايا، إذا لم يرجعوا عنها ويرفضوها، مهما كان العنوان الذي غُلفت به؟ لماذا كلُّ هذه الجفوة لأهل بيت المصطفى صلَّى الله عليهم، وقد أُمرنا بمودتهم، والمودة ما هي إلَّا اتباع؟ قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[11] ولو أُمر هؤلاء المتأسلمون بجفائهم، لما أمكنهم أنْ يأتوا بجفاء أكثر ممّا جاؤوا به.

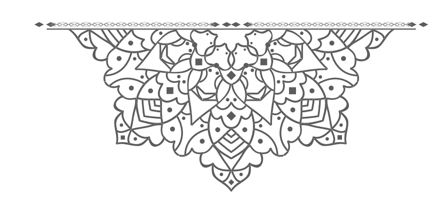
---

(١١): سورة آل عمران الآية: ٣١.

الدافع الخامس

إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيّعني حديث الاثني عشر خليفة



وجاء دور بكار... فعبر عن كيفية اقتناعه بالإسلام الذي اعتمده المسلمون الشيعة، تبعاً لأئمتهم الأطهار عليهم السلام، فقال: كنت في ما مضى منتمياً إلى الحركة الإسلامية، والتي عرفت في تلك الفترة بحركة الاتجاه الإسلامي، وقد نشطت في بداية الثمانينات ضمن عناصرها القاعدية، إيماناً منّي بأنَّ هذا الدين العظيم الذي حبانا الله تعالى به، كآخر الأديان، خاتماً لما سبقه من تشريعات إلهية، وخلاصة لها، جاء ليصحح مسيرة البشرية، ويقوِّم اعوجاجها من الانحراف عن الحق تعالى، واتباع سبل الشيطان، ليحقق لها العدل والأمن. وهذا ما يؤسس للحاجة إلى قيام حكومة تتبنى المنهج الإسلامي المتكامل على جميع الأصعدة، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإلّا لم تكن هناك حاجة إلى ظهور الأنبياء

والرسل وتشريعاتهم، ولما كان القصد منها إلزام البشرية بقانون، يحقق بمقتضى العمل به العدل والأمن بين الناس، ولقد نظرنا في التاريخ البشري على طوله، فلم نجد فيه ما يعطي النتيجة المرجوة والمثال الكامل، غير الخالق سبحانه وتعالى. قال جلَّ من قائل: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[١٢].

كما لم نجد في التاريخ الإسلامي ما يشير إلى قيام حكومة إسلامية، تكون مرجعيتها الحقيقية الكتاب والسنة المطهرة، رغم ما قيل عن الخلافة، التي ألبسوها لباساً إسلامياً، ونعتها من نعتها بالراشدة، وحكم من حكم بأنَّها النموذج الأمثل لعزّة الأُمَّة ومنعتها، وبكى من بكى على أطلال سقوطها، في عهد العثمانيين الأتراك.

خلافة على شاكلة الخلافات التي داست على المستضعفين والمقدسات، استأثرت بخيراتهم، وعطلت شريعتهم، منذ قيام حكومة السقيفة وادعائها خلافة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، انحسر الإشعاع الديني الذي أسسه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وذهبت نصائحه التي كان قدمها لأبناء جيله، وضاع جهده في

---

(١٢): سورة المائدة، الآية: ٤٨ .

تعليمهم أُسس الدين وأحكامه بعد وفاته، بضياع تلك النصائح وذلك العلم، لأنَّ العلم كما يقول الحديث يهتف بالعمل فإنْ أجاب أو ارتحل.

وليس عجيباً ولا غريباً، أنْ نجد اليوم في الأُمَّة الإسلامية من يعتقد، أنَّ البارئ تعالى قد ترك مسألة الحكومة الإسلامية للناس، يرون فيها رأيهم، هكذا مطلقاً ومن دون قيد، ذلك لأنَّ هؤلاء المسلمين، قد ورثوا تراثاً يكرّس مبدأ فصل الدين عن الحياة، فقبله من قبله، وسكت عنه من سكت، كأنَّ الأمر لا يعنيه، ولم يعترض عليه غير فئة قليلة من أتباع أهل البيت عليهم السلام، يعرفون اليوم باسم الشيعة (من شايع يشايع مشايعة، ومعناها اتبع، والشيعة لغة هم الأتباع) كما كانوا في عصر مواجهاتهم لأنظمة الظلم والتحريف روافض (بمعنى رفض الظالمين، وليس بالمعنى الذي أراده أعداؤهم، من نسبتهم إلى رفض الدين، أو رفض بعض شخصيات الصحابة، فالدين عندهم وتشريعاته لديهم هو أكثر تناسقاً، وأكثر تكاملاً ممّا هو عند غيرهم، وما أكثر فقهاء وعلماء مدارسهم الفقهية، إلّا عيالاً على أئمتهم عليهم السلام، ومجتمع الصحابة كسائر المجتمعات فيه الطيب وفيه الخبيث، والمؤمن والمنافق، والذي في قلبه مرض، تماماً كما تحدث عنهم الوحي، لذلك فالشيعة يقولون رضي الله عن الصحابة الأخيار، وليس الصحابة أجمعين، لأنَّنا إذا طلبنا الرضا لمغضوب عليه من الصحابة المنافقين، فإنَّنا لا نأمن غضب الله تعالى).

عدت إلى تصفح الكتب المعتمدة عند بني قومي، وكان كتاب الجامع الصحيح لمسلم النيسابوري المتوفر لدي، الوسيلة التي أمسكت بها خيط الحقيقة، ففي باب الإمارة لفت انتباهي حديث الاثني عشر خليفة.

وتساءلت يومها عن هؤلاء الخلفاء من يكونون؟ وهل صحيح أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ذكرهم عدداً (إجمالاً) ولم يذكرهم أسماءً (تفصيلاً)؟

وما علاقة العدد اثني عشر بالعدد القرآني المتكرر في الأسباط، وفي الحواريين، وفي العيون الاثنتا عشرة التي انبجست لموسى، والأُمم الاثنتي عشرة، وفي عدة الشهور، ومنازل القمر، وأبراج السنة؟

لا شك أنَّ الرقم له دلالة غيبية، متعلقة بالسنن الكونية التي أرساها الله سبحانه وتعالى، لتتحرك في إطارها كلُّ الموجودات على سطح الأرض.

قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ﴾[١٣] .

الحديث في مضمونه يشتمل على إعلام غيبي مهم، بمن سيلي أمر الحكومة بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولو قدر له أنْ يصل إلى جميع المسلمين، سالماً من التحريف الذي وصلنا عليه، لكان أمر الحكومة قد حسم منذ البداية.

---

(١٣): سورة الأحزاب: ٦٢.

الحديث كما أخرجه أصحاب المجاميع الروائية عند خط السقيفة كالآتي:

عن جابر بن سمرة قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة**» قال ثمّ تكلم بشيء لم أفهمه فقلت لأبي: ما قال؟ فقال قال: «**كلهم من قريش**»[١٤].

إن الكيّس الفطن، لا يمكنه المرور على الرواية، من دون أنْ يسجل ملاحظاته على ما جاء فيها، من محاولة طمس لبيان النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لأسماء خلفائه، بعد أنْ ذكر عدّتهم، ويظهر أنَّ المحدث أو من حرّف الرواية، قد استعاض عن الأسماء، بالقول إنَّ كلمةً قد خفيت عليه، وبالجواب الذي جاء من أنَّهم من قريش، وفي ذلك كلِّه دليل على المنحى التحريفي، الذي انتهجه حكام الأُمَّة من بعد وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، في إعفاء عدد من الأحكام التي عليها مدار الشريعة، وبها يقوم الدين وتتفاعل تركيبته، كمسألة الحكومة الإسلامية، التي مرَّت على كثير من المسلمين، ولم يجدوا لها صيغة يطمئنون لها.

والطريقة التي اعتمدها هؤلاء التحريفيون، تعتمد قطع الرواية أو الحديث، وإسقاط بعض الكلمات التي تحتوي على بيان أمر مهم، أراد النبيُّ صلَّى الله عليه

---

(١٤): صحيح البخاري ج٩ ص١٠١.

وآله وسلَّم إبلاغه للمسلمين، وفي رواية ابن عباس ما يوضح ذلك:

عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أوصى بثلاث، قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ممّا كنت أُجيزهم، قال ابن عباس: وسكت عن الثالثة، أو قال فأنسيتها. وقال الحميدي عن سفيان قال سليمان: لا أدري أذكر سعيد الثالثة فنسيتها، أو سكت عنها(١٥).

بل إنَّ في الرواية شكاً في إسقاطين، إسقاط نُسب إلى ابن عباس، وإسقاط آخر نسبه (سليمان) أحد الرواة لنفسه. وباعتبار أنَّ ابن عباس من أتباع عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام، وذلك ثابت من خلال سيرة الرجل، وتعامله مع ابن عمِّه، وتعامله مع ابنه الحسن السبط، سيد شباب أهل الجنة عليه السلام، ولم ينفك عن دأبه ذلك، لإيمانه العميق بأحقيتهم في قيادة الأُمَّة الإسلامية بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فنسيانه لأمر يعلمه، وهو من الأهمية للإسلام والمسلمين بمكان، لا يقبله عاقل، كما أنَّ السكوت عن الوصية الثالثة، والذي نُسب للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لا يتفق وتكليفه في البلاغ والنصح، وهو الذي يقرئه الله تعالى الوحي بطرفيه الإعجازي والتفسيري، فلا ينساه. قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (١٦).

---

(١٥): أخرجه أبو داود في سننه كتاب الخرج والإمارة والفيء حديث ٢٦٣٤ .

(١٦): سورة الأعلى، الآية: ٦.

لذلك تولدت لدي قناعة، بدأت تتقوى يوماً بعد يوم، أنَّ مسألة الحكومة الإسلامية، لا يمكنها أنْ تخرج عن احتمالين:

الاحتمال الأول: أنْ يكون الوحي قد نصَّ على اسم من سيلي أمر الدين والأُمَّة، بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

الاحتمال الثاني: أنْ يكون الوحي قد نصَّ على الشروط الواجب توفرها في من سيقوم مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في الحكم، ووضع ضوابط لاختيار الأُمَّة.

وفي كلتا الحالتين، النص أو الشرط، لا يستطيع أحد أنْ يتجاوز شخص الإمام عليٍّ عليه السلام، ولا أنْ يتغاضى عن إمكانياته وأياديه، ومن تجاوزه فإنَّه يكون داعياً إلى حكم الجاهلية، الذي قال عنه البارئ تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١٧].

والذي زاد في عجبي، التفسير الأعرج الذي تبناه عدد من علماء خط السقيفة كالسيوطي، الذي خرج برأي تفرد به، حيث ذكر في بيان عدد الخلفاء، الخلفاء الأربعة، وأضاف لهم الإمام الحسن الذي حكم بعد أبيه عليه السلام مدّة قصيرة، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمر بن عبد العزيز الأُموي، وخليفة أُموي آخر لا أستحضره الآن،

---

(١٧): سورة المائدة، الآية: ٥٠.

وخليفتين من بني العباس، فيكون السيوطي قد أوصل العدد إلى عشرة، وخلص إلى القول بأنَّ المتبقيين أحدهما المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه[١٨].

ونظرت حولي، فلم أجد فريقاً من المسلمين أعطى للعدد تفسيره وبين أصحابه، غير المسلمين الشيعة الاثني عشرية، الذين ذكروا أنَّ العدد ينطبق على أئمتهم، وهم كالآتي:

الإمام الأول: عليُّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام.

الإمام الثاني: الحسن بن عليٍّ المجتبى عليه السلام.

الإمام الثالث: الحسين بن عليٍّ سيد الشهداء عليه السلام.

الإمام الرابع: عليُّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

الإمام الخامس: محمد بن عليٍّ باقر العلوم عليه السلام.

الإمام السادس: جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام.

الإمام السابع: موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

الإمام الثامن: عليُّ بن موسى الرضا عليه السلام.

---

(١٨): تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٢.

الإمام التاسع: محمد بن عليٍّ الجواد عليه السلام.

الإمام العاشر: عليُّ بن محمد الهادي عليه السلام.

الإمام الحادي عشر: الحسن بن عليٍّ الزكي عليه السلام.

الإمام الثاني عشر: محمّد بن الحسن المهدي المنتظر عليه السلام.

وطالما أنَّ الإمام الأول والثاني والأخير قد اعترف بهم المخالفون لخط الإمامة، فلماذا لا يقرون ببقيتهم، وهم من أجلى الرجال ظهوراً وأمثلهم عدداً وأصوبهم نسبة، عرفهم الخاص والعام بالتقوى والعلم والشرف، وكانوا أشهر من نار على علم في المكارم كلِّها.

والحديث الغيبي الذي أخبر به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في شأن الاثني عشر رجلاً، قد تلقاه كلُّ حفاظ السنة من الفريقين بالقبول، وأخرجوه في كتبهم المعتمدة، تسليماً بصحته وإيماناً بصدوره عن الوحي، وكان بحق عنواناً دالاً على صحة انتساب المسلمين الشيعة الإمامية الاثني عشرية إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وسنة الله في الإمامة الوريثة لحكم النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأداة الاستحفاظ لشريعته وعلومه.

عرفت بعد ذلك أنَّ هؤلاء الأئمة عليهم السلام، هم الخلفاء الذين خلفهم

فعلاً النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بأمر ربِّه، وليس الذين ادّعوا خلافته دون استخلاف منه، قد قدموا للدين باعتبارهم مستحفظين عليه، كلَّ ما لديهم من علوم وتضحيات، فأقاموا حروفه وحدوده، وجاهدوا فيه بأرواحهم، وبذلوا فيه من التضحيات الجسام، التي لا يقوى على بذلها أحد غيرهم، فنهلت من معينهم الصافي، وتزودت من علومهم التي هي عين الإسلام المحمّدي، ما أسكن الطمأنينة في قلبي، وأنزل السكينة عليَّ، ولم أجد في كلِّ ما بحثت من علومهم فقهاً وعقائد وغيرها، غير الحجة التي تثبت الفؤاد، وتقنع الفكر، وترضي الربَّ تبارك وتعالى، والحمد لله أولاً وأخيراً على نعمة الهداية إلى هؤلاء الأطهار، وأسأله تعالى أنْ يهدي سواد الأُمَّة، بالرجوع إلى الحق، لأنَّ الذي يهدي إلى الحق أحق أنْ يتبع. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١٩].

بعد أنْ أنهى بكار كلامه، قلت له: لدي دليل آخر متعلق بالأئمة الاثني عشر، ويشير إلى أنَّ العدد قد ذكره النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، إلَّا أنَّ أعداء خط الإمامة محوه من كتبهم الروائية، تجنباً لانهيار فكرتهم الباطلة، وافتضاح أكذوبتهم في خصوص شورى السقيفة.

---

(١٩): سورة يونس، الآية: ٣٥.

فقال: ما هو هذا الدليل؟

قلت: لقد نقل الشيخان (البخاري ومسلم) رواية مهمة تقول:

عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلَّما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإنَّ الله سائلهم عما استرعاهم[٢٠].

اشتملت في متنها على ذكر الحكومة التي كانت على عهد بني إسرائيل، وهي حكومة أنبياء في عمومها، وأنَّ حكومة المسلمين، هي حكومة خلافة للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم (إمامة بالمصطلح القرآني)، وخلفاؤه الذين تحدث عنهم، كان قد حدد عددهم باثني عشر شخصاً، وتساءل من حضر من الصحابة عن تكليفهم تجاه هؤلاء الخلفاء، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**فوا ببيعة الأول فالأول**» وشدّد على إعطائهم حقهم، لأنَّهم مسؤولون عن ذلك أمام الله.

وفي كلامه صلَّى الله عليه وآله وسلم، دليل على ترتيب هؤلاء الخلفاء، ومبايعة الناس لهم تكون بحسب ذلك الترتيب الذي تحدث عنه، وحثّ على

---

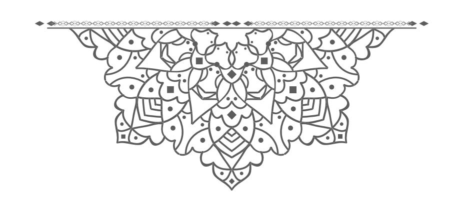
(٢٠): البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء ح٣١٩٢.

اتباعه، وهذا الإيحاء بالترتيب الذي جاءت به الرواية، دليل نضيفه إلى العدد في الرواية، التي أرشدتك إلى اتباع أئمة أهل البيت عليهم السلام، لتزداد يقيناً من أنَّ مسألة حفظ الدين، ليست من مشمولات الناس، بل هي من مشمولات البارئ تعالى، كما هو الشأن بالتنزيل، والحمد لله ربِّ العالمين.

الدافع السادس إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

حديث انقسام الأُمَّة والفرقة الناجية

هو الذي شيعني



عبد الوهاب... صديق ربطتنا ببعضٍ علاقةُ زمالة، هو من الجنوب الغربي للبلاد، والجنوب معروف عندنا بالأصالة، والتمسك بالقيم والمبادئ، إذا ذكر أهل الجنوب وكنت منهم، نظر إليك السامع نظرة إكبار واحترام.

الصدفة هي التي جاءت به إلى مجلسنا، فهو قد انتقل من المدينة منذ مدَّة، لظروف خاصة به، فسررت لرؤيته، وحمدت الله على لقائه من جديد، ويقال رُبَّ صدفة خير من ألف ميعاد.

لم يتمالك عبد الوهاب نفسه، فتحرك من كرسيه، وطلب أنْ يفسح له المجال في الكلام، ولما مكناه من ذلك، قال: كانت المالكية هي الطابع الذي أُلبس به إسلام الجهة بأكملها، فلا حديث إلَّا عن مالك وما جاء عنه، ولا كتاب بعد كتاب الله

تعالى، إلَّا الموطأ أو المدونة الكبرى، حتى رسخت فكرة أنَّ الإسلام لا يكون غير مالكي، ولم يلتفت أتباع هذا المذهب إلى غيره من المذاهب، إلَّا باعتباره بعيداً عن الإسلام الحق، تلك النظرة الاستعلائية، جعلتني لا أُعير اهتماماً بالبحث خارج الإطار المذهبي، ولا أهتم بغير مطالعة ما يتعلق بالمذهب، الذي اتبعته وراثياً، دون نظر ولا تحقيق.

تعرفت على الأخ محمّد في العمل، وكان لي معه فسحتان، واحدة عند وقت الراحة في العمل، والثانية قرب سكناه من سكناي الذي تسوغته، ممّا أتاح لي فرصة التعرف عليه عن قرب، في البداية كانت العلاقة سطحية وبسيطة، وعدم عمق العلاقة معه مردُّه حداثة عهدها، فلم أُلاحظ عليه أيَّ بادرة أو مظهر أو علامة، تدفع إلى التساؤل عنها، وبمرور الأيام تمتنت العلاقة بيننا، وتوطدت الصداقة، حتى أصبحت من أفضل أصدقائه لديه وأقربهم إليه، وحزت على حبِّه وثقته.

في أحد الأيام وكان يوم عطلة، وصادف يوم جمعة (العطلة الأسبوعية عندنا ما زالت يوم الأحد، حتى بعد رحيل الاستعمار الفرنسي المسيحي)، فتهيأت إلى صلاة الجمعة بالمسجد، وذهبت إليه لأصطحبه، لكنَّه لم يبدِ تحمساً للذهاب وقال لي: إنَّه لا يحبّذ الصلاة وراء أئمة يعينون من طرف من لا أهلية له ولا ضابط، اعتذر إليَّ برفق، لكنَّني لم أقتنع بكلامه، ولما ضاق الوقت عليَّ، فذهبت على أساس أنْ

أعود إليه لنتحاور في الموضوع.

من عجيب الصدف، أنَّ خطيب الجمعة قد تحدث يومها عن انقسام الأُمَّة وتشرذمها، وجاء بحديث الانقسام الذي أخبر عنه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، كالآتي: (أخرج ابن ماجة بسنده قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: **افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمّد بيده، لتفترقن أُمَّتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار. قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة**)[٢١]، مؤكدا على أنَّ الفرقة الناجية هي أهل السنة والجماعة، ودعا إلى التمسك بالمذهب المالكي، لأنَّه يمثل سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وشريعته.

عدت من الصلاة، وفي خاطري ما كان دار بيني وبين صديقي وزميلي محمّد، من كلام حول إمامة الجمعة، ودفعني حماسي إلى مواصلة الحديث، ما كنت أشعر به الغبن والحزن والأسى، على ضياع الأُمَّة، التي يوجد بين يديها أعظم دستور أنزله الله تعالى على عباده، وفي اعتقادي، أنَّ صاحبي مختلف معي فقط في مسألة واحدة، أو مسائل لا تدفع إلى الخروج عن دائرة المذهب، فقلت في نفسي: لعلني بإقناعه إلى

---

(٢١): سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٢.

عدم مفارقة الجماعة، أكون قد ربحت أجراً وثواباً كبيرين.

ذهبت إليه على ذلك الأساس، وشعوراً مني بواجب الرابطة التي تجمعني به، فاستقبلني كعادته والابتسامة تعلو محياه، وأدخلني بيته.

وما إنْ جلست، حتى توجهت إليه بكلامي معاتباً: أيعقل منك هذا التصرف يا محمّد، وقد عرفتك ذا عاطفة وغيرة على الدين؟ ماذا لو صليت وراء أيِّ إمام؟ المهم أنْ تكون قد أديت ما عليك، وربحت أجر الجماعة، وهي سبع وعشرون درجة فوق صلاة المنفرد، ووزر الإمامة يتحمله الإمام ومن عينه، هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى ألا ترى واقع المسلمين اليوم وحالهم؟ ألا يستوجب ذلك أنْ نغض الطرف على كثير من المسائل الخلافية، ونلتفت إلى الوحدة لنجمع بها هذا الشتات؟

فقال لي: يا أخي، إنَّني بقناعتي هذه لم أكن قاصداً تكريس المزيد من الفرقة، بل على العكس تماماً، فأنا من الذين يدعون إلى الوحدة، وينادون للمِّ الشمل بتعقل، وعلى أساس صحيح وليس عشوائياً، وإنَّ أكثر ما يقلقني حال الأُمَّة الذي وصل إلى العداء والتنافر وهي على درجة كبيرة من الضعف.

فقلت له: طالما أنت كذلك، فلماذا لا تذهب إلى الصلاة في المسجد؟

فقال: إنَّ الله سبحانه وتعالى لما شرع دينه الخاتم، كما هو شأن بقية الأديان التي سبقته، جعل للأحكام التي أنزلها واجبات وسنناً، أمر باتباعها، وكلُّ من يتجاوز تلك الأحكام خاصة منها الواجبة، لا تقبل عبادته ويذهب جهده أدراج الرياح، والصلاة شعيرة من الشعائر المهمة في الدنيا والآخرة، لها أحكام إقامتها من طهارات، وآداب، وفرائض، وسنن تخصّ أوقات الصلاة ومكانها، والمصلِّي، سواء كان إماماً أو مأموماً أو منفرداً، ولباسه، وأنا تصرفت بناء على تلك الأحكام.

فقلت له: عن أية أحكام تتحدث؟ ألسنا في المالكية نجيز الصلاة وراء السلطان، حتى لو كان ظالماً؟ لقول نُسب إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: صلوا وراء كلِّ برٍّ وفاجر.

وصدمني صديقي بقوله: لم أعد مالكياً، ولا من الجماعة التي تتحدث عنها، لقد تشيعت لأهل البيت عليهم السلام.

فقلت له: أتغير وجهتك من الفرقة الناجية، إلى أصحاب الأهواء والبدع من أهل النار، ألم تقرأ يوماً حديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، عن انقسام الأُمَّة إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، واحدة منها فقط هي الناجية، وهي جماعتنا أهل السنة.

فقال: وما أدراك أنَّ تلك الفرقة هي الناجية؟

فقلت: اتباعهم لسنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، واجتماعهم على رأي واحد، وكثرة عددهم في العالم اليوم، أليس هذا كافياً ليكونوا هم الفرقة الناجية.

قال: أمَّا اتباعهم لسنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فالمسألة تحتاج إلى دليل يُطمأن إليه، وأمَّا اجتماعهم على رأي واحد، فذلك ليس صحيحاً، لأنَّ ما يسمى بأهل السنة والجماعة، أربع مذاهب هي: الحنفية- والمالكية- والشافعية- والحنابلة، وجاء بعدهم الوهابية والسلفية، فنزعوا غطاء السنة والجماعة والفرقة الناجية عنهم، ونسبوها إلى أنفسهم، وهم مختلفون اختلافاً كبيراً في عديد من الأحكام، وهذا وحده يكفي للقول، إنَّ قول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا ينطبق عليهم لأنَّهم أربع، وهو قد حدد الفرقة الناجية بواحدة وليس أربع، وحتى الأربع تفرقوا وتفرعوا إلى عدد من الطرق، وأمَّا كثرة عدد أتباع هؤلاء فلا يفيد شيئاً، بل أقول إنَّها كثرة بلا بركة، ولا أرى التقييم القرآني للعدد يصبّ لفائدتهم، لأنَّه طالما مدح البارئ تعالى في محكم تنزيله القلة وأثنى عليهم، فقال: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢٢] وقال جلَّ من قائل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٢٣]. وقال عزَّ وجلَّ:

---

(٢٢): سورة البقرة الآية ٢٤٩.

(٢٣): سورة سبأ الآية ١٣.



﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾[١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾[٢]. ومقابل مدحه مدحه للقلة القليلة، ذمَّ الكثرة الكثيرة، فقال: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[٣]. وقال: ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[٤].

قلت: فبماذا تفسر حديث انقسام الأُمَّة إذن؟

قال: أفسره بكلام الإمام عليٍّ عليه السلام، وكلامه كلام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لأنَّه باب مدينة علمه ومستحفظ دينه، إذ يقول في هذا الخصوص، وقد سأله رجل عن السنة والبدعة، والفرقة والجماعة، فقال عليه السلام: «**أمَّا السنة، فسنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأمَّا البدعة فمن خالفها، وأمَّا الفرقة فأهل الباطل وإنْ كثروا، وأمَّا الجماعة فأهل الحق وإنْ قلوا**»[٥].

---

(١): سورة ص الآية ٢٤.

(٢): سورة الواقعة الآية: ١٣و ١٤.

(٣): سورة الأنعام الآية ١١٦.

(٤): سورة الزخرف الآية: ٧٨.

(٥): تحف العقول لابن شعبة الحرّاني ص ٢١١.

وفي كنز العمّال للمتقي الهندي: عن يحيى بن عبد الله بن الحسن عن أبيه قال: كان عليٌّ يخطب فقام إليه رجل

قلت: فهل لك من شاهد من أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يعطي علامة واضحة عن سمة الفرقة الناجية؟

قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق**»[1]. وفي الحديث دلالة على مقام أهل البيت عليهم السلام، وموضعهم من الأُمَّة، فقد شبههم بسفينة نوح حيث لا سفينة نجاة غيرها، ولا جبل يعصم من الغرق، من لجأ إليهم واعتمد قولهم ومنهجهم فقد نجا، ومن تنكب عنهم وخالفهم، فقد تاه وضل عن صراط آل محمّد المستقيم، والفرقة الناجية بحسب الحديث هي التي ركبت سفينة أهل البيت عليهم السلام.

قلت: حديث السفينة هذا له معنى عميق، ودلالة على رفعة مقام أهل البيت

فقال: يا أمير المؤمنين: أخبرني من أهل الجماعة؟ ومن أهل الفرقة؟ ومن أهل السنة؟ ومن أهل البدعة؟ فقال: «ويحك! أما إذا سألتني فافهم عنّي، ولا عليك أنْ لا تسأل عنها أحداً بعدي، فأمّا أهل الجماعة فأنا ومن اتّبعني وإنْ قلّوا، وذلك الحقّ عن أمر الله وأمر رسوله، فأمّا أهل الفرقة فالمخالفون لي ومن اتبعني وإنْ كثروا، وأمّا أهل السنّة المتمسّكون بما سنّه الله لهم ورسوله وإنْ قلّوا، وأمّا أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله، العاملون برأيهم وأهوائهم وإنْ كثروا، وقد مضى منهم الفوج الأول وبقيت أفواج، وعلى الله قصمها واستئصالها عن جدبة الأرض...» [كنز العمال مجلد ٨، ٤٠ ٤١٦: ٧٧، حديث رقم ٤٤٢٠٩].

(١): رواه كلٌّ من الطبراني في المعجم الصغير ج١ ص١٣٩ ـ الحاكم في المستدرك ج٢ ص٣٤٣ ـ السيوطي في الجامع الصغير ج٢ ص١٣٢ ـ ابن حجر الهيثمي في مجمع الزوائد ج٩ ص١٦٨ ـ أبو نعيم في حلية الأولياء ج٤ ص٣٠٦ ــ النبهاني في الفتح الكبير ج٣ ص١٣٣ ــ القندوزي الحنفي في ينابيع المودة ١٨٧ ــ المتقي الهندي منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ج٥ ص٩٥ ــ المناوي في كنز الحقائق ص١١٩ ــ شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج١ ص٢١٨.

رضي الله عنهم، إلَّا أنَّ حفاظ السنة تجنبوا إخراجه في صحاحهم الستة، وروي في طبقات أُخرى من الحفاظ أقل اعتماداً، فهل لك أنْ تضيف شيئاً، يقوي نسبة الفرقة الناجية إلى أتباع أهل البيت رضي الله عنهم؟

قلت له: غير خافٍ عليك أنَّ تدوين الحديث النبوي، جاء متأخراً وفي زمن تربَّت فيه الأجيال الإسلامية على معاداة أهل البيت عليهم السلام، تبعاً لملوكهم الأُمويين والناس على دين ملوكهم، ولما جاء بنو العباس، لم تبطئ مودتهم الزائفة لبني عليٍّ عليه السلام، فأعلنوا الحرب الطاحنة لمن يمتّ إليهم بسبب، وعلى هذا الأساس انبنى تدوين الحديث، ومع ذلك فإنَّ كلمة الحق قد نطق بها عدد من العلماء، الذين لم يجدوا بُداً من الإقرار بفضائل بلغت عنان السماء، مع شدّة منعها لأنَّها مقامات إلهية لا يمكن محوها، فهذا الحاكم في مستدركه على الصحيحين قد أخرج الحديث معلقاً عليه بقوله: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة، وأقرَّ بصحته السيوطي في جامعه الصغير، ورواه الطبراني في الأوسط والصغير وأبو نعيم وغيرهم، وهذا كلُّه لا يغير شيئاً من تظافر الأدلة على أحقية أهل البيت عليهم السلام.

وهذا حديث الثقلين الذي صدع به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مراراً وتكراراً لينبه الأُمَّة على ضرورة اتباع أئمة أهل البيت عليهم السلام، والذي قال

فيه: «**تركت فيكم ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنَّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**»[1].

فقد وصف صلَّى الله عليه وآله وسلَّم التمسك بأهل البيت عليهم السلام هنا بالعاصم من الضلال، في مقاربة لحديث السفينة الذي أشار إلى أنَّه لا نجاة للمسلم دون ركوب سفينتهم أماناً له من الغرق في بحر الجهالة والفتن، كما أخرج الطبراني بإسناده تتمة الحديث: (فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنَّهم أعلم منكم)[2]، تأسيساً لمنهج الاتباع والطاعة لهم من طرف الأُمَّة.

قلت: إلَّا أنَّ الحديث عندنا يحصر الفرقة الناجية، في من اتبع النبيَّ صلَّى الله

---

(١): صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضائل عليٍّ بن أبي طالب ج٧ ص١٢٧ ـ أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب باب مناقب أهل البيت ح٣٤١٨ وح٣٧٢٠ ـ والنسائي في سننه الكبرى ج٥ ص٤٥ و٥١ و١٣٠ ونقله عنهما المتقي الهندي في باب الاعتصام بالكتاب والسنة من كنز العمال ج١ ص٤٤ ـ أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم الحديث ٨٧٤ من كنز العمال ج١ ص٤٤ و٤٧ ـ أحمد بن حنبل في المسند ج٥ ص١٨٢ و١٨٩ وج٣ ص١٧ و٢٦ ـ أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك ج٣ ص١٠٩ وص١٤٨ وعلق عليه بقوله: هذا الحديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأخرجه الذهبي في تلخيص المستدرك معترفاً بصحته على شرط الشيخين ـ الطبراني في المعجم الكبير ح٨٧٣ من أحاديث كنز العمال للمتقي الهندي ج١ ص٤٤ ـ الألباني في تخريج الحديث معترفاً بصحته ح١٧٦١ في غدير خم ـ ونص على صحته ابن كثير في تفسيره بقوله وقد ثبت في الصحيح (الحديث) ج٤ ص١٢٢ ـ الطبراني في المعجم الأوسط ج٣ ص٧٤ وج٤ ص٣٣ وفي المعجم الصغير ج١ ص١٣١ و١٣٥ ـ ابن أبي شيبة في المصنف ج٧ ص٤١٨.

(٢): الصواعق المحرقة في باب وصية النبيِّ ص ١٣٥.

عليه وآله وسلَّم وأصحابه، كعلامة جاء مبيناً بها سمة تلك الفرقة؟

قال: لعلّه من المفيد هنا أنْ نتوقف في ما حملته الروايتان اللتان تحدثتا عن علامة الفرقة الناجية، فقد جاء في الرواية الأُولى والتي رجح صحتها عدد من العلماء وقد جاء أنَّ السائل عن الفرقة الناجية كان علياً عليه السلام، وقد أجابه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بقوله:

أمّا الرواية الثانية فقد جاء في آخرها أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قد سئل عن الفرقة الناجية فقال: ما أنا عليه وأصحابي. ويظهر هنا أنَّ الرواية الأُولى هي الأقرب للصحة.

قلت: لكنَّ الشيعة أنفسهم مختلفون، وهم منقسمون إلى عدة فرق، منها ما اندثر ولم يعد له وجود، ومنها ما يزال قائماً إلى الآن كالزيدية، والإسماعيلية، والجعفرية، فكيف تدعي أنَّهم الفرقة الناجية؟

قال: أنا لم أدعِ أنَّ جميع فرق الشيعة ناجون، إنَّ الحديث قد صرّح بأنَّ الانقسام واقع، وأنَّ المقيم على الحق والباقي على المنهج الإسلامي الأصيل هو فريق واحد، وإنْ تشابهت الأسماء حوله، تبقى المقايسة بينها في مدى انطباق النصوص على الأقرب، فليس كلُّ من ادّعى التشيع شيعة، الشيعي في الأُمم السابقة هو المتبع

للنهج الإلهي الأصيل قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣] والشيعي في إسلامنا الخاتم هو من اتبع علياً وأهل بيته عليهم السلام امتثالاً لأمر الله وأمر نبيه في ذلك.

والمتبع لعليٍّ وأهل بيته عليهم السلام، يأمل في بلوغ مرتبة شيعته كأبي ذر والمقداد وسلمان وعمار، هؤلاء هم شيعة عليٍّ حقيقة، وشتان بين التابع العامل والمتبع بالعنوان.

إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أخبر بأمر غيبي، سيقع بعده، وليس هناك مؤشر يدلّ على صحة المسلك، إلَّا بوجود شخص يجسد منهج النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وكان عليٌّ عليه السلام ذلك الهادي، والقبس الذي أضاء الظلمة بعده، ومن ذلك، ما كان رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قاله بشأن عمار بن ياسر، فقد روى أبو أيوب الأنصاري عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ... أبو أيوب الأنصاري يقول: سمعت النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول لعمار بن ياسر: «**تقتلك الفئة الباغية وأنت مع الحق والحق معك، يا عمار إذا رأيت علياً سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره، فاسلك مع عليٍّ ودع الناس، إنَّه لن يدليك في ردى ولن يخرجك من الهدى، يا عمار إنَّه من تقلد سيفاً أعان به علياً على عدوه قلَّده الله يوم**

(٣): سورة الصافات، الآية: ٨٣ والآية ٨٤.

القيامة وشاحاً من درٍّ، ومن تقلد سيفاً أعان به على عليٍّ قلده الله يوم القيامة وشاحاً من نار»؛ قال: قلنا حسبك(٤).

أمَّا انقسام الشيعة إلى فرق، شأنها في ذلك شأن بقية المذاهب، وذلك مردُّه إلى اختلاف الناس، وليس إلى اختلاف الدين، الذي جاء موحداً ومؤلفاً، ولم يأتِ مفرقاً، دون أنْ ننسى أنَّ السلطان كان يقف وراء كلِّ ما من شأنه زعزعة أهل الحق، فلا غرو في كونه ضالعاً في الدسائس والمؤامرات التي تفت وحدة من يراهم معارضين له. وأنا لم ألتزم في تشيعي إلَّا بما وصلت إليه قناعتي، حسب النصوص التي قرأتها، ودرستها متناً وسنداً، وتتبعت أقوال العلماء الأعلام فيها، كما لم أقل لك إنَّ كلَّ الشيعة هم الناجون يوم القيامة، لأنَّنا بصدد الحديث عن فرقة ناجية واحدة.

قلت له: كلُّ ما قلته معقول، ولكنْ أخبرني عن الفرقة التي أخذت معتقداتها؟

قال: هي الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، لقول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**سيكون عليكم اثنا عشر (خليفة) إماماً**».(٥)

---

(٤): تاريخ ابن عساكر ترجمة الإمام عليٍّ عليه السلام ج٣ ص ٢١٤ ورواه أيضاً الجويني – في فرائد السمطين ج١ص ١٧٨ وأورده الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٨٦.

(٥): صحيح البخاري ج ٩ ص ١٠١/ صحيح مسلم ج ٢ ص ١٩٢.

قلت: الحديث يقول اثنا عشر خليفة.

قال: ليس هنالك فرق، المهم أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم هو الذي خلفهم بأمر ربِّه، ليكونوا قادة الدولة الحديثة العهد، وهداة الأجيال القادمة، وليس الخلفاء المزيفون، الذين ادّعوا كذباً أنَّهم خلفاء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وهو لم يخلفهم، وهم بأنفسهم قالوا إنَّه لم يخلف، لإزاحة الخلفاء الحقيقيين، فلماذا ادّعوا أنَّهم خلفاء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وليس لهم بينة واحدة على دعواهم تلك؟

قلت: والسنة النبوية عند من إذن؟

قال: هل تعتقد أنَّ هذا الخالق الحكيم الخبير، الذي أتقن كلَّ شيء صنعه، قد أنزل تشريعاً متكاملاً، ليحكم الناس، ثمَّ لا يأخذ بعين الاعتبار مسألة حفظ دينه، وهو الذي أشار إليها في ثلاث آيات: ﴿إِنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٦) وقوله: ﴿ إِنا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الذِينَ أَسْلَمُوا لِلذِينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ

---

(٦): سورة الحجر الآية ٩.

وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٧)

وفي الثالثة: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾(٨) .

إنَّ السنة النبوية التي هي تفسير ما جاء في الكتاب العزيز، هي عند الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، أهل بيته عليهم السلام، الذين هم أوعى الناس لما جاء به سيدهم صلَّى الله عليه وآله وسلم، وليست السنة عند كلِّ من هبَّ ودبَّ، من أمثال أبي هريرة، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، والوليد بن عقبة، وكعب الأحبار، ومن لفَّ لفَّهم من عبيد الدنيا، وتبع الأهواء والشهوات، والتاريخ حافل بمخازيهم، وجرائمهم في حق الدين وأهله.

سكتُّ لحظة متسائلاً في قرارة نفسي، ومستعرضاً من جديد حديث انقسام الأُمَّة، فتبين لي أنَّ صاحبي على حق، التفت إليَّ محمّد فرأى وجومي، واستغراقي في الفكر، وقال: وأزيدك على ذلك أنَّ الشافعي - أحد أصحاب المذاهب الأربعة، والذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث، ولم يجمعهم في منظومة واحدة سميت بأهل السنة والجماعة، غير حكام البغي والظلم الذين أوقفوا المذاهب على أربعة فقط، وذلك في القرن الخامس، وحكموا على البقية بالخروج على السلطان- قد

---

(٧): سورة المائدة الآية ٤٤.

(٨): سورة فاطر الآية ٣٢.

خرج من فقهه الأول الذي بقي معمولاً به إلى اليوم، إلى فقهه الثاني مصححاً به أكثر آرائه وفتاواه، لما انتقل إلى مصر، لكنَّ أيدي الإجرام والتعصب الأعمى فتكت بكتابه وبمكتبة الفاطميين، فأُحرق كما أُحرقت نفائس إسلامية، لو قدر لها أنْ تنجو من براثن المفسدين وأعداء العلم والدين، لكان فيها بيان كثير وتوضيح، يقطع عن المتردد شكه، ويحوله إلى يقين.

محمد بن إدريس الشافعي كان فقيهاً وشاعراً معتبراً قال قصيدته الشهيرة بخصوص انتمائه الديني:

لما رأيت الناس قد ذهبت بهم	مذاهبهم في أبحر الغي والجهل
ركبت على اسم الله في سفن النجا	وهم أهل المصطفى خاتم الرسل
وتمسكت بحبل الله وهو ولاؤهم	كما قد أُمرنا بالتمسك بالحبل
إذ افترقت في الدين نيف وسبعون فرقة	على ما جاء في واضح النقل
ولم يك ناج منها غير فرقة	فقل لي بها يا ذا الرجاحة والعقل
أفي الغرق الهلاك آل محمّد	أم الفرقة التي نجت بها قلي
فإنْ قلت في الناجين فالقول واحد	وإنْ قلت في الغرقى حفت عن العدل

إلى أنْ قال أخيراً:

رضيت علياً لي إماماً ونسله	وأنت من الباقين في أوسع الحل

وفوق كلِّ ذلك فإنَّ أغلب هؤلاء الفقهاء تبرأوا من تقليد الناس لهم.

ثمَّ هل لي أنْ أسالك: بماذا كان يتعبد أصحاب القرون الثلاثة الأُولى؟ ولم تظهر المذاهب الأربعة إلَّا من بعدهم؟ وهي القرون التي عاش فيها الأئمة الهداة من أهل البيت عليهم السلام.

قلت له: حكى بعض الجهلة عندنا، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم صلَّى حنفياً ومالكياً وشافعياً وحنبلياً، هذا ما وصل إليه التردي في هوة الجهل السحيقة، أمَّا عن الشيعة فمن الذي سمّاهم هكذا إذن؟

قال: النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم هو الذي سمّاهم شيعة، لأنَّ معناه لا يتعدى الاتباع والاقتداء والموالاة، محاكياً القرآن في تسمية إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام، قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾[٩] فقال مخاطباً عليّاً عليه السلام: «**يا عليُّ ستأتي يوم القيامة أنت وشيعتك راضين مرضيين، ويأتي أعداؤك غضابى مقمحين**»[١٠].

ثمّ أخيراً، يعد إسلام أهل البيت عليهم السلام، الخط الوحيد المتصل بعصر

---

(٩): سورة الصافات: ٨٣.

(١٠): تفسير الدر المنثور للسيوطي، الآية: ٨٣ من سورة الصافات.

النبوة، فعليٌّ عليه السلام إمامنا الأول، عاش مع النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وتعلم منه وعدّه أنجب أصحابه، وكان يقضي في المسائل على عهده، إلى أنْ قال فيه مقالته الشهيرة: «**أقضاكم عليٌّ**» [١١] وعدّه باب مدينة علمه، بينما غيره من الفرق والمذاهب، قد عاش أفضلها حالاً في الثلث الأول من القرن الثاني وهو أبو حنيفة.

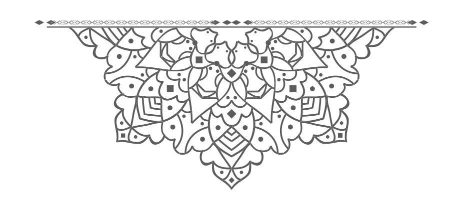
شكرت صاحبي على ما أبداه من رحابة صدر، وعلى ما قدمه لي من معلومات، نورت لي درب الهداية إلى خط أهل البيت عليهم السلام، وانصرفت عاقداً العزم على مزيد الالتزام بذلك الصديق، حتى آخذ عنه بقية معالم ديني، وأركان عقيدتي، ولم يفرق بيننا غير مغادرتي مدينة قابس التونسية، إلى مدينة توزر بالجنوب الغربي التونسي.

---

(١١): حلية الأولياء ج ١ ص ٦٥-٦٦/ الرياض النضرة ج ٢ ص ١٩٨.

الدافع السابع إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

الكذب على الشيعة هو الذي شيّعني



أمّا محمد... فقد قال: كنت امْرَأً متمنطقاً ومتعقلاً، لا أُثبت شيئاً ولا أنفيه إلَّا بالدليل الحقيقي، والحجة التي تدحض الشك، وتحوله إلى يقين، لذلك لم أكن أعتبر نفسي منذ أنْ دخلت سنَّ التكليف أنَّني مالكي المذهب، بل على العكس، كنت أرى ذلك ترجيحاً بلا مرجح، لأنَّ الانتماء إلى فكرة ما، يحتاج إلى إثباتها علمياً وعملياً، وهو أمر غير متوفر في أغلب المتدينين بالوراثة، وأنا أرفض هذا المنحى وأستهجنه، فكان انتمائي إلى الإسلام بمفهومه العام، وليس إلى مذهب معين من المذاهب المتداولة بين المسلمين.

وفوق ذلك ألزمت نفسي بأنْ أدرس التاريخ الإسلامي، من أيِّ مصدر إسلامي، لعلني أجد بين طياته ما يرشدني إلى اتباع الحق، وكان تاريخ الأُمم والملوك للطبري، وتاريخي ابن الأثير (الكامل - النهاية)، ومروج الذهب للمسعودي،

وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي، باعتبارها أقدم كتب التاريخ التي اعتمد رواياتها القدامى والمتأخرون.

وكان اهتمامي منحصراً في أحداث القرن الأول من الهجرة المباركة، إلى نهاية ما سمي بالخلافة الراشدة، وكانت مسألة الحكومة بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بالنسبة لي، محسومة بمبدأ الشورى، فقد كنت أراها تتماشى وعقلية العصر، في التنفر من كلِّ ما يرمز من قريب أو بعيد لمبدأ الوراثة والملك، نظراً لما خلفه توريث السلطة والملك من نكسات ومصائب، على المجتمعات والشعوب، ولأنَّني لم أكن مطلعاً على النصوص التي وردت في ديننا الإسلامي، والتي كانت تخصّ الوصية والتعيين، وكلّ ما استقر في ذهني منها، ما أول تأويلاً خاطئاً من طرف علماء خط الشورى والخلافة، كحديث منزلة عليٍّ عليه السلام من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والتي حصرت في الخلافة في الأهل فقط.

استغرقت في دراسة الكتاب، إلى أنْ عثرت على ضالتي، وكان بحق وثيقةً مهمةً، احتوت في مضمونها على الدليل، الذي جاء منه التزييف والكذب في دين الله تعالى، تقول الوثيقة التي أخرجها الطبري وغيره:

(كتب معاوية بن أبي سفيان إلى عماله عام الجماعة (وأفتح قوساً هنا لأقول سُمي ذلك العام بعام الجماعة لاستتباب الأمر إلى بني أُمية بعد مقتل الإمام عليٍّ

عليه السلام، وخذلان الناس لابنه الحسن عليه السلام إلى درجة أجبرته على الصلح) أنْ برئت الذمة ممّن يروي شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلِّ كورة، وعلى كلِّ منبر يلعنون علياً، ويبرؤون منه، ويقعون فيه، وفي أهل بيته)(١٢). ثم كتب إليهم: (ألَّا يجيزوا لأحد من شيعة عليٍّ وأهل بيته شهادة)(١٣).

ثمَّ كتب إليهم: (أن انظروا من قبلكم، من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقربوهم وأكرموهم. ففعلوا ذلك حتى أكثروا من فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات)(١٤). ثمَّ كتب إليهم: (إنَّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلِّ مصر، فإذا جاءكم كتابي هذا، فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب، إلَّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنَّ هذا أحبُّ إليّ وأقرُّ إلى عيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدُّ عليهم من مناقب عثمان وفضله، فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى، حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم

(١٢): شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج١١ ص٤٦ / تاريخ الطبري.

(١٣): شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج١١ ص٤٥ تاريخ الطبري.

(١٤): شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج ١١ص ٤٤.

وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله)[١٥].

الكذب كما نعرف جميعاً، أُسلوب بذيء قذر وخسيس، حذر منه النبيُّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وشدد على خطورته، معتبراً أنَّ المؤمن لا يكذب أبداً، وإنَّما الكذب ظاهرة عرف بها المنافقون، الذين ليس لهم هم يحملونه غير قلب الحقائق، وباعتبار أنَّ المؤمن لا يكذب، كما صرّح بذلك النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقد حكم الكاذب على نفسه بنفسه، ونقلها من حالة الإيمان المرجو، إلى مرض النفاق الذي لا دواء منه.

هالني الأمر وصدمت منه صدمة شديدة، ليس ممّا اقترفه معاوية وحزبه من طلقاء بني أُميّة، فأولئك لا يجهل حالهم إلَّا من كان مثلهم، ولكن صدمتي جاءت من الأُمَّة، التي انساقت وراء باطل صنعه أعداؤها، ومضت على السكوت عليه وقبوله، وشخص النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ما زال عالقاً، في أذهان من بقي من الصحابة في ذلك العصر، وصوته المبارك ما زال يتردد صداه في آذانهم وحوافظهم.

---

(١٥): شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج ١١ ص٤٧.

فأين هؤلاء في تلك الفترة؟ ولماذا لم يفعلوا مثل ما فعل عمار بن ياسر، عندما قاتل معاوية وهو ابن تسعين سنة، إلى أن استشهد؟ أين أبناؤهم الذين يفترض أنَّهم تربوا على أيدٍ لامست براهين الوحي، وعانقت قيم الدين الحنيف دون واسطة؟ أين التابعون لهم الذين عايشوا الظلم والظالمين، وركن من ركن منهم إليه، وسكت من سكت عنه؟ لماذا ركنوا إلى زيف معاوية؟ ولماذا سكتوا على ظلمه؟ ولماذا نصروا باطله ولم يحاربوه؟ لماذا تزلف منهم من تزلف لمعاوية؟ أطلباً لدين فعلوا ذلك أم طلباً لدنيا؟ هذا وشريعة الله المتمثلة في سنة نبيّه الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم تدون بعد، كأنَّما أُريد لها أنْ تختلط بذلك البهتان، ولماذا وصل الأمر بعبيد الله بن عمر، إلى أنْ قتل في صف الذين أخبر عنهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بأنَّهم بغاة على عليٍّ عليه السلام؟ وما قام به عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وسمرة بن جندب، وأبو هريرة، لا يبعد عن ذلك الولاء الأعمى.

ولماذا بلغت هشاشة العقيدة في ذلك العصر وما تلاه- وهو من أقرب العصور إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - إلى الحدِّ الذي سبّ فيه عليٌّ عليه السلام وأهل بيته على منابر الإسلام، بلا أدنى حرج ولا غضاضة، والسابّ لعليٍّ عليه السلام كالسابِّ للنّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وقد احتجت أُمُّ المؤمنين أُمُّ سلمة على ذلك بقولها لأبي عبد الله الجدلي: أيسبّ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم

فيكم؟ قلت: معاذ الله أو سبحان الله أو كلمة نحوها، قالت: سمعت النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**من سبَّ علياً فقد سبّني**»[١٦] .

ولماذا بلغ الحال بالأُمَّة إلى ذلك المستوى من التنكر لعليٍّ عليه السلام، وحال عليٍّ عليه السلام من أوضح الواضحات عند من في قلبه مثقال ذرة من إيمان؟

ولماذا أصرَّ حفاظنا من أهل السنة والجماعة على طلب الرضا لمعاوية، وهو محدث كلَّ تلك الأحداث، وفاعل تلك الأفاعيل، فهل طلب الرضا لرجل أسخط الله ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عمل مرضٍ ينسجم مع العقل والدين؟

أسئلة تقاطرت عليَّ من كلِّ جانب، وألحّت في الإجابة، التي لم تكن بالطبع عند أولئك المؤرخين، الذين نقلوا جملة من الأخبار المتراوحة بين الصحيحة والمحرفة، والواقعة والموهومة، والثابتة والواهية.

هؤلاء لم يكن همهم غير نقل الروايات التي مثلت انتماءهم الفكري والعقائدي، وشحن كتبهم بها، مهما كانت نسبة صحتها، وقد أساء الطبري إلى نفسه، ومن تبعه في اعتماد رواياته المتعلقة بأحداث ما اصطلح عليه بالردّة، (وهي

---

(١٦): المستدرك الحاكم ج ٣ ص١٢١/ كنز العمال ج ٦ ص٤٠١.

(٢) سنن ابن ماجة المقدمة.

(٣) سنن الترمذي كتاب المناقب.

أكثر من ثمانمائة رواية اعتمدها عنه بقية المؤرخين باعتباره أقدمهم) إلى ما بعد شهادة الإمام عليٍّ عليه السلام، فقد كان عمدته في تلك الروايات، عدد من الكذابين والوضاعين، من المشهورين والمجهولين، منهم سيف بن عمر الضبي، الذي أجمع علماء الجرح أنَّه كذاب.

ثمَّ انتقلت لمزيد من التأكد إلى الكتب الروائية (البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، سنن أبي داود، ابن ماجة) فحصلت عندي قناعة بعد ذلك، بأنْ أُريكم كلَّ الكتب الروائية التي أُنزلت منزلة القداسة، ووصفت بأنَّها أصحُّ الكتب بعد كتاب الله، وقالوا إنَّ الأُمَّة قد تقبلتها بالرضا والقبول، واتهمها جميعاً بنقل التحريف والترويج له، والكذب على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لأنَّ ناقل الكذب كقائله، خاصة إذا كان بتلك الكثرة، خاصة المفضوح منه، الذي يمسّ من مقام الخالق سبحانه وتعالى، ويحط من منزلة رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، ويشين الدين الإسلامي عقيدة وشريعة.

الأمثلة التي تشير بوضوح إلى بصمات تحريف معاوية، ومن جاء بعده من بني أُمية، شجرة التحريف الملعونة في القرآن، كثيرة لكنَّني سأقتصر على بعضٍ منها، إثباتاً للحجة، وطلباً للاختصار:

الصحيح: عن ابن عمر قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: الحسن

والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما.

المكذوب عن أنس قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لأبي بكر وعمر: هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلَّا النبيّين والمرسلين.

الصحيح: عن ابن عباس أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أمر بسدِّ الأبواب إلَّا باب عليٍّ(١).

المكذوب: عن عروة عن عائشة أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أمر بسدِّ الأبواب إلَّا باب أبي بكر(٢).

الصحيح: عن ابن بريدة عن أبيه قال كان أحبُّ النساء إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فاطمة ومن الرجال عليّ(٣).

المكذوب: عن أنس قال قيل: يا أيها النبيُّ من أحبُّ الناس إليك؟ قال: عائشة. قيل من الرجال؟ قال: أبوها(٤).

يضيف محمد..: إنَّ من لم يقرأ ما أقدم عليه حزب الطلقاء الذي استولى على زمام الحكومة الإسلامية، بعد تمهيد من أصحاب السقيفة، من تحريف وكذب وتشويه للدين، لا يمكنه أنْ يقف على حقيقة منشأ التحريف، ففي النص الذي نقلته، والذي اشترك في اعتماده أغلب المؤرخين تقريباً، نجد أنَّ معاوية من أجل أنْ

يستتب له الأمر، أقدم في مرحلة أُولى، على إشاعة ظاهرة سبِّ عليٍّ عليه السلام وأهل بيته – والساب لعليٍّ كما عرفنا من حديث أُمِّ سلمة – هو سابٌّ للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فتمَّ له ذلك، ثمَّ أقدم على خلط النصوص الصحيحة، بالوهم الذي شجع عليه بالأموال والدنيا، ثمّ سعى في مرحلة ثالثة إلى منع النصوص الصحيحة، التي كانت متعلقة بالإمام عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام، ولم يكتفِ بذلك، فمرَّ إلى مرحلة التنكيل بمن ثبت لديه، أنَّه من أهل بيت الإمام عليٍّ عليه السلام أو من شيعته، في عصر لم يكن هناك سوى فريقين يسعيان إلى تحقيق غايتيهما المتباينتين، عليّ وشيعته ومعاوية وشيعته، ولا اعتبار للفريق الثالث الذي لم يكن يمثل شيئاً، ولا ثقل له ولا وزن، لأنَّ أفراده قلة قليلة، أسكنها الخوف واللامبالاة تلة السكوت والانطواء، قد رفعوا شعار تجنب الفتنة، فسووا بموقفهم المتخاذل صفوة الدين بطليقه، بل نجد إلى الآن في معسكر الشورى والخلافة، من لا يزال رافعاً شعار العن يزيد ولا تزيد، وهو مستمر في اعتماد معاوية بن أبي سفيان صحابياً جليلاً، يطلب له من الله الرضا، وهو المحارب والساب والقاتل لقربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ومواليهم.

أثناء بحثي عن الحقيقة، التقيت أحد زملاء الدراسة، وكان معه كراس، دفعني الفضول إلى سؤاله عنه، فقال: هو كتاب قد سحبه أحد الأصدقاء من

الإنترنت لأحد المؤلفين، فرجوته رجاءً حاراً أنْ يعيرني إياه، ولما رأى اهتمامي وتشبثي بالكراس لم يمانع من ذلك، على شريطة أنْ لا أتأخر في قراءته، فوافقته وأخذت منه الكراس شاكراً، وانصرفت إلى البيت أستعجل الخطى.

وفي البيت بدأت في تصفح الكراس، فذهلت للمستوى التعيس الذي وصل إليه الكاتب، والناقل من الإنترنت، الكتاب عنوانه «الرافضة أو الإمامية الاثنا عشرية أو الجعفرية»، لم يكن ذا منهجية محددة في تعامله مع أكثر محتويات الكراس، ولا روعي فيه تثبيت المصادر الواردة فيه، لأنَّ كلَّ صفحاته قد ذكرت مصادرها من ١ إلى ٥ أكثر أو أقل، واشتركت تلك الترقيمات في فهرست المصادر، فلم تعد تستطيع تمييز مصدر من غيره، هذا من الناحية الفنية والعلمية، أمَّا من حيث المحتوى فلم أقرأ في حياتي مهزلة سميت كتاباً غير ذلك الكراس.

(١) و(٢) و(٣) و(٤) سنن الترمذي كتاب المناقب

للكراس سبعة مباحث، ظاهرها يوحي بأنَّ الكتاب وكاتبه من أهل الاختصاص، لكنَّك عندما تقرأه لا تخرج بانطباع حسن عنهما، لأنَّك ستكتشف تهافت الكاتب على إثبات أنَّ عقيدة المسلمين الشيعة، هي إلى اليهود أقرب منها إلى الإسلام، ومن أجل إضفاء التقوى وخشية الله تعالى على نفسه وعلى كتابه، بثَّ الكاتب عدداً من الآيات القرآنية، التي يستشف القارئ منها بشكل إيحائي، أنَّه على

حق في جميع أقواله، وأنَّ من كتب عنهم على الباطل مطلقاً، وكأنَّ تلك الآيات القرآنية التي ذكرها لا تعنيهم، أو هي ليست في مصاحفهم.

سعى الكاتب إلى التأثير في محصلة القارئ، وجعلها تنساق معه في قناعاته، التي ظهرت من كلامه أنَّها لا تتزحزح قيد أنملة، فرأيه المسبق في تكفير المسلمين الشيعة، لم يكن ليسمح له بأخذ آراء من ينتمون حتى إلى مذهبه الأشعري، فلا الدكتور طه حسين، ولا الدكتور علي الوردي، ولا الدكتور مصطفى كامل الشيبي، ولا الدكتور عليّ النشار، ولا الدكتور حامد حنفي داود، ولا عبد الله فياض، أقنعوه برأيهم الذي استقر على أنَّ شخصية عبد الله بن سبأ اليهودي، لا يمكن أنْ تكون حقيقية، وقد اختلقها معاوية وحزب الطلقاء، لتكون أكبر تشنيع على عليٍّ عليه السلام وشيعته، وتشبث المتشبثين بها إلى الآن، تحكي حالة الغريق الذي يسعى للنجاة بأيِّ شكل، ويروم الخلاص بأيِّ طريق.

قلت له: لماذا تأنس في مطالعتك لكاتب مجهول لم يذكر صاحبه اسمه على الكتاب؟

فقال لي: إنَّ الموقع الذي سحب منه الكتاب إسلامي، فيه ما يحتاجه المسلم من تفاسير، وتلاوات للقرآن، ومصادر للسنة النبوية.

قلت له: ومع ذلك فلا بُدَّ من أنْ تأنس إلى مصدرك بمعرفة هوية الكاتب،

على الأقل ليطمئن قلبك وتعرف عمَّن تقرأ.

التفت محمد... إلى نصيحتي فوجدها منطقية فقال: كلامك صحيح مائة بالمائة، أنا لم ألتفت إلى هذه الجزئية رغم أهميتها، لقد أسهبتني المظاهر الإسلامية التي عليها الموقع، فنقلت الكتاب معتقداً أنَّ فيه فائدة.

قلت له: لكنَّك وقعت من حيث لا تعلم في شبكة من أدعياء العلم، هدفها نشر الكذب بين أفراد الأُمَّة الإسلامية، وتعميق الهوّة الاعتقادية بينهم، والتحريض على التكفير، وأكثر من ذلك، فقد صدرت فتاوى تبيح قتل المسلمين الشيعة، باعتبارهم كفاراً ومشركين.

قال محمد: فبماذا تنصحني يا أخي؟

قلت له: أنصحك وأنصح نفسي، بأنْ نعطي لهؤلاء الذين اضطهدوا خمسة عشر قرناً فرصة، ليعبروا عن فكرهم بمنتهى الحرية، فموائدهم في هذا المجال مفتوحة لكلِّ من يروم الحقيقة، نحن الآن في عصر العلوم والتكنولوجيا، والقرآن الذي يعتبر أصل شريعتنا، يحث على الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وليس بالتي هي أخشن، ويحثنا على انتهاج الوسطية في كلِّ شيء، فلنستمع إليهم، ولنقرأ عن تواريخهم وكتاباتهم من علمائهم، وليس من أعدائهم، بل من كتبهم المعتمدة ومراجعهم التي أثنوا عليها بأنفسهم، ولنشاهد ما

يقدمونه اليوم من أمثلة ونماذج في غاية الوضوح والدقة، قد تكون النواة لعودة الدين من غربته، لنقول كلمة الحق والعدل فيهم. وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(١٧) حيث لا ينفع الندم في عصر تكالب فيه العالم على محاربة الإسلام، تحت عناوين مختلفة ومتعددة، كالإرهاب والتطرف.

وأضفت إليه قائلاً: إنَّ الكذب والادّعاء بالباطل على الشيعة، هما اللذان أخذا بيدي إلى التشيع، ودعاوى الافتراء هذه، قد استند عليها أغلب المحاربين لشيعة أهل البيت عليهم السلام، وهي في مضامينها لا تستند إلى دليل منطقي، ولا تقف بحجة ثابتة، كلُّ ما اشتملت عليه هي جملة من الأباطيل الواهية، والظنون التي لا ترقى إلى الحقيقة مهما خلصت، والكذب الذي ينمّ مختلقه عن نفاق دفين لا علاج له.

لعلَّ أكبر أكاذيب هؤلاء الأدعياء، التي أرادوا بها صرف المسلمين عن حقيقة التشيع لأهل البيت عليهم السلام، وإبعادهم نهائياً عن البحث والتساؤل والنظر، في منهج أهل البيت عليهم السلام - والذي كان محلَّ سخط وتبرم ونقمة، من قبل الطغاة والظالمين على مرِّ العصور- كذبتان كبيرتان، واحدة موجهة إلى صنف قليل

---

(١٧): سورة الحجرات الآية ٦.

الثقافة والعلم، وترتكز على الادّعاء بأنَّ جبريل أخطأ في الوحي، وعوض أنْ ينزل على عليٍّ عليه السلام، نزل على محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلم، نعوذ بالله تعالى من هذا البهتان، ونبرأ إليه من مخترعه الأفّاك، ولا أخاله إلَّا شيطاناً إنسياً، مقرباً من إبليس لعنه الله، جاء بهذه الفرية، لينفر الناس من موالاة أهل البيت عليهم السلام، والتشيع لهم.

أمَّا الكذبة الأُخرى، فهي موجهة إلى الذين لهم ثقافة وعلم، وتقول: إنَّ عبد الله بن سبأ اليهودي، هو الذي اخترع التشيع عقيدة، وفي عصر الإمام عليٍّ عليه السلام.

والظاهر أنَّ أصحاب هذه الأكاذيب ومن يقف معهم فيها، ليس لهم دين، ولا يمتلكون عقولاً سليمة، لأنَّ الذي دفع الإمام عليّاً عليه السلام إلى حمل السلاح، والوقوف في وجه ثلاث فرق بطم طميمها، امتثالاً لإخبار النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بأنَّه سيقاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله. هو التحريف الذي بدأ يدبُّ في جسد الإسلام، وينتقل إلى عقول المسلمين بكلِّ خبث ودهاء، فالناكثون وهم طلحة والزبير، الذين بايعوا عليّاً عليه السلام، ثمَّ نكثوا بيعتهم، واصطحبوا معهم في خروجهم على الإمام عليه السلام، عائشة ليوهموا الناس بأنَّهم على الحق، وقد استطاعوا أنْ يخدعوا كثيراً من الأعراب، ويستميلوهم إلى صفهم في حربهم القذرة، من أجل الاستيلاء على السلطة، والقاسطون وهم أصحاب

معاوية بن هند، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومروان بن الحكم، وحزبهم، الذين قلبوا الحقائق، واستبدلوا الفضائل الحقيقية للصفوة الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام، بفضائل زائفة لبعض الصحابة، ليلبسوا على الناس دينهم فلا يهتدون سبيلاً، والمارقون هم أصحاب ذي الثدية من الخوارج، الذين رأوا رأياً في الحكومة لم يكن صائباً، ثمّ حملوه علياً عليه السلام، وانقلبوا عليه بعد ذلك، وحاسبوه عليه وهم من أَسس أَساسه بكلِّ إصرار، ليسوا أكثر جرماً من عبد الله بن سبأ، الذي ادّعى مختلقوه أنَّه دعا إلى عقيدة، هي خليط من اليهودية والمجوسية، على أساس أنّها الدين الحق، على مرأى ومسمع من عليٍّ عليه السلام، فقد عدوا الرجل في عداد جيشه، ولو كان ذلك الرجل الأُسطورة موجوداً حقيقة لبلغت أخباره إلى عليٍّ عليه السلام، ولاشتد في طلبه ليطهر جماعته منه، ولأظهر الحقيقة من الخيال من وهم لا أساس له.

ولقد قرأت بعد ذلك كتاب عبد الله بن سبأ، للباحث والمحقق السيد الجليل مرتضى العسكري، فأثلج صدري بتحقيقه وبراهينه واستدلالاته، وأتى على تلك الأُسطورة، فجعلها خاوية على عروشها، والكتاب متوفر ومتداول بين الناس اليوم.

أمَّا ما قيل من أنَّ الشيعة يسبّون الصحابة، فهو مهزلة كمهزلة إخوة يوسف

عليه السلام، عندما جاؤوا أباهم بقميص أخيهم وعليه دم كذب، زاعمين له أنَّ الذئب قد أكله، أو كالذين رفعوا قميص عثمان طالبين القصاص من قتلته، وهم من حرض عليه، وسكت عن نصرته إلى أنْ قضى.

وإنِّي أعجب من الذين يقرؤون القرآن آناء الليل وأطراف النهار، فيمرون بعديد الآيات التي تفضح حال الكثير من الصحابة، ولا يقولون إنَّ القرآن يسبُّ عدداً من صحابة.

وأزداد عجباً من الذين يمرون على أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم المتعلقة بالحوض، والتي جاء في بعضها، أنَّ عدداً كبيراً من الصحابة سيكون مآلهم النار يوم القيامة، ولا يقولون إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يسبُّ الصحابة ويضع من مقامهم.

وينتهي عجبي عندما أقرأ ما دونته السيرة والتاريخ بشأن تجاوزاتهم واستعداء بعضهم على بعض بدءاً من السقيفة فما بعدها، وما دوَّنه الحفاظ في شأنهم من سبِّ عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام على منابر المساجد طوال حكم بني أُمية، فطلب من الله الرضا عن الجميع الساب والمسبوب.

وأكثر من ذلك، أقول لهؤلاء الذين جاؤوا بهذه الفرية وألصقوها بالشيعة، أيهما أعظم جرماً، وأكبر ذنباً، سبُّ صحابيٍّ، أم سبُّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم؟

طبعاً سيقولون لك سبُّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أعظم، لكنَّك عندما

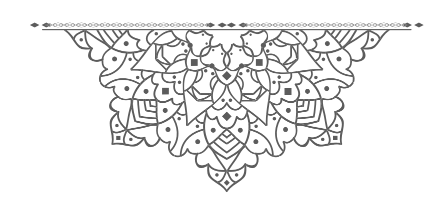
تذكرهم بأنَّ علياً سُبَّ على منابر المساجد الإسلامية دهراً طويلاً، بتخطيط وتنفيذ من عدد ممّن يسمونهم صحابة، وسبُّ عليٍّ عليه السلام، هو سبٌّ للنبيِّ بلا فرق حسب النص الذي ذكرته، والسابّ للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، خارج عن ملّة الإسلام بلا شك، فلماذا تتهمون الشيعة بسبِّ الصحابة، وأنتم تباركون وتقدسون وتطلبون الرضا من الله إلى البارزين للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأهل بيته بالسبِّ والحرب؟

وإذا الذين أرادوا بالشيعة كيداً، قد ردّت مكائدهم إلى نحورهم، وخابت جميع مساعيهم الباطلة، كالزبد الذي يذهب دائماً جفاءً، وأمَّا عليٌّ وشيعته فيمكثون في الأرض، أبو التراب وأبناؤه، رواسٍ ينحدر عنهم السيل ولا يرقى إليهم الطير، جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، يثبتون للناس مقامات العزّة والشرف والتضحية والإباء، تأصيلاً للقيم الإسلامية العليا، وتحقيقاً لأمر الله تعالى في الثلة المؤمنة، التي ستبقى دوماً ظاهرة على الحق، إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

أبدى صديقي رغبة في اقتفاء أثري في البحث عن الحقيقة، وأُعجب بالأدلة التي عرضتها عليه، فزودته بكتاب الفصول المهمة في تأليف الأُمَّة، ليكون منطلقاً له في معرفة الحقيقة، والحمد لله ربِّ العالمين أولاً وأخيراً.

الدافع الثامن إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيعتني آية الوضوء



حمد... أحد الأصدقاء القدامى، الذين تربطني بهم أواصر أُخوّة وصداقة، لا يعلم قدرها إلَّا الله سبحانه وتعالى، تعرفت عليه هو أيضاً في العمل، فكان بالنسبة لي، الإنسان الذي يستطيع المرء أنْ يفضي إليه بمكنون سره، دون أنْ يخشى شيئاً، صراحته التامة زادت في تفرد شخصيته، وثقته بنفسه رفعته بين المحيطين به، فزادته احتراماً وتقديراً، كان على الموعد معنا، وأراد أنْ يُدلي بشهادته عن تشيعه، ويتحدث عن السبب الذي دفعه إلى ترك مذهب أُسرته ومجتمعه، والانتقال منه إلى خطٍّ آخر وفكرٍ آخر، فقال:

منذ نعومة أظفاري، كنت مغرماً بمشاهدة صورة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام المعلقة في بيتنا، تلك الصورة التي انتشرت في عدد من بيوت القرية، والتي ظهر فيها فارسان، قد أهوى الأول بسيفٍ ذي حدّين، على الفارس الثاني فقدّه

نصفين، كتب على الأول عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام والثاني رأس الغول كناية عن عمرو بن عبد ود، وعلى الرغم من أنَّ الصورة لا تتميز بالدقة والإتقان في التصوير، إلَّا أنَّها كانت تمثل رمزاً إسلامياً، وقمّة من قمم البطولة، ظلَّ باقياً على مدى قرون عديدة، متحدياً كلَّ الأساليب التي واجهته لمحو آثاره.

كان والدي وخالي من خريجي الزيتونة، وقد درسا الفقه المالكي، باعتباره المذهب الوحيد المتداول في البلاد، وتحت إشراف ورعاية وعناية سلطة الباي، الذي يعتبر نائب الخليفة العثماني، حتى أواخر عهد الاستعمار الفرنسي، وكنت تبعاً لذلك الانتماء متعبداً وفق التربية والتعليم الذي تلقيته من والدي، تابعاً له في تقريره نظراً لصغر سني، ولما كبرت، بدأت أسئلة واستفسارات تتوارد عليَّ، بحسب الحدث والظرف.

من ذلك مثلاً، أنَّني كلَّما مررت بآية الوضوء في سورة المائدة، تساءلت عن حقيقة تفسيرها إنْ كانت تحتاج إلى تفسير؟ حتى قلت في نفسي يوماً: ترى هل كانت الغاية من قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا﴾ هي قوله: ﴿فَاغْسِلُوا﴾؟ تهدف إلى بيان حكم الوضوء وتفصيله؟ أم إلى إلباسه لبوس التأويل، وفتح المجال لتعدد الآراء فيه، والآية كما نعرفه محكمة؟ وطالما أنَّ الآية كذاك وهي في ظاهرها تفيد في حكمها مسح الرجلين، فلماذا نغسل أرجلنا؟ ومن أين فهم أوائل الغاسلين حكم غسل

الرجلين فيها، والآية لا تفيد ذلك أبداً؟ بل هي تفيد المسح، وعلم النحو والإعراب جاءا متأخرين جداً عن تلك الفترة؟ وحتى الإعراب الذي ذكره الرازي في تفسيره الكبير، وفصَّل فيه القول على القراءتين (النصب والجر لآية الوضوء)، وخرج بنتيجة أنَّهما تفيدان المسح.

بقيت على ذلك الترقب والتردد، إلى أنْ عدت يوماً لبيت العائلة، في قرية من قرى الجنوب التونسي، فوجدت والدتي بصدد البحث عن وثائق، تخص والدي المتوفى رحمه الله، فرأيت كتباً مخطوطة، كان والدي يحتفظ بها في عناية تامة في أحد الصناديق المقفلة، تناولت تلك المخطوطات، فوجدت من بينها كتاب موطأ مالك، صاحب المذهب الذي كنت أنتمي إليه، ودفعني الحرص على اكتشاف خيط من الحقيقة، أنْ أبحث فيه عن شيء يمكن أنْ يفيدني في تساؤلي، ويرفع عني حيرتي، بخصوص حكم مسح الرجلين في الوضوء، وبعسر شديد بدأت أبحث فيه، نظراً لصعوبة قراءة الكتابة التي كانت جميلة، ولكنَّها غير واضحة بالنسبة لي، إضافة إلى حرصي على عدم الإضرار بأوراق الكتاب القديمة أثناء تصفحي لها، بعد المقدمة وصلت إلى كتاب الطهارة، وكان متصدراً للكتاب، وكانت المفاجأة متمثلة في عثوري على تعليق لا أدري من كتبه، يقول إنَّ الغسل هو حكم الرجلين في الوضوء، وأنَّ النبيَّ قد غسل رجليه في الوضوء، والذين يقولون بمسح الرجلين

في الوضوء، هم قلة قليلة من الروافض، والملقبون أيضاً بالشيعة.

تنفست الصعداء، وشكرت من أعماقي صاحب التعليق، الذي أرجو أنْ يكون والدي المرحوم، أنا الذي كنت معتقداً أنَّني وحدي في اعتقادي بصحة ظاهر آية الوضوء، والذي لا يحتمل الفلسفة والتأويل، ومنذ ذلك الحين، بدأت ألتفت إلى كلِّ شيء له علاقة بالرفض والتشيع، فكانت الثورة الإسلامية في إيران إحدى اهتماماتي، فوجدت فيها مخزوناً مختلفاً عن الذي كنت أعيش وسطه، وزادني تحققاً ويقيناً معرفة الأخ محمد... الذي تحادث معي، وبين لي عدداً من المسائل التي كنت متحيراً فيها، ومدَّني بكتب زادتني بصيرة في اتباع خط أهل البيت عليهم السلام، فآية الوضوء مثلاً، التزم فيها الشيعة بالمسح، امتثالاً لأمر الله تعالى في حكم الرجلين في الوضوء، واتباعاً لتطبيق النبيِّ الأكرم، وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، الذين أخذوا عنه ذلك الحكم، ويؤيده أنَّ التيمم الذي هو بديل للوضوء يفيد المسح، وبمقارنته بآية الوضوء كما صرح بذلك ابن عباس تلميذ عليٍّ عليه السلام، نجد أنَّ المغسول في الوضوء، يمسح في التيمم، والممسوح في الوضوء، يسقط في التيمم، فسقط بذلك الرأس والرجلان. أمَّا السنة فلا يمكنها بحال من الأحوال أنْ تناقض الفرض، هذا مضافاً إلى أنَّ علياً وأهل بيته عليهم السلام، كانوا يمسحون أرجلهم في الوضوء، ولم يثبت غسل الرجلين إلَّا عبر طغاة بني أُمية،

وجلوازهم الكبير الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي أخرج الطبري في تفسيره للآية، ما يفيد تورطه في مغالطة وإجبار الناس على غسل الرجلين في الوضوء، إمعاناً في إبطال آثار عليٍّ عليه السلام، كأنَّما آثار عليٍّ عليه السلام مخالفة للإسلام، ولشدّة فرحي بالعثور على ذلك الدليل الذي أخرجه الطبري، حفظت الرواية عن ظهر قلب.

الرواية لثلاثة من التابعين قالوا: خطبنا الحجاج مرة بالأهواز، فتناول الطهور، فقال: إنَّه ليس لابن آدم أخبث إليه من قدميه، فاغسلوا ظهورهما وبطونهما وعراقيبهما. فاستراب الجماعة من كلام الحجاج، لأنَّ الرجل ممّا لا يخفى على أحد في الظلم والدموية، يأخذ المشتبه بالظنة والريبة، وعانى منه الشيعة الويلات، فمثّل بمن مثّل منهم، سمّرَ وسمل العيون، وقطع الأيدي والأرجل وصلب على جذوع النخل، وقطع الرؤوس، وقتل من قتل، وسجن من سجن، وعُذب من عذب، فجلا من شرّه إلى الأقطار البعيدة من استطاع أنْ لا تطاله يداه.

في أثناء عودة أولئك الرجال من الأهواز إلى البصرة، مروا على أنس بن مالك الصحابي، الذي كان حياً وقتها، وحدّثوه بما قاله الحجاج في خطبته، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، إنَّما قال: ﴿ وَامْسَحُوا ﴾.

ومع أنَّ المالكية قد أثبتوا في وضوئهم، حكم غسل الرجلين في الوضوء، إلَّا

أنَّهم قالوا بخلافه في السفر، فأجازوا مسح الرجلين ثلاثة أيام، وقالوا أيضاً بجواز المسح على الحائل كالخفين والجوارب، فتراهم لا يقرّون بالمسح مباشرة على الرجلين، ثمّ ينقضون ذلك بالقول بالمسح على الحائل.

أمَّا ما أخرجوه من أنَّ حمران مولى عثمان بن عفان، هو الذي أراهم الوضوء الذي رأى عثمان يفعله، أو ما نقلوه عن عبد الله بن زيد، كيف أراهم وضوء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فذلك لا يعني بالضرورة وضوءه، طالما أنَّ الروايتين مخالفتان للآية، ومتعارضتان مع ما وافق الكتاب العزيز، ممّا جاء عن العترة الطاهرة ـ التي هي ثقله وعدله في الحفظ والبيان والتطبيق.

لجوء الناس إلى كلِّ من هبَّ ودبَّ في أخذ دينهم، دلَّ على حالة الحصار والتضييق والحرب، التي عانى منها أئمة أهل البيت عليهم السلام، وحالة الخوف التي عاشها المسلمون من جراء بطش بني أُمية لكلِّ من يقصد بيوت آل محمّد الأطهار، فذهبوا في طلب الحقيقة بعيداً، ممّا باعد بينهم وبينها، وحال الاستنجاد بمن لا أهلية ولا علم له، دونهم وبلوغ مرامهم.

وتعددت بعد ذلك لقاءاتي بالأخ محمد... الذي استفدت منه أيما استفادة، باعتباره سبقني إلى اتباع خطِّ أهل البيت عليهم السلام، وقد أعلمني ذات يوم بأنَّه سيذهب إلى العاصمة، التي تبعد حوالي ٤٠٠ كلم عن بوابة الجنوب مدينة قابس،

لاقتناء كتب من معرض الكتاب الدولي، الذي يقام بالعاصمة ربيع كلِّ سنة، فرجوته أنْ يقتني لي كتباً بمعرفته، فأبدى استعداده لذلك بكلِّ سرور.

بدأت إذن في تأسيس مكتبة خاصة بي، وكانت نواتها مجموعة الكتب التي اختارها لي الأخ محمد...، والتي كانت متنوعة ومنتقاة حسب احتياجاتي، أذكر من بينها كتاب المراجعات، للسيد الجليل عبد الحسن شرف الدين الموسوي رضوان الله تعالى عليه، والذي عمّق من شعوري بالطمأنينة والارتياح، وزاد في قناعتي بصحة الانتماء إلى إسلام أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وفهمت منه أنَّ مسألة الحكومة الإسلامية، تندرج في خصوصيات المولى سبحانه وتعالى، باعتبار أنَّ الحكم عائد له تقنيناً وحفظاً، وذلك يستوجب آليات لإقامتها، كإرسال الرسل وتنزيل الوحي عبر الملائكة، وحفظ الشرائع بواسطة الأئمة الهداة، الموكلين برعاية الدين والقيام عليه، والمعبر عنه في إطاره العام باللطف الإلهي.

بينما تناولت بقية الكتب، العقائد، والفقه، والسيرة العطرة للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

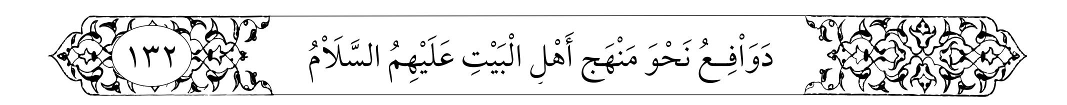
إنَّ مسألة تشيعي لأهل البيت عليهم السلام، لم تكن متعلقة بالشرح الذي وجدته على هامش الموطأ فقط، فذلك لم يكن سوى نقطة تحول، وسبب قوي دفعني إلى جدية تقصي الحقيقة، التي ظلت غائبة عني فترة من الزمن، فحبي وعشقي

للإمام عليٍّ عليه السلام، عنصر آخر لا يمكن إهماله، وإحساس يراود عقلي، بأنَّني قد أكون من سلالة أولئك الذين نذروا أنفسهم لأهل البيت عليهم السلام، والدين الحق الذي احتضنوه واحتضنهم، وفدوه بأنفسهم، وفداهم بأنْ خصص لهم حيزاً من الاعتبار والمحبة، عند الله تعالى وعند رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وعند المؤمنين.

ولو اتبع المسلمون على مدى القرون الماضية، خط أهل البيت عليهم السلام، الذي يمثل الإسلام المحمدي بكلِّ أبعاده وحقائقه، لما ضلوا طريقهم، وانحرفوا عن جادة الطاعة، ولكانت عباداتهم سليمة بسلامة الوضوء فيها.

لذلك فإنَّني أنصح المسلمين، الذين لا يزالون بعيدين عن خط أهل البيت عليهم السلام، أنْ لا يأنسوا لمسألة، ولا يتقبلوا حكماً من الأحكام، المشكوك في صحة ورودها عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، خصوصاً إذا ما اتضح جلياً تهافت القنوات التي ورد عليهم منها الدين، وتواطؤها على تحريف عدد من الأحكام كآية الوضوء مثلاً، والتسبب في ضلال أجيال كثيرة، تعبدت بغسل الرجلين في الوضوء، على أساس أنَّه الحكم الصحيح.

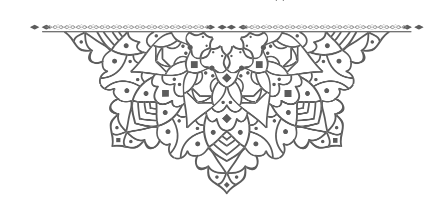
أقول لكم لا تتسرعوا في الحكم على المسلمين الشيعة، حتى تقرؤوا كتبهم،



وليس ما كتبه أعداؤهم، الذين لم يتركوا شائنة إلَّا ألصقوها بهم، فأحمد لله تعالى الذي هداني إلى اتباع أوليائه، الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ليكونوا وعاء دينه، وحملة شريعته، وأمناء وحي نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلم، سادة الدنيا، وسادة الآخرة، وقادة الدنيا، وقادة الآخرة، اللَّهمَّ احشرني في زمرتهم، واجعلني من حزبهم وطائفتهم، وألحقني بهم مؤمناً لا مبدلاً ولا مغيراً، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

الدافع التاسع إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيّعتني الصلاة البتراء



وتدخل عبد الله... ليقول إنَّ الصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الكاملة، هي التي أحدثت في داخلي التحول الكامل نحو الحق، الذي عليه المسلمون الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، فالصلاة التي أمر الله تعالى بها عندما نزلت الآية: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[18].

والتي بيّن النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كيفيتها في الرواية المشهورة:

عن أبي مسعود الأنصاري أنَّه قال: أتانا النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أنْ نصلِّي عليك يا رسول الله فكيف نصلِّي عليك؟ قال فسكت النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، حتى تمنينا أنَّه لم

(١٨): سورة الأحزاب الآية٥٦ .

يسأله، ثمّ قال: «**قولوا اللَّهمَّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنَّك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم**»(١٩).

هي الصلاة الصحيحة، الواجب ذكرها تماماً، كما وردت دون إحداث أيِّ تغيير فيها، لأنَّ تغيير أيِّ شيء ورد فيه نص من البارئ تعالى، أو جاء فيه حديث صحيح من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، يعتبر تحريفاً وتغييراً للشريعة المقدسة.

بمعنى أَنَّنا إذا أردنا أنْ نصلِّي على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، لا بد أنْ نتبع تعاليم الوحي وصاحبه، فنقول: اللَّهمَّ صلِّ على محمّد وآل محمّد، وعندما يُذكر النبيُّ في حضرتنا أو نسمع اسمه حتى من بعيد نقول: صلَّى الله عليه وآله وسلم، لأنَّ تلك الصيغة، هي الصلاة الصحيحة الكاملة.

ومع التشديد على عدم تجاوز النص، حصل التجاوز بخصوص عدد من الأحكام الواجبة، من بينها الصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومع تحذير النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، بعدم التصرف في الصلاة عليه بالنقصان أو الزيادة

---

(١٩): الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ج ١١ ص١٦٦/ صحيح البخاري في كتاب الأنبياء وكتاب الدعوات / صحيح مسلم / وأخرجه كلٌّ من الترمذي والنسائي وابن ماجة وأبي داود وأحمد في مسنده والدارمي في سننه.

قائلاً: «**لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء**». فقيل وما الصلاة البتراء يا رسول الله؟ فقال: «**تصلون عليَّ وتمسكون**». حصل المحظور، ووقع ما تخوّف منه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

كنت أُصلِّي الصبح، وبقية الصلوات بحسب الظروف في المسجد الجامع، الذي لا يبعد عن مقرِّ إقامتي غير بضع مئات من الأمتار، وبعد الصلاة يبدأ المؤذن في قراءة ما تيسر من التعقيبات، وكان من بينها الصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فكان يردّدها صحيحة، ويردّد معه المصلون الراغبون في التعقيب، فالتفتُّ إلى تلك النقطة، وتساءلت لماذا يصلِّي الناس على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم صلاة كاملة، في تعقيبات الصلوات، وعند الصلاة عليه خارج ذلك الإطار، يسقطون الصلاة على آله الكرام البررة؟ ومن لا يسقط آل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، يدخل معهم من لا تشملهم تلك الصلاة الخاصة بالنبيِّ وآله، كأزواجه وأصحابه.

وطالما أنَّه أمر نزل فيه الوحي، وفصله النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، بحيث لم يترك فيه مجالاً للتأويل، فلماذا يتعامل حياله المسلمون بهذا الأُسلوب المقصر؟

وفهمت أنَّ الأمر جاء تبعاً لتداعيات الحرب، التي قامت على أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والتي كانت غير معلنة بشكل واضح، في العقد الأول الذي أعقب وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ثمَّ استفحل الأمر بعد شهادة

الإمام عليٍّ عليه السلام، واشتد على أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام مسموماً.

وكانت شعيرة الصلاة على آل النبيِّ إحدى ضحايا تلك الحرب، التي لم تراعِ قيمة من القيم التي جاء الإسلام من أجل إعلائها، فسعى بنو أُمية وأعوانهم بكلِّ ما أُوتوا من دهاء وخبث، إلى محقها ومحو آثارها الروحية.

أنا لا أقول إنَّ تحريف الصلاة، المسماة عندنا بالصلاة الإبراهيمية، قد تقبله المسلمون من أتباع خط السقيفة بالرضا والتطبيق، بقدر ما أُجزم أنَّ الذي أَسس ذلك التحريف، هم أدعياء العلم من أتباع الأنظمة الظالمة، التي شجعت على التحريف، وأجرته مجرى التنفيذ، لصرف المسلمين عن مكانة أهل البيت عليهم السلام وما ميزهم عن جيل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

الرواية المحرفة، عثرت عليها أثناء تصفحي لموطأ مالك، محاكية للصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الصحيحة، ومكتوبة جنباً إلى جنب معها، تقول: عن أبي حميد الساعدي أنَّهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلِّي عليك؟ فقال: قولوا اللَّهمَّ صلِّ على محمّد وأزواجه وذريته، كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمّد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنَّك حميد مجيد.

وبمجرد قراءتها تكتشف عدم تناسق ألفاظ الرواية، ممّا يوحي إليك من

الوهلة الأُولى، أنَّ هناك من استبدل ألفاظ «وآل محمد»، وأحلَّ محلها «وأزواجه وذرّيته»، في محاولة يائسة لإقناع المسلمين، بأنَّ آل محمّد هم أزواجه وذريته فقط، وبذلك يخرجون علياً عليه السلام من حساب آل محمّد صلَّى الله عليهم أجمعين.

إنَّ الصلاة التي نحن بصددها، هي الصلاة الكاملة للصفوة الطاهرة، ليس لنا الحق في أنْ نسقط منها ونضيف، لأنَّنا لسنا طرفاً في التشريع، المشرع الوحيد هو الله تعالى، ومن سوّلت له نفسه دخول ذلك الباب، تحت أيِّ عنوان، فقد برز لله بالمعصية، ومن فعل ذلك فقد ضمن لنفسه دخول جهنم وبئس المصير، ولا أخال عاقلاً يرغب في البروز إلى الله تعالى بمعصية التحريف، وعذاب يوم القيامة، ودخول النار وبئس القرار.

لكنَّني، وفي بداية اكتشافي لتحريف الصلاة على محمّد وآل محمد، لم أتبين السبب الذي دعا بأصحابه إلى القيام بذلك العمل المشين، الذي حرم كثيراً من أتباع ذلك الخط، أجراً كانوا سيجنونه من الصلاة، لو بقي الحديث كما قاله النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم غير محرف، لذلك لم أجد جواباً في تلك الفترة من الزمن، وبقي السؤال عالقاً دون إجابة، إلى أنْ وقع في يدي يوماً كتاب تاريخي، تناول الأحداث التاريخية للعصر الأُموي، فقرأت عن محدثات معاوية لعنه الله، وجناياته على أهل البيت عليهم السلام من سبٍّ، وقتل، وتحريف، ثمّ مررت على تمرد عبد الله بن

الزبير على عبد الملك بن مروان، واستيلائه على مكة حوالي السنتين، واستوقفني تصرفه الذي أظهر ضغينة وبغضاً وعداءً، لا يمكن وصفه لأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقد بقي الرجل أكثر من أربعين جمعة، لا يصلِّي في خطبتيها على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقيل له لماذا فعلت ذلك؟ فقال: إنَّ له أهيل سوء، أردت أنْ أرغم أُنوفهم.

ساءني ذلك الأمر أيما إساءة، وحزَّ في نفسي أنْ يتطاول المتطاولون على الإسلام وأهله، مفضوحو النيات، قد انكشفت عورات سرائرهم، ومع ذلك ما زال الناس ينظرون إليهم، نظر المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، خصوصاً ونحن أمام نصٍّ صريح من الله تعالى، يأمرنا فيه بمودة أهل البيت عليهم السلام، أجراً لما ما بذله النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من أجل تبليغه رسالة الإسلام إلينا، فقال جلَّ من قائل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[٢٠] ثمّ ثنى حرصاً وتشجيعاً في الآية نفسه بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٢١] والمودة محبة، تتطلب الالتفات إلى كلِّ ما يتعلق بأحوال أهل البيت عليهم السلام، من تقديم واحترام وتبجيل وطاعة وموالاة، وتعهد لأمرهم، ومحبة

---

(٢٠): سورة الشورى الآية ٢٣.

(٢١): سورة الشورى الآية ٢٣.

من يحبهم، وبغض من يبغضهم، ومحاربة من يحاربهم، ومسالمة من يسالمهم، تلك هي المودة الحقيقية، أمَّا القول الذي لا فعل معه، فلا معنى له ولا وزن.

أمّا من جانب النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقد أكد على أنَّ محبة عليٍّ عليه السلام إيمان، وبغضه نفاق، في حديثه الذي تناقله الحفاظ بقوله: «**يا عليُّ لا يحبك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلَّا منافق**»[٢٢]، وكان الصحابة يقولون: «**كنا نعرف المنافقين ببغضهم لعليٍّ**»[٢٣]، فكلُّ من أعلن بغض عليٍّ عليه السلام كائناً من كان، فهو منافق بالنص النبوي، وكلُّ من أعلن حبَّ عليٍّ عليه السلام، فهو مؤمن بالنصّ النبويِّ أيضاً.

إنَّ المتتبع لسيرة عبد الله بن الزبير، يمكنه دون عناء أنْ يستجلي حقيقته، من خلال مواقفه التي كان يريد من خلالها، أنْ يكون له حظ في السلطة، ومسك زمام الأُمَّة، فهو الذي أخرج أباه الزبير بن العوام، الذي قال عنه الإمام عليٌّ عليه السلام: «**ما زال الزبير منا حتى ولد له ولده عبد الله**».

ولم يكن عبد الله بن الزبير في هذا الشأن، غير مقلد لأثر معاوية بن أبي سفيان، الذي لم يمنع الصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فقط، بل ابتدع لعن الطاهرين من أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومنع أحكاماً، وحرف

---

(٢٢): صحيح مسلم ج١ ص٣٩.

(٢٣): سنن الترمذي ج٥ ص ٦٣٥ / ٣٧١٧- المعجم الأوسط للطبراني ج٢ ص ٣٩١/ ٢١٤٦.

سنناً، وعطل حدوداً، وارتكب جرائم تقشعر منها نفوس البشر، والتي منها التحريض على قتل سبط النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، بدسِّ السّم له، وقتل فضلاء الصحابة، كحجر بن عدي ومن معه في مرج عذراء.

ولقد رأيت من إصرار الناس طيلة هذه القرون، على التمسك بالصلاة البتراء، تصغيراً من شأن أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ما يدعو إلى النظر في تعبد هؤلاء وأحوالهم، مع أنَّ الذين أسسوا أساس التحريف والحرب والمنع، قد ذهبوا بجرائرهم وجرائمهم وتبعاتهم، فقد بقيت آثارهم السيئة بين المسلمين، يتقربون بها إلى الله، ولا ملتفت إلى ذلك، إلَّا القلة القليلة من الذين فتح الله تعالى بصائرهم على الحق، فاتبعوه ونفضوا أيدهم من باطل بني أُمية وزيفهم وتركوه.

وبظهور الوهابية والسلفية، ظهرت طريقة أُخرى للصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، زيد فيها السلف من الصحابة، كالآتي: اللَّهمَّ صلِّ على محمد وآله وصحبه وسلم.

مع أنَّ بقية الناس بما فيهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، إلى هذا العصر لهم صلاتهم الخاصة بهم من الله تعالى، وهي في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[٢٤].

---

(٢٤): سورة الأحزاب الآية٤٣.

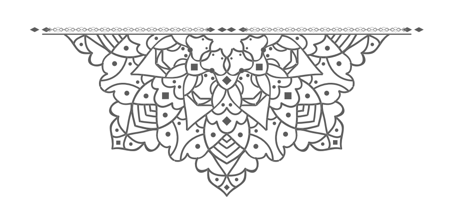
الإشكال الآخر تمثل في تعود أتباع خط الخلافة، على عدم الصلاة على أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، عندما يذكر النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في حضورهم، حتى عرفوا وتميزوا عن بقية المسلمين، بعدم الصلاة عليهم، فيقولون ويكتبون (ص) والأَولى الأصح أنْ يقولوا (صلّى الله عليه وآله وسلم) تطبيقاً للصلاة الكاملة، التي أمرهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بها، وبذلك فهمت أنَّ الناس يتعبدون ليس بالنص، بقدر ما يتعبدون وراثة، وبلا أدنى نظر وتحقيق، ولو كان هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم في معسكر المحاربين لأهل بيت النبوة، يقيمون ما ورد إليهم، وألزموا به أنفسهم، لرجعوا إلى الحق، وعملوا بمقتضاه، ووالوا قلباً وقالباً الصفوة الطاهرة، وعملوا بذلك على إرضاء الله تعالى، ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

بعد ذلك تعرفت على أحد الإخوة الشيعة، فتحدثت معه، فوجدته إنساناً متكامل العقل والعقيدة، وصاحب حجة وبرهان، وكانت إطلالتي على درر أهل البيت عليهم السلام عن طريقه، فالتزمته وتتبعت طيفه، واقتفيت أثره، ناسجاً على منواله بما حباه الله تعالى من بصيرة وعقل، رداء الموالاة الصادق علماً وعملاً، ومن حديث الغدير، إلى حديث الثقلين، إلى حديث المنزلة، إلى حديث السفينة، إلى آية التطهير، وآية الولاية، وغيرها من النصوص، والتي رجعت بعد كلِّ لقاء معه، إلى

المراجع التي استدل بها العلماء على أحقية أهل البيت عليهم السلام، بالاتباع وقيادة الأُمَّة، لأجد كلَّ ما احتج به عليَّ في كتبي المعتمدة، فاقتنعت بأنَّ اتباع أهل البيت عليهم السلام، هو سبيل النجاة الوحيد من طوفان التحريف والجهل، الذي عليه بقية المسلمين، نسأل الله أنْ يبصرهم به وينقذهم منه.

الدافع العاشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيّعتني البسملة



كان من بين الحضور شاب في مقتبل العمر، يتقد إيماناً وحيوية، اسمه زهير... بدأ حياته مع أخيه في التجارة، وكان له في ذلك مجال للتعرف على مختلف طبقات الناس، أفكاراً وسلوكاً. جاء دوره في الكلام، ورغم شدة حيائه، وعدم تعوده على الحديث، وسط مجموعة كبيرة من الناس، إلَّا أنَّه تماسك متحدياً الحرج الذي بدا على ملامح وجهه، فقال: لم أكن مدركاً قيمة البسملة، إلَّا بعدما قرأت في التفاسير قول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**بسم الله الرحمن الرحيم، أقرب إلى اسم الله الأعظم، من سواد العين إلى بياضها**»(٢٥).

وقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أيضاً: «**من أراد أنْ ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر، فليقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فإنَّ فيها تسعة عشر حرفاً، يجعل الله**

(٢٥): تفسير الدر المنثور لجلال الدين السيوطي.

كلَّ حرف منها جنة من واحد منهم»[٢٦].

ومع إدراكي لقيمتها وفضلها، لم أفهم السبب الذي دعا أهل طائفتي الملقبين بأهل السنة والجماعة إلى ترك البسملة، وعدم قراءتها في صلواتهم المفروضة، وتمادوا جميعاً في الإصرار على ذلك الجفاء.

آية بتلك القيمة والعظمة والمكانة، تعزف عنها شريحة كبرى من المسلمين، ويتجنبها من يتجنبها منهم، ويتنفر منها من يتنفر، كأنَّها ليست من الوحي ولا من كتاب الله، وزاد في حيرتي، عثوري على نصوص من الخط الذي كنت فيه، تقول: سئل أنس: كيف كانت قراءة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: كانت مدّاً، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمدّ ببسم الله، ويمدّ بالرّحمن، ويمدّ بالرّحيم.

ويضيف زهير...: فلم أجد مبرراً يسوغ للمالكية وللحنابلة وللحنفية إسقاط قراءة البسملة من فاتحة الكتاب، وفي مفتتح السور في صلاة الفريضة، ولم أرَ مبرراً واحداً يسمح بذلك الترك، ويعطي الحرية لأيٍّ كان في إضافة أو حذف أيِّ شيء من وحي الله وكلماته التامات، وبدأت أشعر أنَّ ذلك الإجراء الظالم لثلاثة من أسماء الله تعالى ضمتهم آية مباركة هو نوع من التحريف الذي لا مسوغ له.

وزاد عجبي من الأشرطة التي تباع في الأسواق، والتي تحتوي على تلاوات

---

(٢٦): تفسير الدر المنثور لجلال الدين السيوطي.

متنوعة من القراء، وأخص بالذكر منهم الوهابيون أمثال الحذيفي والسديس وغيرهما، تسمع منها قراءات متقنة وأصواتاً جميلة، لكنَّك تصطدم بأنَّ هؤلاء جميعاً مضربون عن قراءة البسملة، فيستنجد طابع الشريط إلى صوت آخر يقرأ البسملة، كأنَّ الآية ليست من القرآن، أو بها مانع يحول دون قراءتها، أو هي ناقض من نواقض القراءة، يفرّ منه قراء الوهابية بعدم تلاوتها.

لكنَّ الأعجب من ذلك أنَّ هؤلاء المساكين المتعبدين بالتقليد والوراثة، يقرؤون البسملة في نوافل ليالي شهر رمضان، والمسماة بالتراويح، كأنَّما النوافل عندهم تحتمل ما لا تحتمله الفرائض، أو أنَّها أقلّ درجة أو قيمة منها.

لم أجد طيلة فترة تساؤلي عن علة إهمال البسملة، من يقدم لي الجواب الشافي، إلى أنْ التقيت بصديق معروف بتشيعه لأهل البيت عليهم السلام، فكانت له المبادرة إلى طرح هذا الإشكال، فما كان مني إلَّا أن استوقفته متسائلاً: وهل هناك من يقرأ البسملة في الفرائض؟ فقال: نعم إنَّ الأئمة الأطهار من أهل بيت النبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأتباعهم من الشيعة الإمامية الاثني عشرية، يوجبون قراءة البسملة في كلِّ الصلوات، مفروضة كانت أم مسنونة، وذلك اتباعاً لما ورثوه من أبيهم الإمام عليِّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو بدوره أخذ ذلك، عن أخيه وابن عمّه النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، بل لعلَّ الشافعي وهو واحد

من المذاهب الأربعة، قد أوجب قراءة البسملة، وأبطل صلاة تاركها، وقد يكون أخذ وجوبها من علماء الشيعة، لأنَّ غيرهم قد اتبع أمر معاوية في منع البسملة، ورفع اليدين في التكبير، سعياً إلى إبطال آثار عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، كأنَّ معاوية ومن تبعه لا يدركون، أنَّ تلك الآثار التي حاولوا منعها، هي دين الله تعالى، وآثار رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

فقلت له: إذن فإنَّ المعضلة التي حالت دون قراءة البسملة في الصلوات المفروضة، هي بسبب سياسة معاوية بن أبي سفيان، في محو آثار عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال صديقي: نعم، إنَّ التحريف الذي أشاعه بنو أُمية، وحزب الطلقاء عموماً، قد أضرَّ بعدد من الفرائض والسنن العبادية، التي كان أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام يطبقها، فعملوا على محو تلك الآثار، على أساس أنَّها متعلقة بعدوهم عليٍّ عليه السلام، من ذلك على سبيل المثال تحريف تفسير آية الوضوء، وبتر الصلاة على آل محمّد، وغيرها من المسائل التي عرف بها أهل البيت عليهم السلام، المحاربون من طرف هؤلاء الظلمة.

وهذا الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، أُستاذ مالك بن أنس وأبي حنيفة، قال: «**قاتلهم الله لقد عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله، فزعموا أنَّها بدعة**

إذا أظهروها، وهي بسم الله الرحمن الرحيم».

والإمام عليه السلام يقصد، أنَّ الذين منعوا البسملة هم بنو أُمية، وعلى رأسهم مؤسس الباطل والتحريف معاوية بن أبي سفيان.

أخرج الدارقطني والحاكم في المستدرك عن أنس أنَّ معاوية صلَّى بالمدينة فترك البسملة، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك، فلمّا صلَّى المرَّة الثانية بسمل(٢٧)، لكنَّني أقول إنَّه ثبت بعد ذلك على ما حكاه النيسابوري في تفسيره أنَّ اضطراب روايات أنس حول البسملة كانت بسبب تشدد حكام بني أُمية وعلى رأسهم معاوية مؤسس بدعة ترك البسملة، والتي تعمد حذف قراءتها وحمل المسلمين على ذلك إظهاراً لخلاف الإمام عليٍّ عليه السلام الذي كان يقرأها في كلِّ الصلوات، وكما نعلم جميعاً أنَّ علياً كان العالم والفقيه الورع الذي تعلم من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وعلَّم من حوله من المسلمين بعد ذلك، فلا يعقل أنْ يأخذ المسلمون عن معاوية ويتركون علياً وهو العلم الهادي والسبيل الواضح للمسلمين لا يختلف فيه اثنان.

قلت له: أنا إلى الآن، لم أفهم الداعي الذي ألجأ بني أُمية، إلى تتبع هذه المسائل الفقهية، والعمل على مسخ حقائقها، على الرغم من أنَّها لا تشكل أيَّ خطر

---

(٢٧): تفسير ابن كثير ج١ص٣٠/ ٣١.

على سلطانهم؟

فقال لي: قد يظهر لك أنَّ في الإجراء الذي اتخذه معاوية، وسار عليه بنو أُمية أجيالاً عديدة، من أبناء القرنين الأول والثاني، يكتسي غرابة، ولكنْ إذا اطلعت على الأوامر التي أطلقها في البلاد، طولاً وعرضاً، شرقاً وغرباً، تستطيع أنْ تفهم القصد والغاية التي خطط لها طلقاء بني أُمية، وسعوا للوصول إليها، وهي إجراء التحريف في مختلف مجالات وأوجه الدين، مجرى الدم من العروق، وإنفاذ كلِّ البدع التي اختُلقت في تلك الأزمنة، لتتحول فيها بعد سنة نبوية، أو حكماً واجباً، أو شخصية ذات قداسة، تفوق كلَّ التصورات، ومثال على ذلك ما أختُلق لأهل بدر قوله صلَّى الله عليه وآله وسلم: لعلَّ الله أنْ يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

فقلت له: البسملة كما نعرف، ليست ترقيماً حتى يتجاوزه الناس، وإنَّما هي آية لها من الشأن، ما يندر أنْ تضاهيه فيها آية أُخرى، فهي تستفتح بذكر ثلاثة من أسماء الله، وهي: الله – الرحمن – الرحيم.

قد جعلها الله تعالى مفتتحاً لـ ١١٣ سورة، عدا سورة براءة، والمسماة بالتوبة أيضاً، لكنّه تعالى ثناها في سورة النمل، فهي السورة الوحيدة التي فيها البسملة

مرتين، واحدة في مفتتح السورة، والثانية في الآية ٣٠ منها: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فهل عميت أعين من أنكر قراءتها في الصلاة وفي الترتيل، أم أنَّ التبعية المذهبية المؤسسة على التقليد الأعمى لا تزال تتحكم في مسار المسلمين كلٌّ حسب انتمائه، ومن حذا حذو هؤلاء إلى درجة جحدها، والقول بأنَّها ليست آية، كما هو الشأن بالنسبة لأبي بكر الباقلاني، وأبي بكر بن العربي المالكيان، اللذان أكدا أنَّها ليست من القرآن، متعللين بأنَّه لو كانت كذلك لما وقع فيها خلاف، فانظر جنبك الله الهوى وأتباع العصبية المبعدين عن الحق إلى أيَّ مستوى ينزل هؤلاء؟

روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. وقد علق عليه الحاكم النيسابوري بقوله حديث صحيح[٢٨].

وعلى سبيل المثال أخرج الدارقطني عن أبي هريرة عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أنَّه قال: (إذا قرأتم الحمد لله فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، فإنَّها أُمُّ القرآن والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحداها)[٢٩]، وكان الصحابة لا يعرفون انتهاء سورة، وابتداء أُخرى، إلَّا ببسم الله الرحمن الرحيم.

---

(٢٨): تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٠.

(٢٩): سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ح١١٨٣.

قلت له: لقد تبين لي الآن أنَّ بني أُمية قد أدخلوا في الدين أشياء ليست منه، واختلقوا سنناً وأحكاماً ليست من الإسلام في شيء، من أجل تغيير ما اتخذه أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ديناً وأحكاماً، لكن من أين جاء لفظ آمين في آخر الفاتحة؟

فقال: لم يصح حديث عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أنَّه قال آمين بعد قراءته لفاتحة الكتاب، لأنَّ الفاتحة تدخل في مقام القراءة، والدعاء مخصص بالقنوت، فهل يعقل أنْ نسقط أعظم آية، لنختمها بما يختتم به النصارى في كنائسهم، وهي آمين Amen.

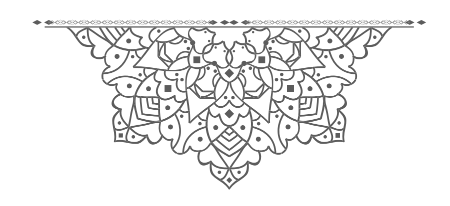
وأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم يتعبدوا بنص، إلَّا ومعهم بيانه، وفي حوزتهم نصوصه، وبين أيديهم علته وأسبابه، لم يختلفوا يوماً إلى الشك والظن، ولا افتقدوا من حججهم ما أسقط احتجاجهم على مدى الدهر.

فقلت له: الآن اطمأن قلبي، وعرفت العلة التي حدت بهؤلاء القوم إلى ترك البسملة، وأحمد الله تعالى، الذي استنقذني من الانجراف وراء تبع بني أُمية، الذين تصوروا أنَّهم أتباع سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وما هم إلَّا عابدون بالوراثة التي لا تستند إلى حجة ويقين، ومتبعون لمحدثات معاوية، اعتقاداً منهم أنَّها سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

هذا ما دار بيني وبين صديقي من حوار، ذكرته لكم، لتقفوا عن كثب على القناعة التي حصلت لي، وتتعرفوا على السبب الذي جعلني أتخلى عن المذهب المالكي، الذي وجدت أهلي منتسبين إليه وراثة، وأعتنق إسلام الطاهرين من أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأفتخر الآن أنَّني من شيعتهم وفي صفهم، ثبتني الله على ذلك في الدنيا والآخرة، والحمد لله أولاً وأخيراً.

الدافع الحادي عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيعني حديث الطائفة الظاهرة على الحق



عليّ... كهل تجاوز الخمسين من عمره، مع ذلك لم يمنعه تقدمه في السن، من أنْ ينافس الشباب المؤمن في حيويته ونشاطه، ومقاسمته آمالاً عريضة، في الغد المشرق للدين وأهله.

ورغم التوعك الصحي الذي ألمَّ به قبل موعد الجلسة، فإنَّه أبى إلَّا أنْ يكون حاضراً، مساهماً معنا في الإدلاء بشهادته، عن السبب الذي أقنعه بترك مذهب آبائه وأجداده، واعتناق مذهب أهل البيت عليهم السلام، والمعروف بالشيعة الإمامية الاثني عشريّة.

فُسح المجال لعليٍّ... في الكلام فقال: كنت من المتحمسين للدين الإسلامي، ومهتماً بكل متعلقاته، حاملاً هموم الأُمَّة وآمالها، شأني في ذلك شأن الطلائع المؤمنة، التي كُتب عليها أنْ تتحمل مسؤوليات ثقيلة، في توعية القاعدة وإرشادها، خاصة

نحن نعيش في عصر كشَّر فيه أعداء الدين عن أنيابهم، وأبدوا من العداوة والحرب للدين وأهله، ما لم يظهر منهم في السابق، وبمعنى آخر، كانت الحرب على الإسلام في ما مضى تحاك بسرية وتخفٍّ، بينما ظهرت على بعض المسارح اليوم بكلِّ جلاء، تفاصيل مؤامرات ما كان لها أنْ تطفو على الواجهة، لو تمسكت الأُمَّة بدينها، ولعلَّ أحبولة الدنيا ومتاعها، هي التي أوقعت الناس في مطب إهمال الدين وتركه، ففارقوا معتصمهم ومنجاتهم في الدنيا والآخرة، إلى متاع لا قيمة له في الميزان الأُخروي، واتبعوا مسلك الشيطان، الذي أفضى بهم إلى الذلة والهوان، فخسروا المطلبين.

كنت من عشاق قراءة القرآن الكريم، وتلاوته وتعهده صباحاً ومساءً، لا يمنعني من ذلك طارئ أو عارض، وإنْ تخلفت عن حصصه مرّة تداركتها سريعاً، فتربَّت روحي على روحية الوحي، وتشبع عقلي بآياته العظيمة، من خلال تدبري لها أثناء التلاوة والترتيل، من بين المصطلحات اللافتة في القرآن، والتي أخذت من اهتمامي مأخذه، الآيات التي تحدثت عن نسبية الفهم والإيمان عند الناس، فعدد منها أشار إلى حقيقة، أفادت بأنَّ أهل الحق قلة، وأنَّ أصحاب الإيمان قلة أيضاً، وأنَّ الوعاة والعارفين، وأصحاب الخصال الرفيعة قلة أيضاً، حتى أنَّ أتباع الأنبياء الصادقين كانوا قلة، والصفوة من بيوتات الأنبياء عليهم السلام هم قلة القلة،

ففهمت من خلال القرآن الكريم، أنَّ أتباع الصراط السوي، الذي جعله الله تعالى منهجاً آمناً للناس، قلة مقارنة بغيرهم، فقال جلَّ من قائل: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(٣٠)، ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هم ﴾(٣١)، ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(٣٢)، ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ﴾(٣٣).

ومقابل الثلة المؤمنة، التي حصرها الله تعالى في عدد صغير من الناس، أظهر لنا الكتاب العزيز معادلة أُخرى، تمثلت في أنَّ أتباع الباطل، كثرة لا تقاس مقارنة بالثلة المحقة.

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣٤) .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٣٥) .

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾(٣٦).

---

(٣٠): سورة سبأ الآية ١٣.

(٣١): سورة ص الآية ٢٤.

(٣٢): سورة الكهف الآية ٢٢.

(٣٣): سورة البقرة الآية ٢٤٩.

(٣٤): سورة يوسف الآية٢١ .

(٣٥): سورة العنكبوت الآية ٦٣.

(٣٦): سورة الأنعام الآية ١١٦.



﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[٣٧].

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[٣٨] .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٣٩].

فحصلت لدي قناعة، أنَّ تلك المعادلة القرآنية مفادها أنَّ أتباع الدين الحق أقلية، وأنَّ أتباع مسالك الانحراف عن الدين الحق أكثرية، فعرفت حينها أنَّ المتمسكين بالدين الحق، والمعبر عنه بالدين القيم، هم قلة قليلة، وطائفة من وسط الأُمَّة الإسلامية، ذلك لأنَّ المفهوم القرآني، قد اعتمد على ترجيح القلة، من أتباع الحق على الكثرة، ثم اتجهت إلى كتب السيرة والحديث، فوجدت أنَّ أتباع الأنبياء والرسل عليهم السلام، بما فيهم الرسول الخاتم صلَّى الله عليه وآله وسلم، قلة مستضعفون، ليس لهم ثقل في مجتمعاتهم...

وبتعدد قراءتي بدأت تظهر لي، معانٍ ومفاهيم متنوعة، وكان تركيزي على الأحاديث الإخبارية المتعلقة بمستقبل الأُمَّة الإسلامية، فعثرت على أهم رواية، جعلتني بعد الاطلاع عليها، وإنزالها على أرض الواقع الإسلامي قديماً وحديثاً،

---

(٣٧): سورة الزخرف الآية ٧٨.

(٣٨): سورة يوسف الآية ١٠٦ .

(٣٩): سورة يوسف الآية ١٠٣ .

أقتنع أنَّ الحق لا يمكنه أنْ يتخطى أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلى غيرهم، والدليل قائم خفاق الراية، دال على أحقية ذلك الخط، في أنْ يكون ممثلاً وحيداً للإسلام الصافي، الذي جاء به جدهم صلَّى الله عليه وآله وسلم، الرواية تقول: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم :«**لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»(٤٠)، أخرج الحديث جميع الحفاظ، متفقين على صحة صدوره عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وبذلك ينقطع سبب الطعن فيه.

وبالنظر إلى متن الحديث، نرى أنَّ في كلام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، إخباراً بأنَّ الدين الذي جاء به، والذي عبَّر عنه بالحق، سيكون ملاكه طائفة من أُمَّته، دون بقيتها، وهم في حال من الظهور والبروز، بشكل جلي في حاضرة الساحة الإسلامية، وفي وسط مجتمعاتها على مرِّ العصور، دون انقطاع من عصر النبوة، إلى أنْ يأتي أمر الله تعالى، لا يلحقهم ضرر من مخالفيهم، مهما أوتوا من فنون التمويه والمكر والخداع والتزوير، لأنَّ الدين الذي تبنوه، هو دين الله سبحانه وتعالى، والكلمة التي ألزموا بها أنفسهم، هي كلمته جلَّ شأنه.

ونظرت في دائرة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فلم أجد غير عليٍّ عليه

---

(٤٠): صحيح مسلم كتاب الإمارة حديث رقم: ١٩٢٠ وحديث ١٩٢٣.

السلام، عنصراً يحمل عنوان تلك الطائفة، ورمزاً يؤكد أنَّ ذلك الظهور، غير منفك عن العصر النبوي، رافعاً شعار أحقيته في قيادة الأُمَّة الإسلامية، مدللاً على ذلك بجملة من الأفعال التي أقرَّ بها المخالفون له، اعترافاً منهم بالعجز عن حلِّ المعضلات التي ليس لها أبو الحسن.

وورث النهج العلوي أبناء عليٍّ عليه السلام، إماما الرحمة، وسبطا الهدى، وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السلام، ومن بعدهما جاء بقية أسباط الأُمَّة، من النسل الطاهر عليهم السلام، وتبعهم شيعتهم البررة في كلِّ العصور، متحدين كلَّ عوامل إعاقة بقاء نهجهم المحمّدي الأصيل، ظاهرين على من خالفهم، متمسكين بالقيم الإسلامية الصافية، باذلين من أجلها النفس والمال والولد.

لم يكن من السهل عليَّ أنْ أجد هذا الدليل، فقد وفقني الله له، بعد جهد ومعاناة، استمرت أشهراً وسنوات، وقفت فيها أيضاً على أنَّ بقية الخطوط الإسلامية كانت على صنفين:

الصنف الأول: هي المذاهب التي تأسست بعد وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، بأجيال ناهزت القرنين، لم يتحقق لهم فيها ظهور، بقي منها من بقي، بسبب دعم الحكام لبعضها خدمة لأغراضه، ومناوئة لأهل الحق، من المحاربين لسياسات أولئك الحكام الظلمة، أذكر منها: المذاهب الأربعة في الفروع، ومذهب الأشعري

في الأُصول، والتي تناسل منها عدد آخر من الفرق، كالوهابية والجماعات التكفيرية كتنظيم القاعدة، والجماعات كالتكفير والهجرة، المنضوية تحت مظلة السلفية.

الصنف الثاني: المذاهب التي تأسست أيضاً بعد وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، منقطعة عن عصره، واندثرت بسبب عدم دعم الحكام لها، فأفلتْ ولم يعد لها وجود، لانتهائها بموت أصحابها، والأمثلة عديدة أسوق منها: مذهب الليث، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وابن عيينة، والطبري.

وتيقنت بعد ذلك أنَّ المذهب الذي كنت أعتنقه، وهو مذهب مالك بن أنس، لم يكن ليجد طريقه للوجود، لولا أبو جعفر المنصور العباسي، الذي أمر مالكاً أنْ يكتب له كتاباً يواطئ عليه الناس، في مسعى منه لصرفهم عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، الذي مال الناس إليه لاستقامته وغزارة علمه وتقواه واكتظ طلبة العلم في حلقة درسه بالمسجد النبوي، وكان مالك أحد تلاميذه، ولم يسطع نجم مالك هذا، إلَّا بعد الدعم المتواصل للعباسيين له، حيث اعتمد فقيهاً للسلطة العباسية في المدينة، ونودي في أنحائها (لا يفتى ومالك في المدينة). والحال أنَّ المدينة تعج بشيوخ وأساتذة مالك، ممّن لا يرضون بالركون إلى الظالمين، وعلى رأس هؤلاء أستاذهم الأكبر، أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

ولم يكن لجوء المنصور إلى مالك، إلَّا بعد أنْ أسقط من يديه، محاولة تقريب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام إلى بلاطه، تلك المحاولة التي سجلها التاريخ، بأحرف من عزّة وإباء.

أرسل المنصور العباسي إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام متودداً: لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فردَّ عليه: «**ليس لنا من الدنيا ما نخافكم عليه، وليس لكم من الآخرة ما نرجوكم منه، فلِمَ نغشاكم؟**».

فردَّ عليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا؟ فأجاب الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «**من كان يريد الدنيا فلا ينصحكم، ومن كان يريد الآخرة فلا يصحبكم والسلام**»[٤١].

في عصر تزلف به المتزلفون، وتقرب تجار الدين بالدنيا، إلى سلاطين الظلم وأئمة الجور، كمالك بن أنس وغيره، ممّن كانوا يترددون على حكام، شهد لهم التاريخ بفظائع، تكررت مع حلول كلِّ واحد منهم على هرم السلطة في الأُمَّة، والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**إذا رأيتم الفقهاء على أبواب السلاطين فاتهموهم**»[٤٢].

ولم يكن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، مؤسس جامعة العلوم

---

(٤١): الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر.

(٤٢): صحيح مسلم كتاب الإمارة.

الإسلامية في المدينة بعد أبيه محمّد بن عليٍّ باقر العلوم، والتي تخرج منها أربعة آلاف عالم، في مختلف العلوم والفنون، متبعاً غير منهج آبائه وأجداده في الالتزام بالإسلام المحمّدي الأصيل، الذي لم تشبه شائبة، ولم يخالط كيانه دخيل من دخائل المتسلطين على رقاب المسلمين، من بني أُمية وبني العباس، الذين لم يكن همهم رعاية الدين، بقدر ما كانوا يبحثون عمن يمرر مصالحهم، ويحقق مطامحهم، ويكرس رغبتهم في ترويض الأُمَّة، وإخضاعها لإرادتهم، وقد نجحوا في ذلك، من خلال غرس عقيدة تحريم الخروج على أولئك الحكام، بدعوى محاربة الظلم، قد نسبوا إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، نهيه عن ذلك بقوله: ستكون أُمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكنْ من رضي وتابع. قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا. ومن شاء، فيراجع باب الإمارة، من كتب الحديث عند (أهل السنة)[٤٣].

وبعد اطلاعي على تسلسل ظهور خط إسلام أئمة أهل البيت عليهم السلام، والمعروف بالشيعة الإمامية الاثني عشرية، وكما يحلو للبعض تسميته بالرافضة، وقوفاً دون إدراك لمعنى الرفض الذي ألبسوهم جلبابه، وأدخلوهم مصراع بابه، وما هو في حقيقة معناه، إلَّا رفض للأدعياء والظالمين، الذين تسلطوا على رقاب المسلمين، ممّن لا أهلية لهم في قيادة الأُمَّة، فخرجت من استنتاجاتي واطلاعاتي،

(٤٣): صحيح مسلم كتاب الإمارة حديث رقم: ١٨٥٥ وحديث رقم ١٨٥٦.

مقتنعاً بأحقية ذلك المنهج، وموافقته للنصوص التي جاء بها القرآن والسنة المطهرة، زاده يقيناً ورسوخاً وظهوراً في هذا العصر، في أبهى وأجلى مظاهره، من خلال هذه الثورة الإسلامية المباركة في إيران، التي قوضت صرح دكتاتورية غاشمة، كانت تمثل شرطي الاستكبار العالمي، في منطقة الشرق الأوسط، والتي أثمرت جمهورية إسلامية، تفردت في الظهور، لتكون النموذج الصحيح لطرح إسلامي، بقي بعيداً عن دائرة السلطة دهراً طويلاً، ليفرض نفسه في العصر الحديث، مع مرور الأيام، مثالاً لنظام الحكم الأمثل في الإسلام يمكن أنْ ينسج المسلمون الحقيقيون على منواله.

مضافاً إلى ذلك، لا يفوتني أنْ أضرب مثالاً آخر، جاء من ذلك الخط المبارك نفسه، متمثلاً في حزب الله لبنان، الذي كان ظهوره في تلقين الصهاينة وحلفائهم درساً في الإباء والبطولة، كسر شوكتهم، وأخرجهم أذلة صاغرين من جنوب لبنان، وسفّه أحلامهم في بسط أياديهم القذرة على الأُمَّة الإسلامية، وتفتيت شعوبها وأراضيها، ضارباً مثالاً آخر للحكومات العربية، التي تلاعبت بمصائر الأُمَّة، وفشلت في مقارعة الكيان الغاصب لفلسطين، وتسببت في ضياع حقوق العرب والمسلمين.

لذلك كلِّه أقول جازماً، إنَّ الطائفة التي أُخبرنا عن ظهورها، وتميزها النبيُّ

صلَّى الله عليه وآله وسلم، لم تكن غير طائفة المؤمنين، الذين شايعوا علياً وأهل بيته عليهم السلام، من أمثال سلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وغيرهم من صلحاء الأُمَّة، الذين عرفوا الحق، وتبعاً لذلك عرفوا أهله، وبقوا منذ أنْ وجدوا، حول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأهل بيته عليهم السلام، ظاهرين علماً وعملاً إلى يوم الناس هذا، وهو ظهور عملي لا يزايله وهم الواهمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

الدافع الثاني عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

مودة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عند الشيعة هي التي شيعتني



بشير... هو واحد من الأصدقاء الذين عرفتهم كبيراً، وتوطدت علاقتي به بعد تجربة قصيرة، أكدت أنَّه من طينة الأخلّاء الذين يندر وجودهم، كان يتابع المتدخلين في الجلسة بنظراته المتقدة بريقاً، دلَّ على نباهة وبصيرة، قلَّما يتحلى بها الكثيرون من الناس، جبل نفسه على أنْ يسمع أكثر من أنْ يتكلم، تابع باهتمام بالغ إفادات الحاضرين، وكان يودُّ أنْ يكون آخر المتكلمين، وإفادته خاتمة الإفادات - كذلك أَسرَّ إليَّ قبل مجيئه إلى الجلسة - لكنَّني فاجأته بإعطائه الكلمة، طلباً لأولوية السبب الذي دعاه إلى التشيع، فلم يمانع من ذلك.

قال بشير...: لم أكن ملتفتاً إلى المعاني الحقيقية لفريضة مودّة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، إلَّا بعد أنْ وقفت على لزومها، من خلال النصوص العديدة،

التي أشار إليها المولى سبحانه وتعالى في محكم كتابه، فقال جلَّ من قائل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(٤٤) وبيّنها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، عندما نزلت الآية الكريمة، ردّاً على سؤال وجه إليه من طرف أحد الصحابة: «من الذين وجبت مودتهم يا رسول الله؟» فقال صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**عليٌّ وفاطمة وأبناؤهما**»(٤٥)وحثَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بعد ذلك، على تلك المودّة في أكثر من مناسبة، ولم أتساءل قبل ذلك، عن الغاية التي كانت تراد منها تلك المودة، فقط كنت أتصور أنّها محبة مجردة، خالية من المقاصد الحقيقية، المراد تحقيقها منها.

بل لعلَّ المتداول والمعمول به بين بني عقيدتي، ممّن تسموا بأهل السنة والجماعة، هو تقديم الثلاثة على أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، وتقديم عائشة على فاطمة الزهراء عليها السلام، رغم النصوص الصريحة، التي تأبى عليهم ذلك الحيف والإجحاف، بمن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى، وخصّهم منه بفضل لم يتسنَ لغيرهم، مضافاً إلى سيرتيهما العطرة بالأعمال الجليلة والمثل النبيّلة، والقيم المجسدة للإسلام في أبهى مظاهره، وبلغ الأمر في هذا الإطار، إلى أنْ أصبح عنوان

---

(٤٤): سورة الشورى الآية ٢٣.

(٤٥): مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٧٢/ تفسير الرازي ٢٧/ ١٦٦، تفسير الكشاف للزمخشري ج٣ ص ٤٠٢ الآية ... تفسير ابن كثير ج٤ ص ١١٢ الآية ... تفسير القرطبي الآية ... فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٥٣٧ .

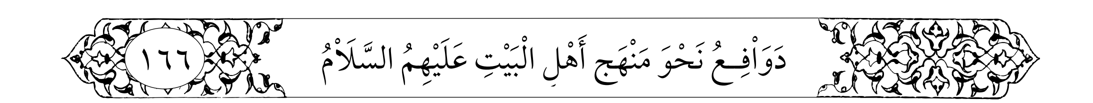
التسنن، حبَّ الشيخين وتقديمهما على غيرهما، وعنوان التشيع حبَّ عليٍّ عليه السلام وتقديمه على غيره.

بدأت التفاتتي إلى مسألة مودّة أهل البيت عليهم السلام، عندما عثرت على رواية أخرجها الترمذي، تقدم أبا بكر وابنته على الصفوة الطاهرة، تقول: عن أنس قال: سئل النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: من أحبُّ الناس إليك؟ قال: عائشة قيل: ومن الرجال؟ قال: أبوها.

لم أستسغ الحديث في نفسي، على الرغم من أنَّ مذهبي، كان أحد أبرز سماته، ذلك الاعتقاد في المفاضلة، ولم أتلقاه كعادتي، عندما كنت أتقبل حديثاً مروياً عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فانبنى بيني وبينه حائل، تمثل في مكانة عليٍّ وفاطمة الزهراء عليهما السلام، من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

وإلى جانب هذه الرواية، أخرج الترمذي أيضاً رواية أُخرى، مناقضة للرواية الأُولى تقول: عن ابن بريدة عن أبيه قال: كان أحبَّ النساء إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فاطمة ومن الرجال عليٌّ.

فاستغربت من إقدام حفاظ الحديث عند الخط السني، على نقل المتناقضات في كتبهم، ولم أفهم السبب الذي دفع بهم إلى سلوك ذلك الأُسلوب، الذي لا يتيح



للبسطاء إمكانية التمييز بين الحق والباطل، والصحيح والمكذوب.

فقد كان من اليسير على الترمذي مثلاً، أنْ يعترف بأنَّ أهل البيت عليهم السلام، هم معدن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لا يجب أنْ يقاس بهم أحد، لأنَّ الله تعالى اصطفاهم على العالمين، وأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، كما صرّحت بذلك الآية الكريمة: ﴿إِنما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٤٦)، لكنَّ الرجل كان متبعاً لمنهج المناوئين لأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومنساقاً وراء تيار المتنكرين لمكانتهم في الأُمَّة.

فمقايسة أبي بكرٍ بعليٍّ عليه السلام بالنسبة لي، هي من باب محاكاة التبر بالتراب، وتقديم ابنته على أساس أنَّها زوجة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ووضعها في مقام سابق لفاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين عليها السلام، جرأة على الله ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، لا يقدم عليها غير من اختلَّ عقله، وعميت بصيرته، وهان عليه دينه، وتهلهلت عقيدته.

ولم أكن أعرف أنَّ بتفضيلي لعليٍّ وفاطمة عليهما السلام على غيرهما، قد نسبت نفسي إلى التشيع لأهل البيت عليهم السلام دون أنْ أشعر، لأنَّ المسلم المتسنن عرفاً واصطلاحاً، لا يقدم غير أبي بكر وابنته، وهكذا كانوا يميزون، بين من هو تابع لهذا

---

(٤٦): سورة الأحزاب الآية ٣٣.

الخط أو ذاك، في علم الرجال، وما يسمى أيضاً بعلم الجرح والتعديل، وكم من حافظ أو راوٍ للحديث ردّت روايته، وطُعن في حفظه، لمجرد تقديمه لعليٍّ عليه السلام على غيره، ممَّن عاصر النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وكم من راوٍ أو حافظ وثِّق وعدل، لمجرد تقديمه لأبي بكرٍ وعمر، دونما التفات إلى مسألة مهمة متعلقة بالدين وهي مودّة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، التي لا تجيز في وجه من الوجوه، تقديم المفضول على الفاضل، وترى أنَّ مجرد المقايسة بين من اصطفاه المولى سبحانه وتعالى، ورفع ذكره مع رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، هو تجاهل لإرادة البارئ تعالى، في تفضيله وتقديمه واختياره، ومعصية كبيرة لا يقام لها وزن.

لقد كانت بداية اكتشافي لحقيقة مودة أهل البيت عليهم السلام عند الشيعة، الذين كنت معتقداً فيما مضى أنَّهم فرقة خارجة عن الإسلام، بحسب ما حصلته من تصوّر خاطئ عند الخط السني، الذي كنت من بين أفراده، عندما شاهدت صدفة محاضرة إسلامية، لأحد علماء الشيعة في إحدى الفضائيات، لقد كانت محاضرة قيّمة، وقفت من خلالها على القيمة العلمية التي يختزنها ذلك العالم الشيعي، إلَّا أنَّني سرعان ما اصطدمت بخاتمة المحاضرة، التي أثار فيها المحاضر فاجعة كربلاء، فأبكى الناس من حوله، وأبكاني معهم بكاءً شديداً، لم أبكِ مثله من قبل، لأنَّني كنت مغيباً عن تفاصيل واقعة «الطّف»، شأني في ذلك، شأن بقية المسلمين

المخالفين لخط أهل البيت عليهم السلام، وكان تأثري بما سمعته من سرد لبعض لقطات ومشاهد الواقعة كبيراً، إلى الحدِّ الذي جعلني أُقرر بعد ذلك، البحث عن حقيقة الأمر، بخصوص مودّة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أيتها الحقيقة؟ ما يدعيه هذا الطرف؟ أو ما يتشبث به الطرف الآخر؟ وبناءً على ذلك أتخذ قراري، في اتباع الأَولى والأقرب إلى الله ورسوله في الطاعة.

وجدت في عدد من التفاسير، التي اعتمد أصحابها المدرسة السنية مذهباً ومنهجاً، نصوصاً تؤكد على ثبوت نزول الآية، في عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وكان الإجماع على تلك الفريضة، ممّا لم يختلف فيه اثنان.

وزاد في حيرتي، أنِّي عثرت يوماً في إحدى المكتبات على كتاب (مقاتل الطالبيين) لأبي الفرج الأصفهاني، جمع فيه مؤلفه أسماء المشهورين من آل أبي طالب، ممّن قتلوا في العهدين الأُموي والعباسي، بسبب انتمائهم العرقي والفكري والعقائدي إلى أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

وهالني وأنا أتصفح الكتاب، ذلك العدد من الشهداء الذين قضوا دفاعاً عن الإسلام المحمّدي الأصيل، وليس دفاعاً عن شرفهم وانتسابهم، فقد كان قاتلوهم يرون فيهم خطراً محدقاً بعروشهم، بسبب أحقيتهم في قيادة الأُمَّة الإسلامية، وتساءلت في نفسي: أهذه هي مودّة القربى التي حثَّ عليها المولى سبحانه وتعالى،

وجعلها فريضة من الفرائض، التي لا مفرَّ للمسلم من التقيد بها؟ أهكذا أوصى النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بأهل بيته، وحثّ المسلمين على أدائها؟ وما السبب الذي دعا أغلب الأُمَّة إلى التنكر لتلك المودّة، بل والانقلاب في الموقف تجاهها، إلى عكسها تماماً لتصبح تجاهلاً، ثمّ حرباً لا هوادة فيها؟ ولماذا مورس ضدَّ هؤلاء الأطهار، كلُّ ذلك العنف والإرهاب، من سجن وتعذيب وتشريد وقتل؟

بقيت الإجابة عالقة، تحتاج إلى مزيد من البحث والتمحيص، وبقيتُ أستجلي أثر الحقيقة من غبار الوهم وحبائل الزيف.

في أحد الأيام، التقيت واحداً من المسلمين الشيعة، الذين كنت أعرف عدداً منهم، ولم تسمح لي الفرصة بالاقتراب منهم ومحادثتهم، لعدّة أسباب، لعلَّ أهمها الشائعات التي جندها أعداؤهم، لبثها في المجتمع من أجل إقصائهم، وحصر حججهم وأفكارهم في أضيق الأُطر الممكنة، بحيث لا يمكن لها أنْ تجد آذاناً صاغية وسط المجتمع.

بدأت حديثي معه في أول فرصة، عندما وجدته في مجلس ختم قرآن لأحد معارفي، فانتهزت الفرصة، لأعرف منه حقيقة مودّة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عند الشيعة.

فقلت له: وما تقول في مغالاة الشيعة في حبِّ أهل البيت رضي الله عنهم، إلى

الإفراط في ذلك والبكاء عليهم، وإظهار الحزن والجزع على مصائبهم، إلى درجة إسالة الدماء، وتعريض الأنفس إلى الهلاك؟

فقال لي: إنَّ فريضة حبِّ أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ممّا اتفق جميع المسلمين على وجوبها، لكنَّهم تباينوا في العمل بها وتطبيقها، وجوب مودّة أهل البيت عليهم السلام، كما دلَّت عليه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾(٤٧) لا يختلف فيها عاقلان، والآية المحكمة التي فرضت هذه الشعيرة، واضحة الدلالة على مقصدها، وفوق ذلك جاءت الأحاديث مفسرة لها، وقد نقلها القاصي والداني، واتفق الجميع إلَّا من شذَّ، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه، في أنَّ الذين وجبت مودتهم، هم عليٌّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، والخلف من ذريتهم عليهم السلام.

وقد أجهد النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نفسه، في بيان وتوضيح معاني المودة، التي أوجبها الله تعالى على الأُمَّة الإسلامية، حتى لم يعد هناك مجال للتأويل والريبة، بخصوص هذه الشعيرة العظيمة، إلَّا أنَّ الغاصبين لنظام الحكم في الإسلام، ومن تبعهم على ظلمهم، سعوا إلى تجاهل ذلك الواجب، فأداروا ظهورهم لأهل البيت عليهم السلام، وعملوا جهدهم على إبطال آثارهم وإلغاء

---

(٤٧): سورة الشورى الآية ٢٣.

مآثرهم، في مسعى من الظالمين لمحمّد وآله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لمحو ذكرهم، وتسويتهم بعامة الناس، حتى لا يبقى هناك مجال للحديث عن الاصطفاء، الذي خصهم الله تعالى به.

من خلال ترك هذه الشعيرة وإهمالها من جهة، وادعاء المهملين لها بأنَّهم يحبون أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ويجلونهم ويكبرونهم على غير حقيقة ولا تطبيق، يظهر من خلاله التزام المحبّ بحبيبه، ذلك لأنَّ المحبة تستوجب الاتباع، وبذل الودِّ للمحبوب لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[48] ودعوى المحبة بدون اتباع عارية عن الصحة، ولا علاقة لها بمفهوم المحبة، الذي يفيد دائماً الاتباع والموالاة والاقتداء والتفضيل والتقديم.

وإذا سألت الذين يدعون محبة أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قولاً بلا عمل، أهكذا تكون محبة الطاهرين من صفوة الله تعالى؟ أجابوك باستنكار المقصر والجاهل: وكيف ترون الحبَّ إذن؟

ولمَّا كانت المودة التي وجبت على كلِّ مكلف، منذ نزول الآية، إلى أنْ يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها، فعلى كلِّ مسلم إزاء ذلك التكليف، أنْ يبرهن على ذلك بإحياء تلك المودّة، وإظهارها قربة لله تعالى، وسعياً لنيل رضاه،

---

(٤٨): سورة آل عمران الآية ٣١.

وإظهار الحزن في أحزان أهل البيت عليهم السلام مودّة لهم، وإظهار الفرح في أفراحهم، مودّة لهم أيضاً، والبكاء من أرقى تعابير الحزن في المصيبة، كما أنَّه من وأرفع درجات الخشوع في العبادة، فهو إحساس قلبي وجداني، لا يستطيع تحصيله غير الذي صلحت سريرته وصفا قلبه، وسمت نفسه، وهو مستعصٍ على القاسية قلوبهم، ومصيبة الأُمَّة الإسلامية، لا تزال تلقي بظلالها على عموم الأُمَّة.

في ما مضى من الأيام، كنت متصوراً أنَّ ما يقال عن الشيعة من نسب باطلة صحيحاً، خصوصاً وأسباب التواصل بين الطائفتين شبه معدوم، ولكنْ وبعد أنْ توفرت أسباب المعرفة، من كتب وفضائيات وإنترنت، بدأ اللبس يرتفع عني.

فهمت أنَّ محبّة أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، تتطلب وضع الصفوة الطاهرة موضعها في الأُمَّة، من تفضيل وتقديم وتبجيل، تماماً كما أمر به الله سبحانه وتعالى، فلا يكون هناك أحد أفضل من الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

ومحبة أهل البيت عليهم السلام، واجبة على جميع المسلمين، ويراد منها أنْ نضع هؤلاء الذين اصطفاهم الله تعالى موضعهم من قيادة الأُمَّة، وليس مجرد أنْ نكنَّ لهم حبّاً، لا معنى له على صعيد الواقع.

ذلك الحب الذي تراه أنت من خلال قناعاتك مفرطاً أو مبالغاً فيه، ليس إلَّا امتثالاً صحيحاً لأمر إلهي، نطق به القرآن الكريم، وصدع به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لم يزد القائمون به، على ما هو مطلوب منهم شيئاً من عندهم.

فقلت له: لكن ألا تعتبر هذه المراسم التي يحييها الشيعة لأهل البيت عليهم السلام، وتلك المقامات التي شيدوها على أضرحة أئمتهم، نوعاً من الإفراط والتهويل؟

فقال لي: قد تشاطرني الرأي، عندما أقول لك أنَّ للحبِّ والمودّة مقدمات ومقامات، يتوزع فيها الناس، وتكون ذات أهمية أكبر، لو كانت تلك المودة نابعة من أمر إلهي، كالذي نحن بصدده، وقد تشبث الشيعة بهذه الشعيرة، وجعلوها عنواناً لنهجهم، وسمة ظاهرة من سمات تدينهم، ليقينهم الثابت الذي لم يتزحزح، رغم كلِّ المحن التي تعرضوا لها، بأنَّ مودَّة أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، هي البراءة الفعلية من غضب الله سبحانه وتعالى، والخلاص الحقيقي من ناره وعذابه، طاعة له فيما طلبه من الأُمَّة لنبيِّه من أجر.

لذلك اهتم الشيعة بإحياء مراسم أهل البيت عليهم السلام كلَّ سنة، ولم يفتر ساعدهم، ولا ضعفت همّتهم عن تلك المناسبات العظيمة، وتشييد المقامات والإنفاق

عليها بكلِّ سخاء، إيماناً منهم بأنَّها من أيام الله سبحانه وتعالى التي يجب أنْ تقام، ومن شعائره التي يجب أنْ تعظّم، ومن يعظم أيامه وشعائره فإنَّها من تقوى القلوب.

فقلت له: ألا ترى أنَّ فريضة مودّة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، يراد منها محبة أهل البيت عليهم السلام وتقديرهم فقط، دون ما ذهب إليه الشيعة، من تقديم وتفضيل واتباع وموالاة؟

فقال لي: على عكس ما تعتقد، فقد كانت الغاية من تشريع مودّة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، منحصرة في كونهم قدوة الأُمَّة بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والتجسيد الحي لكتاب الله وأحكامه، فالمولى سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ قد جعل محبته متمثلة في اتباع النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ومخصوصة به، فلا يصح حبُّ المولى دون اتباع نبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلم، كذلك محبة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا يمكن أنْ تتحقق، إلَّا باتباع أهل بيته الأئمة الهداة عليهم السلام من بعده.

ثمّ ألم تعلم أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قد فرح بإسلام عليٍّ عليه السلام، كما فرح بولادة الزهراء عليها السلام، وما تبع ذلك من فرحه بولادة الحسن والحسين وزينب عليهم السلام، وانتصارات عليٍّ عليه السلام، التي هي انتصارات للدين الخاتم، فكانت كلُّ أفراحه تلك سُنَّة وجب علينا إحياؤها، لأنَّ

النبيَّ مطلقها ومؤسسها، والشيعة يتعبدون بتلك الأفراح، انطلاقاً من تأسيس الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لها.

ولا أراك تجهل حزن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الكبير على موت خديجة سيدة النساء عليها السلام، وموت عمِّه أبي طالب عليه السلام، وموت ابنه إبراهيم عليه السلام، وموت ربيبته رقية رضي الله عنها، وكان حزنه أكبر على ولده الحسين عليه السلام، عندما أخبره جبريل عليه السلام بمقتله، وحكى له ما سيحصل له من أُمَّته، والشيعة يظهرون الحزن على مصائب أهل البيت عليهم السلام، ويتعبدون بإقامتها، تأسياً بالنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فلم يبتدعوا شيئاً من عندهم، حتى يتهمهم بقية المسلمين بالتطرف والخروج على الدين، بل إنَّني أرى عدم مواساة أهل البيت عليهم السلام، بالفرح لأفراحهم، والحزن لأحزانهم، هو التطرف والتنكر للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وللدين في صوره الحقيقية.

قلت له: وما مشروعية البناء، وقد وجد عندنا، أنَّ بني إسرائيل قد لُعنوا على لسان نبيِّهم، لأنَّهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؟

فقال لي: الرواية التي ذكرتها لا أساس لها من الصحة، لأنَّها خلاف الواقع، والعرف الذي درج عليه الناس منذ آدم عليه السلام، والبناء على قبور الأنبياء عليهم السلام، يراد به حفظ الضريح وحصر مكانه، لأنَّه يحتوي على صفوة الله

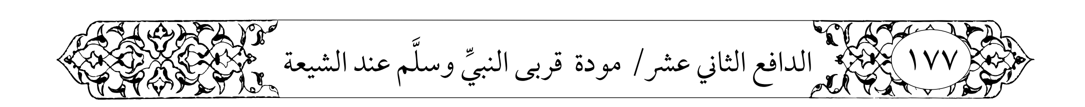
تعالى، وخاصته من خلقه، فزيارته واجبة، والصلاة فيه والدعاء عنده، مدعاة لقبول الأعمال، فمسجد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في المدينة المنورة، أين يوجد ضريحه ومثواه، قد اتخذه الناس مقصداً، وشدوا إليه الرحال، ليجددوا فيه العهد مع نبيِّهم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ويتخذوا منه سبباً ووسيلةً للتقرب منه ومن ربِّه، أمر قد درج عليه المسلمون منذ غابر الأزمنة، ولم يشذ عن تلك السُّنة غير الضالين من أتباع الوهابية، والبيت الحرام الذي أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم ببنائه، ليكون قياماً للناس، ليس بيتاً لله على وجه الحقيقة، بل قصد به الله سبحانه وتعالى رمزية البيت، لا حقيقة البناء، ليكون للناس سبباً من أسباب المغفرة والتوبة والإنابة.

وقصة أصحاب الكهف عليهم السلام، خير دليل على ما يقوله الشيعة، ويحتجون به على مشروعية البناء على قبور الصالحين، لتكون ملاذاً إلى الله تعالى، ومقامات طاهرة يقصدونها تبركاً وتحبباً إليه، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾(٤٩).

ولو كان هنالك مانع، أو مخالفة للتكليف الإلهي في بناء البنيان، واتخاذ المساجد على قبور الصالحين، لنهى الله عنه أولياؤه، وحسم الأمر فيه، ولمَّا كانت

---

(٤٩): سورة الكهف الآية ٢١.



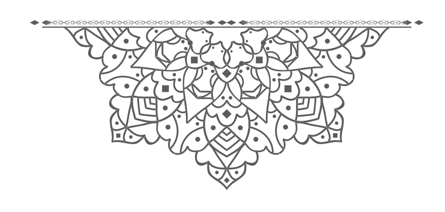
الآية قد جاءت مجوزة لذلك العمل، غير معترضة عليه، فما وجه ردِّه بروايات، فاحت منها رائحة الوضع، مخالفة لكتاب الله تعالى.

لقد كانت حجة المسلمين الشيعة قوية في جميع المجالات، مدعومة بالبراهين العقلية والنقلية، فلم يتعبدوا في يوم من الأيام، تبعاً لأئمتهم بالشك والظن، ملثما كان شأن بقية الفرق، التي تاهت وانحرفت عن الجادة، في عدد من الأحكام، وانغمست في تطبيقها بالعاطفة والوراثة، لا بالعقل والدليل.

أحمد الله تعالى أنْ يسر لي معرفة أوليائه، وجنبني سبل الضلال، وجعلني ممّن اعتصم بحبله المتين، وتمسك بعروته الوثقى التي لا انفصام لها، وهي موالاة محمّد وآله الكرام البررة، قادة الأُمَّة بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بلا فصل، وسفن نجاتها من ظلمات الغي والجهل، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الدافع الثالث عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيّعتني حجج في كتب السنة المعتمدة



كان حسن... قبل أنْ يعتنق خط الشيعة الإمامية الاثني عشرية، مثلي ومثل بقية الإخوة المؤمنين مالكياً أشعرياً، لم يكن معتقداً إسلاماً آخر صحيحاً، غير الذي كان يعتنقه، وقد عمقت قناعاته، ما كان يتلقاه من معلومات عن بقية الفرق والمذاهب، خلال الدرس في مادة التربية الإسلامية، قد كتبت بأقلام جرى فيها حبر التعصب الأعمى، وتلونت بشتى الافتراءات والأكاذيب، التي لفقت من أجل إطفاء نور الإسلام الحق، مضافاً إلى التربية التي تلقاها على ذلك الأساس، والتي لم تسمح له بالالتفات، إلى بقية الاتجاهات الإسلامية، والتمييز بينها.

في إحدى التظاهرات، التي كانت تقام هنا وهناك، على الساحة التونسية، عندما كان هناك مجال لشيء من الحريات، بمناسبة يوم الأرض، واليوم العالمي لحقوق الإنسان، وغيرها من المناسبات، التي يتجند المثقفون التونسيون لإحيائها،

داخل أسوار الجامعة، من أجل الإبقاء على المبادئ نفسها، متردداً داخل وجدان الطلائع المؤمنة بها، التقينا على مائدة الحوار الإسلامي.. إسلامي، باحتشام ومداراة شديدين، ولولا علاقة الجيرة التي كانت تربطنا ببعض، لما أمكن لنا أنْ نلتقي في ذلك الحوار، الذي وقف في وجهه قياديو النهضة، وشددوا على منع عناصرهم من الانخراط فيه، أو حتى الاقتراب منه بأيِّ شكل من الأشكال.

أتذكر أنَّه في تلك الفترة التي بدأت الدعوة إلى التشيع تظهر على الساحة، وفي أماكن معدودة، ومن طرف عناصر لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، بدأت قيادات النهضة في ترويج كتب إحسان إلهي ظهير، التي كان يراد بها تكفير الشيعة، وإخراجهم عن الإسلام، وتنفير المسلمين منهم، في محاولة لنسف أُسس الدعوة إلى فكرهم، وغلق الطرق المؤدية إليهم، أمام عناصرها الإسلامية، وذلك لما رأوا أنَّ أعناق بعض منتسبيهم بدأت أياديهم تمتد إلى كلِّ ظاهرة إسلامية، خصوصاً بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران.

بحكم تواجدي داخل أسوار الجامعة، وفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، حضرت في أحد الأيام مناقشة بين زميلين، أحدهما شيعي وكان داعية إلى التشيع، والآخر سني من خط النهضة، وبقدر ما كان النقاش محتدماً وحامياً بين الطرفين، بقدر ما كان غير متكافئ، وقفت فيه على حقيقة قلبت مجرى اعتقادي رأساً على

عقب، في البداية كنت مأخوذاً بالتهم التي ساقها السني النهضوي، ليضع التشيع بما اشتمل عليه وأهله، في موضع المتجني على الإسلام، لكنَّني مع مرور الوقت، بدأت أشعر أنَّ هناك منطقاً آخر وحجة تغازلان عقلي، وتدفعانه نحو اكتشاف الحقيقة والوقوف عليها.

لم أكن أعلم أنَّ الشيعي كان من حركة النهضة، ولما التقى بأحد الدعاة الشيعة اقتنع بالطرح الذي قدم له، واعتنق الفكر الشيعي الاثني عشري، وطبعاً لم يكن ذلك ممكناً من لقاء واحد، أو من خلال بحث واحد.

كانت أُولى مقالات الزميل السني متعلقة بتحريف القرآن، فقال: إنَّ من أقوى البراهين التي استدل بها على بطلان مذهب الشيعة، هي قولهم بتحريف القرآن، وجلُّ علمائهم يدينون بذلك، وكتبهم ملأى بالروايات التي تقر بالتحريف.

فقال الزميل الشيعي: أظنك قد استقيت ذلك من كتاب إحسان إلهي ظهير «الشيعة والقرآن»، ومن بعض الأقلام المشبوهة التي لا يعرف لها أصل من فصل، المنخرطة في مشاريع فتن تكفيرية خطيرة حاكها أعداء الإسلام. وفوق ذلك فإنَّني لم أعثر على مفسر واحد من مفسري الشيعة، يعتقد بتحريف القرآن ويدين به، ناهيك أنَّه خلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٥٠] وخلاف

(٥٠): سورة الحجر الآية ٩.

إجماع فطاحل علماء الشيعة تبعاً لأئمتهم في سلامة القرآن من التحريف والقرآن الذي تعرفه وتتلوه وتصلِّي بسوره وآياته، ويباع في المكتبات، ويلقن في الكتاتيب، هو القرآن نفسه الذي يدين به الشيعة منذ أنْ وجدوا، ولم يخرج على الناس مفسر واحد منهم، بغير ما هو متعارف عند جميع المسلمين، ولو كان الأمر كما تدَّعي، لانتهى أمر الشيعة بهذا الادّعاء المنحرف.

قال السني: إحسان إلهي ظهير تحدث عن أكبر حفاظ الشيعة، ورأس رواياتهم الشيخ الكليني، الذي أخرج عدداً من روايات التحريف.

قال الشيعي: صحيح أنَّ الشيخ الكليني أخرج تلك الروايات لسبب واحد، هو الأمانة العلمية التي حتمت عليه نقلها، نظراً لصحة سندها بالنسبة إليه، لكنَّه من الجهة الاعتقادية لم يكن مطمئناً لها، فأفرد لها باباً في كتابه الكافي، سماه باب النوادر، وقد درج الشيخ الجليل، على تخصيص باب للنوادر في أغلب أبواب كتابه، وهي خاصية تميز بها عن غيره من علماء (السنة)، كالبخاري ومسلم وغيرهما ممّن أخرج روايات تحريف القرآن، وأدرجها في أبواب الفقه، دون حيز ولا فصل، والاعتقاد بالزيادة أو النقيصة في القرآن، اعتقاد واحد، وأزيدك أكثر، عندما نرى في عصرنا الحاضر، أنَّ الله تعالى دافع عن الشيعة في مسألة تحريف القرآن، وكيف لا يفعل وهو الذي يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ

كَفُورٍ﴾[٥١] فقد ظهر من أبناء الشيعة هذه السنوات أطفال صغار السن، حفظوا القرآن حفظاً عجيباً، لم يأتِ الزمان بمثله، فمن إيران الإسلامية إلى العراق، خرج علينا براعم في عمر الزهور، ذكوراً وإناثاً بعجيب حفظ، أذهل العقول وأثار الغرابة، وألقم الذين نسبوا إلى الشيعة تحريف القرآن، حجراً لو كانوا يعقلون، فإذا كان الشيعة يعتقدون بتحريف القرآن، فلماذا يتعهدونه ويحفظونه ناشئتهم؟ ولماذا يزيدهم الله تعالى من فضل رحمته، بحفظٍ لم يعهده أحد من الناس؟

قال السنّي: إذن فمن أين جاءت تهمة التحريف التي رُمي بها الشيعة؟

قال الشيعي: إنَّ نسبة التحريف التي جاء بها أهل الافتراء والكذب على الشيعة، لا أصل لها في حقيقة الأمر، كلُّ ما يمكنني أنْ أفيدك به في هذا المجال، هي كلمة قالها الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، عن المخالفين لخط الإمامة بخصوص القرآن: «**وأقاموا حروفه وحرفوا حدوده**». بمعنى أنَّ التحريف لم يقع في لفظ القرآن، وإنَّما وقع في معانيه وتأويله وتفسيره، والشيعة الإمامية الاثنا عشرية، مبرؤون من تحريف القرآن لفظاً ومعنى، لأنَّ ما عناه سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام غير متعلق بشيعته، باعتبار أنَّهم ملتزمون بأئمتهم، علماً وعملاً، وأمراً ونهياً، طيلة القرون الثلاثة التي وجدوا فيها، بينما تفرقت

---

(٥١): سورة الحج الآية ٣٨.

بغيرهم السبل، واتبعوا أثر كلِّ ناعق؛ لذلك أُجزم بأنَّ مصدر التهمة، جاء من أنظمة الحكم المتسلطة، التي كانت تعتبر التشيع لأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، خطراً يهدد كيانها، وينذر بذهاب سلطانها، فلفقت لهم عدداً من التهم، وأحاطتهم بهالة من الإشاعات الكاذبة، من أجل الحدِّ من إشعاع ذلك البيت الطاهر، وتأثير أنصاره في المجتمعات التي يعيشون بينها.

قال السني: كيف تريدني أنْ أقتنع برؤيتك التي تدّعي أنَّها إسلامية، وكتبك لا أعرف عنها شيئاً، وهي غير معتمدة عندنا نحن أهل السنة؟

قال الشيعي: أنا لا أُريد أنْ أُلزمك بها في كتبي، فذلك يحتاج إلى مجال وجهد ووقت آخر، لكنَّني أُلزمك بما ألزمت به نفسك، من كتبكم التي نعتموها بالصحاح، وقدرتم جهود أصحابها، فصدح بها أئمة المنابر، وأخذ منها الباحثون، ومؤلفو الإسلام في الأُصول والفروع، وغياب كتب الشيعة عن الناس، لم يكن بسبب أئمة الشيعة ولا أتباعهم، وإنَّما كان السبب فيه، الأنظمة التي حكمت رقاب المسلمين، بالقهر والحديد والنار، فلم يزكوا غير مواليهم وأتباع سلطانهم، بينما عدَّ الشيعة من المعارضة، وطلب رؤساؤهم للقتل أو السجن، بسبب انتمائهم لأهل البيت عليهم السلام.

فلم أتمالك، عندما وصل الحديث عند هذا الحدّ، من التدخل، فقلت: وأيُّ

حجة أعظم من أنْ تلزمنا بما ألزمنا به أنفسنا، إنَّها قمة الاستدلال، وغاية إقامة الحجة، وهل ترى غير ذلك يا زميلنا العزيز؟

قال السّني: لا أجد ما أقوله لك بعد الذي قلت، فهات ما عندك من براهين.

قال الشيعي: لسوف أقتصر في البداية على الأحاديث النبوية، نظراً لكونها المفسـر الأساس للقرآن الكريم، وسأختتم بمتعلقها من الآيات، زيادة في إظهار الدليل.

أخرج حفاظ خطك عدداً من الأحاديث، التي يستشف منها أحقية عليٍّ عليه السلام في قيادة الأُمَّة الإسلامية، منها ما فيه إفادة مباشرة على ذلك، ومنها ما هو دون ذلك، لكنَّها تتظافر وتقوي وتعاضد جانب الإفادة الأُولى.

وتعدد الأحاديث، جاء ليكشف عن حرص شديد للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، من أجل بيان مقام أهل بيته عليهم السلام، كبابِ هدايةٍ من بعده للمسلمين، وقادة يسلكون بهم سبل السلام.

فقد أخرج البخاري ومسلم، وبقية أصحاب من تسمونهم بالصحاح، والبقية الباقية ممّن هم دون ذلك، بحيث لم يسقط أحد منهم حديث المنزلة، الذي قال فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لعليٍّ عليه السلام: «**أنت مني بمنزلة هارون**

من موسى إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي»(٥٢).

وحديث المنزلة هذا، من أقوى الحجج على أحقية عليٍّ عليه السلام، في قيادة الأُمَّة بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، نظراً لأنَّ القرآن الكريم قد احتوى على عناصرها، من خلال سياق الآيات، المتعلقة بهارون وموسى عليهما السلام، فقد جاء في سورة طه قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾(٥٣).

فلعليٍّ عليه السلام من خلال هذه الآية: أُخوّته من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وقد تمّت بالمؤاخاة في مكة والمدينة، باتفاق أهل العلم(٥٤)، ولو كان لغير عليٍّ عليه السلام من القربة والمكانة، ما يمكنه أنْ يكون أخاً للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أو خليلاً كما حاول ترويجه الأدعياء، لما صرف عنه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وجهه.

---

(٥٢): صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة تبوك ج ٢ ص ١٢٩/ صحيح مسلم كتاب الفضائل / باب فضائل الإمام عليٍّ ح٢٤٠٤/ مسند أحمد بن حنبل ج١ ص١٧٠و١٧٥ و١٧٧/ الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص١٤و١٥/ كنز العمال للمتقي الهندي ج٣ ص١٥٤ وج٥ ص٤٠ وج٦ ص١٥٤ و١٨٨ و٣٩٥/ حلية الأولياء لأبي نعيم ج٧ ص١٩٥و١٩٦ .

(٥٣): سورة طه من الآية ٢٩ إلى الآية ٣٥.

(٥٤): الترمذي ج ٥ ص ٣٠٠ ح ٣٨٠٤.

ولعليٍّ عليه السلام الوزارة، وشدّ الإزر، والإشراك في الأمر، والسيرة شاهدة على ما قدمه عليٌّ عليه السلام بالدليل والبرهان، في سبيل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ودينه، وليس بالكذب والبهتان، وأضغاث الأحلام، التي طفحت بها كتب الحديث المسماة بالصحاح، وكما قيل في المثل: إذا غاب الأمير حضر الوزير.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٥٥].

هذه الآية، تؤكد خلافة عليٍّ عليه السلام لمنصب الحكم، الذي كان يشغله النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم. وحديث المنزلة في عمومه، من أقوى الأدلة التي احتج بها الشيعة، على أحقية عليٍّ عليه السلام في قيادة الأُمَّة الإسلامية.

قال الزميل السني: لكنَّ كبار علماء السنة، قالوا إنَّ خلافة عليٍّ، هي في الأهل وليست في الأُمَّة، فالنووي مثلاً في شرح صحيح مسلم، لم يعترف بغير خلافة عليٍّ رضي الله عنه في أهله دون الأُمَّة، وبذلك قال من المتأخرين، أبو الأعلى المودودي في كتابه الخلافة والملك.

قال الشيعي: لقد بلغ التقليد الأعمى بأهله، إلى التعمية على حديث المنزلة،

---

(٥٥): سورة الأعراف الآية ١٤٢.

بالادّعاء الباطل، بأنَّ منزلة عليٍّ عليه السلام، التي أشار إليها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، هي مخصوصة في أهله فقط دون أُمَّته، سعياً من المحرفين إلى صرف المسلمين، عن حقيقة منزلة عليٍّ عليه السلام، من دون إشارة إلى كون المنزلة المشار إليها، قد فصَّل القرآن فيها القول بشكل جلي، لا يلتبس إلَّا على منافق خبيث الولادة، ووصاية عليٍّ على أهل بيته عليهم السلام، لا تستوجب ذكراً ولا إشارة ولا تلميحاً، من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لأنَّها من تحصيل حاصل، ولا تحتاج إلى تأكيد أو توثيق، لأنَّها ممّا لا يمكن عقلاً وعرفاً أنْ ينازعه عليها أحد. فقوله تعالى: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾[٥٦] دليل على أنَّ خلافة هارون عليه السلام، كانت في بني إسرائيل، كما أنَّ خلافة عليٍّ عليه السلام هي في الأُمَّة الإسلامية.

قلت: وقد صدّع تفسير الشيعي الثوابت التي كنت أعتقدها بشأن الخلافة، وهزّ أُسسها هزاً، تهيأت فيه للتداعي والسقوط، فليس بعد هذا الدليل حجة يستطيع منصف ردّها: إذن فمسألة الخلافة قد حسمها حديث المنزلة، الذي توضحت أركانه من خلال آيات القرآن، التي بينت منزلة هارون من موسى عليه السلام، وظهرت بذلك منازل عليٍّ عليه السلام، من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وسوف لن أكون مفرطاً في اعترافي بحقيقة أنَّ علياً رضي الله تعالى عنه قد

---

(٥٦): سورة الأعراف الآية ١٤٢.

ظُلم، باغتصاب حقه في الإمامة (خلافة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم)، ونُكبت الأُمَّة وحُرمت من قيادة رشيدة هادية مهدية، اختزلت كلَّ قيم النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وجمعت الخصائص الممكنة كافة، لشخص له أهلية الحلول، محلّ خاتم الأنبياء والمرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلم، في قيادة الأُمَّة الإسلامية.

فقال الزميل السني: لكن كيف يمكن أنْ يجتمع الصحابة كلُّهم رضوان الله عليهم، على باطل التنكر لعليٍّ عليه السلام، وهم الذين قال عنهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم، وقوله: لا تجتمع أُمَّتي على باطل؟

قال الشيعي: لو تتبعنا سيرة سيد المرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في سنواتها الأخيرة، التي سبقت وفاته صلَّى الله عليه وآله وسلم، وما تلاها من أحداث كحادثة السقيفة، نجد أنَّ رواياتها قد دوّنت بأسانيد، تضمنت أشخاصاً قد طعن في مصداقيتهم، فكذّب علماء الجرح من كذّبوا منهم، وضعّفوا من ضعّفوا، ومع ذلك مرّت رواياتهم، التي كانت في معظمها بعيدة عن حقيقة وقائع تلك الفترة، واعتمدها أكثر رواة التاريخ، دون بحث وتمحيص، ومحمد بن جرير الطبري الذي يعتبر من أقدم مصادرها، قد دوّنها في تاريخه، والفاصل الزمني بينه وبين تلك الأحداث يناهز الثلاثة قرون دون تحقيق، ولو بذل جهداً بسيطاً في ذلك

المجال لردِّ أغلبها، ولمَّا كان الطبري عمدة هؤلاء الناقلين، فإنَّ أخذهم عنه استناداً عليه، وتسليماً منهم بما في كتابه، واستمر بذلك التضليل.

أمّا قولك إنَّ الصحابة لا يجتمعون على باطل، فإنَّهم لم يجتمعوا كلُّهم على موالاة أبي بكر، لأنَّ بيعته قد تمت في غياب بني هاشم كافة، الذين كانوا منشغلين في تجهيز النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، مضافاً إليهم غياب عدد من المهاجرين، كالزبير، وأبي ذر، وعمار، والمقداد، وسلمان، وآخرين.

وأمَّا ما نسبته إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من حديث، بأنَّ أصحابه كالنجوم بأيِّهم نقتدي نهتدي، فالحديث مردود، من طرف عدد من أرباب علم الحديث عند مذاهبكم، كابن حزم، وابن حنبل الذين ردوه متناً وسنداً، وفي حقيقة الأمر فإنَّ الحديث المزعوم، لا يستقيم مع القرآن وواقع الصحابة أنفسهم، لأنَّهم كانوا طبقات متفاوتة في التدين والتقوى، فهنالك الصحابي المؤمن، والذي في قلبه مرض، والمنافق الذي أظهر الولاء وأبطن العداء، وقد جاء في عدد من الآيات ما يفند عدالتهم جميعاً لاختلافهم مع بعضهم، وافتراقهم عن بعضهم، ومحاربتهم بعضهم بعضاً، ولم تتضمن آية من القرآن ما يفيد عصمتهم، ولا حتى عدالتهم، حتى يكون اقتداؤنا بأحدهم هداية ومنجاة، ناهيك أنَّ في القرآن آيات، جاءت فاضحة لسرائر وخفايا عدد منهم، وقد بين النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في

أحاديث الحوض، التي أجمع على إخراجها كلُّ الحفاظ دون استثناء، أنَّ عدداً من صحابته سيدخلون النار، فبطل الاقتداء بهم، لانتفاء العصمة فيهم، وسقوط العدالة عنهم، ودخول أكثرهم النار، وسقطت تبعاً لذلك رواية أصحابي كالنجوم، لعدم ملاءمتها لكلِّ ذلك الواقع، ودخول عدد من الصحابة النار، بما اقترفت أيديهم، ليس أمراً مستحيل الوقوع، لأنَّ الصحابة ليسوا شركاء في نبوة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولا جاء في القرآن والسنة النبوية المطهرة ما يفيد براءتهم، ونجاتهم من النار يوم القيامة.

هم أُناس مكلفون مثلنا، جرى عليهم من الأحكام والقضاء والقدر، ما جرى ويجري على كلِّ الأجيال الإسلامية، وكلِّ فضل حصله أحد الصحابة، أو اكتسبه فلنفسه وليس لأحد، رضي الله تعالى في كتابه عن صلحائهم، ولعن وتوعد وفضح طلحاءهم ومرضى القلوب منهم.

أمَّا عدم اجتماع الأُمَّة على باطل، فلا خلاف فيه خصوصاً إذا ما فهمنا المعنى الحقيقي للأُمَّة، والذي تراوح بين الفرد الواحد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا﴾(٥٧) إلى أكثر من ذلك، فقول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لعمار: «**يا عمار إذا رأيت علياً سلك وادياً، والناس سلكوا وادياً آخر، فاسلك الوادي الذي**

---

(٥٧): سورة النحل الآية ١٢٠.

سلكه عليٌّ، فإنَّه لن يخرجك من هدى، ولن يدخلك في ضلالة»[٥٨]، فتبين أنَّ حجة اجتماع الأُمَّة من دون عليٍّ عليه السلام، لا تدلّ على أنَّ الحق مع الأُمَّة، بينما يدلّ شخص عليٍّ عليه السلام، ومواقف عليٍّ عليه السلام، أنَّه مع الحق دائماً وأبداً، ولا أدلَّ على ما أقول، من قوله صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**عليٌّ مع الحق والحق مع عليٍّ لا يختلفان**»[٥٩]، وقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أيضاً: «**عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليٍّ لا يفترقان**»[٦٠]، مع ما ظهر من حديث الثقلين وصيّة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم للأُمَّة.

فعليٌّ عليه السلام وحده معادلة حق، في موازنة جميع الصحابة، ووحده أُمَّة قانتاً لله، حيال الأُمَّة الإسلامية كلِّها، وليس الصحابة وحدهم.

قال السنّي: فلماذا وقع تقديم الصحابة عند أهل السنة، وتفضيلهم بهذا الشكل؟

قال الشيعي: إنَّ الاعتقاد بتفضيل الخلفاء الأوائل على أهل البيت عليهم السلام، لم تكن له صلة بعهد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولم تظهر محاولة

---

(٥٨): فرائد السمطين للجويني الشافعي ج١ ص ١٧٨/ غاية المرام ص٤٠٣.

(٥٩): كنز العمال ج٦ ص١٥٧.

(٦٠): مستدرك الحاكم ج٣ ص١٢٤.

التقديم تلك، إلَّا في عهد طلقاء بني أُمية، وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان وحزبه، وسياسة زرع الباطل التي انتهجها، ومحاولة إحلاله محلَّ الحقيقة، التي كانت سائدة في ذلك العصر، والتي كانت لا تقدم أحداً على عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام، فخطط لرفع شأن الصحابة ليجد موطئاً معهم، في مقابل منع فضائل أهل البيت عليهم السلام الصحيحة، فعين من أجل ذلك دهاة الأُمَّة ومنافقيها، ليبثوا باطلاً لو عرف المسلمون حقيقته لما اتبعوه، حصيلة كلِّ ذلك، جملة من الروايات المختلقة في الصحابة، أَسست لفتنة كبرى، لا نزال نعاني من آثارها الخطيرة إلى اليوم، وجاء بنو أُمية من بعده فمضوا على خطته، وعملوا بمقتضاها ما ناهز الثلاثة أجيال، فنشأ عليها الصغير وهرم الكبير، واستقرت بعد ذلك في عقول الناس، ومحصلات أفكارهم، على أنَّها الدين الذي لا تشوبه شائبة، والعقيدة التي لا يعتريها شك، وذلك لتثبيت الانحراف عن منهج الإمامة الإلهي، وإيهام الناس بأنَّ تفضيل الصحابة، كان على عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، مطابق لما أفرزه ترتيب الحكومة، بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والروايات التي أخرجها البخاري وغيره عن ابن عمر مثلاً، في تقديم أبي بكر وعمر، وتساوي الناس بعدهما، وهم لا يعكس واقع الأمر، لأنَّ علياً عليه السلام شخص لا يمكن أنْ يتقدم عليه أحد، سوى النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلم، فضلاً عن أنْ يقدم عليه أبو بكر

وعمر، أو أنْ يساوى مع بقية الصحابة، والذي لم ينقب عن خبايا صفحات التاريخ الإسلامي، بعد التخلي عن آلية التفضيل في تقديم الكتب أيضاً، يستطيع أنْ يجد دلائل كثيرة، تؤكد على أنَّ التفضيل الذي تمسك به المنحرفون عن منهج أهل البيت عليهم السلام مفتعل، ووضع لأغراض سياسية، تعلقت بنظام الحكم.

قال السنّي: فهل هناك نصوص أُخرى، ترجح كفة عليٍّ رضي الله عنه في الخلافة، على غيره من الصحابة؟

قال الشيعي: النصوص التي تعطي لعليٍّ عليه السلام أحقية قيادة الأُمَّة الإسلامية بعد النبيِّ كثيرة، وتصب كلُّها في ذلك المعنى الذي تجاهله سواد الأُمَّة، وانصرف عن بابه علماؤهم بتأويل هذا النص، وحمل الآخر على غير محمله الذي أراده له الوحي، وأيده العقل السليم، ولعلّ أكبر دليل على صحة خط أتباع أهل البيت عليهم السلام، والمعروف بالشيعة الإمامية الاثني عشرية، هو استقاؤه لإثبات صحة نهجه، أدلته القطعية من كتب خصومه والمحاربين له، وفي ذلك حجة بالغة، لمن يعقل أُصول الاحتجاج، ويفهم مبادئ الاستدلال، وحتى تستطيع مراجعة الحجج، التي استدل بها الشيعة على إخوانهم السنة، اسمح لي أنْ أُقدم إليك كتاب المراجعات، الذي يعتبر بحق نموذج الحوار الصادق، والتخاطب السليم بين أهل الملَّة الواحدة، والعلم إذا استعمل بنية صادقة وعزم خالص، فإنَّ أصحابه

سيقفون من خلاله على عين الحقيقة.

أخذت منه الكتاب، وانكببت على دراسته، ومقارنة النصوص التي تضمنها نصاً نصاً، ولم أنتهِ منه إلَّا وقد أدركت ما أذعنت له همة الشيخ سليم البشري، وعرفت أنَّ الإسلام المحمّدي الأصيل لا يوجد في أبهى مظاهره، إلَّا عند المسلمين الشيعة الإمامية الاثني عشرية، فقررت أنْ أكون شيعياً اثني عشرياً، ملتزماً بخط أئمة أهل البيت عليهم السلام، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأترك ما عداهم من صنائع، لفقها العباسيون ليصرفوا المسلمين عن أئمة الهدى.

والحمد لله على نعمة الهداية إلى صفوة الله تعالى، من بعد نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلم، ونسأله أنْ يجعلنا من أوليائهم في الدنيا والآخرة، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العلمين.

الدافع الرابع عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيّعني حديث الثّقلين



صلاح الدين... هو واحد من أولئك الذين حكّموا العقل على العاطفة، وغلبوا تطبيق النص على اتباع الهوى، فخرج بمقارنة علمية، أدَّت به إلى اعتناق إسلام أهل البيت عليهم السلام

منذ أمد قريب -وهو ممّا بنيت عليه عقيدتي- كنت معتقداً بصحة الحديث، الذي نسب إلى النبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذي يقول: تركت فيكم ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنتي.

ولم يخالطني في صدوره عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم شك، وقد كنت تبعاً لمذهب إسلامي بنى منظومته، وعنون واجهتها على ذلك الأساس، وصدّقت بسرعة مضمون الرواية، التي توحي من أول وهلة، وثاقتها وصلتها بمصدرين أساسيين من مصادر التشريع الإسلامي، وهما القرآن والسنة النبوية المطهرة،

فتقبلتها شأني في ذلك، شأن عامة المسلمين بالتسليم والرضا، اعتقاداً منهم بأنَّ الوصية التي نسبت للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، صحيحة لا غبار عليها، ولا شك فيها، وإلَّا فمن يشك في حجية كتاب الله وسنة نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلم، كمصدرين من مصادر استنباط الأحكام الشرعية، في شتى المجالات العبادية والحياتية، وجاءت تسمية أتباع هذا التصور بأهل السنة والجماعة.

واستمر تعاملي وتعاطيي مع منظومة تلك الرواية، ومكونات خطها، إلى أنْ عثرت في مطالعاتي على رواية، نقلها مسلم النيسابوري أحد الشيخين، في تصدر زعامة علم الرواية تدويناً وحفظاً، وثاني الكتب الروائية المعروفة بالصحاح، عند أهل السنة والجماعة، أوقفتني على مضمونها، وأثارت اهتمامي بمحتواها، الذي جاء معارضاً لرواية وصية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم المزعومة، من وجهة نظر أهل السنة والجماعة، تقول الرواية التي تعددت مصادرها، إلى أكثر من عشرين طريقاً:

قام النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يوماً فينا خطيباً، بماءٍ يدعى خمّاً، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثمّ قال: أمّا بعد ألا أيّها الناس فإنَّما أنا بشر، يوشك أنْ يأتي رسول ربِّي فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله ورغب فيه،

ثمّ قال وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي[٦١].

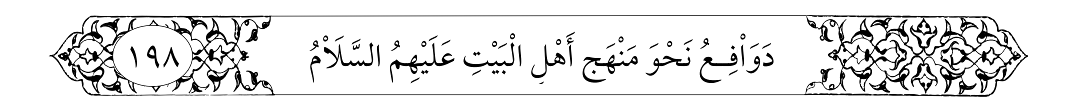
وبعد تأكدي من صحة المصدر، عدت إلى رواية كتاب الله وسنتي، لأبحث عن مصادرها، فتبين لي أنَّ أول من أخرجها هو مالك بن أنس، في كتابه الموطأ بلاغاً، ولم يذكر سندها عن مالك، أنَّه بلغه أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة نبيه[٦٢].

والرواية البلاغ في مصطلح علم الحديث، مصنفة ضمن الأحاديث الضعيفة، التي لا تستطيع أنْ تكون حجة للعمل بمقتضاها، إذا وجد قبالتها حديث، أو عدد من الأحاديث المسندة إسناداً صحيحاً.

انفرد مالك في موطأه بإخراج الرواية، ولم ينقلها بذلك السند، أو بسند غيره أحد من أصحاب (الصحاح)، بسبب عدم صحة صدورها عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من جهة، وعزوف الرواة عن نقلها، أمّا الدافع الذي حدا بمالك إلى نقلها بلا سند، فيكمن في رغبة بني العباس، حمل الناس على اتباع أمر ليس له وجود ظاهري، في مقابل أئمة أهل البيت عليهم السلام، الذين يعتبرون حفظة الدين

(٦١): صحيح مسلم كتاب الفضائل ج٤ ص١١٠.

(٦٢): الموطأ للإمام مالك ح ١٦٠١.



الحقيقيين، كتاباً وسنة مطهرة.

ومن رواية مالك، وحديث مسلم، أمكنني الإمساك بدليل، ووضعني على طريق اكتشاف الحقيقة، ضاعفت جهدي في البحث، فوجدت أنَّ مسلماً، لم يكن وحده الناقل لحديث الثقلين، فهناك أيضاً عدد من حفاظ العامة، أخرجوه كلٌّ حسب شروط رواته، فهذا الترمذي قد نقله في سننه، والنسائي في خصائصه، وأحمد بن حنبل في مسنده، والحاكم النيسابوري في مستدركه على الصحيحين، والطبراني في معجمه الكبير، والمتقي الهندي في كنز العمال، وابن أبي شيبة في مصنفه، والبغوي في مصابيح السنة، وابن حجر في الصواعق، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء، وقد اعترف الألباني على نصبه بصحته، في صحيح الجامع الصغير، والمناوي في فيض القدير، والسيوطي في الجامع الصغير، وغيرهم كثير لا يسعني ذكرهم، وقد اقتصرت على المشهورين منهم.

وتساءلت عن السبب الذي دفع بعلماء عامة الأُمَّة، إلى تجاهل حديث الثقلين والإعراض عنه، رغم تعدد طرقه، وكثرة حفاظه، مقابل تقديم رواية مالك عليه، وهي بتلك الحال من الضعف؟

ولم أهتدِ إلَّا إلى أنَّ الواقع السياسي، الذي كان سائداً في القرون الأُولى، هو الذي أسهم بشكل جلي، في إقصاء عترة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ودفعهم

من أنْ يكونوا الثقل الذي يلتجئ إليه المسلمون، وأطلق عبيد الدنيا، ليعبثوا بالسنة النبوية، التي لم تكن مجموعة عند العامة في ذلك الوقت، وتأخر تدوينها إلى ما بعد القرن الأول الهجري، وأوجد التناقض في الروايات المنسوبة للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، من أجل تعمية الأُمَّة عن قياداتها، وصرفها عن هداتها، ليتسنى للمحرفين الكلم عن مواضعه، في أنْ يتحكموا بمصيرها، ويسهل عليهم قيادتها.

ونظرت في الروايتين، فوجدتهما متفقتين في النصف الأول من وصية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وهو كتاب الله، ومختلفتين في النصف الثاني من الوصية، اختلافاً يدعو إلى موازنة الروايتين، للخروج بالصحيحة منهما متناً، بعد أنْ تأكد لدينا أنَّ رواية مالك لا تقوم بها حجة، لأنَّها غير مسندة.

ولا خلاف بين جميع مكونات الأُمَّة الإسلامية في حجية السنة النبوية، فكلُّ مدارسها الفقهية تقرّ بها، وتعتمدها في استنباط الأحكام الشرعية، لكلِّ المسائل دينية كانت أم دنيوية، ولم ينشأ خلاف على ذلك، إنَّما نشأ الخلاف في مورد السنة النبوية، عمّن نستقيها؟ وممّن نأخذها؟

وفي حين أنَّ رواية مالك لم تطرح مورداً للسنة النبوية، يمكن اعتماده مرجعاً لها، وكلُّ ما فيها تعلق بلزوم اتباعها مع الكتاب العزيز، لكونها عاصمة من الضلال.

طرحت الرواية المتعددة الطرق، والمصطلح عليها بحديث الثقلين، مورداً للسنة النبوية، وهو العترة الطاهرة من أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ليكونوا مراجع الأُمَّة في أحكام الدين كلِّه، وحفظة الكتاب والسنة النبوية، ورعاة أحكامهما، في منأى عن التحريف والتشويه، والتعطيل المحتمل من طرف المنافقين والجاهلين.

ولو جاءت رواية مالك صاحب الموطأ، بمورد مغاير للرواية المعارضة لها، والتي طرحت أهل البيت عليهم السلام، ليكونوا مرجع الأُمَّة في ما يتعلق بالكتاب والسنة، لأمكن الموازنة بينهما، وترجيح إحداها على الأُخرى؛ لذلك فإنَّ رواية مالك نفسها، لا تتعارض مع حديث الثقلين، لأنَّها لم تطرح بديلاً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، كقول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مثلاً: تركت فيكم كتاب الله وصحابتي. والصحابة في حدِّ ذواتهم، لم يطرحوا أنفسهم مراجع للأُمَّة الإسلامية، ولم يدعِ أحد منهم حيازته لذلك المقام، بينما ادعاها عليٌّ وذريته عليهم السلام، استناداً إلى نصوص متفق عليها من جملتها هذا الحديث، تظافرت لتؤسس مقام المرجعية في الدين، وولاية الأمر في سياسة العباد، دون أنْ ينازعهم فيها أحد، بل إنَّ المسلمين في تلك العصور، كانوا متسالمين على الرجوع إليهم، بسبب أهليتهم زمناً طويلاً.

وليس أدلّ على موافقة حديث الثقلين المذكور آنفاً، لقوله تعالى:

﴿ إِنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٦٣).

حيث تضمنت الآية بياناً لدورين من أدوار الهدي الإلهي هما:

دور التبليغ: وهو مناط بالأنبياء والمرسلين عليهم السلام، الذين نزل عليهم الوحي، وحملوا شرائع وقوانين لتكون دستوراً للبشرية، تعمل بمقتضاه، وتمتثل لأحكامه، فنزول الوحي من الله تعالى، كان عن طريق روح القدس عليه السلام، إلى النبيِّ أو الرسول عليه السلام.

دور الحفظ: وهو مناط بالأئمة الأطهار عليهم السلام، الذين أودعوا علوم وأسرار ومعاني، جميع ما نزل على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وحفظ مكونات الوحي، يكون عن طريق الإمام عليه السلام، قال تعالى:

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾(٦٤).

ولا شك أنَّ الآية الكريمة التي في سورة المائدة، تشير إلى الدورين المذكورين، وتزيد في إقامة الدليل على أنَّ الدين قد جاء من الله تعالى، متناسقاً ومتجانساً وتاماً

---

(٦٣): سورة الحجر الآية ٩.

(٦٤): سورة يس الآية ١٢.

في جميع مكوناته، وليس للناس فيه إلّا السمع والطاعة فقط.

قال تعالى: ﴿إِنا أَنْزَلْنَا التوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٦٥).

لقد بينت الآية الكريمة، وظائف متعلقة بأدوار تبليغ، وحفظ شرائع الله سبحانه وتعالى ووحيه، جاءت بحسب الأولوية، والترتيب الزمني كالآتي:

أولاً: النبيّون.

ثانياً: الربانيون (الأئمة أو خلفاء الأنبياء).

ثالثاً: الأحبار (العلماء).

فتبيّن من خلال ما ذكرت، أنَّ الدين لا يكون تاماً وكاملاً، إلّا إذا اجتمعت فيه خصائص التشريع كافة، من وجود السلطات الثلاث داخل تركيبته، وأعني بها السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية.

إذن فإنَّ مسألة تعيين من سيقوم مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، في

---

(٦٥): سورة المائدة الآية ٤٤.

النصح والإرشاد، والإجابة عن المسائل المستحدثة، والحكم بين الناس، وقيادتهم إلى سواء السبيل، واضحة لا غبار عليها، وليست متروكة للناس، لأنَّ ذلك الترك المزعوم نقص في الدين، وإخلال بمكوناته، وتضييع بمقام حفظ وتنفيذ أحكام الدين، لا يمكن أنْ يصدر عن الله تعالى.

ولو سلمنا جدلاً، أنَّ مسألة قيادة الأُمَّة بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، قد تركها الله سبحانه وتعالى للناس، فإنَّ ذلك الترك المزعوم، لا يمكن أنْ يكون مطلقاً، لضرورة تحديد شروط القائد المزمع تعيينه، تؤهله لقيادة سفينة الأُمَّة بيسر ونجاح، فيكون التعيين، مع وجود شروط القائد كذلك من الله سبحانه وتعالى، حتى على سبيل النصح والإفادة، لأنَّه أعلم بمخلوقاته من غيره، وفي كلتا الحالتين، وأعني بهما حالة تعيين القائد، وحالة ترك تعيينه لاختيار الناس، فالوحي ليس بمنأى عنهما.

من هنا فهمت واقتنعت تماماً، بضرورة وجود شخص له من المؤهلات الكبيرة، ما يمكنه من ملء مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في الأُمَّة، بعد انتهاء مرحلة النبوة، وعرفت أنَّ ذلك الشخص، لابُدَّ أنْ يكون الأقرب إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والأكثر استعداداً وعطاءً من غيره، وتكون تلك الكمالات ظاهرة فيه، فلم أجد غير الإمام عليِّ بن أبي طالب عليه السلام، من توفرت فيه تلك

الخصائص والكمالات، منذ ولادته، حتى آخر أيام حياته الدنيوية، لم يسجل عليه التاريخ مخالفة، ولا نقل عنه أصحاب السير بدعة، حتى أنَّ أعداءه الذين حاربوه، لم يستطيعوا أنْ يجدوا عليه غميزة، أو يقدموا سبباً يبرر عداءهم وحربهم له، فقدمت أمير المؤمنين عليه السلام على غيره، اعترافاً بحق عليٍّ، وامتثالاً لأمر الله تعالى في تقديمه وموالاته وطاعته، والإيمان بأنَّه الإمام المفترض الطاعة على الأُمَّة قاطبة.

والإمام عليٌّ عليه السلام كما هو معروف عند الخاص والعام، أول عترة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذين قرنهم سيدهم بالكتاب وجعلهم ثقله، وبابه، وعرفاءه، وعلماءه، ولولا وجودهم، لُمحق الدين واندرست أحكامه.

أمَّا الثقل الأول، فهو الكتاب الذي أحصى الله تعالى فيه كلَّ شيء، قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[٦٦] والذي عجز كبار الصحابة، وجهابذة العلماء عن إدراك جميع معانيه، وتناول كوامن درره، والأخذ بأزمة محكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، فلم يتجرأ أحد على القول بتمام معرفته، غير عليٍّ عليه السلام، باب مدينة علم النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

وأمَّا الثقل الثاني، فهم صفوة الله من بيت نبيه الأكرم صلَّى الله عليه وآله

---

(٦٦): سورة يس الآية ١٢ .

وسلم، حيث جرت سنة البارئ تعالى أنْ يختار ويصطفي من يقوم مقام حفظ شريعته والقيام عليها في مرحلة ما بعد النبوة والتبليغ.

حديث الثقلين لمن فهم مقاصده، من أكبر الأدلة على وجوب اتباع العترة الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام، واقترانها بكتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، دليل على عصمتها من الضلال والكفر والشرك والنفاق، وزيغ الشيطان، كما دلَّت عليه وزادت المعنى ترجيحاً آية التطهير، التي تجلَّت فيها إرادة المولى تعالى بعصمة أهل البيت عليهم السلام: ﴿إِنما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٦٧) .

وعدم افتراق العترة الطاهرة عن الكتاب العزيز، إلى يوم القيامة، دليل آخر على عصمة الأطهار، ومنجاة للأُمَّة التي أراد الله بها كلَّ خير، بتخصيص صفوته لقيادتها، فشاءت إرادته اللطف بالأُمَّة، وشاءت الأُمَّة لنفسها، الشرَّ والانحراف عن قصد السبيل.

واعتبار التمسك بالكتاب والعترة الطاهرة عاصماً من الضلال، دليل ثالث على عصمة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فلا يعقل أنْ يحيلنا النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تبعاً للوحي، على مستمسك غير مأمون من الضلال.

---

(٦٧): سورة الأحزاب الآية ٣٣.

كما لا يمكن أنْ يقوم الكتاب العزيز بنفسه، لأنَّه كتاب لا يستطيع أنْ يدفع عن نفسه شيئاً، من تأويل أو تعطيل فاسدين، وهو بحاجة إلى من ينطق عنه صدقاً وعدلاً، كالإمام عليٍّ عليه السلام، والصفوة الطاهرة من ذريته عليهم السلام، تماماً كالسنة النبوية المطهرة، التي تحتاج إلى حافظ لها، يكون مسدداً من طرف البارئ تعالى، فيكون القرآن وتوابعه من أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، المفسرة لمعانيه ومقاصده، وبقية علوم الدين والدنيا، قد أوكلها الله سبحانه وتعالى إلى صفوته، وزادهم بسطة في ذلك ليكونوا حججه على خلقه، والأُمناء والأدلاء عليه وعلى شريعته وأحكامه.

وجاء قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٦٨] ليشير إلى حقيقة أنَّ للكتاب صفوة، أورثها الله تعالى علومه المتاحة لمخلوقاته، وطهرها ظاهراً وباطناً، لتكون في مستوى حمل ذلك العبء الثقيل، وجاء لفظ المس معبراً عن قدرة الأئمة الهداة، على إدراك جميع معاني الكتاب العزيز، وتحويله من جملة مفاهيم، إلى جملة من التطبيقات، ليتسنى لمن هم دون فهم جميع محتوياته، أنْ يتمكنوا من ذلك تيسيراً لهم، وتوجيهاً لمطالبهم التي عجزوا عن تلبيتها بمفردهم، واستكمالاً للحجة العملية عليهم، بعد الحجة النظرية.

---

(٦٨): سورة الواقعة من الآية ٧٧ إلى الآية ٧٩.

واقتنعت أنَّ رواية مالك، بقدر ما كان فيها إشارة إلى مصدرين من مصادر التشريع، بقدر ما كانت فاقدة لسند العمل بها، بحيث لم تحدد وجهة طالب الكتاب والسنة النبوية، والباحث عن التمسك بهما، إلى من يتجه؟ وعمّن يأخذ؟ خصوصاً إذا ما علمنا أنَّ تدوين الكتاب والسنة، قد جاءا متأخرين عن وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فيكون أوصى بما لم يتحقق وجوده، ويحتاج إلى مؤتمن عليه.

ولما لم تثبت مرجعية حقيقية وجامعة في ذلك العصر، غير الإمام عليٍّ عليه السلام، الذي كان يقول سلوني قبل أنْ تفقدوني، وما استتبعه من إقرار بتلك المرجعية، والعمل بمقتضى هديها جزئياً، من طرف ابي بكر وعمر وعثمان، كلٌّ حسب ضرورته التي أُلجئ إليها، تأكد لي وجوب مقام الإمامة تعييناً من الله تعالى.

وأيادي عليٍّ عليه السلام على الصحابة والأُمَّة كلِّها أكثر من أنْ تحصى، ولعلَّ أبلغ ما قيل مكرراً في ذلك، ما كان يردده عمر بن الخطاب، عند كلِّ معضلة يعجز عن حلها: (لولا عليٌّ لهلك عمر)[٦٩].

ورغم سلب حقه في قيادة الأُمَّة، فإنَّه لم يبخل على غاصبي حقه، بما فيه صلاح الأُمَّة وحفظ بيضة الدين، فقد شهد له التاريخ فكه الحصار عن عثمان، على أنْ يُصلح ما أفسده بنو أبيه، وسعى إلى تجنب إراقة دماء المسلمين، في حروبه التي

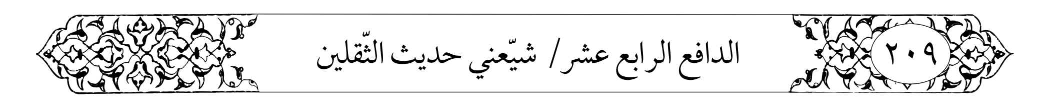
---

(٦٩): شرح النهج لابن أبي حديد ج١ ص٦.

خاضها، فلم يبدأ حرباً قبل أنْ يبدأه أعداؤه بالقتال، وكان يعفو عن أعدائه عندما يقعون في قبضته، وحادثة الجمل، أجلى مثال على عظمة شخصية عليٍّ عليه السلام، ومطابقته لأخلاق النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، في الرحمة والعفو، أدلة على أحقية أهل البيت عليهم السلام، في قيادة الأُمَّة الإسلامية، وبطلان الحكومات التي اغتصبت الحكم، بدعوى اختيار الناس والشورى، لنقض ذلك الترك، وتعطيل العمل بالشورى المزعومة، بتعيين المتآمرين على الحكم الإسلامي، واحداً بعد الآخر، إلى أن انتهى أمر المسلمين ديناً ودنيا، إلى طلقاء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومن تتبع ما خلص من روايات تلك الفترة الزمنية، أدرك الحقيقة دون عناء.

وكلُّ من أنكر مرجعية أهل البيت عليهم السلام، أو حصرها في المسائل الدينية، دون بقية المطالب التي تخصها، والتي تؤسس في جميع أبوابها مقام الإمامة العامة في الأُمَّة، لم يفهم غاية الوحي من حديث الثقلين، أو أنَّه من أتباع أولئك الذين وقفوا في وجه النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لمنعه من كتابة وصيته للأُمَّة.

لذلك يمكنني القول: إنَّني بفضل حديث الثقلين عرفت طريقي إلى الله، وأدركت تكليفي في موالاة الأئمة الاثني عشر الأطهار، الذين نصَّ النبيُّ على كونهم خلفاءه وأئمته في أُمَّته من بعده، فواليتهم في الدنيا والآخرة، وتقربت إلى الله



تعالى بمحبتهم واتباعهم والتشيع إليهم، تأسياً بتشيع إبراهيم لنوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(٧٠).

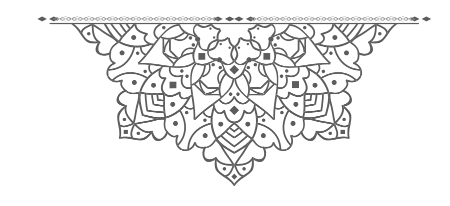
أحمده تعالى على أنْ هداني إلى هذه المنّة العظيمة، التي لا يعرف قيمتها، ولا يدرك حقيقتها، إلّا من آوى إلى ركنها، واعتصم بحبلها، واستمسك بعروتها، وأسأله سبحانه أنْ يمنَّ على بقية الأُمَّة الإسلامية، بالرجوع إلى الأئمة الهداة عليهم السلام، ليعود للدين مجده، الذي كان على عهد النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلم، وتفوح زهرته، وتينع ثمرته، لتكون مصداق الرحمة المرجوة، وعنوان الخلق العظيم، مقاماً تتجلى فيه إفاضات البارئ تعالى، وليس مزبلة تلقى فيها كلُّ فضلات أدعياء الدين، والمتقولين على الله سبحانه وتعالى بغير الحق، أو صورة فضيعة، وكابوساً مفزعاً، عن إسلام دموي ليس فيه رحمة، ولا وجود له حقيقة إلّا في عقول مبتدعيه، من المنحرفين عن الصراط المستقيم، صراط محمّد وآله الأطهار.

---

(٧٠): سورة الصافات الآية ٨٣.

الدافع الخامس عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

حديث الغدير وحادثته هما اللذان شيعاني



عبد السلام... رجل ذو شخصية تميزت بالانفتاح على الآخرين، دمث الأخلاق، رحب الصدر، دائم الابتسامة، يحترم الناس ولا يتعامل معهم، إلَّا على قاعدة من التقدير والاعتبار، لأجل ذلك، كسب ودَّ واحترام كلِّ من عرفه عن قرب، حدثوني عنه وعن شمائله، وكيفية تشيعه إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام، فوجهت إليه الدعوة، ليكون ضمن الإخوة، في جلسة الإفادة التي قررت إقامتها، مساهمة من طرفي، في مزيد إظهار الحقائق، المتعلقة بالدين الإسلامي النقي من الشوائب، والذي أراده الله تعالى ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، ليكون خاتم الرسالات الإلهية، وخلاصة الشرائع الربانية، فاعلاً ومؤثراً قائماً في الأُمَّة، ظاهراً بثمرته في العالم، بواسطة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام، من أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أمثلة الحق وبواعث الصدق، نأياً بالناس عن المزالق، وحفظاً

لهم من الوقوع في المهالك، فلبى الطلب، وحضر مع من حضر، ولمَّا جاء دوره في الكلام قال:

في ما مضى من أيام حياتي، لم أكن أعرف عن حادثة الغدير شيئاً يذكر، على الرغم من إقرار حفاظ الخط، الذي كنت متبعاً له بصحة الحديث، إلى درجة أنْ تتبع بعضهم طرقه، فربت على التواتر وعدّوه منها.

قبل تحولي إلى خط أهل البيت عليهم السلام، وتشيعي للصفوة الطاهرة من أئمة الهدى، كلُّ ما كان يتردد عند أهل الاختصاص، جزء صغير من حديث الغدير، مقتصراً على جملة واحدة للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، يقول فيها: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»[1] قد ضرب الصفح، عن كامل تفاصيل اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، سنة عشر من الهجرة النبوية المباركة، الذي وقعت فيه الحادثة.

بدأ اهتمامي بحادثة الغدير المباركة، عندما عثرت على سبيل الصدفة، وأنا أتصفح تاريخ ابن كثير المعروف بـ«البداية والنهاية»، على رواية نقلها بإسناده عن أبي هريرة يقول فيها، نقلاً عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: من صام يوم الثامن عشر من ذي الحجة، كتب الله له صيام ستين شهراً[2].

---

(١): مسند أحمد ج ٤ ص ٣٧٢، صحيح الترمذي ج٥ ص ٢٩٧ ح ٣٧٩٧، سنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٥ ح ١٢١.

(٢): البداية والنهاية لابن كثير ج٨ في ذكر حجة الوداع، تاريخ ابن عساكر الشافعي ج ٢ ص ٧٥ ح

رسمتْ في ذهني تعجباً من قيمة ذلك اليوم، دفعني إلى مزيد التعرف على حقيقته، وما يمثله في الإسلام، ثمّ اعترضني الحديث الذي نقله مسلم النيسابوري - وهو ثاني الحفاظ المعتمدين، عند أتباع المذهب الذي كنت أعتنقه- في باب فضائل أهل البيت عليهم السلام، والذي بتر منه ما شاء أنْ يبتر، نقل فيه عن زيد بن أرقم قوله: قام النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً، بين مكة والمدينة... وبمزيد من البحث والتقصي، أمكنني الوقوف على حقيقة غدير خم، وحادثة اليوم الثامن عشر من ذي الحجة. لم يستطع الحفاظ ولا المؤرخون، التنصل من ذلك الحدث العظيم، فنقل منهم من نقل الحادثة والخطبة كاملتين، وأحجم منهم من أحجم، بدافع هوى، أو بمنع سياسة، أو نتيجة اختلاف مذهبي، تفنن منهم في تغطية الحقيقة الناتجة عن تلك الحادثة الكبرى، وذلك اليوم العظيم.

ملخص ألفاظهم كالآتي: حجّ النبيُّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حجته المعروفة بحجة الوداع، في السنة العاشرة من الهجرة المباركة، فتبعته جموع غفيرة من المسلمين، عدَّت أكثر من مائة ألف نفس، وعند منصرفه من تلك الحجة، وفي مكان يدعى غدير خم بين مكة والمدينة بالجحفة، وهي ميقات أهل مصر والشام، وكان يوماً صائفاً، حتى أنَّ الرجل ليضع رداءه تحت قدميه من شدّة الحر، نزل عليه

٥٧٥،٥٧٦ و٥٧٧.

جبريل عليه السلام قائلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾(١) وأمره بأنْ ينصب علياً إماماً وعلماً وهادياً وحاكماً في المسلمين بعده، فدعا إلى دوحات فقممن، ووضع له من الرحال ما صعد عليه واعتلى، وخطب في الناس خطبة، قال في آخرها: معاشر المسلمين، «**ألست أولى بكم من أنفسكم؟**» قالوا: اللَّهمَّ بلى. فقال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأنصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار**»(٢).

ثمّ أمر صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الناس بمبايعة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، فبويع في ذلك اليوم من طرف تلك الجموع، وكان عمر بن الخطاب من

---

(١): سورة المائدة الآية٦٧.

(٢): سنن الترمذي ٥/ ٦٣٣ ح٣٧١٣ قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، سنن ابن ماجة ١/ ٤٥ ح١٢١، صححه الألباني في صحيح ابن ماجة ١/ ٢٦ ح ٩٨، المستدرك ٣/ ١٠٩- ١١٠ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، مسند أحمد بن حنبل ١/ ٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٣٢١، ٤/ ٢٨١، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، ٥/ ٣٤٧، ٣٦٦، ٤١٩. حلية الأولياء ٤/ ٢٣، ٥/ ٢٧، ٣٦٤، مجمع الزوائد ٩/ ١٠٣ ــــ ١٠٦. كتاب السنة ص٥٩٠ ــ ٥٩٦. خصائص أمير المؤمنين، ح١٢، ٢٤، ٧٩ ــ ٨٨، ٩٣ ــ ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٥٧، المعجم الكبير للطبراني ح٤٩٦٨ ــ ٤٩٧١، ٤٩٨٣، ٤٩٨٥، ٤٩٨٦، ٤٩٩٦، ٥٠٥٨، ٥٠٥٩، ٥٠٦٥، ٥٠٦٦، ٥٠٦٨، ٥٠٧١، ٥٠٩٢، ٥٠٩٦، ٥٠٩٧، ٥٠٩٧، ٥٠٩٧، ٥١٢٨. صحيح ابن حبان ١٥/ ٣٧٥ ح٦٩٣١، المصنف لابن أبي شيبة ح٣٢٠٥٦، ٣٢٠٦٤، ٣٢٠٦٩، ٣٢٠٨٢، ٣٢٠٨٣، ٣٢١٠٩، ٣٢١٢٣.

ضمن من بايعوا علياً عليه السلام، وقد نقلوا عنه قوله: بخ بخ لك يابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كلِّ مؤمن ومؤمنة [١].

ولم ينصرف الناس من ذلك الموقف حتى نزل قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [٢]، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**الحمد لله على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الربِّ بولاية عليٍّ بن أبي طالب من بعدي**» [٣].

وخطبة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يوم الغدير، مهمة وكبيرة، تناول فيها تسلسل مراتب الولاية بقوله: «**إنَّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم**». مبيناً أنَّ ولايته على الناس، هي من ولاية الله تعالى وبأمره، وكذلك الشأن بالنسبة لولاية عليٍّ عليه السلام.

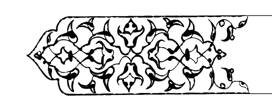
هذا الفهم لم يستطع أنْ يصل إليه كلُّ المسلمين، فالغالبية العظمى منهم اليوم، لا تعترف لعليٍّ بالولاية العامة عليهم، وذلك بسبب التأويل الخاطئ لمصطلح مولى، والادعاء بأنَّها لا تفيد ولاية الأمر في معناها، والذي أوصل المتنطعين والقافزين

---

(١): مسند أحمد ج٤ ص ٢٨١.

(٢): سورة المائدة الآية ٣.

(٣): مسند أحمد ج٤ ص ٢٨١.



على حقيقة مرادفاته، إلى نيف وعشرين معنى هي:

الربّ ـ العم ـ ابن العم ـ الابن ـ ابن الأخت ـ المعتِق ـ المعتَق ـ العبد ـ المالك ـ التابع ـ المنعم عليه ـ الشريك ـ الحليف ـ الصاحب ـ الجار ـ النزيل ـ الصهر ـ القريب ـ المنعم ـ العقيد ـ الولي ـ الأولى بالشيء ـ السيد غير المالك والمعتق ـ المحب ـ الناصر ـ المتصرف في الأمر – المتولي في الأمر، وذكروا من معاني الولي أيضاً: الأمير والسلطان.

وأجمع علماء اللغة على مجيء مولى بمعنى ولي.

وقد استند من استند على تعدد معاني الولي والمولى، وتعذر من تعذر بها، في عدم مجيئها محدداً لمقصد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، من ولاية الأمر بعده، مستدلين وجاهة موقفهم، بعدم فهم الصحابة الأخيار رضوان الله تعالى عليهم، لذلك المقصد، ورأوه تبعاً لهم لا يفيد ما ذهب إليه أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، من أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، قد كلفه البارئ سبحانه وتعالى، بنصب عليٍّ عليه السلام ولياً لأمر الأُمَّة من بعده، تنصلاً وسوء فهم من المقصد الحقيقي من الولاية.

غير أنَّ البصير يمكنه أنْ يستجلي الحقيقة، من خلال النظر في المعاني المدرجة

للمولى، فيتبين له من جهة، مدى تطابق أحدها بمقصد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ثمَّ وبمراجعة تفاصيل تلك الحادثة، يتسنى تثبيت المراد الذي رغب الوحي في إبلاغه للمسلمين.

وبتتبع المفردات التي تؤدي معنى مولى وولي، وجدت أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لم يكن يقصد بها كلَّ هذه المعاني، أو بعضها، ولا كان غير ملتفت إلى تعدد معاني مولى في اللغة، فالإطار الذي أُطلق فيه المصطلح، لم يترك لبقية الإفادات، مجالاً لاحتمال القصد من الإطلاق.

والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم يكن قاصداً من ولايته التي فوضها وأحالها إلى عليٍّ عليه السلام من بعده، أنْ يكون رباً، ولا فهم المسلمون منه ذلك المعنى لأنَّه يستلزم الكفر، ولا كان قاصداً معنى العم، ولا ابن العم، ولا الابن، ولا ابن الأخت، ولا المعتِق، ولا المعتَق، ولا المالك، ولا العبد، ولا التابع، ولا الشريك، ولا الحليف، ولا الصاحب، ولا الجار، ولا النزيل، ولا الصهر، ولا القريب، ولا المنعم، ولا المنعم عليه، ولا العقيد، ولا المحب، ولا الناصر، لأنَّها كلَّها لا تنسجم مع مقصد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في ذلك المكان والزمان، وهي عندما نستبدلها بالمفردة المذكورة، نجدها بعيدة أو مستحيلة الاحتمال والترجيح، ولا تستقيم لغوياً ولا بلاغياً، كأنْ يقال مثلاً من كنت عمه، أو ابنه، أو

ابن أُخته، أو قريبه، أو جاره، أو ناصره أو... فهذا عليٌّ....

بينما يتفق مفاد مولى، مع مفردة الولي، والأَولى بالشيء، لكونها تفيد مقصد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من قوله: «**من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه**»(١) خاصة إذا أضفنا لها قرائن أُخرى، من إطار الحادثة نفسه، وقرائن أُخرى داعمة لها ومؤيدة من خارج ذلك الإطار.

أمَّا ما جاء مؤيداً لمعنى الرياسة والحكم، من إطار الحادثة نفسه، فإفادة مولى لمعنى الأَولى بالشيء، من خلال كلام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والسؤال الذي أورده على جموع المسلمين، والذي قال فيه: «**ألست أولى بكم من أنفسكم؟**»(٢).

وعندما ردوا عليه بالإيجاب، قال صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه، فهذا عليٌّ مولاه...**»(٣).

موضحاً بشكل جلي وكامل، مراتب ولاية الأمر المقصودة، وهي الله باعتباره

---

(١): الدر المنثور ج ٢ ص٢٩٨.

(٢): مسند أحمد ج٤ ص ٢٨١.

(٣): مسند أحمد ج ٤ ص ٢٨١.

الخالق والمشرع والحاكم والمتصرف المطلق، والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم باعتباره الواسطة، والسبب بينه وبين خلقه، والنائب عنه في أداء حقه، والحاكم بمقتضى حكمه، ثمَّ الإمام باعتباره خليفة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والمستحفظ على شريعته، والقائم مقامه في أُمَّته من بعده.

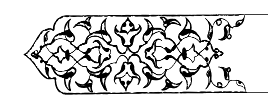
كما أنَّ في دعاء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «...**اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله...**»(٤) إفادة أُخرى أثبتت، أنَّ مقصده صلَّى الله عليه وآله وسلم، لم يكن منصرفاً إلَّا إلى منصب الحكم، وولايته العامة على المسلمين.

أمَّا بقية المؤيدات من إطار الحادثة نفسه، فزمنيّاً يمكن القول إنَّ قرب رحيل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، دعا الوحي إلى إبرام أمر الحكومة بعده، ولم يبقَ عن ذلك الموعد ستون يوماً، وفرصة تجمع جماهير الأُمَّة لن تتكرر.

وأمّا مكاناً، فهو صحراء الحجاز الوعرة والشديدة الحر، وفي هاجرة من النهار، لا تحتمل الوقوف والبقاء، إلَّا لسبب مهم، وخطب جليل، لم ينزل من قبل، فيه إثبات حكم، يتوقف عليه مصير الدين عقيدة وشريعة، والذين ذهبوا إلى تأويل

---

(٤): الصواعق المحرقة ص٧٥.



لا يستقيم، مفاده أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، كان يقصد من خلال خطبته وحديثه في يوم الغدير، الحث على حبِّ عليٍّ عليه السلام، لم يصيبوا إلَّا بهتاناً، وحادوا عن الحقيقة بكلِّ أركانها، لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، قد حثَّ على حبِّ عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام، امتثالاً لأمر الله تعالى فيهم، في قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٥]، وقال في عليٍّ عليه السلام: «**لا يحبك إلَّا مؤمن ولا يبغضك إلَّا منافق**»[٦]، وقال صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**عنوان صحيفة المؤمن حبُّ عليٍّ**»[٧]، وقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم غير ذلك من الأحاديث، التي تحثُّ على تلك المحبة، وتفرضها على الأُمَّة فرضاً لا يحتمل تبريراً أو شكاً.

أمَّا ما يؤيد المقصد من ولاية الأمر لعليٍّ عليه السلام، من خارج إطار الحادثة، فحديث المنزلة، الذي قال فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لعليٍّ عليه السلام: «**أما ترضى أنْ تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي**»[٨].

ولا شك أنَّ المتتبع البسيط لآي القرآن الكريم، يستطيع أنْ يستخرج منازل

---

(٥): سورة الشورى الآية ٢٣.

(٦): صحيح مسلم ١/ ٣٩.

(٧): الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص١٨٢.

(٨): صحيح مسلم، كتاب الفضائل باب فضائل عليّ ج ٧ ص ١٢٠، الترمذي ج ٥ ص ٣٠١ ح ٣٨٠٨- ٣٨١٣ و٣٨١٤، مسند أحمد ج ٣ ص ٥٠ ح ١٤٩٠ .

هارون من موسى، والتي تتطابق حسب مفاد الحديث، مع منزلة عليٍّ عليه السلام من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والتي منها الخلافة من بعده، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٩)، كما أنَّ المعاند أيضاً سوف لا يتقيد بهذا الدليل، ولسوف ينساق وراء انحراف من انحرف، بالادّعاء زوراً وبهتاناً، بأنَّ خلافة عليٍّ عليه السلام، هي في الأهل فقط دون الأُمَّة، ولست أدري من أين جاؤوا بفريتهم تلك حتى يجزموا بها، ويعكفوا عليها، ويؤسسوا بها مذهباً، لم يأتِ بخير أبداً منذ تأسس، وهل كانت خلافة عليٍّ عليه السلام في أهله تحتاج إلى دلالة أو إشارة أو توضيح، حتى نحتمل أنْ يدعيها غير عليٍّ عليه السلام؟

لذلك فإنَّ مقصد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم يكن كذلك، لأنَّه قد استفاض فيه من قبل، وحثَّ على الالتزام به، ورغب فيه وحذر من تركه، ولا يحتاج إلى إيقاف الناس في ذلك المكان الوعر، وفي ذلك الوقت القائظ، ومن أجل ذلك المطلب الذي تكرر حديثه فيه، ويحتمل التأجيل إلى حين رجوعه إلى المدينة.

وفهمت أنَّ الحكمة كانت تقتضي في ذلك الزمن - لحداثة الناس عهداً بالإسلام- أنْ يعين الوحي من يقوم مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، صوناً

---

(٩): سورة الأعراف الآية ١٤٢.

للدين، وحفظاً لمكونات النظام الإسلامي الجديد، في وسطٍ ما تزال الأحكام الجاهلية، والنعرات القبلية، تلقي بظلالها على أغلب الوافدين على الدين الجديد.

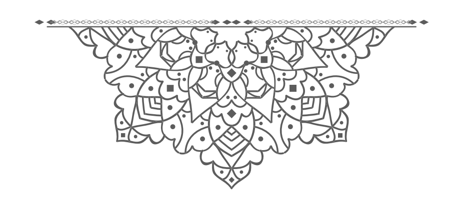
وكلُّ من لم يفهم الأحداث التي سبقت وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، يكون قد قرأها بعين التبعية العمياء، وجحد حق الله تعالى، ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأوليائه الكرام عليهم السلام، الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ليكونوا خلفاءه في أرضه، وأمناءه على عباده، سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ومن لم يستطع أنْ يستوعب حقيقة ومقام أهل البيت عليهم السلام، بكونهم غير الصحابة، وخلاف معادنهم، لأنَّهم صفوة من أصل واحد، وبقية الناس من أُصول شتى، ذرية بعضها من بعض، لا يقاس بهم أحد، ممّن هم دونهم، لا يمكنه أنْ يمضي طويلاً في هذا الإطار، لأنَّه سيصطدم بعقبة التمييز الخاطئ، التي بنى عليها عقيدته، وأنصحه بأنْ يترك موروثاته جانباً، ليحكم النصوص الصحيحة، ويميز بعقله الحقيقة من الوهم.

وأخيراً فإنَّني أحمد الله تعالى حمداً كثيراً، وأشكره شكراً متواصلاً، على نعمة ولاية أوليائه، التي هي مفتاح السعادة في الدارين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الدافع السادس عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

اتصال التشيّع بعهد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وانقطاع غيره هما اللذان شيّعاني



إبراهيم... شاب أسمر اللون، كسمرة أُسامة بن زيد، أوصله بحثه، ووقف به تحقيقه، عند قناعة لا تثنيها رياح الشك، ولا يغير من انطباعها في قرارة نفسه، عامل من العوامل الريبة، جاء دوره في الكلام فقال:

كنت في ما مضى معتنقاً المذهب المالكي، على أساس التبعية الوراثية، دون نظر ولا تحقيق، وكان اعتقادي واعتقاد أهلي آنذاك، أنَّ الذي نتقرب به إلى الله من أحكام وشعائر هي الإسلام، ولم نكن نرَ إسلاماً غير الذي وجدنا أنفسنا عليه، فلم نتساءل أو نشك في أمر من أُموره على الإطلاق، لأنَّنا في العموم نفتقد إرادة البحث، التي عادة ما تطرأ على الباحث، من شك وريبة لتناقض الأدلة، أو لتعارض الأفكار، بحيث تدفع صاحبها إلى ذلك السبيل من البحث، وتجره إلى

ميدان مقارعة الحجة بأُختها، عندها فقط يتميز الخبيث من الطيب، ويعلو منبر الحق، ويردد الفضاء صدى براهينه، وتداعب نسمات خيره آذان الواعين، فتنير به قلوبهم، وتتفتح عليه عقولهم، فلا يأنسون إلَّا به، ولا يسكنون إلَّا إليه.

لما نظرت في المذاهب والفرق الإسلامية، لم أجد فريقاً ولا مذهباً متصلاً بالنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وبعهده، اتصالاً وثيقاً لا فاصلة بينه، غير خط أهل البيت عليهم السلام، بينما انقطعت بقية الخطوط عن عصر النبوة انقطاعاً مفرطاً، لا يدعو العاقل إلى الاطمئنان إليها، وقد وصلت إلى هذه القناعة، على الرغم من أنَّ الذين كتبوا في تاريخ الفرق، لم يكونوا أُمناء في نقلهم، وكانوا في معظمهم متحاملين على غير خطوطهم، تجند معظمهم لنقل كلِّ ترهة ودعاية، تمسّ من صحة وصدق خصومهم.

كان **أول** المذاهب التي يصطلح عليها بالمذاهب السنية، والتي تدعي أنَّها على سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، هو المذهب الحنفي، نسبة إلى أبي حنيفة النعمان، الذي ولد سنة ٨٠ هجرية، وتوفي سنة ١٥٠ هجرية، وعاش معظم أيامه في الكوفة، انتقل في طلب العلم إلى المدينة، فتتلمذ على أيد عدد من أكابر العلماء، منهم الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، الذي كانت له معه حوارات ومناظرات.

لقب أبو حنيفة بالإمام الأعظم، من طرف زمرة من المتعصبين من أتباعه،

وهو لقب لا يستحق تقلده، لأنَّه اعتمد على رأيه في استنباط الأحكام، مستدلاً عليه في أغلب حالات استنباطه بروايات ضعيفة، تاركاً وراء ظهره أغلب الصحيح.

ثاني تلك المذاهب، هو المذهب المالكي، نسبة إلى مالك بن أنس الذي ولد سنة ٩٢ هجرية، وتوفي سنة هجرية ١٧٦ بالمدينة ودفن بها، وعاش معظم أيامه في المدينة المنورة، وقد تتلمذ مالك أيضاً، على يد الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، لكنَّنا لم نجد له بعد ذلك علاقة بالإمام، نظراً للعوامل السياسية التي أحاطت بمالك، من بينها أنَّه كان مقرباً من أبي جعفر المنصور العباسي، ذا حظوة لديه، وهو الذي أشار عليه بكتابة الموطأ، وشدد العباسيون على جعله الفقيه الأوحد، المقرب من السلطة آنذاك، إلى درجة أنَّهم أطلقوا في المدينة من ينادي: «لا يفتى ومالك بالمدينة»[10] إمعاناً منهم في إقصاء أئمة أهل البيت عليهم السلام عن دورهم، والحيلولة بينهم وبين عامة المسلمين، بالأمر تارة، وبالإكراه تارة أُخرى.

ثالث تلك المذاهب المذهب الشافعي، نسبة إلى محمّد بن إدريس الشافعي، الذي ولد سنة ١٥٠ هجرية، في السنة التي توفي فيها أبو حنيفة، وتوفي سنة ٢٠٤ هجرية في مصر، ودفن بالقرافة الصغرى، عاش الشافعي فترتين الأُولى طالباً للعلم، وتنقل بين العراق والحجاز فلقي مالكاً، لكنّه لم يأخذ عنه، لما وجد عليه من

---

(١٠): الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر.

مظاهر الأُبهة والسلطة، والفترة الثانية كانت مصر مقراً له، قبل أنْ يعود إلى العراق ليموت هناك.

رابع تلك المذاهب، المذهب الحنبلي نسبة إلى أحمد بن حنبل، الذي توفي ببغداد سنة ٢٤١ هجرية، ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد، عاش في بغداد التي كانت موطن العلوم وقتها، ومنافسة عنيدة للمدينة المنورة، صاحب محمد بن إدريس الشافعي وأخذ عنه.

بعد اطلاعي على تاريخ ولادة فقهاء المذاهب الأربعة، التي اصطلح عليها بمذاهب أهل السنة والجماعة، تساءلت في نفسي: بماذا كان يتعبد أهل القرن الأول، قبل مجيء أبي حنيفة ومالك، والثاني وقبل مجيء الشافعي، والثالث قبل مجيء ابن حنبل، ولم ينتشر فقه أصحاب تلك المذاهب فيها؟ ولماذا ترك بقية الفقهاء وأُهملت اجتهاداتهم، وضرب الصفح عن الأساتذة الكبار، والتفت إلى تلاميذهم؟ ولماذا انحصرت المذاهب التي ادعت اختصاصها بالسنة النبوية في أربعة فقط؟ وهل صحيح أنَّ تلك المذاهب، هي صاحبة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وسنته الشريفة؟

أسئلة عديدة جالت في خاطري، وكانت تبحث عن جواب مقنع لها، فازددت تشبثاً بمعرفة ما جرى، وأين تكمن الحقيقة وسط هذا الركام الهائل من الموروثات، التي اختلطت إلى حدِّ التباين والتناقض.

عند تصفحي لما كتب عن القرن الأول الهجري، لم أجد لتلك المذاهب أثراً، لأنَّها لا يمكن أنْ تكون سابقة لوجود مؤسسيها، ولا كان لها إشعاع أثناء وجودهم، ناهيك أنَّه قد ضرب منهم من ضرب، وعوقب من عوقب من طرف السلطة، لفتاوى أو اعتقادات لم ترقَ لخلفاء بني العباس، وتقرب منهم بعد ذلك من تقرب، لتوافقٍ طرأ على علاقاتهم، ولا عمل بمقتضاها، على الوجه الذي نشهده الآن في القرن الذي تلاه.

وحصر تلك المذاهب في إطار، وضع له عنوان مزيف، وهو الادعاء بأنَّه يمثل السنة النبوية المطهرة، مدعاة إلى الاستغراب من ذلك الحصر، الذي لا يعكس حقيقة محتوى تلك المذاهب، نعم يمكن أنْ نصطلح على تلك المذاهب، بأنَّها استندت في أخذ السنة النبوية عن جميع الصحابة، باعتبار أنَّهم عدول بالنسبة إليها، في مقابل الخط الذي رأى غير ذلك، اعتماداً على النصوص الملزمة، باتباع أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأخذ معالم دينهم عنهم، قرآناً كان أم سنةً، وعليه فتسمية خطٍ ما بأنَّه يمثل السنة النبوية، هو من باب التمويه والتضليل، لأنَّ الأُمَّة قاطبة لم تختلف في وجوب الأخذ بسنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وإنَّما وقع الاختلاف في موردها، لذلك فإنَّ الانقسام الذي وقع في تركيبة الأُمَّة الإسلامية، يمكن تسميته بالتشيع إلى هذا الطرف، الذي يرى أهلية الأئمة الأطهار عليهم السلام، في

قيادة الأُمَّة الإسلامية، أم ذلك الطرف الذي لا يرى ذلك، ويعتبر أنَّ أيَّ متصدر للحكم أهل لذلك، وشيعة عليٍّ عليه السلام بقوا على نهجهم، الذي تمسك به من تمسك إلى اليوم، وشيعة معاوية وحزب الطلقاء، لم ترق تلك التسمية لأتباعهم فيما بعد، فاستبدلوها بعنوان أكثر جاذبية، وهو اتباع السنة النبوية المطهرة، ولا أرى عاقلاً يقول بمفارقة أهل البيت عليهم السلام للسنة النبوية المطهرة، وهم يمثلون صفوة الخلق بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولا راشداً يعتبر أنَّ السنة الصحيحة عند غيرهم، هذا وأهل البيت أدرى بالذي فيه.

فإمَّا أنْ تكون أيّها المسلم من شيعة أهل البيت عليهم السلام، أو تكون من شيعة غيرهم ممّن هبَّ ودبَّ، ويعني أيضاً، أمَّا أنْ تتقيد بالنصوص الصحيحة، التي وردت عن الله تعالى، ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، أو أنْ تتبع الوهم والهوى والنصوص المكذوبة.

وعلى ذكر النصوص المكذوبة، فهي طافحة في كتب الخط السني، منتشرة في عديد أبواب كتبه، وقد تفنن حفاظه وفقهاؤه في ذلك، حتى أفردوا باباً مفترى سموه باب رضاعة الكبير، ومن أراد أنْ يقف بنفسه على ذلك الإسفاف، فليراجع أُمَّهات كتب هؤلاء، كالصحاح وموطأ مالك وغيرها كثير.

ثمَّ إنَّ أصحاب تلك المذاهب، قد تخلوا عن كثير من المسائل التي أفتوا فيها،

فقالوا بخلافها، من دون أنْ تصل إلى الناس نقائض تلك الفتاوى، كما صرَّح بذلك السيوطي في شرح موطأ مالك، وكما هو الشأن كذلك بخصوص كتاب الشافعي، الذي ألَّفه في مصر، فلم يرَ له أثر بعد ذلك، وبقي فقهه الأول، الذي ألفه في العراق، تماماً كما أسقط فقه واجتهادات أصحاب بقية المذاهب، التي اندثرت بحكم عدم مساندة الحكام لها، فذهبت برحيل أصحابها.

الحقيقة الماثلة بين أيدينا الآن تقول: إنَّ حياة تلك المذاهب، واستمرار بقائها ما كان له أنْ يتم، لولا مساندة العباسيين والمماليك العثمانيين لها، بينما ترك ما لم يوافقهم في الرأي، وحورب كلُّ من وقف في وجه الظلم والتحريف، ولم يكن هناك من يجرؤ على الوقوف في وجه الظلم وأهله، دفاعاً عن الدين، غير أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، الذين استبسلوا في الذود عن حياض الدين الحق، إلى حين ظهوره على يد المصلح العظيم، أرواحنا لمقدمه الفداء.

وبقاء خط أهل البيت عليهم السلام، منذ أنْ دعا النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الصحابة إلى اتباعه من بعده، فاستجاب لذلك ثلة من خلصهم كسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وغيرهم، من دون سند إلَّا دفاع الله تعالى وإرادته في حفظ دينه، إلى أنْ وصلنا اليوم غضاً طرياً، لم تشبه شائبة بدعة أو تحريف، كما يدّعي عميان القلوب عكس ذلك، دليل مادي على أنَّ

هذا الخط، هو الذي يمثل فعلاً دين محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلم، لأنَّه وصل إلينا بفضل الله متخطياً عقبات جمة، لو وضعت واحدة منها، في طريق تلك المذاهب التي تدّعي السنة النبوية باطلاً، لانمحت من كتب التاريخ، فضلاً عن استمرارها إلى اليوم.

تتلمذ أبو حنيفة ومالك بن أنس، على عدد من أجلّة العلماء، على رأسهم الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد، الملقب بالصادق عليه وعلى آبائه السلام، الذي ولد في المدينة المنورة سنة ٧٣ هجرية، وتوفي بها، ودفن في مقابر الشهداء بالبقيع، إلى جانب آبائه الإمام الحسن بن عليٍّ عليهما السلام، والإمام عليِّ بن الحسين عليهما السلام، والإمام محمد بن عليٍّ عليهما السلام سنة ١٤٨ هجرية.

لم يتتلمذ من أئمة المذاهب الإسلامية، على يدي الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، أبو حنيفة ومالك بن أنس فقط، بل تتلمذ عليه أيضاً سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ومحمد بن الحسن الشيباني، ويحيى بن سعيد، ومن العلماء والمحدثين والفقهاء غيرهم، كأبي أيوب السجستاني، وشعبة بن الحجاج، وعبد الملك بن جريج، حتى أنَّ جابر بن حيان عالم الكيمياء الشهير، كان من تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام في ذلك العلم، وبلغ مجموع تلامذة الإمام جعفر بن

محمّد عليه السلام أربعة آلاف تلميذ[١١].

كان الإمام جعفر بن محمّد الصادق، ووالده محمد بن عليٍّ باقر العلوم عليهما السلام، المؤسسين لجامعة العلوم الإسلامية، التي تخرج منها آلاف العلماء الأجلاء في شتى العلوم، في عصر استفحلت فيه عقائد غريبة على الإسلام، وظهرت وسط الأُمَّة فرق، تأسست أفكارها من أجل إبعاد المسلمين عن نبع أهل البيت الصافي، وصرفهم عن معين دين النبيِّ الخاتم صلَّى الله عليه وآله وسلم، فتصدى هو ووالده إلى ذلك التحريف لإبطاله، وتفنيد مزاعم التحريفيين في العقائد الإسلامية، على خطى آبائه وأجداده في الذبِّ عن الدين، والدفاع عن بيضته، ممّا جعلهم عرضة للاضطهاد والتنكيل والقتل، من طرف طواغيت أزمنتهم من الأُمويين والعباسيين، الذين كانوا يقفون وراء جلِّ محاولات التحريف، والبدع التي أُلصقت بالدين.

وقد سجل المؤرخون مواقف أئمة أهل البيت عليهم السلام، وتصديهم لإزالة الشوائب التي علقت بالدين، أقتصر منها على ما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام، سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، أقدمه ليكون دليلاً على أعلمية هؤلاء الأطهار، وسعة معارفهم، وقدرتهم على الإمساك بأزمة الدين وكرائم علومه.

---

(١١): الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر.

كان للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، موقف جاد وصارم من أبي حنيفة النعمان، عندما بلغه أنَّ الرجل يستعمل القياس برأيه، ففي رواية أنَّه قال لأبي حنيفة لما دخل عليه: **من أنت؟** قال: أبو حنيفة. قال: مفتي أهل العراق؟ قال: **نعم** قال: **بمَ تفتيهم؟** قال: بكتاب الله. قال: **وإنَّك لعالم بكتاب الله، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه؟** قال: نعم. **قال: فأخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ:** ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[١٢] **أي موضع هو؟**

قال أبو حنيفة: هو ما بين مكة والمدينة. فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى جلسائه وقال: **نشدتكم بالله هل تسيرون بين مكة والمدينة، ولا تأمنون على دمائكم من القتل، وعلى أموالكم من السرقة؟** فقالوا: اللَّهمَّ نعم.

فقال أبو عبد الله: ويحك يا أبا حنيفة، إنَّ الله لا يقول إلَّا حقاً، أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[١٣] أي موضع هو؟ قال: ذلك بيت الله الحرام. فالتفت أبو عبد الله إلى جلسائه وقال: **نشدتكم بالله هل تعلمون أنَّ عبد الله بن الزبير، وسعيد بن جبير دخلاه فلم يأمنا القتل؟**

---

(١٢): سورة سبأ الآية ١٨.

(١٣): سورة آل عمران الآية ٩٧.

قالوا: اللَّهمَّ نعم. فقال أبو عبد الله عليه السلام: **ويحك يا أبا حنيفة إنَّ الله لا يقول إلَّا حقاً**، فقال أبو حنيفة: ليس لي علم بكتاب الله، إنَّما أنا صاحب قياس.

قال أبو عبد الله عليه السلام: **فانظر في قياسك إنْ كنت مقيساً، أيما أعظم عند الله القتل أم الزنا؟**

قال: بل القتل. قال عليه السلام: **فكيف رضي في القتل بشاهدين، ولم يرضَ في الزنا إلَّا بأربعة؟**

ثمَّ قال عليه السلام: **الصلاة أفضل أم الصيام؟** قال: بل الصلاة أفضل. قال عليه السلام: **فيجب على قياس قولك على الحائض، قضاء ما فاتها من الصلاة، في حال حيضها دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم دون الصلاة.** ثمّ قال له عليه السلام: **البول أقذر أم المني؟** قال: البول أقذر.

فقال عليه السلام: يجب على قياسك، أنْ يجب الغسل من البول دون المني، وقد أوجب الله تعالى الغسل من المني دون البول. قال: إنَّما أنا صاحب رأي. قال عليه السلام: **فما ترى في رجل كان له عبد، فتزوج وزوج عبده في ليلة واحدة، فدخلا بامرأتيهما في ليلة واحدة، ثمّ سافرا وجعلا امرأتيهما في بيت واحد، وولدتا غلامين، فسقط البيت عليهم، فقتل المرأتين، وبقي الغلامان، أيهما في رأيك المالك**

والمملوك، وأيهما الوارث والموروث؟

قال أبو حنيفة: إنَّما أنا صاحب حدود. قال عليه السلام: **فما ترى في رجل أعمى، فقأ عين صحيح، ورجل أقطع قطع يد رجل، كيف يقام عليهما؟**

قال أبو حنيفة: إنما أنا رجل عالم بمباعث الأنبياء. قال عليه السلام: **فأخبرني عن قول الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون:** ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[١٤] **ولعل منها شك؟** قال: نعم. قال عليه السلام: **وكذلك من الله شك إذ قال: لعله؟** قال أبو حنيفة: لا علم لي.

قال عليه السلام: **تزعم أنَّك تفتي بكتاب الله، ولست ممّن ورثه، وتزعم أنَّك صاحب قياس، وأول من قاس إبليس لعنه الله إذ قال:**

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[١٥] **ولم يبنَ دين الإسلام على القياس، وتزعم أنَّك صاحب رأي، وكان الرأي من النبيِّ صواباً، ومن دونه خطأً، لأنَّ الله تعالى قال:** ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ **ولم يقل ذلك لغيره، وتزعم أنَّك صاحب حدود، ومن أُنزلت عليه أَولى بعلمها منك، وتزعم أنَّك عالم بمباعث الأنبياء، وخاتم الأنبياء أعلم بمباعثهم منك، ولولا أنْ يقال: دخل على ابن النبيِّ**

---

(١٤): سورة طه: ٤٤.

(١٥): سورة الأعراف: ١٢.

صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فلم يسأله عن شيء، ما سألتك عن شيء، فقس إنْ كنت مقيساً.

قال أبو حنيفة: لا أتكلم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس.

قال عليه السلام: **كلا إنَّ حبَّ الرياسة غير تاركك، كما لم يترك من كان قبلك**(١٦).

ولم يرَ خط من الخطوط المدعية للإسلام، حاثاً لأتباعه على ربط العلم، وبذل الجهد من أجل إعلاء كلمة الله، وفداء الإسلام العظيم بالنفس والمال والولد، غير خط التشيع لأهل البيت عليهم السلام، فكانوا تبعاً لائمتهم أمثلة تضرب، ونماذج معبرة عن الإسلام الصافي، يحتذي بها من يريد النجاة في الدارين.

ولم تظهر لمحاسن كلام متكلم غير رفيع منطقهم، وبليغ كلامهم، ومستصفى هديهم، وكان حثهم لشيعتهم بلزوم التقوى من أظهر إرشاداتهم:

«**عليكم بتقوى الله، والورع والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الخلق والجوار، وكونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد، والصدق والورع**»(١٧).

---

(١٦): الاحتجاج للطبرسي.

(١٧): تحف العقول لابن شعبة الحراني ص٤٨٧ / الكافي ج٣ ص ١٩٩ .

من البديهي على المسلمين الواعين، أنْ لا يتقبلوا كلَّ ما جاء من تلك العصور، إلَّا بعد فحص وتمييز، لأنَّ أغلب ما كُتب فيها، كان بإيعاز من أنظمة، شهد لها التاريخ بالدموية والظلم والبعد عن الدين، والتكالب على الشهوات والدنيا، وعليه فمن الواجب أنْ ننبه بقية المسلمين، إلى ما أُلقي إلينا من تلك الأزمنة، ليحذروا من الانسياق وراء تبعاته.

والمحتاط لدينه اليوم، حرصاً على النجاة من عقاب الله تعالى، وسعياً من أجل نيل رضاه، ودخول جنة الخلد، التي وعدها سبحانه وتعالى عباده المتقين، يستطيع أنْ يميز بسهولة، كما أمكنني أنْ أعرف طريقي، فشققته قرير العين، متيقناً من امتلاكي للوسيلة، التي ستقربني من الله سبحانه، وهي أنَّ جميع الفرق التي تدّعي الإسلام، منقطعة عن العصر النبوي انقطاعاً واضحاً، باستثناء فرقة واحدة، هي الشيعة الإمامية الاثني عشرية، لاعتقادهم واقتدائهم وطاعتهم لأئمتهم، المتّصلين بالنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم اتصالاً وثيقاً، بدءاً من الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، أول أئمة الهدى الذين نصَّ عليهم الله جلَّ جلاله، ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وانتهاءً بالإمام الثاني عشر عليه السلام وسفرائه الكرام، مما جعل شيعتهم على مدى ثلاثة قرون في مأمن الكذب والوضع، الذي استفحل منذ وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وقبل نشوء تلك الفرق والمذاهب، وقد شهد

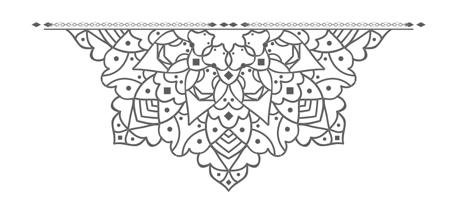
المخالف والمؤالف لأئمة أهل البيت عليهم السلام، بالصدق والتقوى والورع، وقد أسس الأئمة الأطهار قاعدة الاجتهاد في الفقه، وشجعوا تلامذتهم الذين بلغوا درجته، على استنباط أحكامه، تمكيناً للمسلمين من العمل بمقتضى تلك الفتاوى، واستجابة لمقتضى تطور العصر، والحاجة إلى رفع أيِّ إشكال فيه على المسلمين.

ووقف العلماء الأعلام بعد ذلك، وأخذوا المشعل في قيادة المسلمين الشيعة، وإرشادهم وبثهم تعاليم الإسلام الصحيح، الذي لم تدنّسه أيدي الظالمين والمحرفين، فهم إلى الآن، يعتبرون العمل بموجب الرسائل العملية للمراجع العظام، واجباً لا بديل عنه ومبرئاً للذمة، والمتعبد عندهم بغير فقه كحمار الطاحونة، طبقاً لحديث الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام.

لذلك لم أتردد في أنْ أُعلن تشيعي لأهل البيت عليهم السلام، في مجتمعي وعلى الملأ من الخاص والعام، معتزاً بذلك، آملاً أنْ يلتفت بقية المسلمين إلى حقيقة أئمة أهل البيت عليهم السلام، فيعودون إليهم، باعتبارهم ولاة أُمورهم في الدنيا والآخرة، والحمد لله على نعمة الهداية أولاً وأخيراً.

الدافع السابع عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيعتني الثورة الإسلامية في إيران



صادق... من شباب الأُمَّة المنكوبة في دينها، وأعظم نكبة ينكب بها المرء، هي ضعف دينه وهزاله، أمام هجمة الأفكار التحريفية المناهضة، والعقائد المخالفة التي ترفض التعايش مع غيرها، ذلك الضعف الذي نشأ من فصل الدين عن الحياة، وحصره في مجرد طقوس جوفاء، يقوم بها المسلم تجاه ربِّه، خالية من روح العبودية الحقة والقرب الحقيقي.

بدأ صادق يشق حياته ويبني مشروع مستقبله، بعد أنْ أنهى دراسته الثانوية، دون أنْ يحرز شهادتها النهائية، فقد مات والده، وتركه في مواجهة قاسية مع متطلبات الحياة، وفي كلفته عائلة متعددة الأفراد، وهو كبير أولادها؛ لذلك لم يستطع أنْ يكمل دراسته، فلم يرَ بُداً من خوض غمارها، عند أول مقترح للعمل تقدم به أحد أقاربه.

ومنذ أنْ وطئت قدماه مقرَّ الشركة التي كنت أعمل بها، وجدت نفسي مهتمّاً به، مأخوذاً بجاذبية شخصه، التي تميّزه عن بقية المنتسبين إلى الشركة، فقررت أنْ أكوّن معه علاقة صداقة وصلة أُخوّة، سيما وعلامات التدين، بادية على ملامحه وسلوكه وكلامه، والتفت صادق في المقابل إلى شخصي، فوجد فيّ ما افتقده في أقرانه من خصال وخلل، فوافق على مبدأ ربط أواصر تلك العلاقة.

وباعتبار أنَّ صادقاً كان ممّن أكرمهم الباريء سبحانه وتعالى بالاستبصار، وإدراك الإسلام الحق، من خلال التشيع لأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقد وجهت له الدعوة لحضور جلسة الإفادة، بخصوص الإخوّة الذين اختاروا عن بصيرة ويقين، اتّباع خط الشيعة الإمامية الاثني عشرية، واعتناقه كدين وفكر وعقيدة بطيب خاطر، بعيداً عن كلِّ المؤثرات السلبية الخاطئة، فلبّى الطلب، وكان حاضراً معنا في الجلسة، ولما وجهت إليه السؤال أجاب قائلاً:

بدأت ميولي إلى اتخاذ سبيل طاعة الله سبحانه وتعالى، تتنامى منذ بلوغي وإدراكي، سيما وقد تلقيت مبادئي الإسلامية الأُولى، من والدي رحمه الله، ومن محيط عائلتي الكبيرة، ثمَّ كان لمؤدب مسجد الجوار، الأثر في تغذية روحي، بعدد من السور القرآنية، وقد دأبت العائلة التونسية عموماً، على إرسال أبنائها إلى مؤدب المسجد، والمعروف بالكتّاب، قبل دخولهم الصف الابتدائي، والذي أصبح يعرف

في السنين الأخيرة بالتعليم الأساسي، سنة دراسية كاملة، أو سنتين بحسب نمو الطفل واستعداده، يقضيهما في حفظ القرآن، قبل أنْ يتحول إلى التعليم الحكومي.

كبرت وكبرت معي اهتماماتي، وزادت تطلعاتي للمعرفة والعلم، فتكونت شخصيتي على قبول كلِّ مسألة بدليلها، لذلك لم أكن أحسب نفسي يوماً من الأيام، منذ أنْ عقلت تابعاً لهذا المذهب، أو كان لي ميل لجماعة معينة، وفي ذلك وجدت راحتي، وكان حافزاً لي على إدراك الحقائق بكلِّ يسر، وبعيداً عن تشنجات التعصب، التي تعتري أتباع هذا المذهب أو ذاك.

لاحظت في مجتمعي صنفين من الناس، صنف يهتمّ بالسياسة، وينشغل بحيثياتها إلى حدِّ الانغماس فيها، لكنَّه في المقابل، يعتبر أنَّ الدين أفيون الشعوب، اتخذ من الفكر اليساري ذريعة لنبذ الدين، واعتباره عقبة في وجه تطلع البشرية، نحو التطوّر وبلوغ المجتمع المثالي، الذي بشر فكرهم الإلحادي به.

وصنف عزف عنها، وانزوى في ركن تجاهلها، واعتبرها مسألة لا علاقة للدين بها، فالدين عنده شيء، والسياسة شيء آخر، وهذا الصنف رفع شعار الدين، وقال بفصله عن السياسة، فهو لا يرى للدين موقعاً في عالم السياسة، ويعتبره فقط علاقة فردية بين المخلوق وخالقه.

التفت إلى مسألة الحكومة في المجتمع المسلم، وتساءلت: ترى هل للإسلام

حكومة؟ وإذا كان الأمر إيجاباً، فهل وجد ذلك النمط من الحكم قديماً؟ ولماذا انقطع امتداده إلى العصر الحديث؟

حاولت أنْ أعود إلى استقراء التاريخ، فلم أجد فيه ما يجيب عن تساؤلاتي، بل زاد في حيرتي، وعمق شكوكي، التي كانت متجهة نحو حقيقة، أنَّ للإسلام حكومة غير واضحة المعالم، لتعدد الدعاوى القائلة بإسلامية هذه الحكومة أو تلك.

القناعة بوجوب الحكومة الإسلامية، نابعة من الشريعة الإسلامية، التي جاءت لتكون بديلاً صالحاً، ومنظومة صحيحة، يتفيأ الناس ظلالها، ويقطفون ثمار العيش تحت سلطانها العادل، المتقيد بأحكام الله تعالى، فلا يعقل أنْ يخلق الله تعالى الخلق، وتتكون المجتمعات البشرية، وينزل الوحي على الأنبياء والرّسل، بشرائع وقوانين، دون أنْ تكون هناك أداة من المورد نفسه، لتطبيق تلك الشرائع، والمحافظة عليها بعد الرّسل.

ومع ترسخ يقيني بوجوب الحكومة الإسلامية على الله تعالى، من خلال عدد من الآيات القرآنية، التي تضمنت مفرداتها، مصطلح الحكم الإلهي، والأمر بالعمل على أساسه، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾[١٨]، وقوله تعالى في مقارنة واضحة الدلالة، على

(١٨): سورة المائدة الآية ٤٩.

رجاحة الحكم الإلهي، على غيره من الأحكام: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[19] ناسبة مرجعية الحكم، أداة وتشريعاً إلى الله تعالى دون غيره: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[20]، والتفتّ إلى الذين قالوا بأنَّ الوحي ترك أمرها للناس، يختارون من يريدون أنْ يحكمهم، بلا ضوابط ولا شروط، قد بدت نظريتهم تبريراً لواقع، فرض من طرف أقلية استولت على الحكم بالمكر والخديعة، لم يقوَ على الاستمرار ربع قرن من الزمن، تهاوى بعده في أيدي الطلقاء، ذرت بها رياح النفاق شورى سقيفة بني ساعدة، ومع ذلك بقي من بقي متمسكاً بنظرية الشورى تلك، بناءً على روايات مكذوبة، كرواية تأبير النخل، التي أخرجها أصحاب الصحاح الستة، دون خجل أو حياء من الله ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومفادها:

أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مرَّ بقوم يؤبرون (يلقحون) النخل، فقال لهم: لو لم تفعلوا لصلح، فخرج شيصاً، فمرَّ بهم بعد مدّة فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم[21].

---

(١٩): سورة المائدة الآية ٥٠.

(٢٠): سورة يوسف الآية ٤٠.

(٢١): صحيح مسلم ح ٢٣٦١، أبو داود ج ١ ص ١٨٦، أحمد في المسند ج ٣ ص ١٥.

وفهمت أنَّ اختلاق مثل هذه الروايات، كان القصد منه فصل الدين عن الحياة، تكريساً للمقالة التي ادّعاها أصحاب نظرية الشورى، في اختيار من سيلي السلطة بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والتي وضعت في مقابل نصوص أُخرى، صحيحة الأسانيد وواضحة المتون، تفيد أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم يغادر الدنيا، إلَّا بعد أنْ نصب من سيلي الحكم بعده، تثبيتاً لدعائم الدين، وحفظاً له من كلِّ طارئ قد يطرأ عليه، لو ترك أمر الحكومة إلى الناس.

والتفت في هذا العصر، إلى أنَّ مسألة الحكومة الإسلامية، المؤسسة من الله تعالى ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، لابُدَّ أنْ يكون لها أنصار وأتباع إلى اليوم، وإنَّ قلَّ عددهم، لعدم إمكانية زوال الحق وذهابه، ولم أجد جماعة من المسلمين تقول بوجوب الحكومة الإسلامية نصاً وتعييناً، غير الشيعة الإمامية الاثني عشرية، فكان بحثي مركزاً عليهم، بعدما أُسقطت من يدي بقية الفرق، لعدم حجّية الأدلة التي احتجوا بها، وتهافت التأويلات التي تذرعوا بها، وبُعدها عن مقاصد النصوص الصحيحة، ومعارضتها لها، ومناقضتها للعقل السليم، والفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ولم يكن تسليمي بصحة الطرح الشيعي الإمامي الاثني عشري للإسلام عموماً، ولنظرية الحكم فيه خصوصاً، إلَّا بعد أنْ لمست صحة دعواه، من

النصوص التي استدلّ عليها، ومن كتب خصومه، الذين لم يجدوا بُدّاً من الانصراف إلى التأويل البعيد عن الواقع، كلّما صدمتهم الحجة، والتفسير المخالف لروح النص، مخالفة مفضوحة وجلية دفعاً للحق، كلَّما ضاقت عليهم سبل إنكار الحقيقة.

ومن النصوص التي شدت انتباهي، النص الذي قال فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ هذا الأمر لا ينقضي، حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة**» فوجدته مطابقاً لأئمة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام، الذين قدّموا للأُمَّة الإسلامية عملياً، ما كانت تحتاجه من فهم صحيح، لفلسفة وجودها وأحكام دينها، ومعارف علومها، وبيّنات عقائدها، بينما لم يجد مخالفوهم له تفسيراً نظرياً مقنعاً إلى اليوم.

وظهرت لي بعد ذلك العلاقة المتينة، التي ربطت الأنظمة، التي كانت تحكم بغير الإسلام، بفقهاء تلك المذاهب، وما كانوا يتلقّونه منهم تعليماً وتبنّياً، حتى عدوا فقهاء السلط الغاشمة - في حياتهم وبعد موتهم - وعلماء بلاط الظلم والبغي والجور، فتجندوا جميعاً وتحالفوا سريعاً، تماماً كما نرى الأمر منطبقاً اليوم في النظام السعودي ووهابيّته، من أجل إطفاء نور الحق تعالى، خدمة لمصالح بعضهم الدنيوية، لكنَّهم لم يفلحوا في مخططاتهم، وخابت مساعيهم، وبقيت تبعاتهم إلى يوم القيامة، وصمة عار وسمة سوء، يوصفون بها في الدنيا والآخرة.

وعرفت أنَّ الهجمة الشرسة، التي تعرض لها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وسنته الصحيحة، وسياسة الإيقاع بالعلماء وإخضاعهم، لم تكن إلَّا مقدمات، أُريد بها إفراغ الدين الإسلامي من محتواه وفاعليته، وهي الحكومة والسياسة، ليصبح كبقية الديانات الإلهية السابقة محرّفاً، ليس له دور يذكر في المجال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وبذلك تسنّى لعبيد الدنيا أنْ يجدوا فسحة للتمتع بدنياهم، والسير وفق ما أوعزوا به، بما اشتروه من ذمم أولئك الفقهاء.

ثمَّ مضى ذلك الإيحاء في أجيال المسلمين، مضي القدر المحتوم، دون التفات لمصدره، ولا اعتبار بمنبته، فنسبت أنظمة الظلم والجور إلى الإسلام، واعتبر حكام بني أُمية، وبني العباس خلفاء للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأُلحق بهم سلاطين العثمانيين من الأتراك، ثمّ جاء من جاء ليدّعي التدين والإسلام، ويحكم المسلمين باسم الدين، وهو أبعد ما يكون عنه.

ووقفت على الهوة السحيقة، التي أشرفت عليها الأُمَّة الإسلامية، وبدأت تتهاوى من منحدرها، وهي لم تدرك بعد موقفها، ولم تعِ حقيقة تكليفها السياسي، ولم تتبين ما هو مطلوب منها.

من ذلك الفراغ الهائل، الذي كان يحيط بالفكر الإسلامي، المختزل عند عامة الناس، فهمت وفهمت الطلائع المؤمنة، أنَّ الدين الإسلامي من دون سياسة

وقيادة، لا يساوي شيئاً، وهو على الشكل الذي صوره مؤسسو المدارس الفقهية، التي وجدت مقابل مرجعية أهل البيت عليهم السلام، أقرب إلى المسيحية المحرفة منه إلى الإسلام المحمّدي الأصيل، وظهر جلياً أنَّ الذين وقفوا ويقفون للحيلولة دون إشعاع الإسلام، وظهوره في أبهى مظاهره، وعلى حقيقته التي تركه عليها النبيُّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته الهداة عليهم السلام، هم الذين رفضوا اختيار الله سبحانه وتعالى المؤهل لقيادة الأُمَّة، وحكّموا هواهم، ونزعوا إلى جاهليتهم التي لم تغادر أوهامها عقولهم، فكانت السقيفة، وما استتبعته من انحراف عن منهجية الحكم الإسلامي وأدواته، وساء بذلك الفهم الصحيح للدين عقيدة وشريعة، نظراً للتربية المنحرفة، التي كان يفرضها الطغاة على الأُمَّة، لتسير حسب أهوائهم وطبقاً لإرادتهم.

قرأت التاريخ على علاته كتابة وتأليفاً، فلم أجد بعد حكومة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، حكومة واحدة استطاعت أن تقدم للبشرية خير هذا الدين العظيم، ومبادئه السامية، وأُسسه الكبرى في إرساء التوحيد الخالص، وبسط العدل وقيم الخير والأخلاق الفاضلة، ولا كان في همّ واحدة منها إقامة النظام الإسلامي، سوى فترة حكم الإمام عليٍّ عليه السلام، وحتى تلك الفترة، لم يتسنَ لأمير المؤمنين أنْ يفعل فيها شيئاً، يمكنه أنْ يكون الأساس للحكومة الإسلامية

الصحيحة، سوى ما كان يبثه من مبادئ إلى أعوانه وخلّص شيعته كعهده إلى مالك الأشتر النخعي، عبّرت عن روح الإسلام المحمدي الصحيح، لأنّه وجد أمامه مقاومة من ثلاث قوى تحريفية، استنفدت جلَّ وقته، وضيعت عليه جهوده، وحصرته في إطار واحد، وهو مواجهة تلك القوى، ومن وقف وراءها، لأنّها كانت تمثل التمرد والتحريف والعصيان، والتفت عليٌّ عليه السلام حوله، فلم يجد معه غير قلّة مؤمنة بمبادئه، وكثرة من المتقاعسين والمتهاونين، طولوا عليه زمن المواجهة، وباعدوا بينه وبين الحسم، خصوصاً في معركة صفين وما استتبعها، ولولا هؤلاء المتشككون والمرتابون، لما عرفنا في التاريخ حاكماً طليقاً من بني الطلقاء، يحكم باسم الإسلام والإسلام بريء منه، ولا ظهر مبدأ إفراغ الدين من إشعاعه، وفصله عن الحكومة، وإبعاده عن السياسة.

وكلُّ ما بناه الإمام عليٌّ عليه السلام خلال خمس سنوات من حكمه، وكلُّ ما بثه من تعاليم صحيحة عن الدين المحمدي، ذرته رياح أولئك الطلقاء، وأجلته من ضمير الأُمَّة، وباعدت بينه وبين الباحثين عن الدين الصحيح، إلى أن انحصر في رموز قليلة، لكن على قلتها كان دورها في الإبقاء على جوهر الإسلام كبيراً، بحيث تكسرت عليه محاولات التحريف، التي مورست ضدَّ الدين الخاتم.

كنت من الذين التفتوا إلى ظاهرة الثورة الإسلامية المتنامية في إيران،

باعتبارها تجربة رائدة، ومظهراً جديداً من مظاهر عزِّ الإسلام ورفعته، وتابعت بناءً على ذلك، ما كان يصلني عنها وعن قياداتها من أخبار وأنباء، تناقلتها وكالات الأخبار العالمية باحتشام، عندما كان الإمام الراحل روح الله الموسوي الخميني قدس سره الشريف مقيماً في العراق، ولما استشعر الشاه المقبور، الخطر الذي يمثله الإمام القائد على عرشه، أمضى اتفاقاً مع البعثيين في العراق، تنازل بموجبه عن دعم الأكراد العراقيين، مقابل إخراج الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه من العراق، وكان لانتقال الإمام الراحل، روح الله الموسوي الخميني طيب الله ثراه من العراق إلى فرنسا- بعد رفض الكويت استقباله- وتحديداً إلى نوفل لي شاتو، حيث مقر إقامته، التي سبقت عودته إلى إيران بثلاثة أشهر تقريباً، الزخم الإعلامي الأكبر، فقد أولت وكالات الأنباء العالمية والرأي العام العالمي، لهذا الرجل العظيم ولنهضته المباركة اهتماماً بالغاً، بعدما كان التعتيم الإعلامي سائداً، حيال حركته العلمائية، التي كان يقودها قدس سره الشريف، والتي أفرزت فيما بعد قيام دولة إسلامية متكاملة الفكر، عالمية النظرة، ظهرت من الوهلة الأُولى برؤى ومصطلحات وطروح، لم تكن مألوفة بين المسلمين.

وقد اعتبرت الطلائع الإسلامية، المنتشرة في كامل بلاد الإسلام، الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه، مجدداً لروح الإسلام العظيم، وباعثاً لروح النهضة

الإسلامية، ومطبقاً لمصطلح الاستكبار والاستضعاف، ومصححاً لمفاهيم الثورة الإسلامية لدى الأجيال المعاصرة، فتأثر بها كلُّ ذي فكر مستنير من الطلائع الإسلامية، واهتمت بتطلعاتها وطروحها ثلة من طليعة الأُمَّة، استطاعت أنْ تجد لنفسها بفضل ذلك، موطئاً على ساحة الفكر السياسي، وأنْ تفرض وجودها بعد ذلك، كمشروع حضاري قابل للتطبيق، وأُطروحة تستطيع أنْ تكون البديل، الذي يمكنه أنْ يحلّ جميع قضايا ومشاكل البشرية.

مدعاة الفخر والاعتزاز بهذه الثورة المباركة، يكمن في التحدي الذي رفعه الإمام الراحل قدس سرّه الشريف، عندما قرر العودة إلى إيران، في ظروف داخلية، أقل ما يقال فيها إنَّها تشكل خطراً على حياته.

وعاد الإمام رضوان الله تعالى عليه، قبل انتصار الثورة بعشرة أيام، وكانت الجماهير المليونية المؤمنة في استقباله، وأبى إلَّا أنْ يتوجه إلى مقبرة شهداء الثورة، ليترحم على أولئك الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله، ويقول كلمته بخصوص نهضته الإسلامية المباركة.

نزل الإمام الخميني طيب الله تعالى ثراه إلى طهران، وأزلام الشاه المقبور وجلاوزته، وأدوات قمعه لا تزال تعمل بقوة واستماتة، ضارباً بذلك المثل الأول لشعبه الإيراني المسلم في التضحية والفداء، ممّا حفّز الجماهير المؤمنة، على أنْ تحذو

حذوه، لمقارعة طاغوت العصر من الأُسرة البهلوية.

أُعلنت حالة الطوارئ، وفرض منع الجولان في المدن الإيرانية كافة، في محاولة لسحب البساط من تحت إقدام قادة الثورة، لكنَّ الإمام الراحل أصدر فتوى تحرم على المواطنين دخول بيوتهم، وبذلك باءت محاولات أزلام الشاه، ومن ورائهم الاستكبار العالمي في إجهاض الثورة بالفشل الذريع.

وكان النصر حليف الثورة الإسلامية، في عشرة الفجر المباركة (١/ ٢/ ١٩٧٩ إلى يوم ١١/ ٢/ ١٩٧٩)، وتلقى الاستكبار العالمي الذي تقوده أمريكا ضربة قاصمة، لم تكن في حساباتهم، فقد كان دأبهم دائماً امتصاص غضب الشعوب، ثمّ الانقلاب على مكتسباتها بعد تحين الفرصة المواتية، كما فعل بحكومة مصدق وانتفاضة الشعب الإيراني قبل ذلك.

وتحقق الحلم الذي ظلَّ يراود أُباة هذه الأُمَّة وشرفاءها، في قيام دولة إسلامية، تتبنى تطبيق الشريعة الإسلامية بكلِّ فصولها وبنودها، وبجميع أحكامها، امتثالاً لأمر الله تعالى، في إنفاذ كلمته وإعلاء شأنها، وتحقيقاً لمسيرة مئة وأربعة وعشرين ألف نبيٍّ ومرسل.

في أحد أعداد مجلة المعرفة، لسان الحركة الإسلامية في تونس، كتب مقال

عنوانه: النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ينتخب إيران للقيادة، ساق فيه كاتبه خبر الوحي تحقق نبوءة في قوم سلمان الفارسي.

المقال ذكر حديثاً غيبياً مستشرفاً آخر الزمان عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم رواه أبو هريرة قال: كنا جلوساً عند النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فأُنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢٢) قال: قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، وضع النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يده على سلمان ثمّ قال: لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء(٢٣).

وتحقق ما أخبر به الله ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وارتفعت راية عزّة الإسلام وقيام الدين الحق، وظهور الطائفة القائمة على الحق، واستبدال العرب بقوم يحبّهم الله ورسوله ويحبون الله ورسوله، وباعتبار أنَّ حديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم متعلق بآية قرآنية مفسر لها بشكل دافع لكلِّ لبس وشك، فإنَّ أصحاب التفاسير لم يجدوا مندوحة من إخراج ذلك الإعلام الغيبي وتدوينها في

(٢٢): سورة الجمعة: ٣.

(٢٣): صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن/ تفسير سورة الجمعة / باب قوله {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}/ وذكر ابن حجر في فتح الباري أنَّ الترمذي والنسائي أخرجاه في سننهما / وأخرجه السيوطي في الدر المنثور.

كتبهم المعتبرة، ولو كانوا يعلمون أنَّ ذلك الوعد الإلهي سيكون حقيقة ملموسة في بلاد فارس، وأنَّ الفرس سيتعلقون بالدين الإسلامي الأصيل، تعلق الوله الفاقد لأُمِّه، وسيطبقون نمطاً وقراءةً وعقيدةً إسلامية أخذوها عن أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام، فيكونون بذلك الفرقة الظاهرة على الحق عملياً دون غيرهم، لامتلاكهم مقومات الظهور الجلي الواضح، لما نقلوا من تلك النصوص شيئاً.

تجربة الثورة الإسلامية، وتجربة الدولة اليوم بين أيدي المؤمنين، الذين نصبوا همهم في السعي الدؤوب، لإرضاء الله سبحانه وتعالى، يحتاجها كلُّ موحد، يريد أنْ يتخلص من نير وتبعية طغم الظلم والفساد، شياطين الإنس الذين تحدث عنهم الوحي، وحذر من مكائدهم، وأعمالهم الإجرامية، ودعا المؤمنين ليأخذوا حذرهم منهم.

وجدت أمامي إذن حجتين، الحجة الأُولى نظرية، وتمثلت في النصوص الصريحة، التي أشارت إلى لزوم الدولة على الله تعالى، وإقامتها بعد نبيه الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، وبينت بشكل نظري وعملي واضحين، من الذي سيكون حاكماً في الأُمَّة، بعد رحيل نبيها صلَّى الله عليه وآله وسلم؟

والحجة الثانية عملية، وتمثلت في انتصار ثورة إسلامية، لولا تدخل العناية الإلهية لما انتصرت، وقيام دولة إسلامية، رفعت شارة التحدي لأعداء الله تعالى،

والدعوة لاستئصالهم، من جهة ونادت إلى الوحدة الإسلامية، على أساس أَنَّنا أُمَّة توحيد وقرآن، وفي المقابل سعى الاستكبار العالمي، وعلى رأسه أمريكا، إلى عزل إيران الإسلام عن بيئتها ومحيطها الإسلاميين، في مقدمة لإفشال مشروعها الكبير، في الوحدة الإسلامية الحقيقية، واحتضان القضية الفلسطينية، كمركزية لقضايا الأُمَّة.

لقد طبق الإمام الراحل رضوان الله تعالى عليه، كثيراً من المفاهيم القرآنية على أرض الواقع، واستطاع بذلك توظيفها، من أجل تلاحم المجتمع الإسلامي، وتكتل المسؤولين في الدولة الفتية، دفعاً لهم إلى الإصرار على المضي قدماً، في طريق التمهيد لصاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، وخدمة بعضهم بعضاً، تطبيقاً لأوامر الله ونواهيه، فقد كان قدس سره الشريف يقول دائماً: طالما أنَّ قوى الاستكبار تعاديكم وتتهجم عليكم، ولا ترضاكم، فاعلموا أنَّكم على الحق، وأنَّهم على الباطل.

ذلك المفهوم القرآني حددته الآية الشريفة:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتبعَ مِلتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢٤].

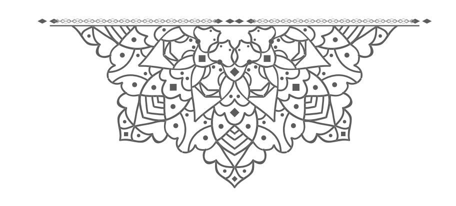
(٢٤): سورة البقرة الآية ١٢٠.

على تلك الثابتة، تواصلت مسيرة الجمهورية الإسلامية في إيران، متحدية قوى الاستكبار والشيطنة وأذنابهما إلى اليوم، ضاربة في كلِّ مرّة، أروع الأمثلة لبقية شعوب العالم، ثابتة على مبادئها، لا تزحزحها رياح الدعاية المغرضة، التي تريد الحيلولة دون تلك التجربة الرائدة، واهتمام بقية الشعوب الإسلامية بها.

لذلك لم أتردد في موالاة أئمة أهل البيت عليهم السلام، كقادة نصَّ عليهم الله ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومضيت بكلِّ كياني وجوارحي، مقتفياً أثر بركة الإمام الخميني، مستمداً منها القوة والعزم، سائلاً الله العليَّ القدير أنْ يحفظها، إلى حين ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الدافع الثامن عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

رزية الخميس هي التي شيّعتني



أمَّا نبيل... فقال: كنت في ما مضى ميالاً للتصوف، تواقاً للعزلة، هرباً من انحرافات المجتمع، متوقياً بذلك من الانسياق وراءها، وتحمل تبعاتها، لكنَّني بقدر ما تميزت الأجواء التي عشت فيها بروحية عالية، لم أكن أعرفها من قبل، بقدر ما شعرت بأنَّ هنالك حلقةً مفقودةً في التصوف، حتمت عليَّ عدم الاطمئنان إلى ذلك المنهج، الأمر الذي دفعني إلى البحث من جديد، عن الطريق الذي يمثل الإسلام، الذي جاء به النبيُّ الخاتم صلَّى الله عليه وآله وسلم، والذي يشكل سبيل التواصل مع الله سبحانه وتعالى، لكنَّني وبكلِّ أسف لم أهتدِ إلى حلٍّ يسكن الطمأنينة في قلبي.

ومرّت الأيام، وأنا على حال من الحيرة والقلق، إلى أنْ قيَّض الله لي رجلاً، في زمن قلَّ فيه الرجال، وكثر أشباههم، قلب كياني، وغيّر مجرى حياتي تغييراً مهماً، أوقفني على تلة أشرفت منها على الحقيقة، وأوردني مشرباً روياً، ملأت منه

حافظتي، وجمعت من خيره العميم، ما يمكن أنْ يقيني سرابيل الذلِّ بقية عمري، ويكون لي سبباً من أسباب الفوز، يوم تبيض فيه وجوه وتسود وجوه.

منذ اللقاء الأول مع ذلك الشخص، اكتشفت أنَّني لا أملك سوى بعض مظاهر الدين وشكلياته، ولا أملك لها عمقاً في وجداني، وأحسست بضآلتي أمام جبل من القرائن والحجج، التي كان يستدل بها ذلك الصديق، وبقدر ما كان يتملكني الاستغراب، وتأخذني الحيرة ممّا كان يلقيه الرجل إليَّ، بقدر ما كنت أشعر، أنَّ هناك نفساً جديداً يختلجني، وإحساساً بالوعي، أخذ محلَّ الغفلة التي كانت تحاصرني، كما كانت تحاصر الغالبية العظمى من المسلمين.

ولعلَّ الذي حسم النزاع في نهاية المطاف، حبي للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومودتي لأهل بيته الطاهرين، فقد جاءني ذات يوم، وابتدرني قائلاً: ماذا يمثل النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بالنسبة إليك؟

فقلت له: إنَّه خاتم الأنبياء والمرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلم، به بدأ المولى تعالى الخلق وبه اختتم شرائعه، وهو فوق ذلك كلِّه حبيب الرحمن، متميزاً على جده إبراهيم الخليل عليه السلام، ليس في الخلق من هو أفضل ولا أقرب ولا أرفع منه.

فقال لي: إذن أنت من المقرين بفضله ومنزلته عند الله سبحانه وتعالى؟

فقلت له: أفي ذلك شك؟

فقال: أنا لا أشك في عقيدتك، وصدق مشاعرك نحو النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولكنَّني لا أرى لذلك الحبِّ أثراً عليك.

فقلت له: وكيف تُرى يكون الأثر؟

فقال: أثر ذلك يكمن في اتباعك ومحبتك وولائك له، وغيرتك عليه، فقد قرن الله سبحانه وتعالى محبته، باتباع الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلم، في وقوله جلَّ من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]. وجعل طاعة الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم طاعته، ومعصية ومعصية الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم معصيته، في قوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[2] وقال أيضاً: ﴿فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]، وحدد جملة من التصرفات السيئة، واعتبرها سلبية، وسبباً في إحباط الأعمال، ناهياً عن الإتيان بها، ومشدداً على ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ

(١): سورة آل عمران الآية٣١.

(٢): سورة النساء الآية ٨٠.

(٣): سورة النور الآية ٦٣.

عَلِيمٌ (*) يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (*) إِنَّ الذِينَ يَغُضونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (*) إِنَّ الذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

ومع ذلك، فقد صدر عن ذلك الجيل المعاصر للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والمعبر عنه بالصحابة، ما أفاد بأنَّ منهم من لم يستوعب الأمر، ولم يأخذ بالنصيحة، مظهراً موقفاً دلَّ على جاهلية لم تغادر صاحبها، وجهل بأبسط القيم التي جاء بها الدين الحنيف، حيث تطاول منهم من تطاول، على مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، إلى درجة تجاهله وإلغاء دوره.

فقلت له: أعتقد أنَّك تتحدث عن فئة المنافقين، الذين كانوا يتربصون بالنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وبدينه الخاتم، هؤلاء الناس قد كشف الوحي عوراتهم، وأزاح الستر الذي كانوا يختبئون وراءه.

فقال لي: لكنْ هل تعرف منهم أكثر من واحد؟ وقد أرجف بالنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أكثر من ألف وخمسمائة فرد، لماذا أهملت أسماء هؤلاء، على

---

(١): سورة الحجرات الآيات ١ – ٤.

خطورة ما أقدموا عليه، وسعوا لتحقيقه، وهو محق الدين، وقتل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ثمَّ إنَّ هؤلاء الذين كانوا من جيل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، عاشوا معه في المدينة وما حولها، ذهبوا معه وسافروا وحاربوا وحادثوه وسمعوا منه، وشهدوا أنَّه النبيُّ، ودخلوا في دين الله، ماذا نسميهم؟ أليسوا صحابة هم أيضاً، ألم يتطاول منهم من تطاول، وعرض على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قتله، فقال صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**لا تفعل حتى لا يقال محمّد يقتل أصحابه**»[1]؛ لذا يجب أنْ يفهم المسلمون، أنَّ الصحابة جيل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لا يختلف في شيء عن بقية أجيال المسلمين.

قلت: نحن لا نعرف أكثر من ابن أبي سلول، وقد لا يتجاوز المعروفون منهم عدد أصابع اليدين.

فقال: تلك نقطة يجب التنبه إليها، لأنَّ الذي أراد أنْ يعفي آثار المنافقين وحزبهم الخطير، كان يقصد التستر على أسماء، لا يروق لأتباعها أنْ ينكشف حالهم، ويظهروا على حقيقتهم، فمثلاً لو أنَّ شخصاً، كأبيك أو أخيك أو جدك كان يعيش مع النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ثمَّ صدر منه موقف، فيه تطاول على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وجرأة على مقامه الشريف، ماذا يكون موقفك منه؟

---

(١): صحيح البخاري ٦/ ١٩٢.

فقلت: أراجعه، فإنْ أبى فإنَّني أتبرأ منه على الملأ، معتبراً إياه ممّن حادَّ الله ورسوله، وأعتذر للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ممّا صدر منه.

قال: إذن فماذا تقول في صحابيٍّ، قُدم لنا على أساس أنَّه صاحب النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم المقرب، وقد وقف في حجرة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أربعة أيام قبل وفاته، ليتجرأ عليه في بيته، ويمنعه من كتابة وصيته، وينعته بالهجر والهذيان.

قلت له: ماذا تقول يا رجل؟ وهل يعقل أنْ يصدر مثل ذلك الموقف، من أُناس هم أقرب إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من غيرهم، وقد سبقونا إلى الإيمان بالإسلام، واتباع النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أنا لا أتصور حدوث ذلك، اللَّهمَّ إلَّا إذا كانت الروايات متفقاً على صحتها، وأخرجها أصحاب الصحاح.

فقال: إنَّ القرب من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أو البُعد عنه، يتجسدان في طاعته والامتثال لأمره، أو معصيته ومخالفته، وذلك ليس محكوماً باسم أو صفة، ميزت هذا الصحابي عن ذاك، ناهيك عن أنَّ الصحابة رضوان الله تعالى على أخيارهم، لا يتميزون عنا في شيء من فرص التكافؤ، التي جعلها الله متاحة للجميع، وهذا وجه من وجوه عدله تعالى، بل لقد ذمَّ كتاب الله عدداً منهم،

واستثنى النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ذلك العدد من رحمة الله في أحاديث الحوض، التي أستحضر منها قول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذي أخرجه البخاري وغيره: «...**وإنَّ أُناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي أصحابي، فيقول: إنَّهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول: سحقاً**»[1].

وقد أخرج هؤلاء الحفاظ تلك الروايات بطرق عدّة، لاطمئنانهم بصحة صدورها عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

أمَّا السبق والاتباع، فإنَّه ليس محدداً بزمن، أو محصوراً في جيل من الأجيال، لأنَّ الله سبحانه وتعالى قد عدل بين الناس، وسواهم أمام طاعته، وأعطاهم الفرص متكافئة.

وقد جاء ذكر المتأخرين من المسلمين عن ذلك العصر، على لسان النبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، عندما عرف الصحابة، أنَّ الذين سيأتون من بعده هم أحبابه، الذين سيؤمنون به بمجرد الاطلاع على حقيقة بعثته، دون حاجة إلى مشاهدة معجزاته، ولا حضور شخصه، ورؤية صفاته، أجر الواحد من أحبابه أجر سبعين رجلاً من صحابته.

---

(١): صحيح البخاري ٦/ ٦٩.

أمّا من جهة إخراج الرواية، فقد اتفق الجميع على إخراجها، والاعتراف بمضمونها، دون أدنى حرج.

قلت له: فما هي الحادثة، ومن هو ذلك الصحابي، وفي أيِّ الكتب أُخرجت؟

فقال: أخرج البخاري ومسلم وغيرهما بأسانيدهم، عن ابن عباس أنَّه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ ثمَّ بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: اشتد بالنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وجعه يوم الخميس، فقال: ائتوني بكتاب، أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيٍّ تنازع، فقالوا: هجر النبيُّ. وفي رواية أُخرى (فقالوا: ما شأنه أهجر استفهموه؟ فذهبوا يردون عليه) قال: دعوني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه[٢].

فقلت له: الحادثة، في منتهى الفظاعة والتجني على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لكنَّها لم تفصح عن الجاني، ولا أخبرت عن الجماعة، التي كانت تقف معه ذلك الموقف وتسانده.

قال: الرواية الثانية هي التي فضحت الجاني وكشفت شخصه، عندما عمد من عمد، إلى التخفيف من حدّة الألفاظ التي أطلقها، واستبدالها بألفاظ تخفف من

(٢): صحيح البخاري ٤/ ٨٥.

الوزر الذي لحق به.

أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس قال: لما حضر النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال: **هلم أكتب إليكم كتاباً لن تضلوا بعده**، قال عمر: إنَّ النبيَّ غلبه الوجع وعندكم القرآن فحسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلمّا أكثروا اللغط والاختلاف عند النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، قال: **قوموا عني**. قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إنَّ الرزية كلَّ الرزية، ما حال بين النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وبين أنْ يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم(٣).

وتبين أنَّ الذي وقف في وجه النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ليمنعه من إنفاذ أمره في كتابة وصيته، لم يكن سوى عمر بن الخطاب، وقد أجمع الرواة والمحدثون، وأصحاب السير والمؤرخون جميعاً، على الإقرار بصحة وقوع ذلك الموقف منه، غير أنَّهم التمسوا له العذر في ذلك، متعللين بأنَّه لم يكن قاصداً أذية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولا التعرض له، فطبع الرجل عندهم دائماً ميال إلى الغلظة والتحرش

(٣): صحيح البخاري في كتاب العلم ج ١ ص ٢٢ / صحيح مسلم ج ٢ ص ١٤.

والاستفزاز، وقد ظهرت منه قبل ذلك مواقف، طواها الزمن في سجله الحافل بالتجاوزات.

قلت له: لكن لماذا وقف عمر ذلك الموقف الغريب؟

قال: قبل أنْ تسأل عن ذلك، وجب عليك أنْ تلتفت إلى أنَّ مكان عمر، ما كان له أنْ يكون في بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لولا تمرده عن الخروج مع أُسامة بن زيد، في الجيش الذي أوعز به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لقتال الروم، والذي عسكر في الجرف، على مقربة من المدينة استعداداً للرحيل، وكان قائده أُسامة يحاول جمع عناصره، التي كانت تأبى عليه ذلك، بعد المعارضة التي ظهرت إثر تعيينه، استخفافاً بشخصه واستنقاصاً له، وعصياناً لأمر النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

قلت له: وهل كان عمر ضمن الأفراد الذين عينهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ليكونوا تحت إمرة أُسامة بن زيد، ثمّ كان من المعارضين لتعيين أُسامة؟

قال: نعم، لقد صرّح بذلك أغلب أصحاب السير والتاريخ، ذاكرين عدداً من الصحابة، الذين نصَّ عليهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ليكونوا ضمن تعداد ذلك الجيش، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، وليست المرّة الأُولى التي يكون

فيها عمر جندياً تحت إمرة غيره، ففي غزوة ذات السلاسل، كان الرجل تحت إمرة عمرو بن العاص، وفي خيبر كان تحت إمرة الإمام عليٍّ عليه السلام، وقد رجع قبل ذلك يجبن أصحابه، وأصحابه يجبنونه، كما صرح بذلك ابن الأثير في تاريخه.

أمّا فيما يخص معارضته لتعيين أُسامة بن زيد، فليس أدلّ على ذلك، من تحمله مسؤولية نقل ذلك إلى أبي بكر، عندما طلب منه استبدال أُسامة بقائد آخر، ولو كان الرجل يقدّر أمر النبوّة والنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لما اندفع في غمارها، يطلب بدلاً عن تعيين النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

قلت: لكن لماذا يقدم صحابي بذلك المقام على معصية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم؟

قال: لقد تعلق الأمر بالحكومة الإسلامية، ومن سيتولاها بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فحديث الثقلين الذي سبق للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إذاعته في الناس، قد أشار إلى أنَّ العاصم من الضلال، ليس إلَّا بالتمسك بكتاب الله، والعترة الطاهرة من بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فهما الثقلان اللذان يمتلكان مقومات بناء الأُمَّة، وظاهر الحديث يدلّ على أنَّ القرآن، لا يمكن أنْ يكون إلَّا عند الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، لأنَّهم الناطقون عنه صدقاً وعدلاً، ولا يستطيع أحد غيرهم بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله

وسلَّم سبر غوره، وفك رموزه، ورفع غموض متشابهه، والتفريق بين منسوخه وناسخه، غير الصفوة الطاهرة عليها السلام، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك في سورة الواقعة فقال: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ﴾(٤).

بمعنى لا يستطيع إدراك حقائقه، والتمكن من فهمه فهماً مطابقاً لمقصد الوحي، غير الذين وقع تطهيرهم من طرف صاحب الوحي، ليقوموا بذلك الدور، ولم يقع تطهير من المولى سبحانه وتعالى في هذه الأُمَّة، سوى في أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿إنما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٥) كما لم يدّع أحد اختصاصهم بالآية، ودخولهم فيها غيرهم، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(٦)، وقد علمنا أنَّ الصدق في الناس نسبي، وفي الصفوة الطاهرة كامل، فليس هناك من هم أصدق منهم قولاً وعملاً، وسيرتهم تشهد لهم بذلك، وقد التفت عمر وجماعته إلى الغاية من إرسالهم إلى حرب الروم، وصرفهم عن المدينة، وفهموا أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، كان يرغب في تسلم عليٍّ عليه السلام لقيادة الأُمَّة، في أجواء خالية من هؤلاء

(٤): سورة الواقعة الآية ٧٩.

(٥): سورة الأحزاب الآية ٣٣.

(٦): سورة التوبة الآية ١١٩.

الطامعين، بعد أنْ عقد له زمامها، في منصرفه من حجة الوداع عند غدير خم، حينما خطب الناس خطبة بليغة ومهمة، قال فيما قال فيها: «... **فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه...** »(٧)، وقد كان عمر من أول المهنئين لعليٍّ بالولاية قائلاً: بخ بخ لك يابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كلِّ مؤمن ومؤمنة.

قلت له: ولكنْ هل يعقل أنْ يصدر من عمر ذلك الموقف، وهو الذي جاءت الروايات معظمة له، وقد وضعته في مقام الذي لا غنى للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عنه، بل وأكثر من ذلك، فقد نزل القرآن موافقاً لرأي عمر في عدة آيات؟

قال: لقد صدر من عمر مواقف أُخرى قبل ذلك، فيها جرأة على النبيِّ، وتطاول يدلان على جاهلية وجهالة، لم تفارقا الرجل منذ أسلم، حتى إسلامه كان غريباً من حيث وقوعه، فعموم الوافدين على الدين الجديد، كانوا يقبلون عليه، ولديهم رغبة في التعرف عليه، ثمّ تستتبع ذلك عزيمة الدخول فيه بعد الاقتناع به، وابن الخطاب لم يكن كذلك، بل لقد خرج ثائراً من بيت أُخته، بعد أنْ لطمها وأدمى وجهها، متوعداً بقتل من يعترض سبيله من المسلمين، ولما وصل إلى مكان تجمعهم، والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فيهم، وعرف من بالبيت قدومه، أراد من أراد الخروج إليه ليريح منه المسلمين، أبى عليهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله

(٧): مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٠٩.

وسلم، وخرج إليه بنفسه، فتناوله بيديه الشريفتين، ورفعه ليلقي به على الأرض فيحطم عظامه، لكنَّ الرجل فاجئ الجميع ونطق بالشهادتين، حاقناً بذلك دمه، عمر نفسه سكت عن تلك الحادثة، ولم يعقب عليها.

وله موقف آخر لا يقل سوءاً عما صدر منه، عندما اعترض النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وجذبه من ثوبه، ليمنعه من الصلاة على ابن أبي سلول، وفي صلح الحديبية عندما اشتد في معارضته، إلى أن استعاذ منه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأعتقد جازماً أنَّ ما أهمله المؤرخون، وغطاه الطلقاء الذين مهّد لهم عمر سبيل السلطة، من تجاوزاته وجناياته بحق النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم والإسلام، أكثر من أنْ تحصى، حتى أنَّ السيوطي أفرد باباً في تاريخ الخلفاء، سماه أوّليات عمر، تخفيفاً لجرمه بحق الله ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم.ن ال

أمَّا قولك إنَّ القرآن نزل موافقاً لرأي عمر، فذلك ما لم يثبت فيه نص مطلقاً، وكلُّ ما كتب في ذلك المعنى، كان بأيدٍ بعيدة عن الدين والعلم والأمانة، فعلى سبيل المثال، جاء في كتاب التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب، أنَّ عمر اغتاظ لما سمع قول يهودي إنَّ جبريل عدو لليهود، فقرأ عمر الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾[٨] قبل أنْ تنزل، ولما

(٨): سورة البقرة: ٩٨.

ذهب إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فوجدها قد نزلت، إلى غير ذلك من الترهات، التي لا تنطلي إلَّا على الجهلة والبلهة والمغفلين.

قلت: لكنَّ عقيدتي في أصحاب النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، تأبى عليَّ قبول كلامك؟

فقال: لقد بنيتم عقيدتكم على قبول الطعن والنقيصة في النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وعدم قبولها في أبي بكر وعمر وعثمان، ورفعتم من مقام هؤلاء، ووضعتم من مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته الكرام عليهم السلام، هذا للأسف الشديد ما نجح فيه معاوية، وبنو أُمية وعامة حزب الطلقاء، واستطاعوا بدهائهم وخبثهم وأكاذيبهم، أنْ يجعلوا من الصحابة، بديلاً عن عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام، فشجعوا على الافتراء على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ووضع الأحاديث الممجدة والمقدسة لعدد من الصحابة، وبذلك جعلوا منهم رمز الإسلام، فتكونت عقيدة تنزيه الصحابي براً كان أم فاجراً، مؤمناً كان أم منافقاً، ورفع جميعهم إلى مستوى العدالة، بل اعتُبروا من الذين لا يخطئون أبداً، أو أنَّ أخطاءهم مغفورة ناسبين الحيف إلى الله سبحانه، وقدم منهم من قدم حتى على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كأحاديث الدف والمزمار، وقدموا من قدموا حياءه على حياء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم،

بل إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا يستحي إلَّا بحيائه، وقبلوا صدور ذنب العبوس والتولي من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولم يقبلوا نسبته إلى صحابي، وردوا ذلك ودافعوا عنه دفاع المستميت.

وقد ترسخت عقيدة تقديس الصحابة، وتقديمهم بدلاً عن أهل البيت عليهم السلام، إلى درجة صعب معها مراجعة أكثر هؤلاء المقدسين، بسبب طول المدّة التي ظلت أجيالهم عاكفة على تلك الحالة، فالعقبة إذن هي في ركام تلك القرون وليس في محتواه، لأنَّ المحتوى لا يستند إلى أساس يعتمد عليه.

قلت له: إنَّني أرى أنَّ الإسلام بما حواه من عقيدة وشريعة، قرآناً وسنة نبوية، وتاريخاً وسيرة، لو لم يحمله الصحابة علماً وعملاً وجهاداً، لما وصل إلينا منه شيء.

قال: إنَّ هذا الدور الذي نسبته للصحابة، ليس إلَّا لعليٍّ والأئمة من ذريته عليهم السلام، فدور الحفظ والهداية مناط بهم، والنصوص تشهد لهم بذلك، واستقامتهم في تطبيق الإسلام، علوماً وأخلاقاً غير خافية أيضاً، وهذا تراثهم قائم بذاته قد ظهرت آثاره واضحة للعيان، وقد سجل التاريخ تصديهم للذبِّ عن الدين الاسلامي، بما مكنهم الله سبحانه وتعالى من معارف وعلوم، بينما ظهر احتياج الصحابة، وغيرهم من الأجيال الإسلامية إليهم، وقد سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي، عالم اللغة والنحو والعروض: ما الدليل على إمامة عليٍّ عليه السلام،

فقال: استغناؤه عن الكلِّ، واحتياج الكلِّ إليه، دليل على إمامته، وظهر من عليٍّ عليه السلام نفسه قوله المتكرر: «**سلوني قبل أنْ تفقدوني**»(٩)، وقد اشتهر بين الحفاظ مقالة عمر نفسه: لولا عليٌّ لهلك عمر.

قلت له: فهل يمكنك أنْ تقدم لي الدليل على أحقية أهل البيت عليهم السلام من خلال تراثهم؟

قال: نعم، سوف أُعطيك بعض الكتب، التي تستطيع منها، أنْ تقف على أحقية أئمة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام، الذين نص عليهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، أئمة وقادة وسادة بعده، وإنِّي متأكد من أنَّك إذا درستها بتمعن وروية، بعيداً عن التعصب، فإنَّك ستصل إلى قمة الحقيقة.

وتواعدنا على أنْ يسلمني بعض الكتب التي تحوي تراث أهل البيت عليهم.

وفي الموعد المحدد، جاء صديقي يحمل معه كتاب نهج الحق وكشف الصدق، للعلامة الحلي، وفدك في التاريخ للشهيد محمد باقر الصدر، والصحيفة السجادية التي تحوي أدعية رابع أئمة أهل البيت عليهم السلام، الإمام عليٍّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، فسلَّم لي تلك الكتب ووعدني بالمزيد منها إذا قرأتها.

---

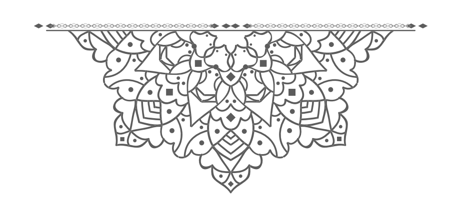
(٩): الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج٢ ص٥٠٩ / الاستيعاب لابن عبد البر ج٣ ص٤٠/ ذخائر العقبى للمحب الطبري ص٨٣ .

ولم يدم تصفحي لتلك الكتب غير أسبوع واحد، أمكنني من خلاله الوقوف على قوة الدليل الذي يمتلكه الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، عقيدة وشريعة وتاريخاً، ومدى انسجام كلِّ تلك البراهين مع العقل والمنطق، فأقررت بالحق الذي عليه آل طه، وواليتهم امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى فيهم، ثمّ التزمت ذلك المنقذ الذي حررني من ظلمات الوهم ورؤى السراب، فكان يمدني في كلِّ مرّة بما أحتاجه للإجابة عن سؤال أو لحلِّ معضلة، إلى أنْ تمكنت من أنْ أجمع زاداً من الأدلة في عقلي، وأشتري عدداً من الكتب التي تلزمني في معرفة ديني الحق، الذي تركه خاتم الأنبياء والمرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلم، لأهل بيته عليهم السلام، باعتبارهم ورثة علومه، والقادرين أكثر من غيرهم على تحمل مسؤولية أداء ذلك، لمن سيأتي بعد من الناس، والحمد لله ربِّ العالمين.

الدافع التاسع عشر إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

مسألة الاصطفاء في القرآن

هي التي شيعتني



زهير... صديق الطفولة، وشريك في ذكرياتها اللطيفة والممتعة، كان مذ عرفته ولا يزال متحلياً بروح مرحة عالية التربية، حسن المعاشرة، لطيف الطباع، قويَّ البنية، لكنَّني لم أذكر أنَّه استعملها في الاعتداء على أحد، مهما كان تطاوله عليه، لكنْ ليس معنى ذلك أنَّه يقبل أنْ يُظلم، لقد تعلم كيف ينال حقه بفضل تعقله ومنطقه، جاء إلى الجلسة ملبياً الدعوة التي كنت وجهتها إليه، مدفوعاً بحماسة إظهار الحق، ونصرة أهله الكرام عليهم السلام، وعند إعطائه الكلمة قال:

نشأت في وسط متسامح لا يعرف التعصب، منفتح على الثقافة والعلم، فلم يكن لدي إشكال في التواصل مع كلِّ الشرائح التي تتعايش معي في المجتمع، ومن الثانوية إلى الجامعة تعددت علاقاتي مع مختلف التوجهات الفكرية، إسلامية

وعلمانية، مع الحرص الكامل الذي كنت أُظهره في الحوار والنقاش مع هؤلاء، عاملاً بقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(١٠).

أُولى ملاحظاتي التي أفضت بي إلى التمسك بحبل أهل البيت عليهم السلام، تعلقت بمسألة الاصطفاء التي تحدث عنها القرآن الكريم، موضحاً أنَّها سنة إلهية مترابطة ومتسلسلة عبر الزمن، غير موقوفة على أُمَّة دون أُخرى، ويعتبر الاصطفاء الإلهي في القرآن ثابتة من الثوابت التي لا تتغير، وقد مثلت على مدى مسيرة البشرية في هذه الحياة، الملاذ الذي يستطيع به الهارب من الانحراف والزيغ، اتباع السبيل القويم والصراط المستقيم، الذي انتهجه المصطفون عليهم السلام، وجعله الله سبحانه وتعالى عنوان التوفيق والفلاح، وبارك سعي من اتخذه وجهة، حاثاً على العمل بمقتضى ذلك الهدي، والسير في الحياة طبق ذلك النهج.

ومع وقوفي على هذه الحقيقة التي لا تقبل الشك ولا تحتمل الطعن، لاحظت أنَّ المجتمع الإسلامي الذي أعيش فيه، لم يُعر هذه المسألة أهمية تستحق الذكر، بحيث أسقط من عقيدته وثقافته معنى الاصطفاء وغاياته، فقررت أنْ أستقرئ كتاب الله تدبراً وتفسيراً، اعتماداً على أُمَّهات المصادر الإسلامية.

---

(١٠): سورة النحل الآية ١٢٥.

وبعودتي إلى كتاب الله وتدبر آياته، وجدت أنَّ فيه سنناً كونيةً لا تتبدل مطلقاً، تتعلق بالوسائط التي جعلها الله سبحانه وتعالى بينه وبين عباده، والمعبر عنها بصفوة الخلق، أولئك الذين تمكنوا، من نيل المكانة والحظوة والرضا من الله سبحانه وتعالى، بفضل سرعة استجابتهم لأوامره ونواهيه، وانسجامهم مع أحكامه وعلومه، وتفوقهم في عبادته علماً وعملاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (*) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[11] فتقبلهم الخالق سبحانه وتعالى بقبول حسن، وأنبتهم نباتاً حسناً، أهّلهم لأنْ يكونوا عناصر تبليغ عنه، وهداية الناس لصالح الأعمال وعقبى الدار.

استوقفتني الآية التي في سورة آل عمران، لما تضمنته من مفردات، فقد كنت متصوراً قبل ذلك، أنَّ الاصطفاء مخصوص بالأنبياء والمرسلين والملائكة عليهم السلام، ولم ألتفت إلى أنَّ المسألة تتعداهم إلى غيرهم، من عناصر التبليغ والهداية، وتذهب بعيداً، حتى تشمل كلَّ هذا الكون، من حيث اختيار الأنسب والأصلح.

المفردات التي أشرت إليها تتعلق بآل الأنبياء عليهم السلام، الذين ذكرتهم الآية، وأدرجتهم ضمن قائمة المصطفين، وتساءلت هل آل الأنبياء هم أنفسهم أنبياء، أم أنَّ لهم مقاماً آخر، لا يقلّ أهمية عن مقام النبوة؟

---

(١١): سورة آل عمران الآية ٣٣ والآية ٣٤.

ووجدت الجواب في قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(١٢) بمعنى أنِّي جاعلك قدوةً وهادياً للناس، يتبعون أثرك، ويأتمرون بأمرك، ويقتدون بك، ويسلكون طريقك. وفرح إبراهيم الخليل عليه السلام بالإمامة، وسأل الله سبحانه وتعالى أنْ تكون في ذريته، لكنَّ الله تعالى اشترط فيها شروطاً، منها أنَّ الظالم لا يمكن أنْ يكون إماماً، والظلم كما هو معروف ليس محصوراً في عمل ما، أو خاصاً بصفة ما، بل يصطلح على كلِّ عمل، أو صفة خارجة عن الأوامر والنواهي الإلهية، ومن بينها الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١٣).

و لما تبينتُ مقام الإ ما مة، تســاء لتُ عن دور ها في المجتمع، وخلافتها لمرحلة النبوة؟

وجدتُ قوله تعالى مفسراً لذلك السؤال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(١٤)، وظهر من الآية أنَّ الدور الموكل للإمامة، والعمل المناط بالأئمة عليهم السلام، هو هداية الناس بعد الأنبياء عليهم السلام، وإرشادهم إلى العمل الأصلح، والنهج الأقوم، وحثهم على

---

(١٢): سورة البقرة الآية ١٢٤.

(١٣): سورة لقمان الآية ١٣.

(١٤): سورة الأنبياء الآية ٧٣.

المبادرة إلى عمل كلِّ خير، من شأنه أنْ يرغّب الناس في القرب من الله، فكانوا بهداية الله تعالى، أمثلة تحقق مصداق تشريعه، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[١٥] وأمر عباده المؤمنين باتباعهم، وكانت إرادته في أنْ يكون هؤلاء الأخيار، حججه على خلقه في الدنيا، والشهداء بالحق عليهم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١٦].

والأُمَّة الوسط هنا، هم أئمة أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذين خصهم الله تعالى في الدنيا، بهداية الناس وإرشادهم والسلوك بهم سبيل الرشاد، وأعطاهم في الآخرة مقام الشهادة على الناس، وشهادة الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عليهم، بما استرعاهم من مقاليد الأُمَّة.

وفهمت أنَّ للوسائط التي جعلها الله تعالى بينه وبين خلقه، منازل ومراتب تقتضيها كلُّ مرحلة من مراحل التبليغ عنه، فاصطفى من خلقه أنبياءً، وجعل منهم رسلاً، وحمّلهم شرائعه إلى الناس، وخصهم بالإمامة، وأذن لهم في أنْ يكونوا قدوة ظاهرين وحكاماً بتعاليمه، وحفاظاً لشريعته، وكانت الوصية في نقل ذلك، وإمراره

---

(١٥): سورة الأنعام الآية ٩٠.

(١٦): سورة البقرة الآية ١٤٣.

بين الصفوة، واجباً لم يهمله أحد منهم، قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١٧).

واستلزمت الوصية، في أنْ يكون هناك من يقوم مقام الرسل، في إمامة الناس وقيادتهم إلى توفيق الطاعة، وبناء المجتمع الواعي بدوره وتكليفه، والوصول بالإنسان إلى مرتبة التوحيد الصحيح، والعبودية الحقة، والبلوغ به إلى مستوى خليفة الله في الأرض، وضمير الهاء في الآية، عائد إلى الإمامة التي تقلدها إبراهيم عليه السلام، بأمرٍ واختيارٍ من الله تعالى، فهي أُولى المسائل التي تستلزم الوصية.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾(١٨).

وحددت الآية أنَّ علوم الرسل عليهم السلام، لا تكون إلَّا في الصفوة من الخلق، تلك الفئة التي تعتبر امتداداً لحركتهم، ومن معدنهم المتفوق على بقية الخلق، بما أشرت إليه من استعدادات ذاتية، يزيدها البارئ تعالى من فيضه ورحمته، كما جاء في شأن طالوت عليه السلام، عندما نصّ عليه نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل، فقوبل تعيينه بالاحتجاج، غير أنَّ نبيهم ردَّ عليهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ

---

(١٧): سورة البقرة الآية ١٣٢.

(١٨): سورة فاطر الآية ٣٢.

عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١٩)؛ لذلك تحملت تلك السلسلة الطاهرة من الناس، مسؤولية إلهية في حفظ شرائع أنبيائها، بعد ما أتمَّ لها الخالق تعالى إمكانيات تحمل تلك المسؤولية الجسيمة.

إذن نستطيع أنْ نجزم، أنَّ اللطف الإلهي شاء أنْ تتواصل حلقاته، وتتوالى إفاضاته على العالمين رحمة وخيراً، فلم تعدم منه أُمَّة من الأُمم، ولا كان مخصوصاً بعصر دون آخر، فكان باباً من العطاء الإلهي المتواصل، إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن هنا فهمت أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿إِنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٢٠) يتفق تماماً مع قوله تعالى: ﴿ إِنا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الذِينَ أَسْلَمُوا لِلذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٢١).

فالآية الأُولى، جاءت مجملة للسبب الذي جعله الله تعالى بينه وبين خلقه،

---

(١٩): سورة البقرة الآية ٢٤٧.

(٢٠): سورة الحجر الآية ٩.

(٢١): سورة المائدة الآية ٤٤.

وجاءت الآية الثانية شارحة له، فقسمت المرحلتين، وأعني بهما مرحلة التنزيل ومرحلة الحفظ، إلى مراتب ووظائف هي كالآتي:

أمَّا فيما يخص مرحلة التنزيل، فقد جعل الأنبياء والرسل عليهم السلام أدوات تبليغ عنه، وعناصر نشر تعاليمه، وبثها في المجتمعات التي يراد بناؤها، على أُسس الانقياد لله تعالى، وطاعته وفق أحكامه المنزلة.

أمَّا فيما يخص مرحلة الحفظ، فقد جعل الربانيين يتسلمون دور الإمامة من أولئك المرسلين، ومنحهم من تزكيته، وتأييده وعلومه، ما أمكنهم إعداد مرحلة جديدة، ودور يستطيع أنْ يخلف الإمامة الربانية الهادية، وهو دور العلماء الربانيين قال تعالى: ﴿إنما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢٢].

وبذلك اقتنعت أنَّه ليس هناك تنزيل دون واسطة من الله تعالى، كما أنَّه ليس هناك حفظ دون واسطة أيضاً.

وتساءلت بعد ذلك: إذا كان الاصطفاء كذلك، فأين يوجد في الأُمَّة الإسلامية؟

وكان حديث الثقلين، هو الذي أرشدني إلى الصفوة الطاهرة، من أهل بيت

(٢٢): سورة فاطر الآية ٢٨.

النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، بعد الغيبة التي أُخضعوا لها قسراً من وجداني ووجدان الأُمَّة الإسلامية، فقد قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**تركت فيكم ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنَّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[٢٣].

واصطدم الحديث في محصلتي التراثية المذهبية برواية مالك التي أخرجها في الموطأ: عن مالك أنَّه بلغه أنَّ النبيَّ قال: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه[٢٤]. لكنَّ رواية مالك لم تصمد أمام تعدد طرق حديث الثقلين، وصحة أسانيده، لأنَّ مالكاً رواها بلاغاً، وبلا سند، وفوق ذلك، فالخلاف ليس في اعتماد السنة النبوية، كمصدر من مصادر التشريع من عدمه، لأنَّ السنة النبوية لم يقل أحد بإلغائها، سوى ما صدر من عمر بن الخطاب، عند منعه النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من كتابة وصيته، وقال: حسبنا كتاب الله، وكلُّ من قال بعده بذلك الرأي، فهو مستند إليه.

لذلك أعتقد جازماً بخصوص رواية مالك، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم يحلنا إلى مصدرين من مصادر الشريعة، ليس لهما وجود على أرض الواقع،

(٢٣): مسند أحمد ٥ / ١٨١.

(٢٤): الموطأ للإمام مالك ح ١٦٠١.

كلاهما مبثوثان في المسلمين، لا يملكان لنفسيهما دفع الضر، وسط خليط من الناس يتحرك أغلبهم وفق مصلحته، فوجب لذلك تعيين أُناس لهم من المكانة والأهلية والقدرة، على أداء علوم الوحي إلى الأجيال المتتابعة، أداءً صحيحاً سليماً، حتى يمكن للدين أنْ يستمر في دوره.

وجاءت آية التطهير، لتظهر لي إمكانيات الأئمة الهداة عليهم السلام، التي ميزتهم عن بقية المسلمين علماً وعملاً، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾(٢٥).

فأظهرت عصمتهم بشكل واضح وجلي، لأنَّ من أذهب الله تعالى عنهم رجس الشيطان وطهرهم تطهيراً، لا يمكن أنْ يكونوا غير معصومين، فإذهاب الشيطان عنهم برجسه وكلِّ خبائثه، وشدّة تطهيرهم، عاملان من عوامل الاصطفاء، ومن اصطفاه خالقه، فهو معصوم من الخطأ حتماً، وأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم معصومون من الخطأ، بمقتضى الآية الشريفة.

ثمَّ بحثت عن أهل البيت عليهم السلام من يكونون فوجدت عند المسلمين قولين:

---

(٢٥): سورة الأحزاب الآية ٣٣.

القول الأول يقول: إنَّهم عامة نسائه وأبنائه ومعهم الإمام عليٌّ عليه السلام.

القول الثاني: يخص منهم علياً وفاطمة والحسن والحسين والتسعة من ذرية الحسين عليهم السلام.

وبحثت في القول الأوّل، فوجدته لا يستند على حجة أو دليل، يبقي نساء النبيِّ في دائرة اختصاص الأهل، لأنَّه لم ترد رواية تفيد ذلك القصد، ولا ادعت واحدة من النساء شمولها، بل لقد وجدت أنَّ اثنتين من نساء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وهما أُمُّ سلمة وعائشة، قد روتا نزول الآية في الخمسة الطاهرين، وهم: محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، زيادة على أنَّه لم يقل بعصمة نساء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أحد، بينما ثبتت عصمة أصحاب الكساء علماً وعملاً.

أمَّا كون الآية نازلة ضمن سلسلة آيات، تخاطب نساء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فوحدة السياق تقتضي نسبة الآية لهن، فجوابه أنَّ وحدة السياق ليست محصلة في هذه الآية، لأنَّ الخطاب تغير فيها من ضمير مؤنث قبلها وبعدها، إلى ضمير مذكر فيها، وفي القرآن مثال يطابق هذه الصياغة، قال تعالى:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٢٦]

---

(٢٦): سورة يوسف الآية ٢٩.

والخطاب لم يتعد سياقه هنا، ففي أوله ليوسف وفي أوسطه وآخره لزليخا امرأة العزيز.

كما لم أجد من يقول بنزول الآية في نساء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فقط، غير عكرمة الخارجي مولى ابن عباس، الذي اتهمه علماء الجرح بالكذب، كما اتهمه ابن عباس، الذي كان يوثقه تارة على الكنيف، وتارة أُخرى يشهّر به فيقول: إنَّ هذا يكذب على أبي(٢٧).

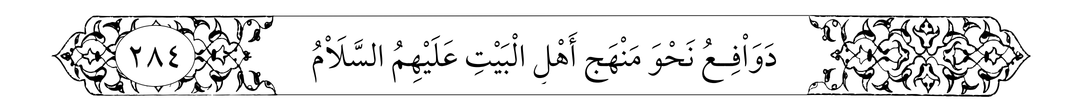
أمّا مقاتل الجوزجاني، فحسبه أنَّه لم يوثقه أحد من العلماء(٢٨)، هذان فقط هما من ادّعيا تلك الدعوى الباطلة، ومن دون بينة ولا حتى رواية واحدة تؤيد دعواهما، وعليه فلا وزن عند العقلاء لما تفوها به من زيف، ومن اعتبر كلامهما حجة، فقد حاد عن الحق، ودخل في ظلمات الباطل الذي لا يدوم.

واقتنعت في نهاية المطاف، بأحقية أهل البيت عليهم السلام في إمامة الأُمَّة الإسلامية وقيادتها، وفهمت معنى التشيع لهم وموالاتهم، على الرغم من الحرب التي أعلنت عليهم، وتواصلت قرون عديدة، مورست فيها كلُّ أنواع الأسلحة في

---

(٢٧): ميزان الاعتدال للذهبي ترجمة عكرمة مولى ابن عباس.

(٢٨): ميزان الاعتدال للذهبي ترجمة مقاتل.



مواجهتهم، بدءاً من الدعاية المغرضة التي كان يراد منها تشويه صورتهم في أعين المسلمين، وانتهاءً بحملات السجن والتشريد والقتل والتعذيب والتنكيل، ولو وقع معشار ما وقع لهم لغيرهم لاندرست معالمهم، وذهبت ريحهم، ولم يعد لهم أثر، لكنَّ الله وهو ولي المؤمنين والمدافع عنهم، لأنَّ دينه مستودع عندهم، هم أهله وحملته إلى بقية الناس، فواليتهم وواليت أولياءهم، وعاديت وتبرأت من أعدائهم، لله تعالى وابتغاء مرضاته، وامتثالاً لأمره في اتباع الطاهرين، فله الحمد والمنة والشكر.

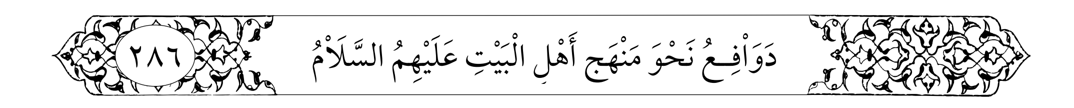
الدافع العشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيعني كتاب علل الشرائع



عادل... رجل عرف الالتزام بشعائر الدين الإسلامي، منذ نعومة أظفاره، إلى أنْ تقدمت به السن، لم يتغير في أداء تكاليفه، ولا انقطع عنها يوماً، عرف بين أقرانه بحماسته الكبيرة وغيرته على الدين، فكان مرجع دائرته فيما يخص أخبار المسلمين، فاشتغل بذلك الأمر حتى نسي نفسه، وزاده تنامي الصحوة الإسلامية، في ربوع العالم الإسلامي تمسكاً والمضي قدماً، من أجل إعلاء كلمة الله، ونبذ ما دونها من باطل وأراجيف.

أودع السجن بتهمة الانتماء إلى جمعية غير مرخص فيها، فقضى ثلاث سنوات أتم فيها حفظ القرآن، وخرج بعد ذلك أكثر إصراراً من ذي قبل أنَّه على الحق، لم يكن متعصباً في مناقشاته وحديثه، ولا كانت مسلّماته تلجئه إلى ذلك، كان يعتمد الأساليب المنطقية في استكشاف الحقيقة والإمساك بها، فعقله بالنسبة إليه، ميزان



أودعه الله تعالى في رأسه ليزن به الأشياء دون زيادة ولا نقصان.

علمت بتشيعه بعد مدّة من خروجه من السجن، وتتبعت أخباره واحتياجاته بعد ذلك، ولما عزمت على عقد جلسة الإفادة، دعوته ليبين سبب تشيعه، فجاء رغم كثرة مشاغله، واضعاً تلك الجلسة موضع الأولوية، ولما جاء دوره قال: توفي أحد الأقارب، وكنت ضمن المودعين، كان يوماً قائظاً من أيام الصيف الحارة، وكان المكان صحراوياً، تلفح حرارته الجسم، من أخمص القدمين إلى الرأس، ولم يكن هناك بُدٌّ من الإسراع في إقامة صلاة الجنازة عليه، ومواراته التراب، أثناء أداء مراسم الدفن، وفي مختتم صلاة الجنازة، سمعت أحدهم يكبّر تكبيرة زائدة على المعروف والمعمول به عندنا، نحن أتباع مذهب مالك بن أنس، فقلت في نفسي لعلَّ الرجل نسي نفسه، فكبر دون أنْ يلتفت إلى ذلك.

ورغم حرارة الطقس العالية، وما تستتبعه من معاناة المتعرضين لأشعة الشمس، فقد أبى المشيعون وخاصة كبار السن، ومن تبعهم من الشباب على تلك السنة الحميدة، إلَّا أنْ يقرؤوا ما تيسر من سور الكتاب العزيز، كسورة يس، والصافات وقصار السور، في الوقت الذي يلحد فيه الميت، وعند انتهاء القراء من القراءة والدافنين من الدفن، تقدم إمام القرية للدعاء، وأمّن عليه الحاضرون قبل قراءة سورة الفاتحة، وبعد تقديم التعازي، التفتُّ إلى وجود رجل يريد الاقتراب مني،

لاحظت أنَّ الرجل ليس من أهل القرية، تقدم مني وقدم تعازيه فشكرت له سعيه.

وجرت العادة أنْ يتجه أغلب الحاضرين بعد تشييع الميت، إلى البيت الذي خُصص لاستقبال الوافدين للتعزية، للقيام على خدمتهم، وتهيئة أسباب الراحة لهم، وطلباً لمواساة أهل الميت، وحانت مني التفاتة، فوجدت ذلك المعزي جالساً مع من حضر، وبعد تناول طعام العشاء، بدأ الحضور في مسامراتهم وأحاديثهم، كلٌّ حسب اهتماماته، لكنَّ الحديث في عمومه، كان منحصراً في المسائل الدينية، وخصوصاً ما تعلق منه بعالم ما بعد الموت، ووجد الرجل فرصة للحديث، فابتدر الحضور قائلاً: من منكم يخبرني عن عدد تكبيرات الصلاة على الميت، وماذا تعني تلك التكبيرات؟

استغرب عدد من الحضور من سؤال الرجل، لأنَّهم كانوا يرونه بلا معنى، لكنْ مع ذلك أجابه أحد الحضور، بأنَّ عدد التكبيرات هو أربع تكبيرات، ولكن لا يعلم الغاية منها، ولا يوجد في الفقه المالكي، ولا السني عموماً ما يفيد علتها.

وقال آخر، وكان أُستاذاً في التربية الإسلامية: لقد حدث اختلاف في عهد عمر بن الخطاب بخصوص هذه المسألة، لما أشكل عليهم عدد تكبيراتها، ففريق قال إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كبّر أربعاً على الجنازة، وفريق آخر قال إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كبّر خمساً، ولم يُحسم الأمر بين الفريقين، مع تشبث

كلٍّ منهما برأيه، وإصراره على موقفه، فما كان من عمر إلَّا أنْ أمضى أمر الصلاة على موتى المسلمين، فجعلها أربع تكبيرات، ولم يذكر المؤرخون، السبب الذي جعل عمر يرجح أمر التكبيرات الأربع، على الخمس.

فما كان مني عند ذلك إلَّا أنْ قلت له: إذن أنت الذي كبَّر تلك التكبيرة الزائدة، وقد كنت أظنك نطقتها سهواً؟

فقال الرجل: لم أكن ساهياً، وإنَّما كبّرت خمساً، لأنَّ الخمس تكبيرات على الميت أصح من الأربع.

فانبرى أحد الحضور، وقال مغضباً: هل أنت أعلم من عمر بن الخطاب، حتى ترى أنَّ قولك أصحُّ من قوله؟

فقال الرجل: ليست المسألة بهذا المنطق، لأنَّني لم أرَ الدين برأيي، ولم أقسه بعقلي، حتى تعارضني بهذا الكلام، لأنَّ الدين لا يؤخذ إلَّا من أبوابه، التي أمر الله سبحانه وتعالى أنْ يؤتى منها، وهي أبواب أهل بيته الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ليحملوا الدين كما أُنزل، كتاباً وسنة وعبادات ومعاملات، إلى الناس بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

فقاطعه الرجل مدفوعاً بحماسة زائدة: إذن من أين جئت بالتكبيرة الخامسة،

التي لم يلتفت إليها عمر بن الخطاب؟

فقال الرجل: لقد أشار الأخ المتدخل، إلى أنَّ التاريخ قد سجل الخلاف بشأن التكبيرات على الميت، على عهد عمر، وأنا قد أخذت ذلك من أئمة أهل البيت عليهم السلام الاثني عشر، الذين أجمعوا كلُّهم، على أنَّ عدد التكبيرات على الميت هي خمس.

قال المتحمس: لماذا لا تكون أربع تكبيرات؟ وما الفرق بينهما؟

فقال الرجل: لقد ثبت عند أهل البيت عليهم السلام، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان يصلِّي على موتى المسلمين صلاتين، صلاة بخمس تكبيرات على المسلمين الذين لم يظهر منهم نفاق، وصلاة بأربع تكبيرات على المنافقين، قبل أنْ ينزل فيهم أمر إلهي بعدم الصلاة عليهم، والوقوف على قبورهم مطلقاً.

أمَّا الفرق بين الصلاتين، فهو يحتاج إلى خزان الدين، وحفظة علومه ليبينوه لنا، هؤلاء كما كنت أشرت في بداية كلامي، هم أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، الصفوة من الخلق، الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى ليتحملوا مسؤولية حفظ الدين، والإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، هذا الإمام الجليل الذي درس عنده مالك بن أنس وأبو حنيفة، قد فسّر ذلك نقلاً عن آبائه، عن أبيه الأكبر

محمّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، بأنَّ الصلاة على الميت هي خمس تكبيرات، بعدد أركان الدين الخمس، وبعدد الصلوات الخمس، دلالة على تمام وكمال دين الميت، وأمَّا الصلاة بأربع تكبيرات، فهي إشارة إلى نقص في دين الميت، وقد اقتضت الضرورة، في بداية استقرار النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في المدينة، الصلاة على موتى المنافقين لتأليف أهلهم، وعدم بثِّ الفرقة والبلبلة في نفوس الوافدين الجدد، الذين ما زالوا لم يميزوا أبسط الأحكام، فضلاً عن التمييز بين المؤمن والمنافق، والذي قد لا يكون متاحاً للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نفسه، كما في قوله تعالى:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[٢٩].

لاذ جميع الحاضرين بالصمت، كأنَّ على رؤوسهم الطير، أمَّا المتحمس الذي كان يقاطع الرجل فقد هدأت نبرته، وخمدت ثائرته، ولاحت على محياه المفاجئة.

أما أنا فلم أتمالك من التحرك صوب الرجل، فجلست قبالته، وتوجهت إليه بالحديث قائلاً: لقد وقع بيانك في قلبي موقع القبول والرضا، وقد رأيت أنَّ حجتك لا تقبل الشك والطعن، وظهر لي أنا شخصياً أنَّ الصلاة على الميت بخمس

(٢٩): سورة التوبة الآية ١٠١.

تكبيرات، أصحُّ من تلك التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا بأربع تكبيرات، لا ندري لها معنى ولا كيفية، لكنَّني مع ذلك أتساءل: لماذا أقدم عمر على ذلك الاختيار غير الصائب؟

فقال الرجل: لم تكن هذه هي المحدثة الوحيدة، التي أقدم عمر على وضعها في أوساط المسلمين، موضع النفاذ والإمضاء، فقد زاد في آذان صلاة الصبح (الصلاة خير من النوم)[٣٠]، ولم تكن موجودة على عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، واضعاً الصلاة موضع التخيير بينها وبين النوم، وشتان ما بين الصلاة والنوم لقوم يعقلون، كما حذف من الآذان الحيعلة الثالثة، وهي «**حي على خير العمل**»[٣١] لما رأى تقاعس الناس في الذهاب إلى الجهاد، فأراد أنْ يفهمهم بطريقته، أنَّ الجهاد هو خير العمل، وأحدث بدعة صلاة التراويح جماعة بالمسجد، كما ذكر مالك في الموطأ، ونهى كذلك عن حجة التمتع، التي تعتبر حجة الإسلام الأساسية لمن هم خارج مكة[٣٢]، ولم يعمل بحج التمتع منذ أنْ أصدر قراره، فلمّا مات عاد

(٣٠): سنن الترمذي ج١ص١٥٣ كتاب الصلاة باب ما جاء في التثويب في الفجر ح١٩٨ / مسند أحمد ج٦ ص١٤ / سنن ابن ماجة كتاب الآذان باب السنة في الآذان ح٧١٥ / بداية المجتهد لابن رشد الأندلسي ج١ص١٤٣.

(٣١): السنن الكبرى للبيهقي ج١ ص ٥٢٤ / السيرة الحلبية ج٢ص١٠٥ / نيل الأوطار للشوكاني ج٢ ص٣٢ / ميزان الاعتدال للذهبي ج١ ص ٢٦٨.

(٣٢): صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٣ / شرح ابن أبي الحديد ج ٣ ص ١١٠.

الناس إلى العمل بفريضة حج التمتع، وأقدم على قطع شجرة بيعة الرضوان، بدعوى الخوف من أنْ يعبدها الناس، وليس الأمر كذلك، لأنَّها كانت تذكره بما أحدثه يومها من تمرد على أمر النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ومعصيته له، وعدم النزول عند رغبته في الصلح مع مشركي مكة، إلى غير ذلك من المحدثات التي ابتدعها، وكانت مخالفة لما كان عليه الحال في عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ومن أجل تفادي سوء فهم الدين والاختلاف فيه، ومنع إمكان التحريف عن أحكامه، كانت الحاجة إلى من يقوم مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، في حفظ الشريعة وعلومها، فكان تكليف الأئمة بعد الرسل عليهم السلام، من طرف المولى سبحانه وتعالى تعييناً على الشخص والاسم، لذلك الدور ممّا لا يرده عاقل.

قلت للرجل: لقد أقنعتني تماماً بعلّة التكبيرات على الميت، فهل لجميع الشعائر التي أمر بها البارئ تعالى علل؟ وهل ذكرها أئمة أهل البيت عليهم السلام؟

فقال الرجل: نعم إنَّ لكلِّ شعيرة من الشعائر علةً من العلل، جاءت شارحة لسبب وجودها أو لمعنى القيام بها، وبفضل الأئمة الأطهار من ذرية المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلم، أمكن جمع تلك العلل، فانفرد المسلمون الشيعة الإمامية الاثنا عشرية بامتلاكهم لها، دون غيرهم من الفرق الأُخرى، ممّا أعطى لمن ورد حياض

الطاهرين عليهم السلام، انطباعاً راسخاً بأنَّ الإسلام المحمّدي الأصيل، هو الذي عند أهل البيت عليهم السلام، ومن بين المصنفات التي عنيت بتلك العلل، كتاب علل الشرائع للصدوق رضوان الله تعالى عليه، وهو من علماء القرن الرابع هجري.

قلت له: فهل يوجد هذا الكتاب في المكتبات الآن؟

قال: لا لأنَّ المجتمعات التي اتخذت من المذهبية العمياء منهجاً، أدارت ظهرها لتلك الكتب، وحصرت أتباعها في كتب مؤيدة لتوجهاتها المذهبية، دون تلك المصنفات النفيسة، فحرمت أفرادها من الاطلاع عليها، خشية اتباعها، لكن توجد عندي نسخة منه سأُعيرها لك، بشرط أنْ تحافظ عليها ولا تتأخر في إرجاعها.

فقبلت شرط الرجل، ومن الغد عاد إليَّ ومعه ذلك المجلد النفيس، فتسلمته منه في شوق وحملته معي إلى البيت لأُطالعه.

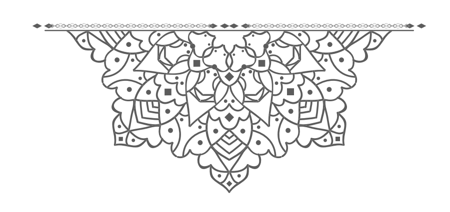
لقد كان ذلك الكتاب بحق، الوسيلة التي عرفتني بقيمة الأئمة الأطهار عليهم السلام، وحقيقة الإسلام الذي تبنوه، والذي يعرف بالإسلام الشيعي الاثني عشري، نسبة إلى عدد أئمة أهل البيت الاثني عشر، ووقفت على مدى ما يختزنونه من علوم إسلامية صافية، لا درن عليها ولا بدع، ولا محدثات فيها، فقررت أنْ أعتنق الإسلام الشيعي الذي رأيته الأكمل والأصح، خاصة وهو لم

يهمل جانب الحكومة بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لا على مستوى النصح، ولا على مستوى التعيين الإلهيين.

وجاءت علل الأحكام التي نقلها الشيخ الصدوق، عقلية ومنطقية ومتفقة مع ذلك التشريع، ومتجانسة معه، دالة على أنَّ الناطق بها لم يختلقها من عنده، وإنَّما جاء بها من مصدرها الذي خرجت منه، لسان الصدق ومنطق الحق، الذي تركه النبيُّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لأهل بيته الطاهرين من بعده، وفهمت تبعاً لذلك، أنَّ بقية الفرق، ما هي إلَّا اجتهادات من طرف أصحابها، لا ترقى إلى الدور الإلهي في الحفظ، أو هي من صنيعة الطواغيت والظلمة، لصرف الناس عن أحقية أهل البيت عليهم السلام، وحقيقة أشخاصهم وأدوارهم.

الدافع الحادي والعشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

إهمال السنة النبوية المطهرة وإفراغ القرآن الكريم من معانيه هما اللذان شيعاني



عبد الحفيظ... شاب ربا على العشرين من عمره، لكنَّك عندما تراه لأول وهلة، تعتقد جازماً بأنَّك أمام كهل ودَّع شبابه، وأدار ظهره عنه إلى غير رجعة، فقد غزا الشيب رأسه، حتى لم يعد لشعره الأسود الذي عادة ما يكون رمزاً للصبا والشباب، مكاناً يقيم فيه باستثناء بعض شعرات، بقيت صامدة أمام غزو شيب وراثي لا دخل لعمره فيه، ومع ذلك فقد زانه الشيب، فبدا أكثر جاذبية ورجولة من غيره، تعرفت عليه هو أيضاً بالجامعة، ولم أتخذه صديقاً إلَّا بعد أنْ لمست منه فهماً وتقديراً واحتراماً لمعاني الصداقة.

دعوته إلى جلسة الإفادة ليفصح عن سبب تشيعه، فلبى الدعوة وكان حاضراً، ولما جاء دوره قال:

لم أكن في دراستي الثانوية مهتماً بالبحث خارج إطار الدروس، التي كانت تقدم إليَّ في مادة التربية الإسلامية، لأنَّ وزن المادة فيما يتعلق بضاربها، ليس له قيمة تتماشى وأهميتها، أو تضاهي قيمتها المادية والروحية، فلم ألتفت إلى البحث عن متعلقات تلك المادة من تاريخ وسيرة، إلَّا بعد أن انتقلت إلى الجامعة، وتحديداً إلى كلية الشريعة وأُصول الدين.

كنت على وشك أنْ أنخرط في الطريق الوراثي، الذي اعتمد على التبرير المذهبي للأحداث، التي أعقبت وفاة النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلم، لولا شخص وضعه القدر في طريقي، كأنَّما أرسله ليخرجني من غيابة تيه، لم أتبينه إلَّا بعد أن انتشلت منه.

تعرفت عليه في إحدى التظاهرات التي كان الطلبة ينظمونها أو يشاركون فيها، عندما تكلم في مداخلة بمناسبة يوم التضامن مع الشعب الفلسطيني، المعروف بيوم الأرض، تعرض فيها إلى تحليل الحالة التي آلت إليها الأُمَّة الإسلامية، كان فصيح اللسان جريئاً، في وسط طلابي كانت الصحوة الإسلامية فيه تشق خطواتها الأُولى، وقد ركَّز مداخلته على الأحداث التي أعقبت وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ونظام الحكم الذي تمخض عنها، ورغم منطقية كلامه، فقد جوبه الشاب بمقاطعات متعددة، واستنكاراً من قبل بعض الحضور، الذين

كانوا يمثلون تياراً سياسياً إسلامياً معروفاً وقتها، لم أُخفِ إعجابي بمنطق الرجل، وعند انتهاء التجمع الطلابي، ذهبت إليه وسلمت عليه معرفاً بنفسي، فبادلني السلام والتعريف، ثمّ قلت له: لا أُخفي عليك إعجابي بما تفضلت بقوله في مداخلتك، غير أنَّ لي بعض الاستفسارات التي ما تزال تحتاج إلى بيان بالنسبة لي، بخصوص عصر الصحابة، وعلاقته بأدوات التشريع، ونظام الحكم في الإسلام.

فقال: هذه مواضيع ليست بالهينة، وتحتاج إلى ترتيب واستفاضة، وتتطلب كثيراً من الوقت والجهد الفكري، لبيانها واستجلاء الحقيقة من أشباهها.

قلت له: لقد ألقيت باللائمة على الحكام الثلاثة الأوائل، وحمّلتهم مسؤولية التفريط في مصدري التشريع الإسلامي، وأعني بهما الكتاب والسنة النبوية المطهرة، فهل أنت واعٍ لما كنت تقول؟

قال: إنَّ سياسة التعسف على مصدري التشريع الإسلامي، وتغييب أحدهما وهي السنة النبوية، وتعطيل القرآن بفصل التفسير عنه، وإقالة أوعيته ومستحفظيه، قد أدّت إلى فقدان الأُمَّة الإسلامية أسباب معرفة الدين، وتحقيق مكاسبه التي أُنزل من أجلها.

قلت له: أعتقد أنَّك تتكلم عن فترة ما بعد سقوط الخلافة الإسلامية، لأنَّ الدين لم يفقد إشعاعه وتأثيره وفاعليته، إلَّا بعد تلك الفترة المزدهرة.

قال: بل إنَّني أتكلم عن الفترة التي أعقبت وفاة النبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، وتحديداً عن جيل الصحابة ودور الصحابة.

قلت له: لكنَّ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قد امتنعوا عن تدوين السنة النبوية، خشية اختلاطها بالقرآن الكريم، ولما انتهوا من تدوين القرآن الكريم، انصرفوا إلى السنة النبوية المطهرة، فأعطوها حقها.

فقال: كلامك لا يخلو من غرابة، كأنِّي بك تتحدث دون التفات إلى ما تقوله، عن مسألةٍ لا علاقة لها بالدين.

قلت: ذلك ما تعلمناه من مادة التربية الإسلامية، التي كنت أدرسها في المرحلة الثانوية، وقد تكون عمومية المعلومات فيها، وسطحية تناولها، عاملين مانعين من الوقوف على الحقيقة كاملة، فيما تعلق بالتدوين.

قال: إنَّ الذي امتنع عن تدوين السنة النبوية المطهرة ليس جميع الصحابة، بل هم نزر يسير، وقلة قليلة منهم، لا يتجاوز أفرادها عدد اليدين، وذلك الامتناع وضع تحت عنوان تبريري، مفاده الخشية من اختلاط السنة بالقرآن، وهي دعوى عارية من الصحة تماماً، وتتعارض مع الإعجاز الذي أطلقه المولى سبحانه وتعالى بخصوص القرآن الكريم، فقوله جلَّ شأنه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ

يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٣٣]. متضمن لعاملين:

الأول: استحالة الإتيان بمثل القرآن مهما اجتمع لأجل ذلك الإنس والجن.

الثاني: امتناع اختلاط غيره به لتباين الموردين.

ثمّ تدرج في تحديه نزولاً إلى عشر سور، ثمّ إلى سورة واحدة، تأكيداً على أنَّ البشر لا يستطيعون أنْ يأتوا بنزر يسير منه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[٣٤].

وقوله أيضاً: ﴿وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[٣٥].

ووجه إعجاز القرآن، ناشئ من استحالة صدور كلام يشبهه من البشر جميعاً، حتى من المقربين إلى الله تعالى من صفوة خلقه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٣٦].

وإذا كان المولى سبحانه وتعالى قد بين أنَّ كلامه المنزل على رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم، ليس في مقدور أيِّ مخلوق الإتيان بمثله، فمعنى ذلك أنَّه كلام

---

(٣٣): سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٣٤): سورة هود الآية ١٣ .

(٣٥): سورة البقرة الآية ٢٣.

(٣٦): سورة النساء الآية ٨٢.

متميز على كلام المخلوقات وتأليفها، فتتولد لدينا بذلك قناعة أنَّ خشية اختلاط السنة النبوية، أو تفسير الآيات وبيان الأحكام بالقرآن باطلة من أساسها، ولم يكن يراد بإطلاقها في الوسط الإسلامي، إلَّا لغاية التخلص من السنة نفسها، بما اشتملت عليه من بيان لمحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وعموم القرآن وخصوصه، مضافاً إلى سيرة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، العطرة بالمواقف المهمة والخلق العظيم.

قلت له: إذن أنت تتهم الصحابة بعرقلة دين الله، وحصر إشعاعه، وإهمال سنة نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلم؟

قال: التهمة لا تتعلق بجميع الصحابة، بقدر ما هي ثابتة في عدد منهم، وأعني بهم أولئك الذين استولوا على الحكم، انطلاقاً من السقيفة المشؤومة، لأنَّ الذين منعوا تداول تلك الأحكام والسنن، لم يكن منعهم منطلقاً من حرصٍ على الدين، أو رغبة في حفظه، لأنَّ إجراء المنع يتعارض مع انتشار تلك الأحكام، ويتسبب في سرعة تلاشيها وذوبانها، خصوصاً وقد أثبت عدد من العلماء بالقرآن نفسه، بطلان خشية اختلاط كتاب الله، بسنة نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلم.

قلت: قد يكون القرار الذي اتخذه عمر، مدفوعاً بما تناهى إليه من كذب على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فيكون بذلك قد أحسن صنعاً، بمنع الكذابين من

نشر بهتانهم بين الناس.

قال: قد لا تختلف معي في القول، بأنَّ أول من نادى في أوساط المسلمين، والرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مسجى على فراش الموت، وفي حجرته الشريفة، بالاستغناء عن السنة النبوية المطهرة، والاقتصار على القرآن فقط، هو عمر نفسه، وعليه فإنَّه قد كشف منذ حياة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم موقفه من سنته المطهرة، وعدم اعتبارها مصدراً من مصادر التشريع(٣٧).

قلت: نعم ما قلته صحيح، فقد أخرج ذلك البخاري ومسلم في صحيحيهما، وكذلك بقية حفاظ أهل السنة والجماعة، وقد أجمع علماء الإسلام على الإقرار به، متعللين بأنَّ عمر لم يكن يقصد التعرض للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والتطاول عليه وإيذائه، بل ظهرت له مصلحة في ذلك، ولم يبيّنها.

قال: هذا هو التجني في حق النبيِّ المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلم، وهل كان عمر متصلاً بالوحي حتى نطمئن إلى سلامة موقفه، فنلتمس له الأعذار؟ وهل خرج النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من نبوّته، حتى يكون طلبه الذي يعتبر أمراً إلزامياً لا تردد فيه، متساوياً مع منع عمر؟ أم أنَّ طاعة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وتقديسه واحترامه وتقديمه ينسخها مرضه؟ أم أنَّ لعمر مقاماً يسمح له

(٣٧): صحيح البخاري ج١ ص ٣٦/ صحيح مسلم ج ٣ ص ٦٩ في باب ترك الوصية.

بفعل أيِّ شيء، ومع أيِّ شخص مهما كانت مكانته، حتى لو كان النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم؟

ولست أدري إنْ كان عمر يقرأ القرآن، وإنْ كان يقرأه لماذا لم يفهم أبسط معانيه، وإنْ فهم أبسط معانيه فلماذا لم يتقيد بها؟

وتعارض موقف عمر مع القرآن واضح، لا يحتاج إلى كثرة استدلال عليه، فقد حثَّ الله تعالى على طاعة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، معتبراً إياها شرطاً من شروط الإيمان فقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣٨) ونهى بشكل جازم لا يحتمل التأويل عن مخالفته، فقال تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣٩).

وقال أيضاً:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤٠).

وحرم تعالى مخاطبة النبيِّ بمثل ما يتخاطب به الناس، من إمكان المساواة في

---

(٣٨): سورة النور الآية ٥٦.

(٣٩): سورة النور الآية ٦٣.

(٤٠): سورة التوبة الآية ٦١.

المقام، حفظاً لشخصه وصيانة لتكليفه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٤١].

قلت: لقد أفحمتني بهذه الحجج التي لا يرفضها إلَّا معاند، ولقد اقتنعت بأنَّ جرم عمر تجاه النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عظيم، وجناية كبرى لم أجد لها مبرراً.

قال: ليس هذا فقط، فأنت تحدثت عن الجناية بحق النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وتناسيت الجناية بحق الدين عند منعه لرواية أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مطلقاً، ألا يدلّ ذلك على أنَّ الرجل كان يعرف جيداً ماذا كان يقصد ويريد، ومنطلقاً في تصرفاته نحو وجهة محددة؟

قلت له: وهل تقصد ما رمى به الشيعة عمر، من أنَّه المؤسس الأول لغصب الحكومة من الإمام عليٍّ رضوان الله تعالى عليه.

قال: وهل ترى أنَّ هنالك أمراً غير ذلك، وقد بينه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قبل ذلك في عدد من الأحاديث، كقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لعليٍّ عليه السلام: «**أنت وليُّ كلِّ مؤمن ومؤمنة بعدي**»[٤٢]. وقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم

---

(٤١): سورة الحجرات الآية ٢.

(٤٢): مسند أحمد ٤/ ٤٣٩.

أيضاً: «**أنت مني بمنزله هارون من موسى إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي**»[٤٣]. وكقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»[٤٤].

وتوج ذلك بقوله مراراً وتكراراً: «**تركت فيكم ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنَّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**»[٤٥].

وأنت إذا تأملت حديث رزية الخميس، الذي أشرت إلى إطاره العام، لوجدت في قول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلّم: هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً[٤٦].

ولقد فهم عمر من كلام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلّم، أنَّه يريد أنْ يكتب وصية الحكم من بعده لعليٍّ عليه السلام، فتصدى لمنعه من كتابة تلك الوصية، إفساحاً لمجاله وتهيئة لفرصته في الاستيلاء على السلطة.

وحديث الثقلين، وحديث رزية الخميس المروي عن ابن عباس في البخاري وغيره، يتفقان في أنَّ المانع من ضلال الأُمَّة هما مستمسكان اثنان فقط، بل هو في حقيقته متمسك واحد، لأنَّ الكتاب العزيز لا يستطيع أنْ يقوم بنفسه في الأُمَّة،

---

(٤٣): صحيح مسلم ٤/ ١٠٨.

(٤٤): مسند أحمد ٤/ ٢٨١.

(٤٥): مسند أحمد ٥/ ١٨١.

(٤٦): صحيح البخاري ٤/ ٥.

فتعين وجود من ينطق عنه صدقاً وعدلاً، وهم أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، أولئك الذين أحصى الله تعالى فيهم علوم نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلم، ووصفهم في القرآن بالصادقين، والأبرار، ومن عندهم علم الكتاب، وغير ذلك من الأوصاف التي لا تنصرف إلَّا إليهم، ولا تتفق إلَّا معهم، ولا تليق إلَّا بهم.

قلت: فما علة تدوين القرآن وفق الرؤية المذهبية لأهل السنة؟

قال: إنَّه من رداءة القول الادعاء بأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قد غادر الدنيا، وكتابه مبثوث في صدور الناس، ولم يلتفت لا هو ولا خالقه جلَّ شأنه وتعالت قدرته إلى ناحية حفظه. لذلك فإنَّ أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقولون عكس ذلك، فالقرآن مجموع عندهم ومدوَّن لديهم، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ هناك عدداً من الصحابة يمتلكون مصاحف، والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حيٌّ يرزق، وكان الكَتبة منهم كابن مسعود، وابن عباس، وأُبي بن كعب، وعليٌّ عليه السلام مقدمهم، يواكبون نزول الوحي، بكتابة كلِّ جديد في موضعه، الذي يحدده النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لهم، فدعوى جمع القرآن على عهد أبي بكر، ثمّ جمعه ثانية على عهد عثمان، عارية من الصحة تماماً، وهي إلى إضفاء الشرعية والقداسة على الحكام الثلاثة الأوائل، أقرب منها إلى الواقع، فقوله تعالى: ﴿إِنا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[٤٧] دليل على بطلان حفظ هؤلاء، وتفسير الآية معناه، أنَّ نزول القرآن كان عن طريق جبرائيل عليه السلام على النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلم، وحفظه كذلك من الله تعالى بواسطة خليفة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الحقيقي، وهو الإمام عليٌّ عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[٤٨].

وباعتبار أنَّ غصب السلطة من أصحابها المنصوص عليهم من طرف الوحي، كان لا بُدَّ له من سند يحفظ بقاءها بعيداً عن طلب أصحاب الحق وأتباعهم.

وبقاء تلك المصاحف عند أصحابها، قد يؤدي بالتفاسير التي نقلها الحفاظ من الصحابة إلى تسربها وانتشارها بين المسلمين، ممّا سيسبب قلقاً وإحراجاً للسلطة الغاصبة، ويشكل في حدِّ ذاته خطراً على استمرارها، وعاملاً مهماً يدفع إلى تقويضها، بما اشتملت عليه من نصوص شارحة لنظام الحكم في الإسلام، ومبينة شرائط إمام الأُمَّة وخصائصه، فاتجه دهاة ذلك الخط إلى افتكاك تلك المصاحف، وحرقها في عهد عثمان بن عفّان، فأُحرقت بسبب ذلك مصاحف عديدة أُخذت من أصحابها عنوة.

---

(٤٧): سورة الحجر الآية ٩.

(٤٨): سورة يس الآية ١٢.

أمّا السنة النبوية، فلم تدوَّن عند أتباع خط الفئة الغاصبة للحكم الإسلامي، إلَّا في منتصف القرن الثاني، وكان موطأ مالك أول تلك السنن المكتوبة، ولم يتسنَ له ذلك إلَّا بعد أنْ أذن له أبو جعفر المنصور بكتابته، وبمعنى آخر لم تكتب السنة النبوية عند ذلك الخط، إلَّا بعد ذهاب جيلي الصحابة والتابعين، وما بينهما عاث طلقاء بني أُمية كذباً وافتراءً في سنن وسيرة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلّم، حتى كادت معالمها الصحيحة أنْ تنمحي وتذهب، طمعاً فيما كان يحفز عليه الغاصبون للسلطة أشباه العلماء من المتزلفين لهم.

أمّا وجه تسمية ذلك الخط بأهل السنة، فهو يدفع إلى القول بأنّها تسمية لا تنطبق مع واقع ذلك الخط، لأنَّه قد وضع لنفسه رموزاً وقيادات فرطت في حفظ السنة النبوية، وكادت تسهم في ضياعها، لولا تصدي أئمة أهل البيت عليهم السلام لذلك الأمر، والسنة النبوية الصحيحة عندي وعند كلِّ عاقل، هي عند الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

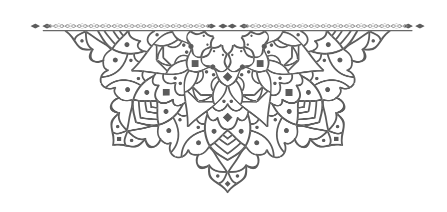
قلت: أنا على رأيك أيها الصديق العزيز، لقد فهمت الآن وتعرت أمامي خيوط المؤامرة الكبرى، التي استهدفت أهل البيت عليهم السلام، ولقد أقنعتني بكلِّ الحيثيات التي سقتها، والبراهين التي أشرت إليها، فلم يعد لدي شك في حقيقة ما وقع من تعدٍّ على قدسية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ودينه، من أجل

الاستيلاء على الحكم، وقد بينت لي أنَّ للدين سنناً وأحكاماً، لا يمكن أنْ تطالها أيدي الناس، فمسألة حفظ الدين ليست من مشمولاتهم، وهي وظيفة أنشأها البارئ تعالى بعد مرحلة النبوة، درءاً لإمكانية التحريف، ومنعاً لطابور النفاق من المساس به.

أنهى الصديق الشيعي حديثه، فرجوته أنْ نلتقي مرّة أُخرى، فرحب بذلك وتواعدنا، وجاء في موعده الذي حدده لي يحمل معه بعض الكتب، فقدمها لي على أساس الإعارة، فشكرته على ذلك، وتواصلت مواعيدنا وتوالت جلساتنا، وتنوعت الكتب التي كان يمدني بها، حتى استويت على قناعة أنَّ خط التشيع الإمامي الاثني عشري، هو الإسلام المحمدي عظماً وعصباً ولحماً وشحماً وعروقاً ودماً وروحاً، فأقررت بولاية عليٍّ عليه السلام، والأئمة من ذريته عليهم السلام، وبرئت إلى الله تعالى من الجبت والطاغوت، وكلِّ حكم لا تكون فيه الشريعة الإسلامية المصدر الأوحد للحكم في المجتمع الإسلامي.

الدافع الثاني والعشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

فوجئت بحقيقة الشيعة والتشيع .. فتشيعت



بشير... أخ في الله عرفته حديثاً، ورغم حداثة العهد تلك، فإنَّه قد أخذ مكاناً كبيراً في قلبي، لما لمسته منه من رفعة وعزّة ورجولة، ما لفت نظري في شخصه، أنَّه كان سريع المبادرة، كثير التفكر في أمر الله تعالى، قليل الاهتمام بالمسائل الدنيوية الزائلة، يهتم ويغتم إذا ضيع أمراً من دينه، ولا يأبه ولا يبالي إذا ضاع منه أمر من أُمور الدنيا، كان يحزن إلى حدِّ البكاء، إذا ضيع شيئاً في جنب الله تعالى، وكان يضحك إذا ضيع فرصة دنيوية، كان ممّا قربني له أنَّني سمعت بتشيعه لأهل البيت عليهم السلام، وقد حكى لي قصته، ولما عرضت لي الفكرة في جمع إفادات المستبصرين، دعوته ليدلي بشهادته، فجاء رغم بُعد المسافة، وكان حاضراً معنا في الجلسة، ولما جاء دوره قال:

لم يكن في حسابي أنْ أدرس التشيع في يوم من الأيام، ولا أنْ ألتفت إلى كنهه

ومعناه الحقيقيين، فقد قرأت عنه من الزاوية المذهبية، وتعرفت على وجهه المشوّه، والذي كنت معتقداً أنَّه وجهه الحقيقي، من خلال كتب مناهضة ومعادية له، ككتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين المصري، ومنهاج السنة لابن تيمية، وكتب أُخرى أفرزت إنتاجها، امتداد حركة القصاصين ووعاظ السلاطين من عبدة الدنيا، وجميع الأيدي القذرة، التي حرفت وشوهت كلَّ جميل في التراث الإسلامي، وهي لا تزال تعمل للحيلولة دون معرفة المسلمين لحقائق دينهم، وما يترتب عليها من فهم ووعي بالواقع المرير الذي عاشه أجدادهم، ويعيشون فيه هم أيضاً إلى الآن.

لم تتولد في نفسي همّة معرفة الشيعة، إلَّا بعد أنْ ألقت الصدفة في طريقي أحد أفرادها، لم يكن ذا أُصول شيعية، فهو قد تشيع بعد دراسة وتمحيص، استمر على ذلك فترة زمنية غير قصيرة، زيادة عن كونه من أهالي منطقة، عرفت باتباع المذهب المالكي لقرون متعاقبة.

الصدفة تمثلت في دعوتي لحضور حفل زفاف أحد الأصدقاء، وأثناء تواجدي في الحفل وجدت الرجل من بين المدعوين، لم أكن أعرفه معرفة جيدة، كلُّ ما عرفته عنه هو ما قيل فيه من إشاعات متعلقة بانتمائه، وبسبب ذلك كنت أتوقى الالتقاء به، والجلوس معه على الطاولة نفسها، كان ذلك صيف سنة ١٩٨٥م والحرب

المفروضة على إيران الإسلامية لا تزال مشتعلة، تناهى إلى مسامعي حديثه، فكنت أُرهف له آذاني دون أنْ ألتفت إليه، فأُشعره بأنَّني مهتم بكلامه، تكلم عن مظلومية الجمهورية الإسلامية في إيران، وعن الجناية التي اقترفها النظام البعثي المجرم في العراق، بحق المسلمين في إيران والعراق على حدٍّ سواء، وتساءل عن دور علماء الأُمَّة المغيب، ودعا إلى أنْ يتحمل جميع المسلمين مسؤوليتهم، في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ومقدساتهم، مذكراً أنَّ تكليف كلِّ مسلم منوط به، مستشهداً بقول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**كلُّ رجل من المسلمين على ثغرة من ثغر الإسلام الله الله لا يؤتى الإسلام من قبلك**»(٤٩)، ولم يستثنِ من هؤلاء إلَّا قلّة قليلة نطقت بكلمة الحق من بينهم الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله.

وجدت كلامه منطقياً، واستدلالاته نابعة من نصوص صحيحة وقناعة راسخة لديه، جعلته يتكلم بثقة تامة وعزّة نفس.

استدرت من مجلسي والتفت إليه، ثمّ خاطبته قائلاً: ألست شيعياً؟

قال: بلى. قلت: وهل الشيعة مسلمون حقاً؟ قال وقد ظهرت على ملامحه علامات الغضب: إذا لم يكن الإسلام عندهم وفيهم، فأين يمكن أنْ يوجد؟

قلت: وكلُّ هذه التهم التي تحاصر التشيع والشيعة، كالادّعاء بأنَّ جبريل قد

---

(٤٩): محمد بن نصر المروزي – السنّة ج١ ص ١٣.

أخطأ في تنزيل الرسالة، ودعوى تحريف القرآن، ودعوى تأسيس الفكر الشيعي على يد عبد الله بن سبأ اليهودي، ودعوى استباحة الشيعة للمحرمات، أليست كافية بأنْ تكون دليلاً على انحراف طائفتك؟

قال: وهل تعتقد أنَّ أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، يعتقدون بالذي ذكرت؟

قلت له: حاشا وكلا، أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم مبرؤون من ذلك، لكنَّ أتباعهم قد يكونون انحرفوا عن طريقهم.

فقال: طالما أنَّك قد برّأت أهل البيت عليهم السلام من تلك التهم الباطلة من أساسها، فاعلم أنَّ ما روج على الشيعة من أقاويل، ليس لها إثبات على أرض الواقع، هي مدعاة للسخرية والاستخفاف بمن أطلقها على الشيعة، وترك العلم واتباع الظن يؤدي دائماً بصاحبه إلى التفريط في الحقيقة والابتعاد عنها، وما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظنِّ إِنَّ بَعْضَ الظنِّ إِثْمٌ﴾[50].

ونصيحة البارئ تعالى هذه، جاءت لغلق الباب أمام عامل الظن، لأنَّه وسيلة

---

(٥٠): سورة الحجرات الآية ١٢.

واهمة لا توصل صاحبها إلى علم أبداً. أمّا ما تقوّل على الشيعة بشأن جبريل عليه السلام فلا أساس له من الصحة، وأُجزم لك بأنَّ مخترع تلك الدعاية المغرضة، لقيط من أبناء عواهر زمن انحطاط الأُمَّة، والمستأنس بذلك القول ليس له عقل يميز به، ولا فكر مستنير يسرح إليه، أمَّا دعوى تحريف القرآن، فقد قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام، في معرض حديثه عن الذين انحرفوا عن نهج أهل البيت عليهم السلام وعن طريقة تعاملهم مع القرآن.. «**وأقاموا حروفه، وحرفوا حدوده**». في إشارة إلى أنَّ غير أتباعه وشيعته، هم الذين حرفوا تفسير الكتاب العزيز، نزولاً عند إرادة ورغبة حكامهم وطواغيت عصورهم، وجميع الفرق الإسلامية نقلت روايات التحريف في القرآن، غير أنَّ علماء الشيعة كالشيخ الكليني أفردها في باب النوادر، تصغيراً لشأنها، بينما نقلها من تسموا بأصحاب الصحاح في أبواب الفقه دون تخصيص ولا إفراد، فلماذا ابتُلي الشيعة وحدهم بتهمة الاعتقاد بتحريف القرآن مع إجماعهم بامتناع حصول ذلك؟

كما أنَّ ابن سبأ على حسب الدعوى المطلقة، قد عاش زمن الإمام عليٍّ عليه السلام، وكان بحسب تلك الأقاويل من أتباعه والدعاة إلى إمامته وإمامة أبنائه، فلو كان موجوداً وجاء بمفتريات قد تسهم في تحريف الدين وتقويض أُسسه لشهر

به، وحذر منه، ولتبرأ من مفترياته، وسيرة عليٍّ عليه السلام في عدم الاعتماد على المشكوك في صدقيتهم ونزاهتهم، غير خافية على ذوي الأفهام، فهو عند تسلمه زمام الحكم بعد رجوع الناس إليه، قد عزل جميع الولاة الذين اعتمدهم عثمان، وقيل له أنْ لا يتعجل في عزل معاوية الطليق، فأبى ورد مستشهداً بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتخِذَ الْمُضِلِينَ عَضُدًا ﴾[51] فكيف يأنس والحال تلك بيهوديٍّ لا يعلم أصله من فصله؟

ومحيط عليٍّ عليه السلام أتباعاً وأعواناً وجيشاً، كلُّهم من العلماء وحفظة القرآن وزهاد القوم وخيرتهم، فكيف يستقيم الاعتقاد بأنْ يوجد مشبوه بينهم، أو أنْ يستطيع منافق أو عدو من أعداء الله أنْ يحوز مكاناً بين هؤلاء الأتقياء، على أنَّ عدداً من الباحثين والمحققين، قد انتهوا إلى أنَّ شخصية عبد الله بن سبأ، ليست إلَّا دعاية مغرضة صنعها الدهاء الأُموي، لينفّر الناس عن إسلام أهل البيت عليهم السلام، الإسلام الشيعي، وهي كشخصية حقيقية، مارست دورها وقامت بمهمتها على أحسن وجه، في التنقل بين الحجاز والعراق ومصر، لدعوة المسلمين إلى إمامة عليٍّ عليه السلام وولاية الأئمة من أهل بيته عليهم السلام، وكونهم الأحق والأَولى بتقلدها منذ البداية من غيرهم، لا يمكنها أنْ تعدو الصحابي الجليل

---

(٥١): سورة الكهف: ٥١.

عمار بن ياسر ذي الأُصول اليمنية، وكلّ ذي أصل يمني، يشترك في نسبته إلى سبأ، التي تعتبر رمز اليمن واليمنيين، وابن السوداء لقب عيره به بنو أُمية، وعلى رأسهم عثمان عند حفر الخندق، لأنَّ عماراً كان شديد السمرة، وكانت أُمُّه سمية، وأبوه ياسر رضوان الله تعالى عليهما أسودين، وباعتبار أنَّ عماراً قد قال له النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**يا عمار تقتلك الفئة الباغية**»(٥٢) اتجه أعداء التشيع إلى تشويه حقائقه بكلِّ طريقة.

قلت له: كلامك منطقي وتحليلك لا يستطيع منصف أنْ يتجاهله، إلَّا أنَّني أتساءل عن السبب الذي جعل الغالبية العظمى من المسلمين تتنكب عن نهجهم؟

قال: وهل لتلك الغالبية من المسلمين القدرة على غير ذلك الفعل، طالما أنَّها جعلت مقاليد دينها بين أيدي أعدائها من الطغاة والظلمة، واستمرت على ذلك دهراً طويلاً، وهي إلى اليوم تراوح في مشيها على الطريق نفسه، وبالوتيرة نفسها ولم تتعظ يوماً من بطلان مسلكها، ومنذ ظهور عليٍّ عليه السلام ووضوح مقامه، لم يجد هذا الرجل الفذ أتباعاً، غير المستضعفين من أمثال أبي ذر وعمار وسلمان والمقداد، ومقابل ذلك ظهرت أضغان النفاق والشرك، من خلال التحريض عليه والوشاية به، اعتقاداً من هؤلاء بإمكانية إسقاط عليٍّ عليه السلام، وزحزحته من قلب النبيِّ

(٥٢): البخاري ج٤ ص٢٥ / الترمذي ج٤ ص٥٠٩ ح٣٨٠٠ / مسند أحمد ج٣ ص٩١.

صلَّى الله عليه وآله وسلم، فلم يزد تكالبهم على الوقيعة بعليٍّ عليه السلام، إلَّا رسوخاً لمحبة أمير المؤمنين في كلِّ الأفئدة، التي رفضت الدنيا وباطلها وزيفها وبهرجها، وكلَّما خرج حبّ الدنيا من قلب مؤمن، تهافت عليه طلابها فأخرجوه من قلوبهم، لذلك لم يجتمع حبُّ عليٍّ عليه السلام، وحبُّ الدنيا في قلب مؤمن أبداً، وبقيت هذه المعادلة مقياساً صحيحاً، يعرف به المتجه إلى الله تعالى، من المتجه إلى الشيطان والدنيا.

قلت له: فماذا قدم الشيعة إذن للإسلام؟

قال: قدموا كلَّ خير، وأظهروا كلَّ جميل، وبينوا كلَّ لبس، وعاشوا بين الناس بأبدان قلوبها معلقة بالمحلِّ الأعلى، فخيرة الصحابة كانوا شيعة عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام، وخيرة التابعين هم أيضاً شيعة أهل البيت عليهم السلام، وفي كلِّ جيل من الأجيال الإسلامية، مثّل الشيعة نخبتهم وخيرتهم دون مبالغة، وبكلِّ تواضع أقول لك: إنَّنا إذا صنفنا وميزنا العلماء، لوجدنا علماء الشيعة هم أفضل العلماء، بدليل ما كتبوه للأُمَّة الإسلامية وللناس جميعاً، وإذا صنفنا عامة الناس وجدنا عامة الشيعة هم أفضل عامة، لقول الأئمة عليهم السلام: «**ليس من شيعتنا من يوجد في مصر ويوجد من هو أتقى منه**». وكان حثهم لأتباعهم للعمل الصالح، وتطبيق أحكام الله تعالى من أَولى أولوياتهم، فقالوا: «**كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم**».

حتى الشعراء فإنَّك إذا وردت دواوينهم، وجدت أنَّ أفضلهم شيعة أهل البيت عليهم السلام، وبصراحة فإنَّني لا أرى طيباً ولا جميلاً إلَّا وهو شيعي.

قلت له: أراك تبالغ في تفضيل وتقديم الشيعة.

قال: أنا أنقل لك الحقيقة بغير طلاء ولا زينة، الحقيقة التي ظلت مغيبة عنا على مدى قرون طويلة، تلك التي أُبعدنا عنها بالكذب تارة، وبالدعاية الباطلة تارة أُخرى، وبالترهيب والإبادة كلّما ظهر جبار أو طاغية على الأُمَّة.

لذلك فإنَّني أتمنى على كلِّ مسلم أنْ لا يطمئن إلى كلِّ ما يلقى إليه، فليشكك في كلِّ شيء، ليتخلص من موروثاته التي علق بها كثير من البهتان، ثمَّ ليبدأ البحث عن الحقيقة، خالياً من التبعات، وأنا متأكد من أنَّه سيدرك الحقيقة من دون عناء.

قلت له: وهل النُخب التي تحدثت عنها من الشيعة، مخصوصة بالعصور الفارطة، أم تشمل العصر الحديث؟

قال: التشيع يا أخي متصل الحلقات، ومترابط الأجيال، فلم يخلُ منه مكان ولا زمان، أنا لا أدعوك فقط إلى متابعة النهضة المباركة للجمهورية الإسلامية في إيران، ولا إلى التفات إلى تلك الثلة المؤمنة في لبنان، المسماة بحزب الله، وعلى ذكر هذه التسمية، فهي موجودة في القرآن الكريم واضحة وجلية، لكلِّ عين منذ أنْ نزل

بها الوحي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٥٣].

ومع ذلك فإنَّه لم يتسمَّ بها أحد من طلائع المسلمين، منذ أنْ بدأ النضال والجهاد في سبيل الله، كأنَّ بها طلسماً، وجاء شيعة أهل البيت عليهم السلام فأسسوا بها حزباً، قارع الصهاينة الأوغاد، وانتصروا عليهم رغم قلة العدة والعدد، وكانت وسائل الإعلام التابعة لقوى الاستكبار العالمي، تتكتم على عمليات حزب الله، وعند الإعلان عن كلِّ عملية، ينسبون ذلك إلى المقاومة الوطنية اللبنانية، إلى أنْ تمَّ النصر باندحار الصهاينة، عندها ظهرت الأعلام الصفراء على كامل الحدود اللبنانية، ووصل المنتسبون إلى حزب الله بأعلامهم إلى السياج الحديدي الفاصل، وهم يعلمون جيداً أنَّ القوة الصهيونية على الجانب الآخر، قد تطلق عليهم النار، لكنَّهم لم يأبهوا لذلك الأمر، ممّا زاد في رعب بني صهيون.

وجاء انتصار تموز ٢٠٠٦م، ليغير معادلة الجيش الصهيوني الذي لا يقهر، ويحقق النصر عليه ويدحره من الجنوب اللبناني، ويرجم قراه ومدنه بمئات الصواريخ، التي أربكت وأرعبت الكيان الغاصب، وانتهت به إلى الإذعان إلى مشيئة حزب الله اللبناني.

---

(٥٣): سورة المائدة الآية ٥٦.

أدعوك كما ذكرت آنفاً إلى تحكيم قلبك، بعد الأدلة النظرية من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية، إلى التأمل في هاتين التجربتين، في زمن إذا لم نتكاتف معها، فقد لا تتكرر تجربة أُخرى، وقد يبتعد الأمل في تحقيق الوعد الإلهي: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(٥٤).

انتهى الحديث مع ذلك الشيعي، نظراً لأنَّ المكان لا يسمح بأكثر من ذلك، فقد جئنا جميعاً لحضور حفل زفاف أحد الأصدقاء، وعلينا أنْ نلتفت إليه ونهتم به، وتغيرت منذ تلك المناسبة السعيدة على أهلها وعليَّ، بتعرفي على شخص، استطاع بمنطقه ولباقته ومعرفته، أنْ يهديني إلى اتباع الصراط المستقيم، الذي تاه عنه كثير من الناس، ممّن يمتلكون أسباب المعرفة، ووسائل البحث والوصول إلى الحقيقة، ولم نفترق من ذلك الحفل إلّا بعد أنْ وعدني بأنْ يمدّني بكتاب تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام، لأتأكد من مصداقية القيمة التي ذكرها، عن العناصر التي شايعت علياً والأئمة من ذريته عليهم السلام، فكان كتاباً شاهداً على تلك الفئة المباركة، التي لعبت دوراً رئيساً في حفظ الدين، وإحياء أحكامه وسننه، وتطوير مناهجه وعلومه، ممّا أتاح لي أنْ أنزع غشاوة التضليل، وأُلقي بتبعات التمذهب الموروث عن الآباء، إنْ كان الآباء حقيقة على تلك المذاهب المفروضة على الناس

(٥٤): سورة القصص الآية ٥.

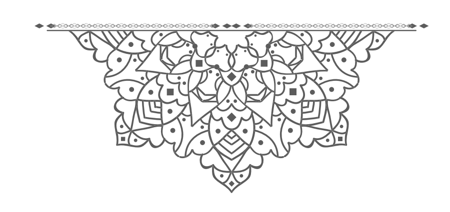
في الزمن الغابر، وأيقنت أنَّ الإسلام المحمّدي والدين الحق، لا يمكنه أنْ يكون في غير أهل البيت عليهم السلام، فآمنت به واتبعت طريقتهم، وسلكت منهاجهم، كما قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾(٥٥).

(٥٥): سورة الأنعام الآية ٩٠.

الدافع الثالث والعشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

مناهضة الشيعة للظالمين على مرِّ التاريخ

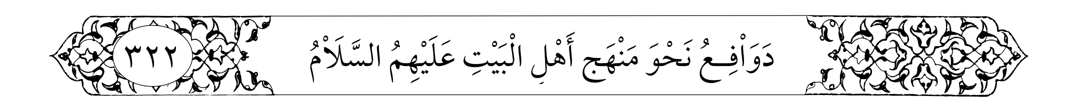
هي التي شيعتني



استهواه الأدب بشتى أصنافه، وعلى وجه الخصوص الآداب العربية والتاريخ الإسلامي، ودفعه شغفه بالشعر إلى توق التخصص في الآداب العربية، فوقع اختياره على كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ليواصل فيها دراسته العليا، إنَّه نور الدين... شاب عرف بدماثة أخلاقه ورفعة شخصيته، منذ أنْ كان صبياً يافعاً، وتطلعت روحه إلى الخير، شيمة درج عليها حتى استوى عوده، وقويت بنيته، ورشد عقله. لم أجد فيه مذ عرفته سوءاً يعرفه به غيره من أقرانه، ولا وقفت له على غميزة يستحق بها التجنب والمباعدة، فقلت في نفسي كما قالت ابنة شعيب لوالدها: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾(٥٦).

---

(٥٦): سورة القصص الآية ٢٦.



اتخذته أخاً وصديقاً، فكان نعم الأخ والصديق.

هو خير عنصر أستأمنه على ما يختلج في صدري، كان لما أبثه له محل جدارة واستحقاق، لطيب عنصره، وصفاء روحه، فلم أجد لديه ما يعكر حديثي، ولا ظهر لي من تقاسيم وجهه ما ينبئ بعدم تقبل مقالتي، وأنا أدعوه إليها، وكان تجاوبه مع حديثي، وانسجامه مع كلامي، يدلان على أنَّ عامل الوراثة الذي اتبعه أغلب المسلمين، ليس له تأثير على ذوي الأنفس المطمئنة، ولا على ذوي العقول المنفتحة على هذا العالم الرحب بعلومه المتنوعة، ممّا سيعطي للحق صولة، تنكشف فيها أساسات الباطل فينسفه نسفاً، ويعود دين خاتم الأنبياء صلَّى الله عليه وآله وسلَّم محمّديَّ المولد كما بدأ، علويَّ البناء مثلما استرعي، ومهدويَّ الدولة والنظام الإسلامي المنشود، في بسط العدل وإنهاء الظلم، وتجديد معالم الدين الخاتم، ليكون وحده وجهة البشرية جمعاء.

دعوته إلى جلستنا، ليقول كلمة حول الظروف التي أحاطت بانتقاله من المذهب الذي كان عليه، وهو المذهب السني المالكي، إلى إسلام أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقال: قبل أنْ ألتزم بالدين الإسلامي الحنيف، كنت متحمساً للثورة على الظلم والظالمين، كارهاً لكلِّ عناوين الاستعلاء التي تعتري الحكام، فتنحرف بهم عن الجادة، ويكونون عناصر ضيق وكبت واستنزاف باطل

لقدرات شعوبهم، وقد ساعدني في ذلك نشوئي في وسطٍ عائليٍّ مستقيم، يعتمد على مبادئ رافضة لكلِّ أشكال الظلم، ومعاصرتي لجيل كان يلتمس روحاً مناهضة الظالمين من مبادئ غريبة عنه، نظراً لحالة الغربة عن دينه الإسلامي التي كان يعيشها، والتي فرضت عليه اتباع المنهج الثوري خارج الإطار الإسلامي، كأنَّما الإسلام لا يحتمل ذلك، أو أنَّه خالٍ منه تماماً، فكانت الماركسية هي الفكر الذي رأيت فيه الوسيلة الوحيدة، التي تسمح بمناوئة الظلم، والوقوف في وجه الظالمين، أمام غياب البديل الإسلامي، وخلو الساحة منه.

لم أكن أتصور في ذلك الوقت، أنَّ الإسلام يحتوي بدائل ونماذج، يمكنها أنْ تكون خير مثال يؤخذ، في إطار الصراع بين الحق والباطل، وبين العدل والظلم، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين الخير والشر، وخط الرحمن وخط الشيطان.

بل لقد كنت معتقداً آنذاك، من خلال ملاحظاتي الخاصة، أنَّ الدين يمثل الرجعية والتواطؤ والتبعية للظلم، بحسب ما هو واقع من تعاملات أولئك الذين تجلببوا برداء الدين، وانخرطوا في مسار ولاء الطغاة، تطبيقاً لسياسة صنعها فقهاء البلاط، ومرروها إلى الأجيال الإسلامية، فسارت على هديها، وهي تعتقد أنَّها أمر إلهي.

ولم يتغير موقفي من عمالة الدين وخدمته للظالمين، إلى محاربته لجميع أنواع

الظلم، إلَّا بعد أنْ انتصرت الثورة الإسلامية في إيران، والتقيت في تلك الفترة بهذا الأخ العزيز، الذي دعاني إلى هذه الجلسة، لأروي لكم كيفية انتمائي لخط أهل البيت عليهم السلام.

كانت دار الاتحاد العام التونسي للشغل، قريبة جداً من بيت العائلة، وكنت عند كلِّ مناسبة أو تظاهرة أو اعتصام يقام هناك، موجوداً للاطلاع عن مجريات العمل النقابي، والمستجدات على الساحة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد، فدار الاتحاد كالمخبر، الذي تكتشف فيه أعراض السقم وأعراض الصحة، في المجتمع والدولة والبلاد.

التقيت به في احتفال بعيد العمال العالمي، دأب على تنظيمه الاتحاد العام التونسي للشغل، شأنه في ذلك شأن كلِّ اتحادات العمال في العالم، وكنت أعرفه من قبل، من خلال الجيرة الطويلة التي ربطت عائلتي بعائلته، قبل أنْ تفرق الظروف الحياتية بيننا، سررت بلقائه من جديد بسبب موقفه مني، فهو لم يقطعني لصلتي الوثيقة بالماركسيين، وتعاملي معهم على المستويين الفكري والتنظيمي، كان يعتبر ذلك من حقي كفرد، في أنْ أُمارس بحرية ما يقرره عقلي، وتستخلصه قناعتي، ويعتقده ضميري من فكر.

كان يعرف جيداً مدى تديّن عائلتي، وحرصها الشديد على تنشئة أبنائها وفق

تعاليم الدين الإسلامي اعتقاداً وسلوكاً، ولم يكن شذوذي عن تلك التربية، مروقاً عن القيم والمقدسات، لأنَّني بقيت محتفظاً بتلك الأُسس في أعماق نفسي، وإنَّ الذي حاد بي طريق خالقي، ليس إلَّا اختلاقات البشر وتحريفاتهم، حتى إنجازات الثورة الإسلامية في إيران، لم تتمكن من الوصول إلى أدعياء الفكر التحديثي (اليسار الماركسي والقومي) إلَّا مشوشة ومشوهة، بما كانت تلفقه عنها قوى الاستكبار العالمي، ومثلث الشرّ الحقيقي أمريكا وبريطانيا والكيان الصهيوني، ووسائل إعلامها المتصهينة.

كانت الهجمة على الإسلام الثوري شرسة إلى أبعد حدٍّ، فبعد سقوط إمبراطورية الشاهنشاه في إيران، على يدي الشعب الإيراني المسلم، بقيادة الإمام روح الله الموسوي الخميني رضوان الله تعالى عليه، وانكسار شوكة الولايات المتحدة الأمريكية فيها، على أيدي ثلة مؤمنة من طلبة الجامعة في إيران، باقتحام وكر الجاسوسية في تلك المنطقة، والاستيلاء على وثائق عديدة، أثبتت تورط أمريكا في عديد من الأعمال الإجرامية في إيران وما حولها، لم يكن هناك من بُدٍّ بالنسبة لأعداء الإسلام غير تجنيد كلِّ الطاقات والإمكانات، وتوحيد كلِّ القوى المعادية للدين القيم، من أجل إفشال الدعوة التي أطلقها الإمام الخميني قدس سره الشريف، من أجل استنهاض الشعوب المستضعفة لنيل حقوقها المهدورة، والقفز

على مؤامرات القوى الاستكبارية، من أجل نهب خيراته، وجعلها مجرد سوق استهلاكية لتلك القوى الباغية.

رحبت برفيق صباي وشبابي، وبعد تبادل قبلات الودِّ واستحضار بعض الذكريات، بادرني بالسؤال: هل ما زلت ماركسيا يا نور الدين؟

فقلت له: نعم لا زلت كذلك، إلَّا أنَّني بدأت أشك في مدى عملية هذا الفكر وفاعليته وجدواه، خاصة ونحن على أبواب تحولات عميقة، بدأ فيها معتنقوه يسلكون طريق التخلص منه، فالاتحاد السوفييتي حاله اليوم ينبئ بذلك، والصين الشعبية لم تعد مثلما تركها ماو تسي تونغ لا من حيث سياساتها الخارجية ولا الداخلية، وغداً قد يأتي بما لم يكن في حسبان أحد.

فقال: إنَّني لا ألومك على موقفك من الدين، فقد وجدت أمامك من يحول دونك وبلوغ مصافه، لكنَّني اليوم أعرض عليك هذا الإسلام الذي بقي غائباً علينا لعدة قرون...

فقاطعته قائلاً: أتقصد الإسلام الشيعي الذي يعتنقه الإيرانيون وحزب الله؟

قال: نعم ذلك ما أقصده، وأنت تعرف جيداً أنَّني كنت تابعاً لمدرسة الخلافة، تلك المدرسة التي باعدت بينك وبين التدين بفصل الدين عن السياسة والحياة،

حسب معتقدات المذاهب التي تتسمى بالسنية، وهي مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل الذين أقروا جميعاً بوجوب الصبر عند جور الحاكم، والبقاء على الولاء له، وقد نقل ذلك الشيخ أبو زهرة المصري في كتابه المذاهب الإسلامية، استناداً إلى الأحاديث التي نسبت للنبيِّ كذباً وافتراءً عليه، منها ما أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم): (من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية، ولا ينزعن يداً من طاعة)[٥٧].

وقد مثلت مواقف عبد الله بن عمر بن الخطاب (رمز التسنن من حيث الموقف، وراويتهم العدل من حيث الشخص) عندما انتفضت المدينة، بعد أنْ تناهى إلى أهلها خبر استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وذريته وشيعته في كربلاء، وسبي بنات النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، على أيدي الطلقاء عليهم لعنة الله والملائكة والمؤمنين، فوقف هذا الأخير في وجه مواليه مهدداً ومتوعداً، تقول الرواية التي أخرجها البخاري ومسلم أيضاً:

لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: إنِّي سمعت النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: ينصب لكلِّ غادر لواء يوم القيامة، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنِّي لا أعلم غدراً أعظم من أنْ

---

(٥٧): مسند أحمد ج٢ ص ٢٤ـ ٢٨ / مسلم ح١٨٥٦ .

يبايع رجل على بيع الله ورسوله، ثمّ ينصب له القتال، وإنِّي لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلَّا كانت الفيصل بيني وبينه.

وتحرك مسرعاً في موقفه الثاني إلى والي المدينة، ليعلن براءته من ثورة أهل المدينة، وبقاءه على طاعة يزيد لعنه الله، تقول الرواية التي أخرجها مسلم:

جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع (وكان والياً ليزيد على المدينة) حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية، فقال اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال إنِّي لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً، سمعت النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية(٥٨).

أمَّا الموقف الثالث فهو أفظع وأدهى، فقد جاء إلى الحجاج مهرولاً، بعد أنْ رأى ما صنع بعبد الله بن الزبير، وطلب تجديد البيعة فأراد الحجاج الإمعان في إذلاله، وكان منشغلاً في الأكل، فمدَّ إليه رجله وقال: بايع هذه فإنَّ يديَّ مشغولتان، وبايع ابن عمر الحجاج من رجله.

وقد التصقت سمة الخنوع والخضوع والطاعة للظالمين، بحيث لم تفارق ذلك

---

(٥٨): صحيح مسلم ح ١٨٤٧ / مسند أحمد ج٢ ص٢٩٦.

الخط أبداً إلَّا في العصر الحديث وبنسبة قليلة، بسبب المؤثرات الخارجة عن ذلك الخط، والتي منها انفتاح البعض على الآراء والأفكار الأُخرى التي تنتمي أيضاً للإسلام، وملاحظة نجاح التجربة الإسلامية للنهضة الإسلامية في إيران ثورة ودولة.

ومقابل خط العمالة والخضوع للظلم، بذل أتباع أهل البيت عليهم السلام، من أجل الإبقاء على الإسلام، حياً ومعطاءً وفاعلاً في الأُمَّة الإسلامية أرواح خيرة الأجيال، ونخب الأتباع، وخلص الشيعة، من أمثال رشيد الهجري، وميثم التمار، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وجويرية بن مسهر العبدي، وسعيد بن جبير، وحجر بن عدي الكندي، غيرهم ممّا لا يسعني استحضارهم وذكر أسمائهم، لأنَّهم يعدّون بالآلاف قلت له: وهل تشيعت أنت؟

قال: نعم لقد تشيعت عن دراسة معمقة، خرجت على إثرها متيقناً أنَّ الإسلام الأصيل، هو الذي ذهب إليه المسلمون الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، نسبة إلى أئمتهم الاثني عشر.

قلت له: فما الفارق بين الإسلامين؟

قال: الجانب الثوري الذي كنت تفتقده في خط الإسلام السني، الذي والى

أنظمة الظلم والجور، التي حكمت الشعوب الإسلامية، تطبيقاً لروايات موضوعة. قلت: بين لي ذلك؟

قال: منذ أنْ فارق النبيُّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الدنيا، وشيعة أهل البيت عليهم السلام في صراع مرير، من أجل غرس الفكر الذي ورثوه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بخصوص الدين الإسلامي، ذلك العمل العظيم كان له دور أساسي في بقاء جوهر الإسلام المحمدي نقياً وصحيحاً، بحيث لم يتطرق إليه شيء من اختلاقات البشر، فلم يفصلوا الدين عن السياسة، كما فصلها الخط السني، وهم يعتبرون استناداً إلى أقوال النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الصحيحة، أنَّ الدين جاء من أجل صلاح الدنيا والآخرة، وقيادة البشرية جمعاء في مسيرتها إلى الله تعالى، نحو نظام الحكم الإلهي والمجتمع المسلم المثالي، والبديل عن النظم الوضعية كافة التي تفتقد روح التواصل المتين مع الله، والمصداقية بين البشر، ولو نظر الباحث المنصف في مجموع أحكام الإسلام، لرآها تناولت جميع متعلقات ومتطلبات البشر، بدءاً من أبسط المسائل كآداب التخلي، إلى أعقدها فيما يتعلق بالمواريث والعقود والمعاملات، وهذه الأخيرة مثلت في حجمها أكثر التشريع الإسلامي.

وباعتبار أنَّ الأحكام المشار إليها، تحتاج إلى أداة تسهر عليها، وتنشرها بين

الناس بأمانة، وتنفذها تنفيذاً صحيحاً، تظهر ثماره على المجتمع ليتحقق العدل الإلهي فيما بين البشر، ويأمن الناس تحت ظل تلك الحكومة الإلهية، جاء الأمر الإلهي للنبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، بتعيين عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، إماماً يهتدي المسلمون بتطبيقاته وعلومه، وحاكماً مؤهلاً ليشغل الفراغ الذي سيخلفه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

لكنَّ التحريفيين الذين كانت أطماعهم في السلطة غير خافية، بحيث دخل منهم إلى الدين من دخل، وهو يرجو نيل حظوة وغنم منصب، في أعلى قمة التسيير، وتطاول منهم من تطاول على مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وليعتقد الجاهل والأحمق أنَّ مقام ذلك المتطاول، لا يقل قيمة عن مقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فيكون قد هيأ فرصة للاستيلاء على الحكم بعد وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلّم، مع من رفض التعيين الإلهي للإمام عليٍّ عليه السلام.

وتمّ أمر الحكم للانقلابيين، وضيق على عليٍّ عليه السلام، ومع مرور الزمن تحولت أحقية أهل البيت عليهم السلام وقدسيتهم، إلى نكارة وجهالة تعامل بها حياهم أغلب الأُمَّة، نتيجة سياسات التجهيل والقمع، التي مارسها المتسلطون على الحكم والأُمَّة، وتحولت منزلة الطاهرين من ذلك المقام المرموق، الذي كان على عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، إلى موضع التهمة ومبرر التنكيل والقتل،

وتحول نظام الحكم الذي سلط على رقاب المسلمين، من تلك الحالة الانقلابية الشاذة، إلى ملك غاشم لا يفرق بين حق وباطل، وعوض الحكومة الإلهية الراشدة، مُني المسلمون بنظام حكم جاهلي، لم يراع أبسط الحقوق لأفراد المجتمع، وتحول أهل البيت عليهم السلام، عندما رأوا أنَّ الدين وتشريعاته أصبحا في خطر، إلى المعارضة الفاعلة في أوساط الأُمَّة، فخرج الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام في هجرته العظيمة من المدينة إلى مكة، ثمّ بعد ذلك إلى الكوفة، ليعيد الحكومة الهادية بأمر ربِّها إلى أصحابها الشرعيين، ليضرب للمسلمين وللناس جميعاً مثلاً في الفداء والتضحية من أجل المبدأ، وكانت مواجهته لقوى البغي والظلم من نتاج مؤامرة السقيفة، درساً لن ينسى لكلِّ الأحرار في العالم من أجل الثبات على الموقف والمبدأ، لأنَّ الحياة إذا لم يكن فيها موقف ومبدأ، فهي إلى الحيوانية أقرب منها للإنسانية.

أسس سيد شباب أهل الجنة عليه السلام مدرسة الشهادة، وجامعة الثورة في يوم عاشوراء، وكانت كربلاء موضع حجر الأساس لنهضات وثورات تتابعت، تأسياً بريحانة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، واقتفاءً لأثر نهضته المباركة، وكان للأئمة من أولاده عليهم السلام الدور البارز في قيادة تلك الثورات، فعلموا أتباعهم وشيعتهم أحكام الإسلام وعلومه الصحيحة، ونظموا صفوف الطلائع

المؤمنة، ونشروا روح خدمة الإسلام وفدائه بكلِّ غالٍ ونفيس، فاندلعت ثورات عديدة، أسقطت طلقاء بني أُمية، وفرقت جمعهم إلى غير رجعة، لكنَّ الأُمَّة عادت فكررت التقصير نفسه، وأخلّت بواجبها في التقيد بالإسلام، وموالاة أئمة أهل البيت عليهم السلام، فاستولى بنو العباس على الحكم باستغلال شعار طلب الرضا لآل محمد، الذي كان شعار العلويين في جميع نهضاتهم، ولم تمر فترة وجيزة، حتى أعادوا الظلم إلى موقعه على صدر الأُمَّة الإسلامية، وبقي أهل البيت عليهم السلام في موقع المعارضة نفسه، والدور نفسه في التعليم والإرشاد، والدعم الروحي والمادي، وتنظيم كوادر العمل الإسلامي، التي كانت تتخرج من مجالسهم كلَّ عصر، فتوالت الثورات ضدَّ الظلم والظالمين، وكانت أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام في تحريم اتباع الظالمين أو إعانتهم، أدلة مسجلة في تراثهم الخالد، من ذلك قول الإمام عليٍّ عليه السلام: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**». وقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من أرضى سلطاناً جائراً بسخط الله خرج من دين الله**». وغير ذلك من الروايات التي تحرم طاعة الظالمين، وبناءً على ذلك أفتى علماء الشيعة بأنَّ أيَّ عمل يقوم به المكلف، وفيه شكل من أشكال المعونة للظالم فهو حرام، ويعدُّ كبيرة من الكبائر.

وقصة صفوان الجمال شاهد على ذلك، تقول الرواية:

كان في عهد الرشيد رجل من الشيعة يدعى صفوان، وكانت له جمال يكريها لهارون العباسي، حين يذهب إلى مكة للحج، فدخل يوماً على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فقال له: «**يا صفوان كلُّ شيء منك حسن جميل، ما خلا شيئاً واحداً**»، قال: جعلت فداك أيُّ شيء؟ قال: «**كراء جمالك من هارون**»، قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للهو، ولكنْ أكريته لطريق مكة، ولا أتولاه بنفسي، ولكنْ أبعث غلماني، فقال: «**يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟**» قال: نعم، جعلت فداك، قال: «**أتحب بقاؤهم حتى يخرج كراؤك؟**» قال: نعم، قال: «**فمن أحبَّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فهو في النار**». فذهب صفوان وباع جماله عن آخرها. فبلغ ذلك الرشيد، فدعاه وقال له: يا صفوان بلغني أنَّك بعت جمالك، قال: نعم، قال: ولِمَ؟ قال: أنا شيخ، والغلمان لا يفون بالأعمال. قال: هيهات هيهات، إنِّي لأعلم من أشار عليك بذلك، أشار عليك موسى بن جعفر، قال: ما لي ولموسى بن جعفر؟ قال: دع عنك هذا، والله لولا حسن صحبتك لقتلتك.

ومن أجل إضفاء الشرعية على أنظمتهم، سعى ملوك بني العباس إلى استمالة أئمة أهل البيت عليهم السلام، بعد أن استطاعوا استمالة أغلب الفقهاء والرواة والحفاظ، وكانت للمنصور الدوانيقي محاولة فاشلة مع الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فقد وجه إليه رسولاً ومعه رقعة كتب فيها: لم لا تغشانا كما

يغشانا الناس؟ فرد عليه أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**ليس لنا من الدنيا ما نخافكم عليه، وليس لكم من الآخرة ما نرجوكم منه، ولستم في نعمة فنهنيكم، ولستم في نقمة فنعزيكم، فلم نغشاكم؟**» فردَّ عليه الدوانيقي: تصحبنا لتنصحنا. فرد الإمام الصادق عليه السلام: «**من كان يريد الدنيا لا ينصحكم، ومن كان يريد الآخرة فلا يصحبكم**».

وكلفت كلُّ تلك المواقف أئمة أهل البيت عليهم السلام، مزيداً من التضييق والسجن ودسِّ السم لهم وقتلهم، من طرف المتسلطين على الأُمَّة، فلم يمنعهم ذلك من المضي قدماً في مواقفهم، التي كانت تمثل التطبيق الصحيح للدين، الذي جاء به جدّهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

وسمة الثورة والاستماتة على الحق التي ميزت خط الإسلام الشيعي الإمامي الاثني عشري، جعلت أعناق الأحرار والتواقين إلى العزة تلتفت إليه وتتجه نحوه.

وأنت ترى اليوم أنَّ الفكر الماركسي، والثورة البلشفية التي تمخضت عنه، لم تستطع أنْ تقدم شيئاً يذكر من مساواة وعدل وأمن، لمعتنقي ذلك الفكر فضلاً عن البشرية جمعاء، إضافة إلى تعلقها بكلِّ ما هو مادي ومحسوس، وإنكارها ما وراء ذلك، فهم لا يعترفون بوجود خالق هذا الكون، ولا بحياة ما بعد الموت، وهو في نظري فكر سطحي يائس، لا يستند على مقالة صحيحة في هذا الخصوص، وأنت

تدرك أكثر مني بأنَّ المعلول لا بُدَّ له من علة، والسبب من مسبب... فقاطعته قائلاً: أنا مؤمن بوجود خالق لهذا الكون، لقد دخلت مع الماركسيين لسبب واحد، وهو ثورية فكرهم، ووجاهة برنامجهم الاقتصادي، في إرساء نظام عادل في توزيع للثروات، أنا لم ولن أتبنى نظرياتهم الاجتماعية، ولا رأيهم في الوجود ككل.

قال: إذن عليك أنْ تراجع حساباتك بخصوص الإسلام والتاريخ الإسلامي، لتتعرف على نقاط الخلل، التي باعدت بينك وبين هذا الفكر العظيم، الذي طرحه أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قلت له: فهل عندك ما يمكنني من ذلك؟

قال: نعم وسترافقني بعد مغادرتنا دار الاتحاد إلى البيت، لتسلم على العائلة، وأُقدم لك ما يمكن أن ينفعك فيما ذكرت لك.

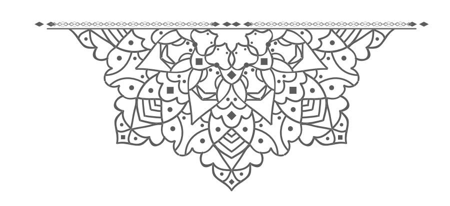
بعد انتهاء الاحتفال، توجهنا جميعاً إلى بيت هذا الأخ الكريم، ورحب بي أفراد عائلته، وسألوني عن عائلتي كيف حالهم؟ وإلى أين صاروا؟ وبعد أداء واجب السلام أخذني إلى مكتبته، واختار لي بعض الكتب التاريخية، التي تناولت الحركات الثورية، في العصرين الأُموي والعباسي، مع كتاب الشهيد مرتضى مطهري المجتمع والتاريخ، ودوافع نحو المادية، وكتاب الاستحمار للشهيد علي شريعتي، فأخذتها

منه والتزمت بقراءتها سريعاً، وهو ما تم فعلاً، وعلى إثر ذلك اقتنعت بأنَّ الماركسية لا تمثل المنهج الثوري الصحيح، وهي في أبعادها لا تتجاوز حركة عمر الإنسان ومسيرته في الحياة الدنيا، بينما يمثل الإسلام الذي يرفض الظلم، ويعتبره خروجاً عن جوهر الدين، ومقارعة الظالمين عبادة كبرى عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، هو الإسلام الصحيح الذي جاء به النبيُّ الخاتم صلَّى الله عليه وآله وسلم، فغيرت وجهتي إليه، واقتنعت به وسلكت طريقه، وأعلنت ذلك لصديقي فحمد الله على نعمة هدايتي، واستحثني على مزيد البحث والمطالعة، حتى تترسخ الفكرة في عقلي، وتستوثق في وجداني، وبقي يتابعني في تلك المرحلة، ولم يتركني إلَّا بعد أن استوفيت حلَّ كلِّ الشبهات، التي ألقاها الظلمة على دوحة أهل البيت عليهم السلام، ليشوهوا مظهرها البديع.

الدافع الرابع والعشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

اتصال الاجتهاد وبقاء بابه مفتوحاً عند الشيعة

هو الذي شيعني



عليّ... هو واحد من شباب هذه الأُمَّة المنكوبة، فتح عينيه منذ أنْ بدأ يعي على جملة من الحقائق، دفعت به إلى أنْ يكون ملتزماً بأوامر خالقه ونواهيه، فلم يستهوِه شيء من حطام الدنيا، وكان جلُّ همِّه منصباً في ناحية واحدة، هي العمل من أجل إرضاء الخالق ونيل محبته.

عرفته في مسجد الزمزمية بمدينة قابس، مواظباً على صلواته فيه، وخصوصاً صلاة الصبح التي لم يكن يثنيه عارض، ولا يمنعه طارئ عن حضورها، ونيل ثواب أدائها جماعة، أكبرته منذ أنْ تعرفت عليه، ولم يمض يوم إلَّا وقد ازداد في نفسي تميزاً وقرباً واحتراماً، لذلك كنت أُبادر بتحيته والسلام عليه، قبل أنْ يسبقني إلى ذلك، بعد ذلك تحدث عليّ... عن سبب انتقاله من مذهب المالكية، إلى خط

التشيع الإمامي الاثني عشري، فقال: عشت وسط مجتمع مالكي المذهب، أنتسب إليه في عموم قطاعاته وراثياً، لذلك لم ينشأ بينه وبين ذلك المذهب رباط متين، يؤهل إلى انتقال تلك العلاقة من إطارها السلبي إلى إطار أكثر إيجابية، وككلِّ الذين دخلوا إلى الدين من بوابة الموروث الأعمى، لم أسعَ إلى معرفة حقيقة الخالق، ولا اتجهت إلى التعرف على أبجديات التوحيد اللازمة، كي تصحَّ عباداتي، وتكون موجهة إلى من له الفضل في خلقي ونشأتي، ولا التفت إلى مختلف أبواب الفقه، لتكون عباداتي صحيحة ومقبولة، وفق الأحكام المدرجة بتلك الكتب، كلُّ ما في الأمر أنَّني استجبت إلى نداء والدي، وانصعت لأمره، فصليت خلفه، وصمت معه.. هكذا كانت بداياتي وبدايات أكثر المسلمين، أمَّا جذوري فلا أعتقد أنَّها مالكية، لأنَّني استفسرت نفسي واستفتيتها، فلم أجد فيها أيَّ تعاطف أو ميل نحو ذلك المذهب، وأراه في عقلي ووجداني أضيق من أنْ يتسع للإسلام العظيم، ولا هو في مستوى يؤهله ليحمل تحت اسمه، تفاصيل الإسلام المحمَّدي الأصيل، الذي جاء ليكون خاتم الرسالات، وخلاصة الدساتير الربانية.

أُولى الملاحظات التي تراءت لي وأنا في بداية خطواتي العبادية، هي تذبذب الناس، وعدم فهمهم لأحكام السهو والشك في الصلاة، ووقفت على الخلل الذي أُشيع في المصلين من أتباع مالك، بإحداث السجود القبلي، اقتداءً بإمامهم الذي

أَسس لتلك البدعة، وجعل منها حلاً لتصحيح الصلاة، والحال أَنَّه يعدُّ زيادة في عدد السجدات، ممّا يرجح بطلان الصلاة بتلك الزيادة.

وتساءلت عن السبب الذي جعل الأُمَّة تعجز عن القفز فوق عقبة المذاهب، وتتصاغر عن ولادة فقهاء يضاهون الفقهاء القدامى، أو يفوقونهم علماً وعملاً، حتى أيقنت بعقر هذه الطوائف.

وما الذي أوقف الاجتهاد وحصره في عدد من المذاهب، دون غيرها ممّن كانت تعجُّ بهم الساحة الإسلامية، واستمر العمل بمقتضى أحكامها هذا الزمن الطويل، رغم ثبوت ترك أصحابها العمل بقسم من أحكامها مع تقدم الزمن، وثبوت خلاف الحكم المصرح به؟

وهل كانت تلك المذاهب في محتواها مستجيبة لحاجات أتباعها؟ ولماذا أصبح اتباعهم لها إلزامياً، بحيث لو أصدر أحد علمائهم فتوى في مسألة مستحدثة أفتى تبعاً لذلك المذهب، ولم يستقل بفتواه؟

لقد مثل تعطيل الاجتهاد، وسدُّ بابه بالنسبة لأتباع تلك المذاهب، بداية تخلف الأُمَّة الإسلامية، وقد كان دور خلفاء بني العباس ومن جاء بعدهم، في غلق باب الاجتهاد، وحصره في مذاهب معدودة، مهماً وأساسياً، ولا يخفى أنَّ ذلك المنع والحصر، كان بسبب ميل هؤلاء الطغاة لحمل الأُمَّة، على اتباع هؤلاء الفقهاء فقط

دون غيرهم، رغم تعدد المجتهدين في تلك العصور، وتفوق الكثيرين منهم على أصحاب المذاهب، التي استطاعت البقاء والاستمرار، بفضل دعم الأنظمة لها، لأنَّها كانت من تأسيس أولئك الحكام، أو هي موالية لهم، فالموطأ على سبيل المثال، كتب بأمر من المنصور الدوانيقي العباسي، وهو من حرض مالكاً على تأليفه، وحمل الناس على التقيد بفتاواه بعد ذلك، ومنذ ذلك الوقت بدأ حصر التقيد بالفتاوى، فكان عمال أبي جعفر المنصور ينادون: (لا يفتى ومالك بالمدينة). مع أنَّ مالكاً هذا لم يكن له شأن يذكر، في مدينة تعجُّ بكبار الأساتذة والعلماء، وعلى رأسهم الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، الرجل المعارض لنظام الحكم العباسي، الذي تخشى السلطة جانبه، بسبب مكانته العلمية المتميزة التي حاز عليها، وتوافد الناس عليه من كلِّ حدب وصوب، ونسبته إلى البيت الذي أذهب الله تعالى عنه الرجس وطهره تطهيراً في محكم كتابه، ومودة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم التي هي مفترضة لهم عند المسلمين، وعلومهم ومقالاتهم - وهي الأساس- في أحقيتهم من غيرهم بقيادة الأُمَّة الإسلامية، والتي تقلدت بيعتهم نخبٌ من الأجيال الإسلامية، التي تعاقبت منذ وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلى اليوم. لذلك اتجهت تلك السلطات إلى صرف الناس عنهم بشتى السبل والوسائل، فسعت إلى إيجاد بديل عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، يكون ولاؤهم للسلطة

مضموناً، فجاءت تلك المذاهب وفق ما كانت ترجوه، وفوق ذلك فقد حرمت على أتباعها الخروج على الظالمين، طالما أنَّهم يصلون، غير ملتفتةٍ إلى أنَّ الإسلام ليس صلاة فقط، وقد يؤدي الإنسان صلاته أداءً لا ينفعه، ولا يزيده من الله إلَّا بُعداً.

وفتاوى طاعة أئمة الظلم والجور، ما كان لها أنْ تكون لولا الأحاديث المكذوبة على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، والتي تلقاها علماء السوء بالمباركة والقبول، وخصصوا لها في كتبهم باباً يُجيز على الأُمَّة اتباعهم.

ومقابل غلق باب الاجتهاد عند بقية المذاهب، وجد مقابلها خط لم يقع سدّ باب الاجتهاد فيه، ولا اصطلح عليه تحت اسم شخص واحد، فالإسلام الشيعي الاثنا عشري أئمته وفق العدد المذكور، لم يختلف أئمته المعصومون في فتوى واحدة، ولا تناقضوا فيما بينهم، ولا ظهر منهم ما يدعو إلى القول بأنَّ نهجهم مفتعل، أو هو وليد زمن ليس له علاقة بالنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ لذلك فإنَّ اجتماع اثني عشر إماماً في خطٍّ واحد، واستناداً إلى نص واحد، يقول بإمامتهم اختياراً وتعييناً من الله تعالى، عن طريق النبيِّ الخاتم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، دليل على أنَّ نهجهم الذي سلكوه، هو امتداد لخطِّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلّم، وتجسيد لروحيته الخالصة.

وقد اشتمل منهج إسلام أهل البيت عليهم السلام، والمعروف بالإسلام

الشيعي الاثني عشري بعد النبوة على دورين، دور الإمامة الهادية بإذن الله سبحانه وتعالى، ودور العلماء العدول، والمعبر عنه الآن بالمراجع العظام رضوان الله تعالى عليهم، ممّا أكسب هذا النهج حصانة ومنعة، وحال دون أنْ تطاله أيدي العابثين والمحرفين، من زمر النفاق والشرك، فلم يقع تحت طائلة هؤلاء جميعاً، وكان بفضل الدورين اللذين مرّ ويمرّ بهما، في مأمن من الانحرافات التي وقعت فيها بقية الخطوط.

الاجتهاد عند المسلمين الشيعة الإمامية الاثني عشرية، هو بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها الأربعة وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل.

وللمجتهد شرائط لا بُدَّ أنْ تتوفر فيه، ليصبح مؤهلاً لمرتبة الاجتهاد، واجتماعها فيه شرط من شروط تحصيله، وهي: البلوغ، والعقل، والعلم، (تحصيل ملكات العلوم الشرعية واللغوية، التي تعتبر مفتاح باب الاجتهاد، كعلوم القرآن، وعلوم الحديث، وأُصول الفقه، وعلوم اللغة العربية، مع سعة المعرفة بالسيرة والتاريخ)، العدالة (وهي شرط ضروري يجب توفره في المجتهد، ليكون أهلاً للتقليد)، وقد استفاض علماء أُصول الفقه، في مباحث تلك الشروط.

ووجوب أنْ يكون لكلِّ جيل مجتهدوه، نابع من الحاجة الماسة إلى تواجد الفقهاء، لحلِّ مستجدات العصر، ومستحدثات الزمن، لتميز الدين الخاتم بنمطين

من الأحكام، أحكام ثابتة لا تتغير، وتتعلق بالشعائر العبادية، من صلاة وصوم وحج وزواج وزكاة وخمس وولاية وغيرها، وأحكام متحركة، تقتضيها مسيرة البشرية عبر الزمن.

وممّا أكسب خطَّ الإسلام الشيعي قوة ومنعة، وساعده على الاستمرار منذ عصر الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام إلى اليوم، بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً، وفوق ذلك ومن أجل بقاء الاجتهاد عاملاً فاعلاً في المجتمعات الإسلامية، لم يُجز أغلب علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية تقليد المجتهد الميت ابتداءً، لدعم المجتهد الحي، وفسح المجال أمامه، ليؤدي دوره في إرشاد الأُمَّة والنصح لها، وتلبية حاجياتها في ما يتعلق بأوجه ومجالات الحياة كافة.

وما كان لهذه المكاسب العظيمة أنْ تتم، لولا اكتمال الإسلام بدور إمامة أئمة أهل البيت عليهم السلام، الذين وإنْ لم يتمكنوا من بلوغ سدة الحكم، بسبب تقصير الأُمَّة عن لعب دورها في تمكينهم من ذلك، فقد مارسوا دورهم الأصلي في حفظ الشريعة، وبثها وترسيخها في الأجيال الإسلامية التي عاشوا بينها، وكانوا المؤسسين لجامعة العلوم الإسلامية، التي كانت مقصداً لطلبة العلوم من المسلمين، يدرسون فيها مختلف المواد العلمية، من فقه ومنطق وفلسفة وغيرها من فنون المعرفة، وكان للإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، دور في تأسيس تلك

الجامعة، التي سميت في عهد الشيخ الطوسي قدس سرّه بالحوزة العلمية.

وما الأمر الذي تركه الأئمة عليهم السلام بخصوص الاجتهاد والتقليد، إلّا دليل على عنايتهم بمسألة استمرار عطاء الدين، وتواصل فاعليته وإشعاعه، على المستويين القيادي والقاعدي، فقد جاء عنهم عليهم السلام: «**المتعبد بغير فقه كحمار الطاحونة**». في إشارة إلى ضرورة الاعتماد على الفقهاء في المسائل المتعلقة بالدين، وكلُّ من لم يسلك طريقاً إلى الفقيه فعمله لا قيمة له.

وجاء عنهم عليهم السلام أيضاً: «**أمّا من كان من فقهائنا حافظاً لنفسه، صائناً لدينه، مخالفاً لهواه، متبعاً لأمر مولاه، فللعوام أنْ يقلدوه**».

في إشارة منهم إلى شرائط المجتهد، ووجوب تقليده على عامة الناس، الذين لا يجدون حيلة إلى الفقاهة والاجتهاد.

وقد أثمر غرسهم عليهم السلام مع مرور الزمن، وكانت رواياتهم وتوجيهاتهم إلى أتباعهم وشيعتهم، المفتاح الذي أتاح للعلماء منهم بلوغ الحلال والحرام في جميع المسائل الحياتية، فأفتوا المسلمين وفق مصادرهم المعتمدة، واستناداً إلى الدليل القطعي، فلم يعجزهم شيء من المستحدثات، لمواكبتهم التطور البشري عن قرب، والمتصفح للرسائل العملية - وهي كتب الفقه التي يصدرها عادة كلُّ

مجتهد ويطرحها لمن يريد تقليدهم من للناس- يجد الحلول لكلِّ إشكال فقهيٍّ عرض له، ومن أعسر عليه شيء، فإنَّ أبواب مكاتب المجتهدين مفتوحة لتقبل الأسئلة، ومواقعهم على صفحات الإنترنت يرتادها الآلاف كلَّ يوم.

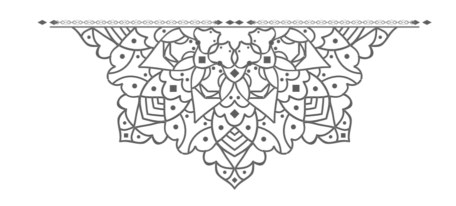
لذلك أستطيع أنْ أقول: إنَّني فوق ما اقتنعت به من صحة خط التشيع الإمامي الاثني عشري، عقيدة وشريعة، كانت مسألة بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً عند الشيعة، هي العامل الذي دفعني إلى تبني المنظومة الإسلامية التي اعتمدوها، طبقاً للنصوص التي أخذت بأعناقهم إلى أهل البيت الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وقد لمست من فتاوى مجتهديهم سعة المعرفة لديهم وبُعد النظر، وقوة الشخصية والحضور الفاعل في مجتمعاتهم، ولمست من أتباعهم أدب الطاعة وحسن الاتباع، وبراءة الذمة في التقليد، وهي أُمور ليست موجودة في بقية الفرق الإسلامية، التي ما تزال تتخبط في عمى الموروثات المتناقضة، والتي اختلط فيها السليم بالسقيم، والتي أرجو لأتباعها الهداية إلى أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، لأنَّه بالرجوع إلى الأطهار من ذرية المصطفى عليه وعليهم الصلاة والسلام، نستطيع أنْ ننال رضا المولى سبحانه وتعالى، ونطفئ غضبه من الجفوة التي ارتكبها أسلافنا في الابتعاد عن نهجهم.

ونسأله أخيراً أنْ يفرج عن هذه الأُمَّة المستضعفة، بإظهار وليه المنتظر أرواحنا

له الفداء، ناصر دينه، ومثبت شريعته، والمنتقم من الظالمين، ويجعلنا من أتباعه وأنصاره وأعوانه وشيعته، ويرزقنا الشهادة بين يديه، إنَّه نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

الدافع الخامس والعشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيعني الحسين عليه السلام



جاء برفقة أحد الإخوة المستبصرين، لم أكن أعرفه من قبل، قال عنه مرافقه إنَّه قد استبصر حديثاً، وعرف حقيقة الإسلام المحمّدي الأصيل، الذي لم تخالطه شائبة من شوائب المستكبرين والمشركين، وكان ذلك من طريقه، ثمَّ قدمه: الأخ عماد... شاب من شباب الإسلام العظيم، تربى في أُسرة ملتزمة بدينها، في عصر قلت فيه الأُسر الملتزمة، أخذ أبجديات العبادة عن والده ووالدته، قبل أنْ يبلغ سنَّ التكليف، فزاده ذلك دفعاً نحو الالتزام الكامل، تعرف على إسلام أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلّم، وبحث في خصوصياته وتفاصيله، فرآه أقرب إلى الوحي، وإلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلّم، من غيره من المذاهب التي تسمت بأسماء أصحابها، فالتزم به، وباشر تطبيق شعائره وأحكامه، وأحلّها محلّ الشعائر والأحكام التي كان يطبقها بطريق التقليد الوراثي، حدثته عن فكرة الإدلاء

بإفادات المستبصرين، فرغب في أنْ يكون ضمن من سيدلي بدافع تشيعه لأئمة أهل البيت عليهم السلام، فما كان منّي إلّا أنْ رحبت بقدومه، وشكرت له سعيه من أجل إظهار الحق، ثمَّ طلبت منه أنْ يدلي بإفادته فقال:

كم يشعر المرء بالغباء والغبن، عندما يستفيق من غفوته، ويخرج من غفلته، عندما يرى أنَّه وقع في أهم معتقداته، ضحية استحمار خطوط الظلمة لقواعدها الجماهيرية، وكم تكون ردّة الفعل منه سريعة، لطرد كلِّ تلك الآثار التي علقت بنفسه، وأعاقتها ردحاً من الزمن.

في ما مضى من عمري، كنت من بين ملايين المسلمين الذين دخلوا الدين، من بوابة التقليد المجرد من العلم والمعرفة، ومع أنَّني انتهجت بعد نضجي وإدراكي، لبعض التكاليف الواجبة عليَّ، منهج الإسلام الشمولي، الذي لا يفصل الدين عن الحياة، والذي يعتبر أنَّ السياسة جزء أساسي لا يتجزأ من الدين الحنيف، فقد بقيت سالكاً النهج التقليدي نفسه للعبادة والفهم، ومتبعاً أثر التدين الذي اكتشفت فيما بعد، أنَّه من إملاءات الأنظمة التي خضعت لها رقاب المسلمين، بالجبر والإكراه قروناً عديدة، دون أنْ ألتفت إلى مصدر هذا الفقه، ولا العصر الذي جاء منه، وطبيعي أنْ يكون نتاج الظلم تحريفاً لحقيقة الدين وسمو معانيه، ووضوح أحكامه، لأنَّ طبيعة الانحراف لا تولد إلَّا انحرافاً مثله.

لم أسمع أو أقرأ عن المسلمين الشيعة إلّا كلَّ منكر وسوء، فقد كان منطق التكفير هو السائد حيال تلك الفرقة، من جانب الخط الذي كنت منتسباً إليه، والمعروف بالخط السني، استناداً إلى جملة من التهم التي أُلصقت بواجهة تلك الطائفة، لذلك لم أكلف نفسي عناء البحث عنهم، ولا تبادر إلى ذهني، ولا خالطني شعور أو إحساس بالسؤال عنهم والاهتمام بهم، حتى الثورة الإسلامية في إيران، لم تكن عندي بالمقدار والأهمية التي كان يجب أنْ تكون عليه، وقد استغل الاستكبار العالمي هذه الفجوة ليعمق الشرخ، ويباعد بين عموم المسلمين، وبين تلك النهضة المباركة تأصيلاً منه لروح العداء والضغينة، التي أسسها المتسلطون الأوائل على رقاب المسلمين، فالشيعة في محصلة الفكر السني، كفار مارقون وروافض، حلّت دماؤهم وأموالهم وأعراضهم، واستمر اعتقادي في الشيعة بتلك القناعة، إلى أنْ جاء يوم شاهدت فيه بالصدفة مراسم عاشوراء، التي دأبوا على إحيائها، من خلال قناة تلفزيونية فرنسية، فشكلت مشاهدتي لتلك المظاهر صدمة نفسية، كان لها الأثر الكبير في تحولي من الخط الوراثي الذي كنت أسلكه، إلى الخط المعرفي الذي استبدلته به.

فنهضة الإمام الحسين عليه السلام، وثورته المباركة وشهادته العظيمة، وتضحيته من أجل الإسلام، لم تكن تعني شيئاً عند أتباع خط الإسلام السني

الأشعري، الذي اعتمده أغلب حكام المسلمين، الذين لا يحبذون الثورات والثوار بطبعهم، ويرون فيها وسائل لهدم أنظمتهم، وتقويض أُسسها المبنية على الظلم والتعدي والاستكبار، مخالفة لمبدأ العبودية لله وحده، وترك ما دونه من آلهة بشرية مصطنعة.

دفعتني صدمة تلك المشاهد إلى الاستغراب والسؤال:

لقد تعود مجتمعنا على الاحتفال بيوم عاشوراء، على أساس أنَّه يوم مبارك يفرح فيه المسلمون، ويطبخون فيه الحبوب، ويظهرون الزينة، والتوسعة على العيال، ويصومونه قربة إلى الله تعالى، وإن اعترف علماؤه بأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم يصمه، فإنَّهم قد بنوا صيامه على مقالة منسوبة لليهود تقول: إنَّ عاشوراء يوم أنجى الله فيه موسى من فرعون، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: نحن أحق بموسى منهم، ووعد بصيامه العام القادم، لكنَّه توفي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ووجدت روايتين أُخريين تقولان مع اختلاف في أسماء الأنبياء بينهما، بأنَّه اليوم الذي أنجى فيه الله سبحانه وتعالى عشرة أنبياء، فلماذا يكون يوم العاشر من المحرم عندنا يوم فرح وسرور، ويكون عند الشيعة يوم حزن وبكاء وسواد؟ أين تكمن الحقيقة يا ترى؟

هالني وأنا أتابع باهتمام كبير، مراسم الحزن والعزاء، التي يقيمها المسلمون

الشيعة على الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، ووجدت نفسي أتساءل عن معنى تلك المراسم وحقيقتها؟

ورغم حصول تلك الرجة، لم أستطع أنْ أتبين حقيقة الإمام الحسين عليه السلام ويومه العظيم، إلَّا بعد أن التقيت بأحد أفراد الشيعة في المدينة التي أعيش فيها، رأيت أنْ أسأله عن تلك المظاهر، التي تراءت لي غريبة في بعض تفاصيلها.

قلت له: لماذا يفرح المسلمون السنة يوم عاشوراء، ويفرح اليهود فيه أيضاً، ومقابل ذلك نجد الشيعة يكثرون من مظاهر الحزن فيه؟

فقال: إنَّنا أمام خبرين أحدهما رواية والآخر دراية، فخبر أنَّه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وأنَّ اليهود يصومونه تبركاً به، ليس له أصل في الواقع، لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ليس له مصدر لاستقاء معلوماته الدينية غير الوحي، فلم يؤثر عنه أنَّه اتبع يهودياً أو نصرانياً في مسألة من المسائل، ومن تهافت تلك الرواية، أنَّ واضعها لما لم يجد مرتكزاً يرسي عليه أُكذوبته، فادّعى أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلّم، التفت إلى صيام اليهود في العام العاشر من الهجرة، أي قبل شهر ونيف من وفاته، فقال: نحن أحق بموسى منهم، ووعد بصيامه في العام القادم، لكنَّه توفي ولم يتمكن من ذلك، ويكفي الرواية وهناً وبطلاناً أنَّ اليهود لا يعتمدون التقويم القمري، ولو قدر للرواية صحة ووافق ذلك اليوم يوم العاشر

من المحرم، فإنَّه لا يتفق قطعاً مع بقية الأعوام، لنقص تعداد السنة القمرية عن السنة الشمسية، هذا مضافاً إلى رواية أُخرى منسوبة إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تقول:

بأنَّه اليوم الذي أنجى الله فيه عشرة أنبياء منهم نوح وإبراهيم، والنبيُّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأهل بيته الطاهرون عليهم السلام، أولى باللطف الإلهي والعناية الربانية لأنَّهم صفوة الصفوة من أولياء الله وخلصائه، وأمّا خبر استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وخيرة أهل بيته عليهم السلام، وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فهو خبر دراية، لذلك اعتمد المسلمون الشيعة على الدراية، ورأوا التعامل مع ما هو قطعي الدلالة، على اتباع الظن والتعبد بالموضوعات التي اختلقها الطغاة، من أجل التغطية على جرائمهم.

قلت له: فلماذا كلُّ هذا الحزن على الحسين بن عليٍّ رضي الله عنه؟ ألا يكفي ما أظهره عليه أهله وأتباعه عند موته؟ ألا يعدُّ ذلك من البدع المنسوبة للشيعة؟

فقال لي: قد لا تختلف معي إذا قلت لك إنَّ الإمام الحسين عليه السلام هو ريحانة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وقد لقبه وأخاه الحسن بن عليٍّ عليهم السلام بسيدي شباب أهل الجنة، وهو خامس أصحاب الكساء، الذين نزلت فيهم آية

التطهير التي تقول: ﴿ إِنما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[٥٩] وقد نسبه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلى نفسه نسباً باطناً، فوق نسبه الظاهر، فقال: «**حسين مني وأنا من حسين أحبّ الله من أحبّ حسيناً**»[٦٠].

قلت له: كلُّ ذلك واضح وصحيح ونعترف به، مع أنَّنا لا نجد فيه مبرراً لإقامة تلك المراسم.

فقال: ذلك ممّا لم تتبينه أنت ولا أتباع خطك، من خلال رؤيتكم للأشياء بعين العصبية المذهبية، لذلك فإنَّني أرجو أنْ لا تقاطعني حتى أُكمل كلامي، في بيان حجتي المتمثلة في الحزن على أبي عبد الله الحسين عليه السلام، في محنته ومصيبته يوم عاشوراء.. سكت قليلاً ثمّ قال: هل تعلم أنَّ من بين التكاليف التي أُلقيت على جميع المسلمين، مودّة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾[٦١].

وقد سئل النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، عن ماهية المودة؟ ومن هم القربى الواجبة مودتهم على الأُمَّة والذين أشارت إليهم الآية الشريفة؟ فقال: هم عليٌّ

---

(٥٩): سورة الأحزاب الآية ٣٣.

(٦٠): التاريخ الكبير / البخاري ٨/ ٤١٥ / مسند أحمد ٤/ ١٧٢.

(٦١): سورة الشورى الآية ٢٣.

وفاطمة وأبناؤهما[٦٢]. وقد أراد الله تعالى أنْ يكرم نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، بأنْ ألزم المسلمين محبة قرباه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم واحترامهم، وتقديمهم، وتبجيلهم، وتوقيرهم، وجعل ذلك أجراً لرسالة الإسلام، التي جاء بها إلى الأُمَّة، وذلك كلُّه يندرج في معاني المودة، التي تضمنتها الآية الشريفة.

ومودة القربى تلك كما ترى، أصبحت تكليفاً واجباً على كلِّ جيل من أجيال المسلمين، ممّا يترتب عليه بالنسبة إلى تلك الأجيال، أنْ تلتزم بإيفاء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حقه في مودّة قرباه، طاعة لله تعالى وامتثالاً لأمره.

ومحنة الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، هي محنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وخروجه طلباً للإصلاح، هو طاعة لله تعالى ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قلت له: لكنَّنا نحن أهل السنة نحب أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ونحترمهم، ومع ذلك فإنَّنا لا نغالي في ذلك كما يفعل الشيعة.

قال: بين لي كيف تحبون أهل البيت؟ وكيف يمكنكم تجسيد ذلك وإظهاره؟ وماذا قدّمتم للأئمة لأطهار عليهم السلام، حتى توفون بواجبكم نحوهم،

---

(٦٢): الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٧/ المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٧٢/ تفسير الرازي ٢٧/ ١٦٦.

ويعتبركم أهل البيت عليهم السلام من محبيهم حقاً؟ فللمودة والحبِّ تطبيقات، كما تظهر لهما من خلال ذلك علامات، لابُدَّ من تجلّيها على المحبّ، وإلَّا لم يكن الأمر كذلك.

ونظرت بيني وبين نفسي، وغصت في أعماق مشاعري وأحاسيسي، باحثاً عن مظهر أو علامة استدل بها على حبي، وحبِّ أهل السنة لأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فلم أجد شيئاً ألوذ به، ولم أجد له تجسيداً على أرض الواقع، ولا عثرت على دليل يكون إلى جانبي.. خيم عليَّ صمت أشبه بالوجوم.. فقال: لماذا سكت؟ أ لأنَّك لم تجد ما يصدق دعواك في محبة أهل البيت عليهم السلام، إنَّ المحبة ليست مسألة نظرية، أو شعاراً يرفع هنا وهناك، ولا هي زينة يسبغها على نفسه كلُّ محبٍّ، بل هي بالأساس اتباع وتأسٍ، وهو الركن المهم والمطلوب في هذه المودة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٦٣).

فهل اتبعتم أهل البيت عليهم السلام في شيء من الأشياء، وهي كلُّها سنن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، تعلموها وورثوها منه؟ أنا لا أعتقد ذلك بل أُجزم أنَّكم لم تتبعوهم في شيء مطلقاً، ونفضتم أيديكم منهم، ووقفتم في صفِّ المحاربين

---

(٦٣): سورة آل عمران الآية ٣١.

لهم، بدءاً من السقيفة، وانتهاءً ببقائكم على ولاية من ظهر عداؤه للدين من هؤلاء الفسقة والظالمين، الذين جثموا على صدور أسلافكم، ولا يزالون جاثمين على صدوركم، وتعتبرونهم أولياء أُموركم.

قلت: على رسلك إنَّ جانباً مهماً من أهل السنة، والمتمثل في طلائعه المثقفة، لا تؤمن بولاية هؤلاء الأشرار من أتباع حزب النفاق، والحركات الإسلامية الحديثة قد خرجت من قمقم طاعة الظالمين، بعد أنْ جربته طويلاً ووقفت على بطلانه.

قال: وهل تعتقد أنَّه خروج حقيقي، ألا ترى أنَّها ما تزال مقيمة على تلك المذاهب التي أسسها هؤلاء الظلمة، ألم يكن مالك على سبيل المثال صنيعة أبي جعفر المنصور العباسي، وذلك من أجل حمل الناس، على ترك سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام، الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، الذي كان وأبوه محمّد بن عليٍّ الملقب بالباقر وبقية الأئمة عليهم السلام، أساتذة كلِّ هؤلاء الفقهاء.

قلت: هذا صحيح، إلَّا أنَّ ذلك مردُّه قلة الوثوق بالبديل، الذي يستطيع تعويض منهجهم القديم.

قال: بل إنِّي أراه نتائج أُسست على الكذب على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله

وسلَّم، وحاكمية وقعت ضحية أناس ليسوا أهلاً للقيام بها.

قلت: فإلى أيِّ حدٍّ تذهبون بمودّة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؟

قال: ليس للمحبة حدٌّ يا صديقي، أحبب أهل البيت عليهم السلام، وكلَّ الذين وصلوا إلى مقام القرب الإلهي، بقدر ما تشاء وتريد، فقط لا تخرج بهم من دائرة الصفوة الطاهرة، وافعل ما بدا لك، وهو يمثل حقيقة معنى من معاني المحبة والولاء، لأنَّنا في هذه الشعيرة متنافسون من أجل تحصيل الأجر الأكبر، كما ترغبنا فيه بقية الآية:

﴿ ذَلِكَ الذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾(٦٤).

ثمَّ تعالَ لأقرِّب لك فهم المودة: لو أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان في زماننا، وخرج من أجل أنْ يصلح في أُمَّة جده، ماذا أنت فاعل؟

قلت: أخرج معه قطعاً.

قال: لا تستعجل على نفسك هكذا، فلو كنت فاعلاً ذلك حقاً، لما استكثرت عليه هذه الجموع المحيية لذكراه، والهاتفة باسمه الذي يعني الجنة في الآخرة،

---

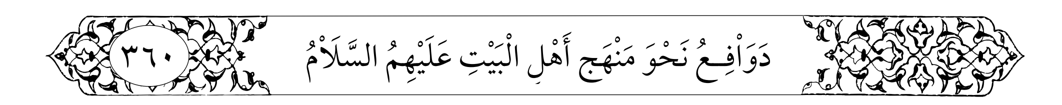
(٦٤): سورة الشورى الآية ٢٣.

والإسلام المحمّدي الصافي في الدنيا، وعنوان الشهادة ورمز الفداء، والصرخة المدوية عبر الزمن، تستحث الأُباة، وتحرض المجاهدين، وتستحث الأنفس التواقة إلى العزّة والكرامة، وتشعر الإنسان بإنسانيته، أمام مظاهر الطغيان والظلم، وتتردد بين جنبات القلوب المؤمنة، والأنفس المطمئنة الراجعة إلى ربِّها.

قلت: ألا يكفي بكاء القرون الأُولى؟ ألم يقل النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم: لا عزاء بعد ثلاث؟

قال: لقد قلت لك إنَّ كلَّ جيل له تكليفه بخصوص المودّة، فنصرة الحسين عليه السلام واجبة على من سمع بخروجه ولم يفعل، وحال حائل دونه وما يريد، والبكاء عليه واجب لمن سمع بمقتله، حتى لو كان ذلك بعد أربعة عشر قرناً، لأنَّ الإمام الحسين عليه السلام هو رمز الإسلام، وبقية أصحاب الكساء، والبكاء عليه في محنته أمر عبادي، يراد به وجه الله تعالى، لأنَّه أحد أوليائه المقربين، واستجابة لنداء المودة الذي أطلقه البارئ تعالى في وحيه، وفوق ذلك كلِّه، فقد بكى النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم على ولده الحسين عليه السلام.

قلت: وكيف بكى النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم على سيدنا الحسين عليه السلام، وحادثة كربلاء لا تزال في رحم الغيب، وبينها وبين النبيِّ صلَّى الله عليه



وآله وسلَّم أكثر من خمسين عاماً؟

قال: أخرج أحمد بن حنبل بسنده، عن أنس بن مالك: أنَّ ملك المطر استأذن ربَّه أنْ يأتي النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فأذن له، فقال لأُمِّ سلمة املكي علينا الباب، لا يدخل علينا أحد. قال وجاء الحسين ليدخل فمنعته، فوثب فدخل فجعل يقعد على ظهر النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وعلى منكبه وعلى عاتقه، قال فقال الملك للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: أتحبه؟ قال: نعم قال: أما إنَّ أُمَّتك ستقتله، وإنْ شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه.

كانت مفاجئة للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فبكى على ولده وهو بين يديه، وكانت عيناه تذرفان الدموع كلَّما رآه، لذلك حاول أنْ يبني في قلوب المسلمين محبة أهل بيته، والحسين منهم عليهم السلام، زيادة على تأسيس رابطة الأُخوّة والمحبة بين جميع أفراد الأُمَّة، نافياً الإيمان عن كلِّ من لا يتقيد بتلك الثوابت، فقد قال أكثر من مرّة: «**لا يؤمنن أحدكم، حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»، وبكاه أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام، وبكته أُمُّه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام، وبكاه خير أهل الأرض، أفلا ترى عدم البكاء عليه إجحافاً في حق الإسلام وقيمه العظيمة؟

أمَّا قولك: لا عزاء بعد ثلاث. فالرواية مشكوك في نسبتها للنبيِّ صلَّى الله

عليه وآله وسلَّم، لأنَّ تقديم العزاء واجب لا يحصره وقت، ويشكل عدم إطلاق قيده مفسدة على الناس والدين، بل إنَّه مدعاة لتذكر الموت، وساعة الرحيل عن دار الدنيا، وأدب واحترام ومواساة يظهرها المعزي تجاه أهل الميت، وذكر الموت بهذه الطريقة أكثر إفادة وأعمق أثراً، هذا من حيث العزاء، أمَّا من حيث البكاء، فإنَّه خصلة تدلُّ على أنَّ صاحبه يتميز بقلب رقيق وفياض بالمودة والرحمة، والخطر كلُّ الخطر، من أولئك الذين لهم قلوب كالحجارة أو أشدّ قسوة، خرجت الرحمة منها، فتركتها صلدة بلا شعور أو إحساس، والنبيُّ يعقوب عليه السلام بكى على فقد ابنه يوسف، حتى ذهب نور بصره، ويعني ذلك أنَّه بكى سنين طويلة، وهو يدرك جيداً أنَّ ابنه لم يمت، وسوف يلتقي به، فلم يعاتبه الله سبحانه وتعالى على فعله ذلك، ولا طلب منه الإقلاع عنه، فكيف بالله عليك ترى أنت وخطك الذي تتبعه في البكاء نكارة ومذمة، ولا أراكم متبعين فيه سنة للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فليس هناك ما يشير من قريب ولا بعيد إلى نهيه عن البكاء، وما هي والله إلَّا سنة خليفتكم في نهيه عن البكاء وضربه عليه، بعدما اتبعتموه في بدع عديدة، كالبدعة التي استحدثها جماعة في نوافل ليالي شهر رمضان، والمعروفة عندكم بالتراويح.

قلت: دعني من هذا كلِّه وقل لي الآن، ما الفرق بين ثورة الحسين عليه

السلام، وثورة عبد الله بن الزبير.

قال: كالفرق بين واضحة النهار وظلام الليل الدامس.

قلت: كيف ذلك وهما ثورتان إسلاميتان؟

قال: لم يخرج الإمام الحسين عليه السلام إلَّا بعد أنْ حوصر وضُيّق عليه، من أجل أخذ البيعة ليزيد الفاسق لعنه الله، وباعتبار أنَّ أبا عبد الله عليه السلام يمثل القدوة الإسلامية، وقمّة التقوى التي يمكن أنْ توجد في المجتمع، فمثله الطاهر لا يبايع مثل ذلك الخبيث، ولم يكن خروجه لنفسه أو لحاجة شخصية يريد قضاءها، بل خرج طلباً للإصلاح في أُمَّة جده، ورغبة منه في إبطال بيعة الظالمين عملياً، وكان هو القدوة المؤهل لتلك المهمة، لتكون الدلالة الكبرى على بطلان مبايعة كلِّ ظالم، إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد جسد الإمام الحسين عليه السلام الرؤية القرآنية في التعامل مع الظلم، وبمقارعته له في قلة قليلة، ضرب مثلاً قرآنياً يقول فيه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الذِينَ يَظُنُّونَ أَنهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٦٥].

ورغم استشهاده عليه السلام ومن معه من أهل بيته وأصحابه رضوان الله

(٦٥): سورة البقرة الآية ٢٤٩.

تعالى عليهم، فإنَّه لمن يعرف حقيقة الشهادة وفلسفتها، يؤمن بأنَّ الإمام أبا عبد الله الحسين عليه السلام، قد حقق نصراً، لم يتسنَ لمن سبقه في ميدان بذل النفس في سبيل الله تعالى، بحيث حققت نهضته المباركة ما كان يؤمله من يقظة شاملة، أوقفت الأُمَّة على حقيقة كانت غافلة عنها، وتمثلت في أنَّ الأرض حلبة صراع بين الحق والباطل، وكلُّ تخاذل من جانب أتباع الحق، يقابله تطاول من جانب أتباع الباطل، فلا يمكن للدين أنْ تقوم له قائمة، وأتباعه متخاذلون متواكلون، يُلقي بعضهم باللائمة على بعض، وقد فرطوا في أسباب عزتهم، ورضوا بالمذلة والمهانة، تحت تيه الظلم والظالمين، ومن لا أهلية له في قيادة الأُمَّة الإسلامية.

أمَّا بالنسبة إلى ثورة عبد الله بن الزبير، فإنَّها لم تكن بذات الصفات التي عليها ثورة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، لأنَّ ابن الزبير كانت له أطماع في نيل السلطة، فقد توثب مع خالته يوم الجمل يريد الفتنة، وقتل بسبب ذلك آلاف المسلمين، ولما انهزم وقُبض عليه، عفا عنه الإمام عليٌّ عليه السلام، أُسوة بالنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في العفو عن الجاهلين، ومع ذلك بقيت في نفس ذلك الرجل أحقاد ورثها عن خالته، فلم يشكر اليد التي أنقذته من الموت، وقابلها بالامتناع عن الصلاة على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، أيام استيلائه على مكة، فمكث أربعين جمعة لا يصلِّي عليه، فلمّا سئل عن سبب إحجامه عن ذلك قال: إنَّ له أهيل سوء أردت أنْ

أُرغم أُنوفهم.

فظهر من خلال ذلك، بغض الرجل لأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ومن أبغضهم فهو منافق باتفاق عقلاء المسلمين، لقول عليٍّ عليه السلام، نقلاً عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنَّه لعهد النبيِّ الأُمِّي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إليَّ، أنْ لا يحبني إلَّا مؤمن، ولا يبغضني إلَّا منافق**»(٦٦). ولو كان الرجل فقيهاً عارفاً، لما التجأ إلى البيت الحرام، وكان السبب في انتهاك حرمتها، وقذفها بالمنجنيق وسفك الدماء فيها، وقد أُشير على أبي عبد الله الحسين عليه السلام بالبقاء في بيت الله الحرام، ليسكن عنه طلب جلاوزة يزيد، فرفض من أجل أنْ لا تنتهك حرمة البيت العتيق.

والفرق واضح بين الثورتين، ثورة أَسست لثورات عديدة، تمكنت من الثأر للحسين عليه السلام، وللمبادئ التي حملها، ولا تزال تقدم المزيد من الشهداء، ولا يزال الأحرار يقتبسون من مسيرة سيد الشهداء عليه السلام، ونهضته الفريدة أُسلوب الثورة الحقيقية، الخالية من كلِّ أطماع الدنيا، بينما لم يبقَ لابن الزبير وثورته، غير أسطر معدودة، ذكرها التاريخ على مضض.

قلت: فلماذا لا يضع أهل السنة ثورة الحسين رضي الله عنه، ومصيبته في

---

(٦٦): مسلم ج١ كتاب الإيمان ح١٣١.

كربلاء الموضع الذي يبوئه الشيعة؟

قال: لأنَّ سياسة الظالمين كانت وراء ذلك التجاهل والجفاء، وقد نهجت طرقاً ملتوية، من أجل طمس معالم تلك الثورة، حتى ظهر من علمائهم من قال: إنَّ الحسين قتل بسيف جده.

قلت: بارك الله فيك يا أخي، فهل لديك كتاب يروي تفاصيل تلك النهضة المباركة، فإنَّني أجهل تفاصيلها كما لا يخفى عليك.

قال: وأخيراً ألفت انتباهك إلى نقطة مهمة في هذا الإطار، تقول إنَّ الذين لم يرعوا حرمة الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام، لا يمكنهم مراعاة حرمة سنته، ولا إعطاؤها القيمة التي تستحق، هي التي لم تكتب عند هؤلاء، إلى ما بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، بأكثر من نصف قرن، وقتلُ أبي عبد الله الحسين عليه السلام وذبحه وقطع رأسه الشريف، والتمثيل بجثمانه الطاهر، ما هو في حقيقته وواقعه إلَّا قتلٌ للنبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وذبح لسنته ودينه، وأنت ترى اليوم أنَّ مدرسة الإمام الحسين عليه السلام قد أظهرت مكانتها، وبينت مقدرتها، وتجلت أحقيتها في هؤلاء الأبرار، الذين يبذلون النفس والنفيس، من أجل إعلاء كلمة الحق، بينما لم يظهر من الجانب الآخر، غير المواقف المزرية والتبعية المذلّة للظلم والظالمين.

ولما لاحظ شدّة اهتمامي وإلحاحي عليه، أجاب قائلاً: سوف أُعطيك كتاباً يشفي غليلك.

وتملكني شعور بالانكسار والخجل، من كلِّ أسئلتي التي نطقت بلسان تربية مذهبية بغيضة، أَسسها الغاصبون لحكومة الإسلام، والعابثون بمقدرات الإسلام والمسلمين، فزاد في إلحاحي على الرجل لكي يستعجل في الإتيان بالكتاب، فما كان منه إلَّا أنْ لبى طلبي، وعاد إليَّ بعد برهة، وهو يحمل كتاباً عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

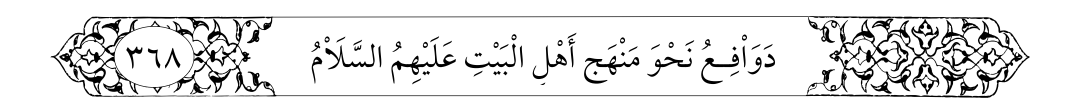
قرأت الكتاب، بل التهمت محتواه التهاماً، لم يحصل لي أنْ فعلته بكتاب قبله، فأحداثه وقصته حتمت عليَّ ذلك.. وبكيت كما لم يبكِ أحد من الناس، وعلا صوتي في البيت، بصورة لم يكن في إمكان عائلتي التغاضي عن ذلك، فهرعوا إلى بيتي مسرعين، تحلقوا حولي لاستجلاء الأمر، لم أقدر على أنْ أُمسك نفسي، فلم أرد على أحد إلَّا بعد أنْ أخذت أُمي برأسي، ووضعته على صدرها، وضمتني إليها في حنان معهود، وانخرطت هي معي في بكائي الذي لا تعرف المسكينة له سبباً، ولما هدأت أشجاني، حدثتهم عن مصيبة الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، والتي هي في حقيقة الأمر، مصيبة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في ريحانته وأهل بيته عليهم السلام، وقرأت عليهم مقاطع من تلك المصيبة، فكان تأثير ذلك كبيراً إلى حدٍّ دفع

بهم إلى البكاء.

وتوالت الأيام بعد ذلك، وكنت في كلِّ مرة أنتهي فيها مطالعة كتاب من الكتب التي كان ذلك الشيعي يقدمها إليَّ، أبسط الحديث مع عائلتي بخصوص المحصلة التي خرجت بها، ولم يمضِ وقت طويل، حتى كنت وكامل أفراد عائلتي، قد تبينّا صراط الله المستقيم الذي دعانا إلى نهجه وهو صراط أهل بيت نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، الذين جعلهم ورثة علم نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، حفظة دينه، وأولياء أُمور عباده، والحكام بأمره، فأقروا جميعاً بولايتهم، وبايعوهم بيعة رضا وقناعة وتسليم، شاكرين الله سبحانه وتعالى على نعمة الهداية، بمعرفة حقيقة الولاية في الإسلام وحقيقة أصحابها.

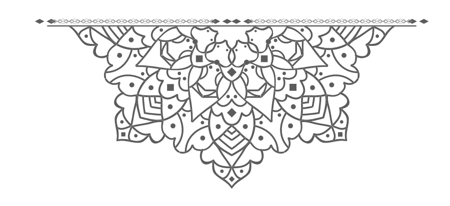
فكان الحسين عليه السلام وثورته ومصيبته، ومحنة أهل بيته عليهم السلام، السبب في معرفتي لحقيقة التشيع لهؤلاء الأطهار عليهم السلام، واقتنعت أنَّ الخط الذي لم يرعَ أمر الله في مودة قربى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، والحسين عليه السلام أقرب أقربائه، وعمل فيهم بخلافها، بغضاً وضغينة وكرهاً وقتلاً وتشريداً وسجناً وتعذيباً، ممانعة لهم عن حقوقهم، لا يمكنه أنْ يحفظ سنته التي أُهملت عندهم، وهي التي تمثل الفهم الكامل للقرآن والتشريع.

أحمد الله على الخير العميم الذي أولانيه، باتباع أهل بيت نبيّه الأكرم صلَّى الله



عليه وآله وسلَّم، في زمن بدأت أنوار الحقيقة تتراءى للمبصرين، وأشكره على نعمة الهداية التي أسبغها عليَّ، أنا عبده الصغير الحقير، موجهاً ندائي ودعوتي إلى من لم يتعرف على إسلام أهل البيت عليهم السلام، ليكسروا عنهم أسوار الوهم والزيف والكذب، ليقفوا على الحقيقة جلية واضحة، سائلاً الله لهم التوفيق والسداد والسلام.

الدافع السادس والعشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام وسطية الشيعة ودعوتهم إلى الوحدة الإسلامية والعمل من أجلها هما من عوامل تشيعي



مصطفى... صديق لم أعرفه إلَّا حديثاً، التقيت به عن طريق الصدفة، وقدموه إليَّ على أساس أنَّه قد تشيع، وبطريقة التأمل والمقارنة والاستدلال، فأُعجبت بشخصه، وأكبرت عقله النادر، وسط عقول تعودت على إيكال تمييز الأشياء إلى غيرها، وقررت متابعة خطواته الأُولى إلى التشيع بمحاورته وإعطائه ما يحتاج من معلومات تخص الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وعندما قررت أنْ أجمع إفادات الإخوة المستبصرين، وجهت إليه دعوة لحضور جلسة الإفادة، فحضر وقال:

كنت من المنتسبين إلى حزب التحرير الإسلامي في أواسط الثمانينات، وكان أول ما أُلقي إلينا من فكر، متصل بذلك الحزب، الذي أسسه تقي الدين النبهاني، المصطلحات التي كان عناصر ذلك الحزب يحفظونها عن ظهر قلب، ويطرحونها

على غيرهم من المنتسبين لحركة النهضة، في شكل أسئلة مفحمة، لا يستطيع المسؤول لها رداً، ولا يحر لها جواباً، وكانت تلك المصطلحات حافزاً دفع المنتسبين الجدد إلى الانتماء إلى حزب التحرير، وحدا بهم إلى مواجهة الإسلاميين عموماً، إظهاراً لقوة ذلك الحزب، وتمكن أفراده من مصطلحات الدين الإسلامي.

ولم يكن ذلك التصرف من طرف تلك القواعد، نابعاً من اجتهادات أولئك الأفراد، بل كانوا مدفوعين بكلِّ قوة من قيادات الحزب نفسه، لما لمسوه من هشاشة في ثقافة القواعد الإسلامية عموماً، وعاملاً يمكنهم من استمالة أعداد منهم إلى حزبهم ونظريتهم.

إلَّا أنَّ المسلم الواعي، سرعان ما يكتشف، أنَّ دعوة حزب التحرير إلى إقامة حكم الله في الأرض، ليست نابعة من فهم حقيقي للأحكام نفسها، ولا إدراك صحيح لنظرية الخلافة أو الإمامة في الأُمَّة، ولا فهم بمقاصد الشريعة وأهدافها، وقد ظهر عجزهم حتى في قراءة التاريخ الإسلامي، عندما اعتبر مؤسسهم، أنَّ عصور الظلام التي أرخت سدولها على الأُمَّة، منذ وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، إلى عصر سقوط الإمبراطورية التركية، الملقبة بالخلافة العثمانية، هي عصور خلافة شرعية، وقد سقطت الخلافة عنده في عهد السلطان عبد الحميد سنة ١٩١٧ ميلادية.

ومن ناحية أُخرى، ترى عناصر ذلك الحزب يعلنون عداءهم للثورة الإسلامية في إيران، ويعتبرونها غير إسلامية، بسبب إعراض أو سكوت قادة الثورة، على مشروع إقامة الخلافة الذي تقدموا به إليهم، وليتهم فهموا أنَّ هنالك فارقاً جوهرياً بين التلفيق الذي يدعون إليه، ونظرية الإمامة التي يعتقدها الجانب الشيعي، كأداة حكم إلهية، باعتبارها أرقى من نظرية الخلافة، فلم يتركوا شيئاً متعلقاً بالثورة والدولة الإسلامية إلَّا وانتقدوه، فلم يسلم منهم بالنقد حتى علم الجمهورية الإسلامية في إيران، وهذا إنْ دلَّ على شيء، فإنَّه يدلُّ على غباء وجهل الناقدين، وعلامة توضح بجلاء بُعد هؤلاء عن العلم والذوق والمنطق.

لقد وجدت نفسي في ساحة تنوعت فيها الاتجاهات، ولم يشكل ذلك التنوع، إلَّا دافعاً نحو مزيد من الانكماش عن الطرف الآخر والرأي الآخر، إلى درجة ظهر العداء، وبرزت الكراهية على سطح العلاقات بين أفراد تلك الجماعات.

وتساءلت عن سبب هذه النفرة التي تدفع إلى حالة من العداء؟ وكنت متصوراً أنَّ هذه الحالة، ليس لها علاقة بالموروث القديم الذي بين أيدينا اليوم، فلم أقحم هذه الفرضية المستبعدة، إلَّا بعد أنْ أعيتني الحيلة في الوصول إلى نتيجة تبرر سبب الفرقة.

لقد حثَّ المولى سبحانه وتعالى المسلمين على الوحدة ونبذ الفرقة، وأكد على

ضرورة رصِّ الصفوف، على المستويين الفكري، باعتبار أنَّ الدين واحد، والبنيوي باعتبار أنَّ الأُمَّة واحدة

قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(٦٧).

وقال أيضاً: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٦٨).

وقال كذلك: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٦٩).

لكنَّ تلك الإلزامات الإلهية، والنصائح النبوية، ذهبت أدراج الرياح، فلم يعرها اهتماماً غير ثلة قليلة، ألزمت أنفسها باتباع الأوامر وتجنب النواهي الإلهية، واضعة نصب أعينها أولوية الأُخوّة ووحدة الصف الإسلامي، أمّا البقية الباقية فقد اتبعت هواها في تحصيل عاجل الدنيا، فركنت إلى أعداء الدين، وهي معتقدة

(٦٧): سورة آل عمران الآية ١٠٣.

(٦٨): سورة آل عمران الآية ١٠٥.

(٦٩): سورة الأنعام الآية ١٥٣.

أنَّهم أولياء أُمورها، فاقتحموا بها المحظور، وأوردوها مورد التشتت والاختلاف، ومارسوا معها سياسة فرق تسد، ولم يتركوها إلَّا وهي شتاتاً متفرقاً، يعتدي بعضه على بعض.

إزاء هذا الاختلاف الشديد بين هذه الفرق المتناحرة، قررت أنْ أبحث عن الطائفة التي تمتلك أداة الوحدة باعتبارها المركز والأصل، فوجدت أنَّ منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام، هو أصل الإسلام المحمّدي، وأنَّ أئمته الكرام عليهم السلام هم أقطاب رحى علوم الدين، من بيوتهم خرجت علوم الإسلام، وعلى أيديهم تخرج أُلوف الفقهاء، وكانوا دائماً مراجع الأُمَّة الإسلامية، في عصور ظهورهم، وتمكنهم من بسط العلوم ونشر الأفكار، التي تجسد حقيقة الدين الإسلامي، خالية من إملاءات الظالمين.

وأروع الأمثلة التي يمكننا ضربها هنا، سلوك الإمام عليٍّ عليه السلام تجاه الغاصبين لحكومته، فقد آثر أبو الحسن عليه السلام السكوت على حقه، عندما طالب به ولم يجد آذاناً صاغية، واختار الإبقاء على وحدة الصف الإسلامي على تمزيقه، ولا تزال مقالته الشهيرة: «**فرأيت أنَّ الصبر على هاتا أحجى**». تتردد شاهدة على تفرد شخصية أمير المؤمنين عليه السلام ورجاحة عقله، ودقة فكره، زادها علواً ورفعةً، إسهاماته في إرشاد الغاصبين وتصحيح أخطائهم، من أجل سلامة

الدين واستحقاقات الأُمَّة الإسلامية.

لقد مثل أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم على مرِّ التاريخ، الدرع الواقي الذي تكسرت عليه أعتى هجمات أعداء الإسلام، من منافقين ومشركين، وبقدر ما سعت أنظمة الظلم والبغي والجور، من أجل تفتيت تماسك المسلمين حول ولاية أهل البيت عليهم السلام، بقدر ما ظهرت لعيان المبصرين حقيقة هذا البيت النبويِّ الطاهر، وما حواه من إشراقات خير، وإمدادات عزم وصمود، ونفحات علم لم يتوصل إليها غيرهم، وكانوا في جميع ذلك سادة الإسلام والمسلمين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

لذلك فإنَّ جلَّ هموم أهل البيت عليهم السلام، كانت منصبة في خانة حفظ الإسلام، وحفظ وحدة صف الأُمَّة، ومن أجلهما امتنعوا عن القيام في وجه الغاصبين لحكومتهم الإلهية.

والدعوة إلى الوحدة الإسلامية والعمل من أجل تحقيقها، مطلب أَسسه الله تعالى في كتابه، ودعا إليه النبيُّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وحثَّ عليه أئمة الهدى من أهل بيته الكرام البررة عليهم السلام، ومسؤولية جسيمة تحملتها أجيال العلماء، وزمر المؤمنين على مرِّ العصور، فلم تظهر دعوة إلى الوحدة الإسلامية، إلَّا

والمسلمون الشيعة قد سبقوا إليها، ودعوا إلى تفعيلها، وإقامتها على الأُسس التي أمر بها البارئ سبحانه وتعالى ليس هذا فقط، بل لقد شكل انضباط المسلمين الشيعة حول علمائهم ومرجعياتهم، السمة البارزة التي ميزتهم عن بقية الخطوط الإسلامية، الفاقدة في أغلبها للمرجعية والانضباط.

ولئن جاءت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، مستشفة من روايات وأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام، حيث انصبت جهودهم وجهود شيعتهم، في إطار بناء تلك الأواصر، ففقهاء أغلب المدارس الفقهية كانوا تلاميذهم إمَّا مباشرة، أو بواسطة عالم من شيعتهم، كما كان سفراء الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف، عثمان بن سعيد العمري، وابنه محمد، وحسين بن روح وعليّ بن محمد السمري، إضافة إلى دورهم المهم في تحقيق التواصل بين الإمام الغائب وأنصاره وشيعته، والنظر في حاجاتهم، مقصد جانب مهم للمسلمين ممّن عايشهم، وشاهد أخلاقهم وورعهم وزهدهم، فكان يلتجئ إليهم الشاكي والملهوف والمحتاج، فيقضون حاجته بقطع النظر عن انتمائه.

إنَّ السمة التي ميزت رواد نهضة العصر الحديث، دعوتهم الملحة للوحدة الإسلامية، والعمل من أجل غرس بذرتها في قلب الأُمَّة الإسلامية، ففي القرن التاسع عشر، عندما كانت الأُمَّة الإسلامية ترزح تحت وطأة التخلف الذي ألمَّ بها،

من جراء ضياع مقاليد الحكم الإسلامي، وسقوطه بين أيدٍ غير كفوءة به، جاء السيد جمال الدين الحسيني الأسد آبادي، الملقب بالأفغاني ليركز ثقافة الوحدة والتوحيد، بين طلائع الأُمَّة الإسلامية من علماء ومتعلمين، واستطاع بلباقته وسعة اطلاعه وتبصره، أنْ يجمع حوله عدداً من العلماء، في كلٍّ من إيران، والعراق، وأفغانستان، والهند، ومصر، وتركيا، وأنْ يؤسس لمشروع الفكر الإسلامي الوحدوي، من خلال ما كان يطرحه من كتابات، في مجلة العروة الوثقى التي صدرت أعدادها القليلة في المهجر (فرنسا)، برفقة الشيخ محمد عبده، ولئن لم يُكتب لتلك التجربة الرائدة النجاح، بتحقيق المطلب الغالي، الذي كان يؤمله السيد الجليل، إلَّا أنَّ الجهد الذي قدمه، والفكرة التي غرسها في ضمائر طليعة الأُمَّة، كان لها الأثر الإيجابي في بناء وعي كامل، وإدراك شامل بواقع الأُمَّة وسبيل نهضتها.

وجاء بعده السيد الأجل عبد الحسين شرف الدين الموسوي، صاحب كتاب المراجعات، الذي أَسس مع جماعة من علماء مصر، أمثال الشيخ حسن البنا، جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، امتداداً لحركة السيد جمال الدين الحسيني، وبناءً على ما كانت قدمته للأُمَّة الإسلامية، من محيطها الهندي إلى محيطها الأطلسي، من الدعوة إلى إرساء روح الأُخوّة والأُلفة، وزرع بذور التعاون والتوادّ والتكافل بين أفراد الأُمَّة، التي تمتلك بين يديها خاتمة الرسالات السماوية، وصفوة الشرائع

الإلهية، والتي جاءت لتصحح انحراف البشرية عن علّة الخلق، وهي التوحيد الخالص لله تعالى، ونبذ ما دونه من أرباب لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، عملاً بالحديث المأثور: «**من استمع إلى ناطق فقد عبده، فإنْ كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإنْ كان الناطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان**».

وجاءت الثورة الإسلامية في إيران، لتعيد إلى الإسلام إشعاعه ورونقه ونوره وفاعليته، بعد قرون الانحسار والانكماش، وكان للإمام السيد الجليل آية الله العظمى روح الله الموسوي الخميني قدس سره، الفضل في جني ثمرة انتصار تلك الثورة الخالدة.

ثمّ جاءت دعوة الإمام الراحل السيد روح الله الموسوي الخميني إلى المسلمين كافة بالتوحد، والعمل على الخروج من عنق الزجاجة، التي وضعهم فيها أعداء الإسلام، بتجزئة الشعوب الإسلامية، وزرع روح الشقاق والفرقة بين كياناتها، ولم يغب تحذيره، ولا خلت تنبيهاته، في كلِّ خطبه التي كان يوجهها إلى الشعب الإيراني على وجه الخصوص، والشعوب الإسلامية على وجه العموم، منها قوله: «ليسمع الجميع هذه الحقيقة، إنَّ أعداء الإسلام يسعون بكلِّ قوّتهم، لإيجاد التفرقة والاختلاف بين المجتمعات الإسلامية، ويسعون بأيِّ وسيلة وتحت أيِّ عنوان، لإيجاد النزاعات بين المسلمين، والتي بتحقيقها تتهيّأ الأرضية الصالحة،

لتسلّطهم الكامل من جديد على جميع الدول الإسلامية، ويساعدهم على ذلك هجومهم لنهب الثروات، ومن هذه الجهة يجب الاحتراز عن أيِّ عمل يؤدي إلى التفرقة وهذا تكليف شرعي وإلهي».

مذكراً في كلمات أُخرى بأنَّ الذي يجمعنا هو التوحيد والنبوة والقرآن أكثر ممّا يفرقنا، ومن الواجب المؤكد على جميع المسلمين، نبذ الاختلاف ومحو آثار الفرقة، من أجل تأسيس المجتمع المسلم المثالي، المتقيد بأحكام الله تعالى، والمنضوي تحت راية العلماء الأعلام.

داعياً جميع تلك الشعوب، مادّاً لها يداً عارفة بالله تعالى، قلّما مدّت مثيلاتها من موقعه: «إنَّني أمدّ يد الأُخوّة لكلِّ الشعوب الإسلامية.. لكلِّ مسلمي العالم في شرق العالم وغربه».

وعمل على إعلان يومي مولد النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، عند المسلمين السنة في الثاني عشر من ربيع الأول، وعند المسلمين الشيعة في السابع عشر منه، أُسبوع الوحدة الإسلامية، في إشارة منه إلى جمال تعايش المسلمين، وإن اختلفت أفكارهم وتباينت قراءاتهم مع بعضهم البعض، فلا ضرر في ذلك ما دام كلُّ طرف متمسك بالعمل بمقتضى حجته، مع احترامه للطرف الآخر، فالساحة الإسلامية تتسع الجميع.

وجاء بعد ذلك السيد الجليل المغيب المغدور موسى الصدر، فرج الله تعالى كربته وفك أسره إنْ كان حياً، أو ألحقه بآبائه الكرام البررة، فدعا بدوره إلى توحيد آليات العمل الإسلامي من فقه وعلماء، لتحذو العامة حذوهم، وتتحرك في ذلك الإطار، فكتب المقالات، ووجه رسائل تضمنت مطلبه ورغبته، منها رسالته إلى الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية جاء فيها:

«في هذه الأيام العصيبة التي تلفّ الأُمَّة بالقلق، وبين يدَي هذه الأخطار المحدِقة التي تجعل المنطقة كلَّها (حاضرها ومستقبلها) في مضرب الطوفان: تبدو لنا بوضوح أكثر فأكثر حاجة المسلمين الملحّة إلى وحدة شاملة، متلاحمة لجمع ما تفرّق من صفوفهم، وتوحيد ما تبعثر من جهودهم، وذلك حتى تتبين لهم مواقع أقدامهم، وتعود الثقة إلى أنفسهم، وهم في طريقهم إلى المستقبل، وأمام بناء تاريخهم وأداء مسؤولياتهم.

إنّ جمع الكلمة وتوحيد الطاقات وتنمية الكفاءات ليس موجبها كونها من أشرف الغايات الدينية ووصية نبيّنا العظيم فحسب، ولكنَّها أيضاً تتصل بوجودنا وكرامتنا، وبمقوّمات وجود أجيالنا، إنَّها مسألة حياتية، ووحدة الكلمة هذه لا ينبغي أنْ تظل شعاراً مرفوعاً، أو كلمة مكتوبة، بل يجب أنْ تكون ومضة الفكر، وخفقة القلب، ودرب السلوك، إنَّها البُعد الأساسي للمستقبل».

ولم تكن هذه الدعوات، ولا هؤلاء الرجال الأفذاذ، حالات استثنائية حصلت في الزمن الحديث، بل كانت امتداداً لحركة وجهود أئمة أهل البيت عليهم السلام من أجل تعميق الفهم القرآني في مسألة الوحدة لدى فئات المسلمين كافة، ومختلف أجناسهم، وتنفيذ البرنامج الريادي الذي أسسه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، في تأصيل روابط الأُخوّة الإسلامية بين جميع المسلمين، ولو لم يكن التأسيس لهذه النعمة منطلقاً من هؤلاء الأخيار، لما أمكن للمتأخرين من رواد نهضة الأُمَّة، أنْ يجدوا طريقاً إلى إقامة تلك القيم العظيمة

وبحثت في فتاوى المراجع والعلماء بشقيهما الشيعي والسني، فوجدت أنَّ جميع علماء الشيعة ومراجعهم، لا يحكمون بتكفير أحد من المسلمين نطق بالشهادتين، بل لا يحكمون بكفر أحد مطلقاً، إلَّا إذا ظهر منه ما ينقض إيمانه، فأجازوا الصلاة وراء أئمة مساجد العامة وعدم إعادتها، وباستثناء الفتوى الشهيرة، التي أصدرها الشيخ محمود شلتوت رحمه الله شيخ الأزهر الشريف، والتي أقرت بأنَّ المذهب الجعفري (المسلمون الشيعة الإمامية الاثنا عشرية) إسلامي صحيح، يجوز لبقية أتباع المذاهب التعبد به، ظهر في الجانب الآخر- والذي جاء صنيعة أنظمة لم تحمل من الإسلام غير المظهر، ومارست شتى أنواع الظلم على الأُمَّة – فقهاء اتبعوا سبيل أسلافهم القدامى، فحكموا بتكفير الشيعة،

واستباحة دمائهم وأموالهم وأعراضهم، واستطاعت الاستخبارات العالمية المعادية للإسلام المحمّدي الأصيل، وأخص بالذكر منها البريطانية، أنْ تنشئ وتدعم في الحجاز محمّد بن عبد الوهاب صاحب المذهب الوهابي الضال، وتجمعه مع محمّد بن سعود حاكم الدرعية، في أسوء تحالف عرفه التاريخ، ليكونا معاً غدة سرطانية خبيثة مستحكمة على أقدس الأماكن الإسلامية (مكة والمدينة)، دفعاً لاحتمال أيِّ نهضة أو عمل من شأنه أنْ يعيد الوعي إلى جسد الأُمَّة الإسلامية، وبالمنحى نفسه ذهبت الاستخبارات الأمريكية، في دعمها لأُسامة بن لادن، أحد عملائها إبان الغزو السوفييتي السابق لأفغانستان، والذي أَسس فيما بعد تنظيم القاعدة في تلك البلاد، والذي هو مبني على أساس ذلك الفكر الوهابي المتحجر، وجند فيه الكتلة العربية في مقاتلة النظام الشيوعي السابق، حيث كانت تلك الاستخبارات تمدّ هؤلاء بصواريخ الستينغر المضادة للطائرات، فيسقطون بها طائرات الميغ السوفييتية المتطورة، ويكذبون علينا فيقولون إنَّهم يسقطونها بأسلحتهم الفردية البسيطة، وانقلب بعد ذلك السحر على الساحر، فإذا عميل الأمس عدو اليوم، كأنَّما هي مسرحية محبوكة الفصول، أراد من ورائها خبراء التجسس، الوصول إلى الهيمنة على العالم الإسلامي، بواسطة هؤلاء الذين رفعوا شعار الجهاد المقدس، وإلَّا فإنَّ العاقل يدرك بكلِّ يسر، بلاهة وبلادة هؤلاء الذين يسمون أنفسهم

مجاهدين، ويتبعون تنظيم القاعدة.

وتبين لي بعد ذلك، وسطية أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، لأنَّه لم يصدر منهم تطرف منذ عصر الإمام عليٍّ عليه السلام إلى اليوم، فكانوا دائماً وأبداً أمثلة للتسامح، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، وكانوا بحق أُنموذجاً يحتذي به كلُّ مسلم عاقل أبي، في مكارم الأخلاق، وحميد الصفات.

ووقفت على أنَّ عالمية الإسلام، لا يوفيها إلَّا فكر أهل البيت عليهم السلام، لأنَّ طرحه متكامل ومستجيب لكلِّ المستجدات والمستحدثات التي طرأت وتطرأ على الناس، فنظرية الحكم الإسلامي المستمدة من الكتاب العزيز، والسنة النبوية الصحيحة المروية من طريق أهل بيت النبوة عليهم السلام، تستجيب لمتطلبات الدين والعصر، في استمرار عطاء الإسلام عبر آلياتهم المباركة، ونظرة ذلك الفكر إلى الإنسان، باعتباره مخلوقاً محترماً، له الحق في أنْ يعيش حياته دون مساس بتفاصيلها الاعتقادية، عملاً بقاعدة لا إكراه في الدين.

وعرفت أنَّ الدين قد بُني بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يبنَ بالقوة والسيفِ والغلبة، وما حققته الدعوة بشقيها النظري والعملي، خير ممّا انتزع تحت ظلال السيوف، ثمّ فرط فيه الأسلاف.

مشكلة المسلمين اليوم، تكمن في التطبيق السليم لأحكام الإسلام السمحة،

وظهور أفراده بمظهر يرغب غير المسلمين في التعرف على الدين الإسلامي، والاقتناع به واعتناقه، وليس الظهور بمظهر المتعسف الذي يرفض منطق الحوار والعلم، ولا يرى طريقاً لعودة الدين إلَّا بالعنف وقتل الأبرياء.

ونحن اليوم نعيش حالة من إثبات الذات وفرض الوجود، ونبحث عن الحضور الفاعل في هذا العالم الذي فرط في إيمانه ومعتقده، وابتعد عن خالقه حتى كاد الأمل في عودة الضال أنْ ينقطع، ومن أجل تحقيق عامل العودة إلى الذات، والمتمثل في تفعيل عامل التقوى في الأنفس، علينا أنْ نلزمها أمام الله تعالى بسلوك منهج النبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وأهل بيته البررة عليهم السلام، ملتفتين إلى أهمية اعتبار النفس عاملة على هذا الدرب، وليست مالكة له، لأنَّ الدين هو دين الله سبحانه وتعالى، والعباد هم عباده، وكلُّ معتقد لملكية ما في هذا الإطار فعليه أنْ يصحح اعتقاده.

مقابل هذه الشمولية الانفتاح والواقعية، التي ظهرت علاماتها على خط أهل البيت عليهم السلام، مني العالم بمجتمعاته كافة، بظهور تيارات تنتسب إلى الإسلام، ولكنَّها بعيدة عنه في تعاملاتها وتطبيقاتها، ترفع شعار الجهاد، وإقامة حكم الله في الأرض بالقوة، تميزت قياداتها بجمود الفكر الذي يحملونه إلى حدِّ التحجر، ورفض الآخر والحكم عليه بلا بينة، فسببت ممارساتها الخاطئة في خلق

حالة من العداء والكراهية للإسلام، وعوض أنْ نتقدم خطوة نحو تعايشٍ وحوارٍ حضاري، وتناغمٍ عقليٍّ بين مختلف الديانات والحضارات، دفعت بنا تلك الجماعات في طريق النفرة التحرز من بعضنا البعض، بينما جاء نداء المولى سبحانه وتعالى آمراً نبيه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، والمسلمين تبعاً له بالتعايش السلمي مع بقية الديانات: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَولوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنا مُسْلِمُونَ ﴾[٧٠].

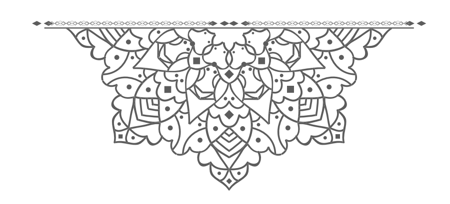
وتوالت الفواجع والكوارث، فمن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر إلى تفجيرات مدريد ولندن، إلى القتل المجاني للمسلمين الشيعة بدعوى أنَّهم كفار، مروراً بالمجازر والانتهاكات التي قام بها هؤلاء الوحوش، في حق قبائل الهزارة الشيعة في كلٍّ من باميان ومزار شريف في أفغانستان، وكلَّما أطلَّ عليك وجه من تلك العصابات أيقنت أنَّه لا يمتلك من الدين حتى المظهر، الذي قد ينبئك بصلاحه وتقواه، فلا ترى غير الوجوه الكالحة، والتقاسيم التي لا ترتسم عادة إلَّا على أقل الجهال، فرأيت اتباع الحق الذي عليه المسلمون الشيعة، فحزمت أمري، وواليت محمداً وآله عليهم أفضل الصلاة والسلام، وتركت ما دونهم قربة إلى الله تعالى.

---

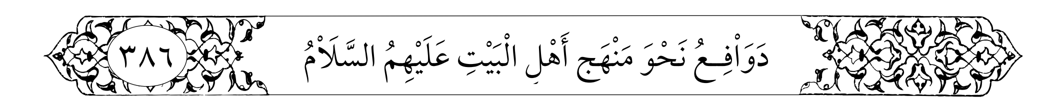
(٧٠): سورة آل عمران الآية ٦٤.

الدافع السابع والعشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيعتني روحية أئمة أهل البيت عليهم السلام



عمار... شخص من وسط المجتمع التونسي، شديد التواضع، بحيث لم يعرف له ترفع أو تعالٍ على غيره، ولعلّ ذلك ناشئ من أصله الذي ينحدر من أهل بيت النبوة، فلا غرابة إذن من تخلق صدر من موضعه، ومع أنَّ الاحترام والتقدير اللذين حازهما من معاشريه، لم يتأتيا من نسبته إلى السادة الأشراف عليهم السلام، بل فرضتهما جملة سلوكياته ومحاسن أخلاقه، تأخرت نسبته إلى الطاهرين عليهم السلام فكراً وعقيدة، بعد أنْ تقدمت نسبته إليهم نسباً، ومردّ ذلك إلى عصور خلت من القمع والإبادة، التي تعرض لها أهل البيت عليهم السلام، وشيعتهم رضوان الله تعالى عليهم، والتي لم يسلم منها حتى من جهل حاله، فلم ينجُ من الفتك والقتل الذريع، سوى القليل ممّن لاذ بالصحارى النائية أو الجبال الوعرة، هرباً بأنفسهم ونجاةً بأرواحهم، فلزموا تلك الأماكن النائية، خوفاً من بطش الظالمين وأعوانهم،

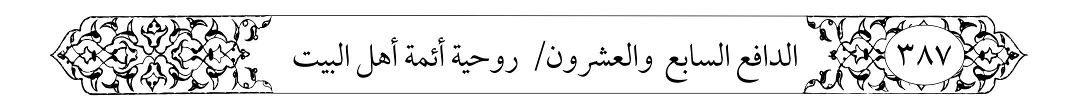


المعتدين على حقوق أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

لم يكن في بداية تدينه يأبه لمذهب من المذاهب، لذلك لم يخالطه تعصب مريض، فلم يستند إلى فئة أو طائفة من الطوائف السنية الأربع...

كنت في أواسط الثمانينات من الذين تحمسوا للدين الإسلامي، فوجدت نفسي مندفعاً وتشرفت بالانتساب إلى الحركة الإسلامية التي عرفت بالاتجاه الإسلامي، على الرغم من أنَّ بداية التزامي بالإسلام لم تكن متأخرة، فإنَّني لم أكن فيها بذلك النضج والفهم الذي أصبحت عليه منذ مدّة، وذلك عائد تحديداً إلى خصلة ميزت شخصيتي، تمثلت في حبي للمعرفة، وولعي باستشراف الحقائق والتطلع إليها، مهما صغرت وتضاءلت من حيث قيمتها، لذلك بنيت عقلي على عدم الخضوع لفكرة والإقرار بها، إلَّا إذا اجتمعت لدي قرائنها، ووقفت على مدى صحتها.

اهتممت في البداية بالتاريخ الإسلامي، فوجدته مؤلفاً تأليفاً غلب عليه الطابع الانتمائي، على المستويين المذهبي والعرقي، جاء محتواه مؤرخاً للخلفاء والملوك، متجاهلاً العناصر المؤثرة، التي صنعت الأحداث الرائعة في الأزمنة التي خلت، وهي طبقات الناس الفاعلة في حركة التاريخ، وفئات الرجال الذين قدمهم الله سبحانه وتعالى، أمثلة ونماذج يمكن للبشرية أنْ تحذو حذوها، وكان من المفترض مثلاً أنْ يكتب التاريخ، باعتماد مبدأ حركة الرسل والرسالات فيه، وهو أمر لم يحصل، اللَّهمَّ



إلَّا إذا تتناولنا القراءة التاريخية التي قدمها الوحي لتكون عبرة للناس.

كنت مولعاً بالكتب إلى أبعد حدٍّ، فلم يمنعني مانع من مطالعة أيِّ كتاب ينال إعجابي، وتتبعت مكتباته ومعارضه، إلى درجة أنفقت فيها جزءاً مهماً من أموالي، ودفعني عشقي للكتاب إلى أنْ أجعل جلَّ نفقاتي متجهة إليه، فلم ألتفت إلى بقية متطلبات الحياة، إلَّا بشحٍّ وتقتيرٍ كبيرين.

عند اقتراب موعد افتتاح المعرض الدولي للكتاب، الذي يلتئم بالعاصمة التونسية، اتفقت مع أحد الأصدقاء على الذهاب إليه، على متن سيارته الخاصة، فوافق على مقترحي، لأنَّه هو أيضاً من المولعين باقتناء ومطالعة الكتب، ومواكبة النهضة الثقافية العالمية على وجه العموم، والإسلامية على وجه الخصوص.

في إحدى دور النشر المشرقية المشاركة، استقطبت اهتمامي عناوين كتب مصففة على رفوف العرض في جناح تلك الدار، لم تترك لي مجالاً لتجاوزها والبحث عن غيرها، فمددت يدي لتصفح أولها وهي الصحيفة السجادية، للإمام زين العابدين عليه السلام، فانبهرت بما بين دفتي الكتاب من جوامع الكلم، وعظمة الدعاء المبوّب فيه، وتناسق ألفاظه، ودقة معانيه، وعمق مطالبه، والذي لم أقرأ عنه من قبل ولا سمعت به، على مدى سني مطالعاتي، ولا حتى في المساجد التي كنت أرتادها مدة طويلة، وأُصلي فيها جماعة الصلوات الخمس، أصابتني دهشة كبرى لما

وقعت عليه عيناي، واستغربت من تجاهل المسلمين -الذين أعيش بينهم- لهذه الأدعية وتجنبهم لها، ثمّ التفت إلى كتاب آخر يحمل عنوان مهج الدعوات، وهو مجلد كبير جمع فيه مؤلفه السيد ابن طاووس رضوان الله تعالى عليه، لباب الأدعية وزبدتها، نقلاً عن النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، والأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام، وامتدت يدي إلى كتاب البلد الأمين للكفعمي، ثمّ إلى كتاب مصباح المتهجد للشيخ الطوسي، ثمّ إلى كتاب مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي، ثمّ إلى كتاب جمال الأسبوع والإقبال للسيد ابن طاووس، وغيرها من كتب الأدعية التي وجدتها إلى حدٍّ يزيد عن الكفاية.

لم يعد للوقت عندي قيمة في تلك اللحظات، فقد ذهلت عنها بما عثرت عليه من ذخائر لا تقدر بقيمة، وبقدر ما تملكني إحساس بالفرح لما عثرت عليه، بقدر ما علت نفسي كآبة وحزن، على الإهمال والتجاهل لهذا التراث العظيم، الذي بقي المسلمون الشيعة ينعمون به لوحدهم قروناً طويلة، وتمنيت لو أنَّ هذه الأدعية والمناجيات كانت منحة لجميع أهل الإسلام، ومتاحة لأهل القبلة كافة، ولكنْ ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه، فالمانع الذي حال دون ذلك، هي الأنظمة المتعاقبة على رقاب المسلمين، والمتسلطة بالحديد والنار، والتي حكمت على أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم بالخروج عن سلطانها، فأعلنت الحرب عليهم بكلِّ الوسائل،

والتي منها حرق ذلك التراث، ومنع تداوله بين المسلمين، وإرهاب أو قتل كلِّ من تجرأ على عصيان أمر ذلك الحظر.

من الأمثلة التي يمكنني أنْ أسوقها للتعريف بعظمة دعاء أئمة أهل البيت عليهم السلام، دعاء كميل الذي علمه أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام، صاحبه كميل بن زياد النخعي، والذي يجتمع المسلمون الشيعة عقب صلاة العشاء ليلة الجمعة للدعاء به، ودعاء الصباح، ودعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، ودعاء السحر الكبير للإمام زين العابدين، واختصاراً لمطلب التعريف، رأيت أنْ أنقل إلى السامعين، هذه المناجاة الرائعة للإمام عليٍّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«يا من إذا سأله عبد أعطاه، وإذا أمّل ما عنده بلغه مناه، وإذا أقبل عليه قربه وأدناه، وإذا جاهره بالعصيان ستر على ذنبه وغطاه، وإذا توكل عليه أحسبه وكفاه، إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قريته، ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته، أيحسن أنْ أرجع عن بابك بالخيبة مصروفاً، ولست أعرف سواك مولى بالإحسان موصوفاً، كيف أرجو غيرك؟ والخير كلُّه بيدك، وكيف أؤمل سواك؟ والخلق والأمر لك، أأقطع رجائي منك؟ وقد أوليتني ما لم أسأله من فضلك، أم تفقرني إلى مثلي؟ وأنا اعتصم بحبلك، يا من سعد برحمته القاصدون، ولم يشق بنقمته المستغفرون، كيف

أنساك ولم تزل ذاكري؟ وكيف ألهو عنك؟ وأنت مراقبي، إلهي بذيل كرمك أعلقت يدي، ولنيل عطاياك بسطت أملي، فأخلصني بخالصة توحيدك، واجعلني من صفوة عبيدك، يا من كلُّ هارب إليه يلتجئ، وكلُّ طالب إياه يرتجي، يا خير مرجو، ويا أكرم مدعو، ويا من لا يرد سائله، ولا يخيب آمله، يا من بابه مفتوح لداعيه، وحجابه مرفوع لراجيه، أسألك بكرمك أنْ تمنَّ عليَّ من عطائك بما تقرّ به عيني، ومن رجائك بما تطمئن به نفسي، ومن اليقين بما تهون به عليَّ مصيبات الدنيا، وتجلو به عن بصيرتي غشوات العمى، برحمتك يا أرحم الراحمين»(٧١).

لم أكن أعرف عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ذلك الوقت شيئاً يستحق الذكر، فقد غاب أثرهم في خضم الصحابة، ولم يعد لهم مكان مع الذين حكموا المسلمين منهم.

اقتربت من العارض وكان لبنانياً، فقلت له أصحيح نسبة هذه الأدعية إلى أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؟ فقال: هذا شيء مؤكد، وتداولته الأجيال، وتقبلته بالتصديق والعمل، لكنْ لماذا سألتني هذا السؤال الغريب؟

قلت له: لأنَّنا لا نجد شيئاً من هذه الكنوز العظيمة، والخيرات العميمة في تراثنا، رغم أنَّه منسوب إلى سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؟

---

(٧١): الصحيفة السجادية.

فقال: لعلَّ ذلك راجع إلى الإهمال الذي لاقاه فكر أهل البيت عليهم السلام، من أتباع خط الأنظمة التي حمت رقاب أسلافنا.

وأومأت إليه برأسي موافقاً على عزوه، وواصلت بحثي عن الكتب من خلال ما توحي به عناوينها.

ومن خلال تصفحي لتلك المؤلفات، وقفت على شدّة اهتمام أصحابها بتدوين كلِّ الأدعية، التي سمعت من بيت مهبط الوحي ومختلف الملائكة، ولقد تتبع كلَّ تلك الكنوز العظيمة، هؤلاء العلماء الأفذاذ وغيرهم، واستطاع منهم أنْ يخرجوا ذلك كلَّه، في كتب تحتوي على أعمال وعبادات وآداب حول كامل، من مسنونات ومستحبات وتعقيبات، تسهيلاً وتمكيناً للراغبين في اتباع آثار النبيِّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

قفز إلى ذاكرتي حديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**الدعاء مخ العبادة**» ووقفت على حقيقة أطلت عليَّ من خلال صفحات الأدعية، التي كنت أتأمل فيها تقول: إنَّني كنت أعبد الله سبحانه وتعالى بلا مخ وبلا روح أيضاً.

والتفت إلى كتاب آخر استدرجني عنوانه، كأنَّما ينادي أعماق روحي: الآداب المعنوية للصلاة. للإمام الراحل مجدد الدين، ومؤسس الثورة والدولة الإسلامية

المباركة في إيران، رضوان الله تعالى عليه وطيب ثراه، تركت ما في يدي، وانهمكت فيه تصفحاً وقراءةً سريعةً في فهرسه وبعض أبوابه، فتملكتني حيرة، وأخذتني دهشة، رباه.. ما هذا..؟ أيُّ دين هذا؟ وأيُّ نوع من الناس هؤلاء..؟ ولماذا حيل بيننا وبين هذه الخيرات والنعم العميمة؟

أهكذا كان يصلِّي النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأهل بيته الكرام عليهم السلام؟ أهذه هي فعلاً أدعية الأطهار الذين كانوا بحق الأمثلة الحقيقية، والنماذج التي بقيت حية أبد الدهر؟ لا شك أنَّ الذي دعاه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بباب مدينة علومه وأهل بيته عليهم السلام، أقدر على استيعاب الدين الإسلامي، وتقديم شعائره بالشكل الصحيح من غيرهم، وانتقلت تلك المعارف والتطبيقات إلى ذريتهم وشيعتهم.

سألت عن اللغة التي كتب بها هذا الرجل الفذ، فقيل لي إنَّها لغة العرفان ومنطق العارفين، ليست متاحة، إلَّا للذين أناخوا رحالهم في فناء الزهد والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، وقد رأيت أنْ أنقل إليكم نبذة من كلامه.(ثمّ أخرج من بين طيات ثيابه ورقة) يقول قدس سرّه الشريف في بيان المعاني الروحية والأسرار العرفانية، لسنن التكبيرات الست التي تسبق تكبيرة الإحرام، عند سفر العبد إلى ملكوت العزة وفناء الطاعة:

(فأنت يا أيها السالك إلى الله، والمجاهد في سبيل الله، إذا أقمت الصلب في محضر القرب، وأخلصت النية في جانب العزلة، وصفيت قلبك ودخلت زمرة أهل الوفاء، فهيئ نفسك لدخول الباب، واطلب إجازة فتح الأبواب، وتحرك من منزل الطبيعة، وارفع حجابها الغليظ، بالتمسك بمقام الكبرياء، وارمه وراء ظهرك، وكبر وادخل الحجاب، وارفعه إلى الوراء، وارفع الحجاب الثالث، فقد وصلت إلى منزل القلب، فقف واقرأ الدعاء المأثور «**اللَّهمَّ أنت الملك الحق المبين، لا إله إلَّا أنت سبحانك وبحمدك، ظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي، فإنَّه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت**»

واسلب المالكية عن غير الحق، واحصر مطلق التصرفات بتلك الآيات المقدسة، كي لا تحسب نفسك رافعاً للحجاب، ولائقاً لتكبير الحق، فإنَّه أكبر من أنْ يوصف.

ثمّ اقصر الألوهية على الحق، واطلب غفران ذنوبك، ثمّ ارفع الحجاب الرابع والخامس، وارمه إلى الخلف، وكرر التكبير، وافتح عين قلبك حتى تسمع النداء، (تقدم) فإنْ ظهر في قلبك حلاوة المحضر، ولذّة الورود أو هيبة الحضور وعظمته، فاعلم أنَّه قد صدرت رخصة الورود من جانب الغيب، فقل في مجال الخوف والرجاء والابتهال والتبتل والتضرع «**لبيك وسعديك، الخير في يديك، والشرّ ليس إليك، المهدي من هديت، عبدك وابن عبديك، منك وبك وإليك، لا منجى ولا**

ملجأ منك إلَّا إليك، سبحانك وحنانيك، تباركت وتعاليت، سبحانك ربِّ البيت الحرام». وتفكر في حقائق هذه الأذكار الشريفة، فإنَّ فيها أبواباً من المعارف، وفي الوقت نفسه فيها أدب الحضور، وبعد تسبيح الحق، وتنزيه مقامه المقدس، عن جواز التوصيف، ارفع الحجاب السادس وكبر، فإنْ رأيتك لائقاً، فارفع الحجاب السابع، وهو اللطيفة السابعة، وإلَّا فقف واقرع باب إحسان الحق، واعترف عن القلب بإساءتك وقل «**يا محسن قد أتاك المسيء**» وتوجه بأنْ تكون صادقاً حقيقة، وإلَّا فكن حذراً وخائفاً من النفاق، في محضر ذي الجلال، ثمّ بعد ذلك ارفع الحجاب السابع، وارمه وراءك برفع اليد وقل تكبيرة الإحرام، واعرف نفسك محرومة عن الغير، فقد دخلت حرم الكبرياء، فقل «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين...**» واعلم بأنَّك على خطر عظيم، وهو النفاق في أول العبادة، في محضر عالم السرِّ والخفيات، وإذا رأيت نفسك عارياً عن هذه المقامات، فالكاتب المحجوب عن كلِّ كمال ومعرفة، والمقيد بعلائق الدنيا، وحبِّ النفس والمشغول بالشهوة والغضب، فلا تفضح نفسك في محضر الحق والملائكة المقربين، واعترف بنقصك وعجزك، وكن على خجل من قصورك واحتجابك، وادخل بانكسار القلب والانفعال والخجلة، واقرأ الأذكار على لسان الأولياء، فإنَّك لست لائقاً لها، لأنَّه ما لم تترك نفسك والعالمين، لم تكن صادقاً في

هذه الأقوال، وما لم تسلم تسليماً حقيقياً بين يدي الله لم تكن مسلماً، وما دمت رائياً نفسك، لم تخرج عن حدود الشرك.. وما لم تكن فانياً مطلقاً في جناب الحق لم تستطع أنْ تقول «**إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين**»، فإنْ لم تجد نفسك بطل هذا الميدان، فلا تدخل في صف أهل المعرفة أصلاً، ولا توجب خجلتك عند الأحرار، فعن الصادق عليه السلام قال: «**كبرت فاستصغر ما بين العلا والثرى دون كبريائه، فإنَّ الله إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره، قال: يا كاذب أتخدعني؟ وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري، ولأحجبنك عن قربي، والمسارّة بمناجاتي**».

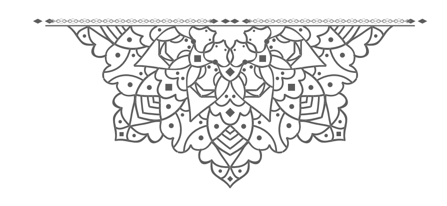
اختبر أنت قلبك حين صلاتك، فإنْ كنت تجد حلاوتها، وفي نفسك سرورها وبهجتها، وقلبك مسرور بمناجاته، وملتذ بمخاطباته، فاعلم أنَّه قد صدقك في تكبيرك له، وإلَّا فقد عرفت من سلب لذّة المناجاة، وحرمان حلاوة العبادة، أنَّه دليل على تكذيب الله لك، وطردك من بابه.

فقررت أنْ أشتري كلَّ تلك العناوين وآخذها معي، ولما لم يكن معي المال الكافي، استقرضت صديقي ما نقصني فأقرضني، لإتمام بقية حساب كتبي التي اقتنيتها.

وعدت إلى بيتي بتلك الكنوز التي لا تقدر بثمن، ثمّ عكفت عليها قراءة وتدبراً، فوقفت على أنَّ الإسلام الذي قدمه أهل البيت عليهم السلام للأُمَّة الإسلامية، نقلاً عن جدِّهم الرسول الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلم، هو الإسلام الصافي الذي لم تشبه شائبة التحريف، ولا مسّته أيدي المزورين، الدين الخاتم الحق الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلم، وتركه لأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، باعتبارهم وعاته وحفظته والقائمين به صدقاً وعدلاً، فلم أتردد في موالاتهم واتباعهم ومحبتهم، والإيمان إيماناً جازماً بأنَّهم الأئمة الهداة، الذين بفضلهم حافظ الدين على نقاوته، وتواصل عطاؤه رغم كلِّ المحاولات التي أرادت القضاء عليه، وذلك دليل آخر على ربانية هؤلاء الأطهار عليهم السلام وشيطانية محاربيهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الدافع الثامن والعشرون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيعتني فطرتي وكتاب المراجعات



ما إنْ أتمَّ عمار... إفادته، وأدلى بشهادته، حتى أخذت الكلمة، فشكرت جميع من حضر من الإخوة، على ما أبدوه من شهادات لله تعالى، ولرسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ولأهل البيت عليهم السلام، وللمسلمين الذين ما يزالون بعيدين عن منهاج أهل البيت عليهم السلام، وللتاريخ الذي لم يرق إليه الدنس، متوجاً جملة الإفادات بإفادتي أنا أيضاً فقلت:

عرفت الإسلام صغيراً في كنف عائلتي المحافظة، القادمة من تخوم شط الجريد، ومن فطناسة، إحدى القرى الصحراوية النائية من ولاية قبلي، فكنت أُصلي وأصوم، بأمر وإرشاد وتوجيه من أبي وأُمِّي.

منذ أنْ بدأت أُدرك، وفي سنواتي الأُولى من المدرسة الابتدائية، كنت أتردد على بيت أحد رفاق الدراسة، الذي كانت تشدني إلى بيت أُسرته، صورة ملكت عليَّ

جميع أحاسيسي، وشدتني إلى عالم من الخيال والتأمل، فكنت أسرح معها بعيداً، في عالم ذلك الفارس العظيم، الذي كتب إلى جانب صورته، عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام، على فرس أبيض، قد نط برجليه الأماميتين في الفضاء، وهو يوجه ضربته القاضية إلى فارس آخر، كتب عليه رأس الغول، وقد سالت الدماء منه، انطبعت تلك الصورة في أعماق نفسي، لأنَّني قد وجدت أخيراً ما يلامس الحكايات، التي كانت جدتي لأُمِّي (واسمها زهرة) رحمها الله تحكيها لي ولإخوتي، عن سيدنا عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، ومعاركه الحاسمة مع - رأس الغول - وقد علمت فيما بعد أنَّه عمرو بن عبد ود، وأنَّ المعركة كانت غزوة الخندق - جدتي كانت تُكبر الإمام عليه السلام، وتصفه بحيدرة الأحمر - نسبة إلى ندرة مثيله كندرة الكبريت الأحمر- وحكاياتها كلَّ ليلة من ليالي الصيف أو الشتاء لا تنتهي، وكنا نأوي إليها بعد العشاء، فتحكي لنا عن ذلك الرجل العظيم، وتروي قصصاً من بطولاته، فنرهف لها السمع، ونسكن حولها كأنَّنا كبار عاقلون، وكأنَّ البيت لم يعد يحوي أطفالاً، لا يهدؤون من اللهو واللعب والعبث.

يمكن اعتبار أنَّ جدتي هي التي عرفتني بالإمام عليٍّ عليه السلام، وتحديداً عرفتني بجانب الرجولة والبطولة فيه، وكانت الصورة التي شاهدتها متزامنة مع فترة الحكايات عنه، فكنت أستغل الفرصة، كلَّما قصدت بيت رفيق الدراسة،

لأمكث أكبر وقت ممكن أمام تلك الصورة المعبرة.

كبرت وكبرت معي أحلامي وآمالي، ولم يكبر تديني، لسبب لم أفهمه في تلك الفترة من عمري، إلَّا بعد أنْ تشيعت لأئمة أهل البيت عليهم السلام، واعتنقت إسلامهم النقي الصافي من دنس المحرفين، وهو أنَّ التدين الوراثي، قاصر عن تقديم الحجج والأدلة والبراهين، المؤيدة لهذه العقيدة أو تلك الشعيرة، ممّا أثر سلباً في المتدينين بالوراثة، فعجزوا عن الدفاع عن عقائدهم، أمام ادعاءات خصومهم من أتباع الأفكار المادية والعلمانية.

ومع انتمائي العقائدي، الذي غلب عليه الطابع الوراثي، أخذت عن والدي الكريم، أعزّه الله وأبقاه، روحية الثورة والحماسة والشجاعة والرجولة والكرم، وهي خصال شهد له بها القريب والبعيد، حتى أصبح مضرب مثل من عايشه عن قرب.

وقد كانت تلك الخصال دافعاً لوالدي - الذي تربى يتيماً - في مقاومة الاستعمار الفرنسي، والانخراط في صفوف الثوار، وحمل السلاح دفاعاً عن البلاد، والقيم والمبادئ التي تربَّى عليها، وعن والدي أخذت تلك الخصال، وبه اقتديت، وكانت بذرة رفض الظلم، وعدم الخضوع والاستكانة له، هي التي ميزت شخصيتي، وهي التي كان لها الأثر البالغ، في نمو الحس الإنساني في داخلي، وتحولت البذرة إلى شجرة مورقة، ضاربة العروق في أعماق عقلي وقلبي وكياني،

وأينعت ثمارها في ضميري، قناعة لا تتزحزح أبداً، من أنَّ الظلم والظالمين ليس لهم مكان في شخصي وفي حياتي؛ لذلك فإنَّني أتقرب إلى الله تعالى بكرههم وبغضهم، والبراءة منهم ومقارعتهم لو أجد لهم قوة.

واستقلت البلاد (ظاهراً) وصدقنا وصدق الناس، وبعد مرور فترة قصيرة على ذلك، سقط القناع عن النظام البورقيبي وظهر ضيق أُفقه، وانكشفت تبعيته لفرنسا، وبان عداؤه للدين الإسلامي، وبدأت مظالمه وتعسفاته وممارساته الفاسدة، تتكشف يوماً بعد يوم، ولم تكن بقية مكونات الشعب التونسي، لتقف على حقيقة ما يجري في كواليس السلطة، لولا وجود ثلة من المثقفين، أخذت على عهدتها فضح ممارسات النظام، وتوعية أفراد الشعب، ومقاومة تلك المظالم بالتظاهر والكتابة والخطابة، وفي غياب التدين الواعي، لم يجرؤ المتدينون بالوراثة على فعل شيء، ولولا التحرك الطلابي والنقابي، على الساحة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لما أمكن فضح عمالة النظام البورقيبي، وتواطئه مع القوى الاستعمارية، في تهميش قدرات البلاد، واستنزاف طاقاتها، من أجل تفاهات أعياد الميلاد، التي كانت تقام على نخب الزعيم الأوحد للبلاد، والصفقات المشبوهة التي كانت تبرم مع الشركات الكبرى، الداعمة لتلك القوى.

في ذلك الوقت، لم يكن في الساحة السياسية إسلاميون، لأنَّ الإسلام السائد

هو إسلام ليس فيه سياسة، ويعتبر أصحابه (علماء وعامة) أنَّها ليست من الدين في شيء، فقصارى جهد فقهاء المذهب المالكي، لا يتجاوز إطار السلطة مهما كانت، فموالاتها والعمل تحت ظلها واجب عندهم، وإنْ أظهر الحاكم ظلمه وفسقه، وكثرت جرائمه.

لذلك فإنَّني وباعتبار النفس الثوري الذي خالط كياني، كنت متحمساً للوقوف في وجه الظلم والظالمين، غير مهتم بالنتيجة التي قد تسفر عنها تلك المواجهة، ولم أجد غير اليساريين في تلك الفترة، يعملون بلا كلل ولا ملل ضدَّ النظام، ويسعون من أجل إسقاطه سلمياً، وإنْ كان طرحهم العسكري وارد أيضاً، فمنظومتهم فيها نماذج من الثورات التي اعتمدت الحلَّ العسكري، للوصول إلى السلطة ونيل الحكم، وأمثلته الثورة البلشفية، وثورة ماو تسي تونغ، والثورة الكوبية تحت قيادة كاسترو.

كانت تربطني ببعضهم علاقات صداقة وزمالة في الدراسة، اقترحوا عليَّ فكرة طبع وتوزيع مناشير مناهضة للنظام، فوافقت على الفور ودون تفكير، كان ذلك ربيع سنة ١٩٧٤م في مدينة بنزرت، وتسببت تلك المناشير في تأجيل زيارة الرئيس ٢٤ ساعة عن موعدها المقرر، واعتقل المشاركون كافة، وكنت آخر المعتقلين، فقد تمكنت ليلة توزيع المناشير، من الإفلات من كمين الشرطة، بينما وقع

رفيقي في قبضتهم، وتبين بعد ذلك أنَّه هو الذي أبلغ عنا، لأنَّه قد أُطلق سراحه في اليوم نفسه، ولم يرافقنا إلى وزارة الداخلية، ولا إلى المحكمة، ولا ظهر له اسم ولا رسم في دفاتر البحث.

لم يضغط عليَّ والدي من أجل تسليمي، اتصل بي في المكان الوحيد الذي تصور أنْ يجدني فيه، وخيرني بين أنْ أُغادر البلاد، أو مرافقته إلى الشرطة، لكنَّني خيرت أنْ أُرافقه إلى الشرطة، من أجل سلامة العائلة.

أخذني أبي إلى البيت حيث غيرت ملابسي، ومنه إلى مركز الشرطة، وهناك وجدت رفاقي قد اعترفوا تفصيلاً بالعملية، فما كان مني إلَّا أنْ اعترفت بما قمت به، وفي اليوم نفسه نُقلنا إلى وزارة الداخلية، ومنها إلى السجن المدني، وبعد ذلك حوكمت بسنة سجناً من أجل طبع وتوزيع مناشير مناهضة للنظام، ومحرضة على الثورة.

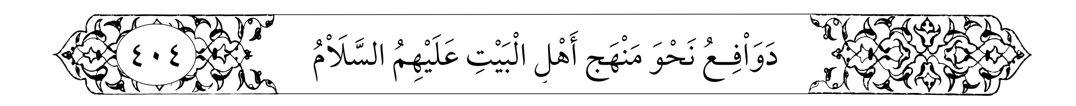
عرفت السجن من الداخل، وشتان ما بين من رأى السجن من خارجه، وبين من عاينه من الداخل، وعاش فترة من عمره بين جدرانه وزنزاناته، لم يكن ذلك ليفلّ من عزمي، ولا ليحبط معنوياتي، فقد وجدت الإحاطة من والدي، الذي طيب خاطري في أول زيارة لي بالسجن، فكان ذلك الشحن المعنوي دافعاً قوياً لي، لتحدي الظلم بكلِّ أشكاله، وعدت إلى الزنزانة بعد تلك الزيارة، وأنا أكاد أطير

من الفرح، لما استشعرته من ذلك القلب الكبير، الذي رباني على مكارم الأخلاق، ورفعة القيم الإسلامية، فلم أشعر بالنقيصة وأنا بين السجان وجدران الزنزانة، وتحول الضيق إلى فضاء رحب من التفكر والرجاء، إلى أنْ صدر مرسوم رئاسي قضى بإطلاق سراحنا، قبل أشهر من نهاية العقوبة، ووجدت نفسي من جديد في معترك الحياة، بعيداً عن الدراسة، وأجوائها المليئة حركة وحياة.

عدت إلى مدينة قابس سنة ١٩٨٠م بعد أنْ فارقتها سنة ١٩٦٣م، كأنَّما قدر لي أنْ أعود إلى أجواء الصورة التي كنت شاهدتها في صغري، وأجواء حكايات جدتي رحمها الله، عن الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، وكأنَّما قدّر لتلك البقعة أنْ تكون، منطلق الرؤية والتصور الجديد عن الإمام عليه السلام.

كنت أعرف جيداً أنَّ لي بها ابن عم، وكان أول عمل قمت به عند وصولي، التوجه إليه وزيارته، فاستقبلني ورحب بي، وأعلمته بأنَّني جئت أبحث عن عمل يناسب اختصاصي، ولم يدم بحثي طويلاً، إذ سرعان ما وجدت عملاً في إحدى شركاتها الكبرى.

وباشرت عملي بحمد الله تعالى، وكان عليَّ أنْ أتزوج سريعاً، فقد بلغت من العمر ٢٧ سنة، وتزوجت في صيف تلك السنة مودعاً العزوبية، واستقررت في بيت مستقل أنا وزوجتي، تقاسمت فيه معها تقلبات الزمن، وابتلاءات قضاء وقدر



الله تعالى، ورزقنا ذرية طيبة، والحمد له على نعمائه التي لا تحصى.

في تلك الفترة كنت أتردد على ابن عمي، وكان فيما مضى منتمياً إلى حركة الاتجاه الإسلامي، التي عرفت فيما بعد بحركة النهضة، لكنَّه وبسبب خلاف حصل بينه وبين قياداتها، انفصل عنها، وبدأ بحثه عن بديل مقنع، يعوض انتماءه القديم، إلَّا أنَّني لم أُواكب سفراته التي قام بها إلى أقطاب الطرق الصوفية، وحدثني عنها حديثاً عابراً، لأنَّها لم تحرك فيه رغبة بالانتماء إليها، ولم تقنعه في فصلها الواضح للدين عن الحياة.

في أحد الأيام، قصدت بيت ابن عمّي ولما انتهيت إليه، حدثني قائلاً: هل تعرف شيئاً عن الشيعة؟

فأجبته بالنفي. فقال: لقد كنت ذهبت منذ مدّة إلى مدينة قفصة (مدينة تقع غرب مدينة قابس، وتبعد عنها ١٤٦ كليومتراً تمتاز بمناخ جبلي صحراوي، يغلب عليه البرد الشديد في الشتاء، والحرارة المرتفعة في الصيف) لمقابلة الشيخ التيجاني السماوي، والتعرف على المذهب الشيعي الذي اعتنقه منذ سنوات، عن طريق أحد الإخوة العراقيين، وعاد إلى تونس وهو يدعو الناس إليه. فقلت له: وهل أخذت فكرة جيدة عن التشيع منه؟

فقال: لقد تناقشت معه حول عدد من المسائل، ولكنَّني لم أقتنع بكلامه،

فعدت منه مشوش الفكر متشككاً، على أمل البحث.

قلت: وكيف يتسنى لك ذلك، وكتب الشيعة غير موجودة عندنا؟

قال: القضية ليست متعلقة بكتب الشيعة، لأنَّ ما احتج به الشيخ التيجاني عليَّ، لم يخرج من دائرة السنة التي أنتمي إليها، فكتب الصحاح والمدونات الروائية السنية الأُخرى، هي المصادر التي كان يحتج بها عليَّ، وهي عندي في مكتبتي (سكت قليلاً ثمَّ قال): لقد أرسل إليَّ الشيخ التيجاني السماوي منذ أيام كتابين، الأول هو كتاب المراجعات، للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، رضوان الله تعالى عليه، والثاني كتاب دلائل الصدق، للشيخ المظفر، رضوان الله تعالى عليه، وتدفعني الآن رغبة في مطالعتهما، فهل ترافقني في التعرف على هذا الفكر؟ فوافقته على الفور، وجرت إجابتي على لساني بسرعة، كأنَّما هناك شيء يدفعها إلى الموافقة دفعاً.

كان ذلك صيف سنة ١٩٨١م، مع العلم أنَّني كنت منتمياً إلى حركة الاتجاه الإسلامي إلى غاية تلك الفترة، فلمّا تشيعت وأعلنت تشيعي إلى أعضاء تلك الحركة، وجدت منهم فتوراً وعدم توافق في الرأي، فانقطعت عنهم.

بدأت جلسات مطالعة كتاب المراجعات، فإذا هو كتاب يحتوي على لقاءات ومراسلات، جرت بين السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي

(١٨٧٣/ ١٩٥٧م)، وشيخ جامع الأزهر في تلك الفترة، المدعو الشيخ سليم البشري (١٨٣٣/ ١٩١٦م)، يعني أنَّه حوار ونقاش بين عالمين: الأول شيعي عراقي المولد لبناني النشأة، ينحدر نسبه إلى الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليهما السلام، والثاني مصري النشأة والمولد، قلد مشيخة الأزهر الشريف في تلك الفترة من الزمن، كان لقاؤهما الأول في القاهرة، وتعدد اللقاء للودّ الذي نشأ بينهما، والرابطة التي اتفقت رغبتهما على إنشائها فيما بعد، للتقريب بين المدارس الفقهية الإسلامية، والتأسيس لروح الأُخوّة الإسلامية، في شكل رابطة التقريب بين المذاهب الإسلامية، هذه التي نتمنى أنْ تعمّ علماء الأُمَّة الإسلامية كافة، لتجني من ورائها وحدة الكلمة والصف.

كان الحوار علمياً إلى أبعد الحدود، تكتنفه أخلاق الرجلين الإسلامية، وكان الشرط الذي وضعه شيخ الأزهر، هو الاستدلال على أحقية الإمام عليٍّ عليه السلام على إمامته العامة، وولايته لأُمور المسلمين، التي قلده النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إياها، من خلال اعتماد النصوص الصحيحة، المدونة عند أهل السنة في كتبهم المشهورة، باعتبار أنَّ قراءة تلك النصوص من المنظور السني، لم تسفر إلَّا على نتيجة مخالفة تماماً، لما وصل إليه أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من حقائق.

بدأنا في قراءة المراجعات مراجعة مراجعة، فكنت كلَّما انقضى الزمن

المخصص للمطالعة، إلَّا وغادرت بيت ابن عمِّي متلهفاً إلى الموعد القادم، ورأيتني في تلك الأيام أكثر تحفزاً وأشدّ حماسة، وأدق موعداً، وأرهف حساً من قبل، ولم نأتِ على آخر صفحات كتاب المراجعات، إلَّا وقد تيقنت تمام اليقين، بأحقية الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام في قيادة الأُمَّة الإسلامية، بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

استطاع صاحب كتاب المراجعات، أنْ يثبت من خلال النصوص التي استدل عليها من مصادر أهل السنة، أحقية الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام في الإمامة العامة، باعتباره المؤهل أكثر من غيره لقيادة الأُمَّة الإسلامية، وليكون المرجع الأثبت والأصح، في ما يتعلق بالأحكام الشرعية، ممّا دفع بشيخ جامع الأزهر، إلى الاعتراف بتوضيحات السيد، والإقرار بنتيجة البحث المتداول بينهما في مسألة الإمامة، من حيث كون الإمامة رديفة النبوة، ودورها يتجاوز إطار الحكومة، ليشمل مقام حفظ التشريع الإسلامي، ووجوب التعيين فيها على الله تعالى، ضرورة تطلبتها مرحلة ما بعد النبوة، وبيان ذلك على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم واجب، يندرج في إطار التبليغ الموكل به، وقد نصَّ المولى على ذلك، وبلغ نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الأُمَّة، ونصّب علياً عليه السلام، في منصرفه من حجته المعروفة بحجة الوداع، يوم الثامن عشر من ذي الحجة، من السنة العاشرة

من الهجرة، في موضع يسمى غدير خم، قبل أسابيع قليلة من وفاته صلَّى الله عليه وآله وسلم، وقد قام قبل ذلك بنفسه، بتهيئة وإعداد الإمام عليٍّ عليه السلام لتلك المهمة الجسيمة، فربّاه وعلمه ورعاه، وأحاطه بعنايته الفائقة وتربيته ورعايته الإلهية، ممّا أثار حفيظة المناوئين، وأشعل حسد وبغض عدد من الصحابة لعليٍّ عليه السلام، ولما رأى النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم على وجوه الناس، ومن خلال أفعالهم، ما قذف به صدأ قلوبهم، من كراهية وحسد وحقد على عليٍّ وأهل بيته عليهم السلام، حذرهم تحذيراً شديداً في أكثر من مناسبة، وبعد كلِّ ظهور لذلك الإحساس البغيض، من ذلك أنَّه قال لبريدة الأسلمي: «**لا تبغض علياً فإنَّ علياً لا يحبه إلَّا مؤمن ولا يبغضه إلَّا منافق**». وزوجه سيدة نساء العالمين عليها السلام، بعد أنْ ردَّ كلَّ من طلبها للزواج، عندما جاءه أمر الوحي بذلك، وقال صلَّى الله عليه وآله وسلم: «**لو لم يُخلق عليٌّ ما كان لفاطمة كفؤ**»[٧٢]، وهو الوحيد الذي لم يتأمّر عليه أحد، عدا النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، بينما تأمّر هو عليه السلام على البقية فكانوا تحت لوائه، في جميع المعارك التي خاضها، وصنع فيها النصر، بتسديد إلهي منقطع النظير، وأمره صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بغلق كلِّ الأبواب المشرعة على المسجد، إلَّا بابه وباب عليٍّ وفاطمة عليهما السلام، وقد احتج منهم من احتج على

---

(٧٢): المناوي كنوز الحقائق ص١٢٤ أخرجه الديلمي.

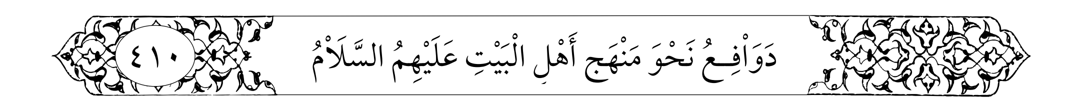
ذلك القرار، لكنَّه أجابهم بأنَّ الله سبحانه وتعالى أمره بذلك، وعزل ابن أبي قحافة من إمارة الحج، وأرسل عليّاً عليه السلام بدله أميراً، بعد أنْ نزل جبريل عليه السلام قائلاً له: «**لا يؤدي عنك إلَّا أنت أو رجل منك**». دليل على أنَّ مسألة الإمارة، لا يصلح لها أحد، وعليٌّ عليه السلام موجود، فكانت كلُّ تلك الأعمال والإشارات والبيانات، تعريفاً بمقام عليٍّ عليه السلام، تهيئة للمسلمين بقبوله إماماً وقائداً وعلماً عليهم، يسلك بهم طريق الرشاد، ويهديهم سواء السبيل.

ومهد النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لعملية تسليم السلطة، لعليٍّ عليه السلام من بعده، بشكل يهيئ للأُمَّة تقبل ذلك، بالنص على أفضليته، وأحقيته بمنصب الإمامة، ولياقته بموضع القيادة، على رأس هرم السلطة، وخصائصه التي يتميز بها عن غيره، في عدد من الأحاديث المتفق على صحتها، ومنها قوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لعليٍّ عليه السلام: «**أمَا ترضى أنْ تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي**»(٧٣). لمَّا تركه خليفة له على المدينة، وخرج لغزوة تبوك، تحسباً من مؤامرة المنافقين.

لكنَّ الأُمَّة أبت أنْ تسمع وتطيع، وحصل لها ما حصل لبني إسرائيل، عندما تخلوا عن تعيين موسى لأخيه هارون خليفة له عليهم، واستضعفوه وكادوا

---

(٧٣): صحيح البخاري ج٥ ص٨٩ / صحيح مسلم ج٤ ص ١٨٧.

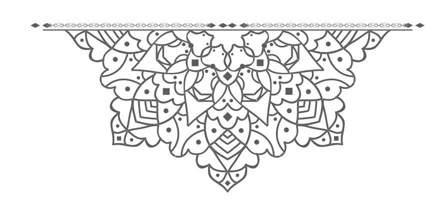


يقتلونه، كما صرَّح بذلك القرآن الكريم.

ومن المراجعات، انتقلنا إلى مطالعة كتاب دلائل الصدق للشيخ المظفر قدس سره، فترسخت قناعاتي، وتجذر إيماني بحقيقة أهل البيت عليهم السلام، وصحة عقيدتهم ونقاوة أركانها وسلامة بنائها، ودقة تحليلها للمسائل، وإجاباتها المنطقية عن الإشكالات المطروحة، وردودها المفحمة على الطاعنين، فأعلنت تشيعي، وأظهرت عقيدتي في الوسط الذي كنت أعيش فيه، وتحملت المسؤولية في نشر الإسلام المحمّدي الأصيل، الذي نقله أئمة أهل البيت عليهم السلام الاثنا عشر، عن جدّهم النبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فكان ذلك منطلقاً فعلياً، وبداية مثمرة للدعوة إلى التشيع الإمامي الاثني عشري، فلم تمر سنوات قليلة، حتى أصبح التشيع متواجداً داخل أسوار الجامعة التونسية، ومنه إلى الأُسر والقرى والمدن، رغم قلة الموارد، وضيق ذات اليد، من أنْ تفي بكلِّ متطلبات الدعوة، من تنقل وشراء للكتب، وطبع للدراسات وتوزيعها، على الراغبين في مطالعة الفكر النيّر، لمن أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

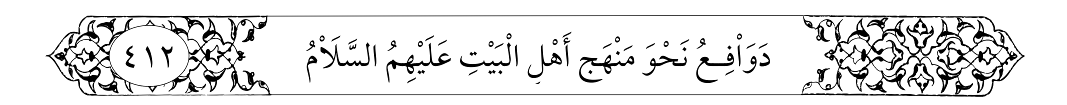
الدافع التاسع والعشرون

تناقض القائلين بالشورى في الحكم هو الذي شيّعني



صالح... صديق من الأصدقاء الذين عرفتهم بعد استقراري بمدينة قابس، قربته مني بعد أنْ عرفت فيه أكثر من ميزة وخصلة، لعلّ أهمها على الإطلاق صبره وأناته وامتلاكه لنفسه عند الغضب، ممّا أعطاه مكانة متميّزة ليس عندي فقط، بل عند كلِّ الناس الذين يزنون الحياة بميزان العقل، استبصر نتيجة بحوث ومقارنات، أفضت به إلى معرفة حقيقة الحكومة الإسلاميّة، وخصائصها بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، ولولا ما ميّز نفسه من تعقّل وصبر وهدوء، لما أمكنه أنْ يصل إلى معرفة حقيقة نظام الحكم في الإسلام لوحده.

دعوته للحضور، ليقدّم لنا أطوار بحوثه، ونتائج تساؤلاته، بخصوص المسألة التي دفعت به إلى اعتناق إسلام الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة، فقبل الدعوة، وجاء ملبيّاً نداء الواجب، لعلّه يقدّم جزءاً من الجميل إلى أئمّة أهل البيت



عليهم السلام، اعترافاً منه بأحقيتهم وفضلهم ومنزلتهم، ولمّا جاء دوره في الحديث قال:

منذ أنْ كنت حدثاً، وفي بداية اعتناقي للإسلام، راودتني أسئلة عديدة حول الدين، وما تعلّق به من مسائل مصيريّة وحسّاسة، لم تدفعني إلى البحث إلَّا بعد أنْ وصلتُ إلى المرحلة الختاميّة من التعليم الثانوي، بسبب البرنامج الذي خصّص لنا في مادة التربية الإسلاميّة، والذي تناولت بعض دروسه عصر ما سمّي بالخلافة الراشدة، وكان الدرس الأول متضمناً فترة وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وحادثة السقيفة، وقد خلص الدرس، وانتهت مداخلة الأُستاذ تعقيباً على ذلك، إلى اعتبار أنّ الإسلام لم يأخذ مسألة الحكومة بعين الاعتبار، لا من حيث مبدأ التعيين، ولا من حيث شروط الاختيار، وقد ترك أمرها للناس شورى بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(٧٤)، وقوله أيضاً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٧٥).

---

(٧٤): سورة الشورى الآية ٣٨ .

(٧٥): سورة آل عمران الآية ١٥٩.

لكنّ عقلي رفض أنْ يتقبّل فكرة الأُستاذ، في ترك مسألة الحكومة الإسلاميّة للناس، فرفعت يدي إليه، ولمّا أذن لي في الكلام قلت له: إذن، يمكن القول بأنّ الدين الإسلاميّ، لا يملك في منظومته التي صرّح الوحي بتمامها وكمالها، في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(٧٦)، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٧٧) نظاماً للحكم فيه؟ ممّا يعتبر متناقضاً مع البيان الذي صرّحت به الآيتان.

فردّ عليَّ الأستاذ قائلاً: للأسف الشديد أنَّ الاعتقاد بفصل الدين عن أداة الحكم، يتناقض مع تمام الدين وكماله وشموليّته، إلَّا أنّنا عندما نتناول بالقراءة والتحليل مرحلة ما بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، نجد أنّه لم يثبُت نصّ واضح وصريح تعلّق بنظام الحكم في الإسلام، سوى ما جاء من تطبيق لمبدأ الشورى، مُجسّداً في حادثة سقيفة بني ساعدة، والتي انبنى على أساسها نظام الخلافة الإسلاميّة.

قلت: ألَّا ترى أنَّ هذه القراءة قد تأسّست على نمط تبريري لأحداث قد وقعت، ونُظر إليها على أساس أنّها انعكاس صحيح لمفهوم الحكومة الإسلاميّة؟

قال: هذا ممّا أوحت به الأحداث التي أعقبت وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله،

---

(٧٦): سورة الأنعام الآية ٣٨.

(٧٧): سورة النحل الآية ٨٩.

والتي لم تترك مجالاً للقول بأنّ التشريع قد ترك نظام حكم إسلامي جلي المعالم، وفي غياب الأدلة الواضحة على نمط الحكومة الإسلاميّة، اعتمد على اجتهادات السلف الصالح للأُمَّة على أساس سلامة مرجعيّته في ذلك المجال.

قلت: إذن، فنظام الحكم في الإسلام بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله لم يكن واضحاً لدى الأُمَّة؟

قال: نعم، في ما عدا الأساس الشوروي الذي أكّده القرآن الكريم، وعفي عن كيفيته ومداه وطريقة إقامته.

قلت: إذن عدنا إلى مبدأ الشورى من حيث كونه نظاماً عامّاً للحكم في الإسلام، فإنّنا نجد أنَّ الشورى لا يمكنها أنْ تشمل التشريع الإلهي، لأنّها أحكام غير قابلة للأخذ والردِّ، فأين ترى يمكن تطبيق هذا المبدأ؟

قال: في مسألة اختيار وليّ أُمور المسلمين مثلاً.

قلت: فهل وقع تطبيق مبدأ الشورى على حقيقته في هذا المنصب؟

قال: نعم ولكنْ بضرب من النسبيّة، إذا نحن أخذنا شورى سقيفة بني ساعدة، وباعتبار أنّ المدينة تعتبر عاصمة المسلمين، ومركزهم السياسي، وثقلهم الاجتماعي والاقتصادي والعسكري، فإنّ سكّانها يعتبرون أهل الحلّ والعقد،

وقراراتهم غير قابلة للرّدِّ أو الرفض.

قلت: طالما أنّ الشورى هي الوسيلة الوحيدة لاختيار وليّ أمر المسلمين وحاكمهم، فلماذا وقع التخلّي عنها سريعاً؟

قال: وكيف ذلك؟

قلت: عندما مات أبو بكر أوصى إلى عمر بن الخطاب، وكان الكاتب للوصيّة عثمان بن عفان.

قال: لكنّ هنالك رواية تقول: إنّ أبا بكر قد أجرى مشورة حول من يكون أهلاً للحكم بعده، فوجد أكثر الصحابة ميلاً إلى عمر.

قلت: وعلى افتراض أنّ الصحابة كانوا بذلك الميل، فلماذا لا يتركهم يُتمّمون واجبهم وحدهم، ويختارون بأنفسهم بعد موته، طالما أنّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله لم يختر في حياته أحداً؟ ولماذا تحسّر عمر على فقد صاحب السقيفة الثالث، أبي عبيدة بن الجراح، ولو بقيَ حيّاً لولاّه؟[٧٨]، ولماذا تحسّر بعد ذلك على فقد سالم مولى أبي حذيفة، الذي كان الساعي لهم بالأخبار من داخل المدينة، وقد كانوا خارجها، ولو كان حيّاً لولاّه؟[٧٩]، ولماذا ضيّق عمر الشورى إلى ستّة أشخاص، وجعل عبد الرحمن

---

(٧٨): انظر تاريخ المدينة لابن شبة ٣: ٩٢٢، تاريخ الطبري ٣: ٢٩٢، الكامل في التاريخ ٣: ٦٥.

(٧٩): المصدر نفسه.

بن عوف الفيصل في اختيار الخليفة؟[٨٠].

قال: كلُّ ذلك أوجده الحرص على سلامة الدولة الفتيّة من أطماع الأعداء، وكانت تلك اجتهادات مأجورة من قبل أُناس هم أهل للاجتهاد.

قلت: فهل كان هؤلاء أحرص من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله؟

قال: بل إنّ اجتهادهم هو نابع من التربيّة التي ربّاهم عليها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

قلت: وهل يوجد تصوّر آخر لنظام الحكم في الإسلام بخلاف هذا التصوّر؟

قال: يوجد تصوّر آخر خلاف ما نعتقده نحن أهل السنّة والجماعة، وهو عقيدة الشيعة في النصّ على إمامة عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه والأئمّة من ولده، وهؤلاء يبنون تصوّرهم على نصوص رأوا فيها بياناً واضحاً، يؤكّد عندهم على إمامة أهل البيت رضي الله عنهم.

قلت: وهل انفردت تلك الطائفة بنصوصها وبتأويل تلك النصوص؟

قال: لا، فكلُّ ما استدلّوا به من نصوص موجودة عندنا، وهي مدوّنة في

---

(٨٠): انظر على سبيل المثال تاريخ الطبري ٣: ٢٩٢ ــ ٢٩٣، الكامل في التاريخ ٣: ٦٥ ــ ٦٦ والمسألة محلّ إجماع لا خلاف فيها.

أُمَّهات كتبنا المعتمدة، أكثرها صحيح من طرقنا، وأسانيد رواتنا.

قلت: طالما أنّ النصوص مشتركة النقل، فلماذا اختُلف في مقاصدها ومعانيها؟

قال: بسبب التأويل الذي سلكه العلماء، في تحديد معاني المفردات التي وردت في أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله.

قلت: ولم يكن هناك سبب آخر أسهم في خلق ضبابيّة، حالت دون بلوغ مقاصد تلك الأحاديث؟

قال: ربّما تأخّر تدوين أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، هو الذي أسهم بشكل كبير في خلق حالة من سوء الفهم، والتأويل الخاطئ لبعض المصطلحات التي تكلّم بها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله.

إلى هنا انتهى حديث الأُستاذ، ومنه انطلقت في أُفق السنّة النبويّة، والتاريخ، والسيرة، أبحث عن قرينة تمكّنني من التعرّف على نظام الحكم الإسلامي الصحيح، وكان عَلَيَّ أوّلاً أنْ أتعرّف على تفاصيل السيرة النبويّة العطرة، لكنّني اصطدمت منذ الخطوة الأُولى بعائق كبير، تمثّل في طعن الرواة والحفّاظ بعضهم بعضاً، الأمر الذي دفع المحقّقين إلى التشكيك في صدقيّة أكثر الحفّاظ، للدور الكبير

الذي لعبه سلاطينهم، في إذكاء روح التفرقة وغرس أسباب الفتنة بين المسلمين، وفي إجبار عدد كبير من علماء السلطان على تجاهل عدد من الحقائق، أو توهينها، والسكوت عنها، ومن بين تلك الحقائق، حادثة مهمّة ومصيريّة إنْ صحّ وقوعها، فإنّها قد تعصف بكلِّ البناء الذي أسّسه الاتجاه الشوروي في الحكم بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله.

الحادثة كما أُخبر عنها، تمثّلت في أمر النبيِّ صلَّى الله عليه وآله بتجهيز جيش من الصحابة لمحاربة الروم، وقد عقد النبيُّ صلَّى الله عليه وآله، بيديه الشريفتين لواء تلك السريّة، وأمّر عليها أُسامة بن زيد، وأشرك فيها كما نصّ على ذلك أغلب أصحاب السيرة والتاريخ، ووجوه الصحابة منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم.

لم أجد خلافاً حول بعث أُسامة بن زيد في التواريخ والسير، ولا وجدت عدم توافق في أسماء الذين ذكروا في ذلك التجهيز، الخلاف الوحيد الذي نشأ، تمثّل في اختلاف المحدثين عن ردّة فعل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله حيال ذلك التمرّد والتقاعس على تأميره لأُسامة، وهل لعن المتخلّف عن الجيش، أو لم يلعنه؟[1].

---

(١): وممّن ذكر اللعن وأقرّ به، الشهرستاني في الملل والنحل ١: ٢٣، والآمدي على ما نقله الإيجي في المواقف ٣: ٣: ٦٤٩ ــ ٦٥٠، وراجع بعث جيش أُسامة في صحيح البخاري ٤: ٢١٣، ٥: ٨٤، صحيح مسلم ٧:

ومهما يكن من أمر ذلك اللعن بالنسبة لي، سواء صدر أم لم يصدر، فإنّ مجرد الوقوع في معصية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله تستوجب اللعن والبراءة، والنعت بالضلال، قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾[1] فقد وقفت على حقيقة وقوع ذلك التعيين، وقلت في نفسي بعد أنْ وجدت أمامي، ازدواجية في وجود عدد من الصحابة المعيّنين من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله في جيش أُسامة، الذين يفترض أنْ يكونوا خارج المدينة بالجرف، حيث عسكر أُسامة بجيشه ليستكمل عدّته وعدده، غير أنّ الحاصل كان خلاف ذلك، فيجد المتتبع لتلك الأيام العصيبة، عمر يتوسط جماعة من الصحابة في حجرة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، وعلى مرأى ومسمع منه، يتصدّى لأمره في كتابة وصيّته، ويتقوّل عليه بالهذيان، ويتهمه بالهجر[2]، وإذا بأبي بكر في المسجد يصلِّي بالناس، فهل استثناهما النبيُّ صلَّى الله عليه وآله من ذلك الجيش؟ أو أنّ في الأمر سرّاً مخفيّاً آخر؟

١٣١، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ٢٤٩، ١٩٠، تاريخ الطبري ٢: ٢٤٩، الكامل في التاريخ ٢: ٣١٧.
فتح الباري ٨: ٨١٥ عمدة القاري ١٨: ٧٦، شرح نهج البلاغة ٦: ٥٢.

(١): سورة الأحزاب الآية ٣٦.

(٢): وذلك في رزيّة الخميس المشهورة، وقد تقدّمت في حلقة سابقة.

ولمّا لم يذكر المؤرخون لذلك الاستثناء أصلاً، وظهر ما يدعو إلى القول بافتعال أبي بكر ومن كان معه الصلاة بالناس، لبلوغ غاية ما، فقد ظهرت بعض الروايات تنوء بتحريف عجيب، وتحكي حالة فريدة من نوعها في صلاة الجماعة، في محاولة للتعمية على حقيقة تنحية أبي بكر عن إمامة الصلاة، فقالوا: صلَّى أبو بكر مقتدياً بالنبيِّ، وصلَّى الناس مؤتمين بأبي بكر[1]، فلم أتقبل رواية الصلاة بإمامين، كما لم يقبل عقلي أنْ يقتدي الناس بأبي بكر، ويتركون النبيَّ صلَّى الله عليه وآله، وفي هذا منتهى وقاحة وجرأة الراوي أو الحافظ على الله ورسوله صلَّى الله عليه وآله في حين أنّ الحقيقة المطموسة تقول: لقد وقعت تنحية أبي بكر عن إمامة الصلاة بالناس، في وقت ظنّ هو وجماعته أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله، لم يعد باستطاعته أنْ يستفيق من إغمائه، ولا أنْ يعي بما يدور حوله، فيكون ذلك التقديم وتلك الإمامة، مبرراً على طريق استلام الحكم، وحجّة تمكنه من الادّعاء بأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله أمره بالصلاة بالناس.

كما ظهر من خلال تتبّعي لسيرة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله في تعامله مع إمامة الصلاة، أنّه صلَّى الله عليه وآله لم يكن يُعيّن أحداً يُصلِّي بالناس في غيابه، وقد كانت

---

(١): صحيح البخاري ١: ١٦٢، سنن ابن ماجة ١: ٣٩١.

كلمته دائماً: «**مروا مَنْ يُصلّي بالناس**»[1] وذلك بناءً على قاعدة الأعلميّة والتفقّه، وليس على القاعدة التي اعتمدها أهل الجاهليّة في تنصيب زعمائهم، وهي اعتبار كبر السن والمكانة الاجتماعيّة والماليّة، مع أنّه صلَّى الله عليه وآله في حياته الشريفة كان ملتفتاً إلى مسألة الإمارة في غيبته عن المدينة، فأهميّتها كمنصب حسّاس وخطير، كانت تحتّم عليه تنصيب من يخلفه عليها في غزواته وسفراته، فعيّن فيمن عيّن عليّاً، ولم يعيّن أحداً من الذين تولّوا الحكم قبله، وذلك يدلُّ على استحقاقه للإمارة قبل هؤلاء جميعاً.

إحدى الحقائق التي قفزت إلى فكري، جاءت نتيجة مقارنة بين موقفين وقفهما مؤسّس الانقلاب على إمامة عليٍّ عليه السلام، ألا وهو عمر بن الخطاب، ففي غزوة أُحد فرَّ الرجل مع من فرَّ من الصحابة[2] عندما اعتقدوا بمقتل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، بمجرد إشاعة راجت، في تلك اللحظة وفي ذلك اليوم صدّق عمر أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله قد قتل، وكان من ضمن الفارّين، واقفاً على صخرة في

---

(١): انظر مسند أحمد ٤: ٣٢٢، لكن كالعادة فإنَّ الرواية طعّمت بما يخالف ذلك فصورت استياءً شديداً من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله لعدم صلاة أبي بكر بالناس! فلا ندرى لماذا يعمم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله القول فيمن يؤم الناس، ثم يستاء ذلك الاستياء الشديد لعدم صلاة أبي بكر.

(٢): انظر فرار عمر في تفسير الفخر الرازي مجلد ٣، ح٩: ٥٠، وشرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤، عن الواقدي، وغير ذلك من المصادر العديدة.

أعلى الجبل يدرأ عن نفسه غيلة القتل، وعقيدته بأنَّ النبيَّ بشر يمكن موته أو قتله، هي التي كانت الدافع وراء فراره في محاولة منه للنجاة بنفسه.

والموقف الثاني، عندما بلغته وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، فما كان منه إلَّا أنْ سلَّ سيفه، ووقف أمام الوافدين على بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، لاستجلاء الخبر، وإظهار الفجيعة والحزن، قال: والله ما مات النبيُّ صلَّى الله عليه -وآله- ولا يموت، حتّى يقطع أيدي أُناس من المنافقين كثير وأرجلهم، فقام أبو بكر فصعد المنبر فقال: من كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لم يمت، ومن كان يعبد محمّداً فإنَّ محمّداً قد مات: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١] قال عمر: فَلَكأنِّي لم أقرأها إلَّا يومئذ[٢].

فلم يهدأ الرجل من تهديده، ولا انقطع وعيده، ولا سكنت دعايته الغريبة والعجيبة، إلَّا عندما أقبل صاحبه ابن أبي قحافة من خارج المدينة، وقال كلمته التي أعادت إلى عمر رشده، وأطلعته على حقيقة موت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله.

وبالاطلاع على الموقفين لعمر تبيّن لي تناقضهما، لأنَّ موقف قبول مقتله على

---

(١): سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

(٢): انظر سنن ابن ماجة ١: ٥٢٠، وانظر ترتيب منه في الأحكام ٢: ٢٣٨.

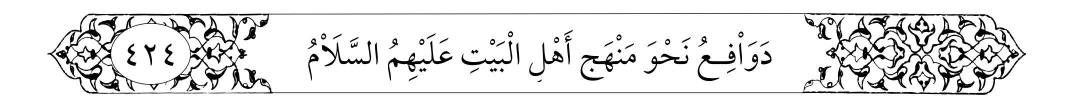
أيدي المشركين وتسليمه بذلك، وفراره عند سماعه لذلك النبأ، يختلف تمام الاختلاف مع ما صدر منه عند سماعه لنبأ وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، وتحقّقه من تلك الوفاة بقدومه إلى بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، وإشهاره السيف أمامه.

فهمت قطعاً، وفهم كلُّ عاقل مرّت عليه هذه الاستنتاجات، أنّ عمر كان يدرك جيّداً وقوع الموت على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وعلى كلِّ الناس، ولشدّة إدراكه لموت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، جاء هروبه، ووقع فراره من أُحد لمجرد إشاعةٍ تناهت إلى أسماعه، مع أنّه قد يكون من الذين تحدّث عنهم الحلبي الشافعي في سيرته المعروفة بالسيرة الحلبية، حيث ذكر أنّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله كان يناديهم: إليَّ يا فلان إليَّ يا فلان، أنا النبيُّ، فما يعرج إليه أحد[1]. ولم يكن موقفه يوم وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله نابعاً من عقيدة تخلّلت عقله، وغيّرت من اعتقاده، وإنّما جاءت تنفيذاً لمخطّط يقضي بحصر نبأ وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، حتّى لا ينتشر، فتمتلئ المدينة بالوافدين، فيكون ذلك عائقاً دون تنفيذ مخطّط الانقلاب على منصب الحكومة الإسلاميّة.

الحقيقة الأُخرى التي أطلّت عليَّ، ولم أتبيّنها إلّا فيما بعد، هي حركة التمرّد على تأمير النبيِّ صلَّى الله عليه وآله لأُسامة بن زيد، فمن يكونون هؤلاء؟ ولماذا ذلك

---

(١): السيرة الحلبية ٢: ٥٠٥.



الطعن؟ وهل هو متعلق بشخص أُسامة فقط، أم يتجاوزه إلى أشياء أُخرى؟

فقد ذكر المؤرّخون وأصحاب السير، أنّ عمر ذهب إلى أبي بكر بعد أنْ تمّ له أمر الحكومة، وعبّر له عن رغبته في تغيير القائد أُسامة بن زيد، وتكلّم على أساس أنّه مفوّض من قبل عدد من الصحابة، فردّ عليه قائلاً: (ثكلتك أُمُّك يابن الخطّاب، استعمله النبيُّ وتأمرني أنْ أعزله)[1]. فلو كان ابن الخطاب يدرك معنى النبوّة والنبيِّ صلَّى الله عليه وآله، وقدسيّته وطاعته حيّاً وميّتاً، لدافع عن ذلك التعيين، ولما احتاج منه الأمر إلى طلب تغيير قائد عيّنه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله، ولكن ماذا يمكن أنْ يقال في رجل قضى عمره في مواجهة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، والتصدي له في كلِّ صغيرة وكبيرة، كأنّما يريد إسقاط مكانته، والتقليل من قيمته، ولا شكّ أنّ صلح الحديبيّة شاهد على ما اقترفه الرجل بحقّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله[2]، كأنّما هو الوحيد الذي يدرك حقائق الأشياء والمواقف.

وفهمت أنّ الطعن لم يكن بالأساس موجّهاً إلى أُسامة، بقدر ما كان موجّهاً إلى البعث من أساسه، فالوقت الذي أراده النبيُّ صلَّى الله عليه وآله للبعث، أوحى إليهم بأنّ مقصده كان إخلاء المدينة، من عناصر ظهرت عليها رغبة وأطماع في

---

(١): تاريخ الطبري ٢: ٤٦٢، الكامل في التاريخ ٢: ٣٣٥، تاريخ دمشق ٢: ٥٠، واللفظ للكامل.

(٢): تقدّمت الإشارة إلى ذلك في حلقة سابقة.

السلطة، وبقاء تلك العناصر بها، قد يسبّب مشاكل في المجتمع الإسلامي الفتي وهو في غنى عنها، وعندما بلغهم أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله يموت، تحرّك المتمرّدون على أمره وقراره، فدخلوا المدينة لاستجلاء الأمر، وتنفيذ ما كان متّفقاً عليه بينهم.

وقد تسبب دخولهم ذلك، في فرض واقع على الأنصار، أملاه خوفهم وخشيتهم من تلك التحرّكات، التي كانوا ينظرون إليها بقلق كبير، وفي مضامينها العصيان والتمرّد والتحدّي للنبوّة والنبيِّ صلَّى الله عليه وآله، فكانت سقيفة بني ساعدة، ملجأهم في البحث عن سبيل لدرء هذا الخطر القادم أمام أعينهم.

كلُّ ذلك ما كان له أنْ يوجد لولا انقلاب بعض الصحابة، ممّن تحيّن فرصة انشغال أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، لينقضّ على الحكم.

وفوق ذلك، فإنَّني لا أرى موجباً يسمح بإهمال مسألة نظام الحكم في الإسلام بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، ولا مدعاة إلى تركه لأُناس مازالوا حديثي عهد بالدين، لم يفهموا منه أبسط أحكامه، كالتيمم للصلاة مثلاً، فضلاً عن استيعاب مبدأ الشورى، ومعرفة نمط الحكومة.

وقد ورد في القرآن الكريم عدد كبير من الآيات التي ضمّنت بين مفرداتها مصطلح الحكم وأُولي الأمر، وجاء تعدّدها تأكيداً على أهميّتها، وضرورتها في مجتمع

ناشئ، في بداية بناء مؤسساته، ولا شكّ في أنَّ النبيَّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله قد أوضح مفهوم الحكم والحكومة في الإسلام، امتثالاً لأمر الله تعالى، في بيان دينه وشريعته، وإبلاغها للناس، وتفسيراً لمقاصد الآيات، التي جاءت متضمنة لمصطلح الحكم وولاية الأمر، فتركُ أمرٍ مهمٍّ وخطيرٍ كالحكومة، وتجاهل مسألة ولاية الأمر في منصب حسّاس، تنطلق به مرحلة ما بعد النبوة، إهمال لا يمكننا أنْ نتصوّر وقوعه من النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، ولا من الله تعالى مشرّع تلك الوظيفة، ومضمّنها في كتابه العزيز.

إنَّ ما حدث في سقيفة بني ساعدة، لا يمكن وضعه في إطار عملية الشورى، التي يدّعيها الفريق القائل، بأنَّ نظام الحكم في الإسلام يستند على أساسها، حيث إنّ المكان لا يمكنه أنْ يسع غير عدد قليل من المسلمين، والزمان لا يحتمل غير انتظار تجهيز النبيِّ صلَّى الله عليه وآله والصلاة عليه وتوديعه ومواراته التراب، ثمّ الحضور إلى المسجد، ذلك المكان الطبيعيّ الذي ربّى فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله، الناس على حزم أُمورهم وإبرامها فيه، وقد أسرف من قال بصحّة ما وقع في تلك الفترة الوجيزة من الزمن، والتي كان لها الأثر السلبيّ على مفهوم الحاكميّة الصحيح، فلا القدامى منهم كالأشعريّ ولا المتأخرين كأبي الأعلى المودودي في كتابه الخلافة والملك، قد رجّحوا فكرتهم بخصوص نظرية الحكم في الإسلام،

وجميعهم في ذلك، مبرّرون ومثبتون لجملة تلك التجاوزات التي حصلت، ومؤسّسون على منوالها نظرية متهافتة، وبعيدة عن المنطق القرآني للحكومة الإسلاميّة.

كانت تبريرات الأُستاذ مهمّة بالنسبة لي، ورأيت فيها دافعاً نحو مزيد من البحث، عن حقيقة نظام الحكم في الإسلام بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، عدت إلى قراءة تلك الحقبة من الزمن في تاريخ الطبري، الذي يعدُّ من أقدم مصادرها في كتب السنّة، فازددت حيرة من أمري، ولم يفدني ذلك بشيء.

وفي أحد الأيّام، بينما أنا أتجوّل في إحدى دورات معرض الكتب التي تقام سنويّاً في البلاد، تراءى لي من أحد أروقة المعرض عنوان لكتاب، رأيته من الوهلة الأُولى أنَّه قد يجيب عن تساؤلاتي، التي لا تزال قائمة حول نظام الحكم في الإسلام، يحمل عنوان (السقيفة)، لصاحبه الشيخ المظفّر، فانتهيت إليه واستخرجته من الدرج، وبدأت في تصفحه، ومن خلال ذلك عرفت أنّ مؤلّفه عالم من علماء الشيعة، ومع ذلك اقتنيته لقراءة وجهة نظر تلك الطائفة من الحكومة الإسلاميّة.

إنّ مقدّمات أحداث السقيفة، وما تخللها وتلاها، يؤكّدان بوضوح على أنّ الذي حصل للنبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله، وللإمام عليٍّ عليه السلام، لم يكن سوى مؤامرة خسيسة على الدين، أُريد بها صرف الإمامة عن أهلها، كما نُقل عن

عمر بن الخطاب قوله لعبد الله بن عباس: (كرهوا [يعني قريش] أنْ يجمعوا لكم النبوة والخلافة)[١]، وقريش كما لا يخفى على كلِّ ذي بصيرة ليست كلَّ المهاجرين من مكّة، وإنّما أولئك الذين وقفوا للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله يوم الخميس الذي سبق وفاته، وتطاولوا على مقامه، وانتهكوا حرمته وحرمة بيته، بالادّعاء عليه بدعوى لا تجوز على النبوّة والوحي، حيث نسبوا له الهذيان، فقالوا: إنّه يهجر والعياذ بالله[٢]، وأولئك الذين تمرّدوا عليه، ورفضوا الخروج في جيش أُسامة[٣].

أمَّا ما حاولوا الاحتجاج به على الشورى بما ورد في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكلِينَ﴾[٤].

وقوله تعالى:

﴿وَالذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٥].

---

(١): تاريخ الطبري ٣: ٢٨٩، الكامل في التاريخ ٣: ٦٣، شرح نهج البلاغة ١٢: ٥٣.

(٢): والقائل هو عمر وقد هذّبها البعض فقال: إنّه قال: غلب عليه الوجع وقد تقدّم ذلك.

(٣): تقدّمت الإشارة إلى أولئك فيما تقدّم.

(٤): سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

(٥): سورة الشورى الآية ٣٨.

فلم يرد بها المولى سبحانه وتعالى، غير تربية النبيِّ صلَّى الله عليه وآله لصحابته، على مبدأ الشورى فيما يتعلق بالمسائل الحياتيّة التي تعترضهم، فلا ينصرف معنى الشورى والتشاور، إلى ما يتعلق بأحكام الدين وتفاصيل الشريعة، لذلك فإنَّ مقصد الآيتين في هذا الإطار، ليس احتياج النبيِّ صلَّى الله عليه وآله إلى أخذ آراء المحيطين به، بقدر ما كان يراد به تربية الصحابة، ومن سيأتي بعدهم على العمل بذلك المبدأ، لأنَّ علاقة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله بالوحي، لا تترك له مجالاً حتى يحتاج إلى أحد يعطيه رأيه، في مسألة من المسائل العرضية.

أمّا ما حيك من روايات تُخطّئ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله، وترجّح آراء بعض أصحابه عليه، كرواية أسرى بدر[٦]، فمردود من ناحية كون النبيِّ صلَّى الله عليه وآله معصوماً عن الخطأ، ويجب أنْ يكون دوره دائماً، هو المصحّح وليس العكس،

---

(٦): وحاصل الرواية أنّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله استشار أبا بكر وعمر في شأن أسرى بدر، فقال أبو بكر: (يا نبيَّ الله، هم بنو العمّ والعشيرة. أرى أنْ تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّة على الكافر، فعسى الله أنْ يهديهم للإسلام) أمّا عمر فرفض ذلك وقال: (ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أنْ تمكّنا فنضرب أعناقهم...) فهوى رسول الله صلَّى الله عليه وآله ما قال أبو بكر ولم يهوِ ما قال عمر، لكنّ الله سبحانه وتعالى خالف الرسول صلَّى الله عليه وآله ووافق عمر فنزلت الآية: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ..} [الأنفال: ٦٧] وانظر ما تقدّم في صحيح مسلم ٥: ١٥٧، مسند أحمد ١: ٣١، سنن الترمذي ٤: ٣٣٦، وقد رواه مختصراً، وانظر عمدة القاري ٤: ١٤٤ حيث أشار إلى القصّة باعتبارها من موافقات عمر.

فمعلم الكتاب والحكمة لا يحتاج إلى من يزوده بها من الناس، مضافاً لصريح القرآن الدال على وجوب طاعة النبيِّ مطلقاً.

بعد هذه الحقائق المتتابعة، هل يصحّ لنا أنْ نقول إنَّ ما أقدم على فعله هؤلاء الصحابة، يعتبر شورى مستقاة من الدين الحنيف، وليست ستاراً ووهمياً أُريد به الاستيلاء على السلطة؟

أنا لم أجد مسوّغاً واحداً يؤيّد نسبة ما وقع إلى شورى مرجعها الدين الإسلامي، لأنّها في واقع الأمر مجموعة من الأعمال المتناقضة، التي هدّمت بعضها بعضاً، فحصر الشورى في ستّة، كان القصد منها تسليم الحكم بطريقة فيها كثير من الدهاء من الصهر ابن عوف إلى صهره ابن عفّان، وهي رغبة عمر، والسبب قد يكون إسداء يدٍ لابن عفان، مقابل كتابة هذا الأخير، لوصيّة أبي بكر التي نقلها المؤرّخون، أو قد يكون استمراراً في تنفيذ الاتّفاق الذي أبرمه المتحزّبون على صرف الحكومة عن الإمام عليٍّ عليه السلام، وأغلب هؤلاء هم طلقاء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله من بني أُميّة، وبذلك تهاوت نظرية الشورى بتنصيص أبي بكر على عمر وحصر عمر لها بستة أشخاص فقط.

وما إنْ تمّ للإمام عليٍّ عليه السلام أمر الحكومة، حتّى كشّر أعداؤه عن أنيابهم، ووقفوا في وجهه يحولون دونه والمضيّ بالأُمَّة في طريق التوحيد والإنابة،

بسبب السياسات الخاطئة التي صدرت عمّن سبقه، واستطاع الطلقاء أنْ يبنوا قوّة على مدى عشرين سنة، استكملت عدّتها وعددها، ووقفت جحافلها تريد صرف الإمامة عن عليٍّ عليه السلام، تحت مبرّر القصاص من قتلة عثمان.

وفي واقع الأمر، ما كانت المطالبة بدم عثمان، إلَّا تعلّة للخروج على إجماع الأُمَّة، وإحداث الفتنة في صفّها، ومحاولة خبيثة لتحويل الثورة التي قام بها المسلمون الغيارى على الدين وأهله، من عنت وظلم وبغي بني أُميّة، إلى جريمة، وقلب حقيقة عثمان الذي استغله بنو أبيه، من حاكم ظالم بدّل وغيّر واستأثر، واستنزف الأموال الإسلاميّة في مصالح شخصيّة، واستعمل المنافقين والفسقة والأدعياء، أُمراء وحكّاماً وقادة على وجوه الأُمَّة وخيارها، إلى خليفة مظلوم، مات شهيداً والمصحفُ بين يديه.

إنّ من يشكّ في إسلاميّة الثورة التي قامت بوجه عثمان، وأحقيّة القائمين بها، لا يملك من التعقّل والإنصاف شيئاً، لأنَّ الدلائل التي وردت في كتب التاريخ، تؤكّد مظلومية هؤلاء الثوّار، وإصرار عثمان على عدم الاستجابة إلى مطالبهم التي تقدّموا بها إليه، والتي كان فيها الإمام عليٌّ عليه السلام وسيطاً بين الطرفين، ولمّا يئس المسلمون من إمكانية الإصلاح، عادوا فحاصروا بيت عثمان مدّة تجاوزت الأُسبوعين، على مرأى ومسمع ومشاركة من وجوه الصحابة، كعمار بن ياسر الذي

شمله النبيُّ صلَّى الله عليه وآله بقوله: «**أبشروا آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنّة**»(٧)، ولو كان الأمر كما حاول تصويره لنا أتباع خطّ الخلافة، من استضعاف ومظلمة لعثمان، لوجد أنصاراً أشدّاء في المدينة، كالإمام عليٍّ عليه السلام، وشجعان بني هاشم رضوان الله تعالى عليهم، وأكثريّة الصحابة الذين ما زالت تعجّ بهم المدينة، ولما بقي الرجل محاصراً كلَّ تلك المدّة، ولما قتل تلك القتلة، ولما بقي في بيته ثلاثة أيّام بلا دفن، ولما دفن ليلاً على عجل، وفي مكان لم يسبق للمسلمين أنْ دفنوا موتاهم فيه، بعد أنْ أصرّ من في المدينة من صحابة على عدم دفنه في البقيع(٨).

الغريب أنّ من ظهر مطالباً بدم عثمان، كعائشة كانت ممّن ألّب المسلمين عليه، فهي التي قالت كلمتها الشهيرة: (اقتلوا نعثلاً فقد كفر)(٩). وكالزبير وطلحة اللذين كانا مع الثوار على عثمان(١٠)، لذلك يمكن القول إنّ مطالبتهم بدم عثمان من عليٍّ عليه السلام وأصحابه، لم يكن إلَّا وسيلة قذرة للوصول إلى إزاحة الإمام عليٍّ عليه السلام، وتسلّم الحكم بعده.

---

(٧): كنز العمال ١١: ٧٢٧.

(٨): انظر ذلك في تاريخ المدينة ١: ١١٣، تاريخ الطبري ٣: ٤٣٨ وما بعدها، الاستيعاب ٣: ١٠٤٧، المعجم الكبير ١: ٧٩، مجمع الزوائد ٩: ٩٥ وغيرها الكثير من المصادر.

(٩): تاريخ الطبري ٣: ٤٧٧، الكامل في التاريخ ٣: ٢٠٦.

(١٠): راجع سير أعلام النبلاء ١: ٣٤.

ولولا تعيين عثمان لطلحة والزبير في شورى الستّة المزعومة، لكانت أطماعهما أقلّ حدّة، ولما خلعا بيعتيهما وانساقا بولديهما، وراء مطلب خطير، تسبّب في تمزيق أوصال الأُمّة إلى اليوم، وقد أخرجا عائشة على جمل، وهي المأمورة بأنْ تقرّ في بيتها، من مكّة إلى البصرة، في محاولة خبيثة لاستنفار الأعراب المقيمين حول مكّة والمدينة، فمن من هؤلاء سمع بخروج (أُمّ المؤمنين) فلم يبادر إلى سيفه وراءها؟

وأمّا زعيم الطلقاء معاوية بن أبي سفيان، قد بنى ملكه على مهل، وتصرّف في الشام وفلسطين تصرّف المالك، بفضل إقرار عمر له عليهما، بعد أنْ كان عيّنه أبو بكر قائداً للجيش الفاتح لبلاد الروم.

هكذا إذن تهاوت نظريّة الشورى بمعاول مؤسّسيها، وتركت وراءها أثرين خطيرين، لا تزال الأُمَّة الإسلاميّة تعاني من نتائجهما الخطيرة على الدين والأُمَّة الإسلاميّة هما:

الأول ـ تحوّل وهم الشورى (لأنّ ما وقع إدراجه ضمن إطار شورى الحكم بعد وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، لم يجسّد حقيقة الشورى حتّى في أبسط مفاهيمها، إلى ملك غاشم ظلوم، خلال فترة قصيرة جدّاً من خوض تلك التجربة.

الثاني ـ فصل الدين عن دوره في الإشراف على كلِّ أوجه الحياة، وتسبّبت تلك الأحداث في فصل الدين عن السياسة خصوصاً والحياة عموماً.

ومقابل الرأي الذي ادّعى إهمال النبيِّ صلَّى الله عليه وآله لأمر الحكومة الإسلاميّة، تاركاً شأنها للناس، جاءت عقيدة أهل البيت عليهم السلام، لتعكس الواقع الصحيح لحكومة الإسلام بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله، وهو عدم ترك ذلك المنصب الحسّاس والخطير، والذي يتوقف عليه مصير الدين بتشريعاته كافّة، وبقاء مؤسّساته وتماسك مجتمعه، فإنّ التعيين لمن سيكون وليّ أُمور المسلمين من بعد مرحلة النبوّة أمر لازم، حتّمته المرحلة التي مرّ بها هذا الكيان الناشىء، من بين معتقدات جاهليّة، ضاربة جذورها في عمق المتدينين الجدد، وتحتاج إلى وقت لتغييرها، وإحلال بدائل إسلاميّة مكانها، وفرضه تواجد قوّتين معاديتين، تترّبصان بالدين الجديد، وتريدان الخلاص منه، باعتباره يشكّل تهديداً مباشراً لها، مضافاً إلى الأكثر خطراً منهما، وهو حزب المنافقين الذي أسّسه الطلقاء، ودخلوا في الدين من خلاله، ليسيئوا إليه ويقوّضوا أركانه، بالكذب والدعاية والبهتان، فكلُّ تلك المخاطر، تستوجب عدم ترك الدين الجديد والأُمَّة بلا راعٍ بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله.

والاعتقاد بحتميّة تعيين من يحكم المسلمين بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله أملتها المعطيات التي وفقت إلى الوقوف عليها، وشواهد تاريخية، قالت بأنّ التعيين في الأُمم السابقة، كان سائداً فيمن يتولى زمام الأُمور بعد عصر الأنبياء عليهم السلام.

كما أنّ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[(١١)] دليل على أنّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله ليس له حقّ في التصرّف من تلقاء نفسه، بل هو في إطار دوره، ليس إلّا مبلغاً عن الله تعالى، فكيف يكون للناس ما لا يكون للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله في مسألة حسّاسة كالحكومة الإسلاميّة.

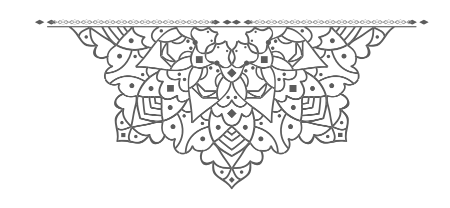
وبذلك عرفت أحقيّة أهل البيت عليهم السلام في قيادة الأُمَّة الإسلاميّة، واقتنعت بأنّ تكالب أعداء الدين، من أجل إحلال الصحابة محلّ هؤلاء الأطهار، كان مؤامرة خسيسة، دُبّرت من أجل صرف الناس عن أبواب الهدى، التي أمر الله سبحانه وتعالى بإتيانها وأخذ الدين منها، فلم أتردّد لحظة في موالاة العترة الطاهرة، فاتّخذتهم أولياء في الدنيا والآخرة، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١١): سورة آل عمران الآية ١٢٨.

الدافع الثلاثون إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيعني التفسير الصحيح للقرآن الكريم



كان مصطفى... متوسطاً مجلس رفيقيه، قد أعار عقله وبصره كلَّ ما يجري في تلك الجلسة، تميز على بساطة مظهره، بحضور لم أُلاحظه في كثير من الناس، ودلّني ذلك على أنَّ لهذا الشخص روحية خاصة، تساعده على سرعة التمييز بين الحقيقة وخلافها.

قدمه الأخ بشير على أنَّه من سلك التعليم، ومن الصنف النادر في عصر تناقص فيه الخلص والمتقنون.

بدأ.. في سرد سبب تحوله من التسنن، إلى التشيع لأئمة الهدى عليهم السلام فقال:

كنت ممّن وصلته دعاية البهتان على الشيعة، وأناخت برحلي تتمرغ بين عقلي ووجداني، لا أجد لدفعها وسيلة، ولا لردِّ بهرجها حيلة، مع أنَّ يقيني بصحتها لم

يرقَ إلى القطع بها واعتمادها آلة للفرقة والعداء، فلبثت يسيراً على تلك الحال، إلى أنْ وجدت في طريقي من كشف النقاب عن بطلان الدعوى.

كنت في زيارة مسائية لأحد الأقارب، وكانت مسامرتنا كما جرت عادة أهل البلد، أمام شاشة التلفاز، وصادف تلك الليلة، بثّ برامج المجتمع والإسلام، كان موضوعه الشيعة وعقائدهم، وقد حضره ثلة من أساتذة الجامعة التونسية، وكان للدكتور عليّ الشابي فيه باع وشأن، فقد كال للتشيع ما أمكنه من اتهامات، في هجوم عنيف لم أرَ مثله، حيث لم يترك للشيعة شيئاً من دين، أو سبباً من عقيدة ينسبانهم إلى الإسلام، وتفاجأت بالدكتور هشام جعيط، يردّ على الدكتور عليّ الشابي اتهاماته للشيعة بقوله: كأنَّك تتحدث عن فرقة اندثرت ولم يعد لها وجود، الشيعة لم يخل منهم عصر من العصور، ومثالهم اليوم في إيران، وتحاملك هذا على الشيعة غير منطقي، أمام ما يمتلكه هؤلاء من تراث إسلامي مهم.

تحمست للبرنامج وتابعته باهتمام كبير، رغم محاولة قريبي ثنيي عن متابعته، مقللاً من شأن المسألة، فقلت له: ألا ترى أنَّ الموضوع يتعلق بالإسلام، فقال: وهل ترى أنَّ الشيعة مسلمون، وهم يعتقدون بأنَّ لهم قرآناً غير قرآننا؟ قلت له: لقد سمعت بهذا لكنَّني لم أتحقق من صحته، وهو ما جعلني أقف على مسافة بيني وبين هذه الفرقة، لأنَّه اتهام خطير جداً لو صحّ يخرجهم عن الإسلام.

كانت هناك مداخلة للدكتور أحميدة النيفر، وكان من بين المدعوين للمشاركة في الحلقة، اعتبر فيها أنَّ الشيعة مسلمون، لا يختلفون في كثير من الأشياء عن بقية الفرق الإسلامية، كنت أعرف الدكتور النيفر، والتقيت به عدداً من المرات، واستلطفته واستلطفني، وتولدت بيننا مودّة لم تدم طويلاً، فتداولتها أيدي الأيام بالنسيان، ولم تبقَ منها سوى ذكريات جفَّ بريقها، أبت آثارها الطيبة أنْ تنمحي من الذاكرة، وتتلاشى من الوجدان، وقع كلام الدكتورين جعيط والنيفر في عقلي وقوع القبول الذي أتحسسه في هذه المسألة، وتلقاه قلبي بالرضا، وحفز البرنامج بما حواه من تحامل وتهجم غير منطقي من طرف الدكتور عليّ الشابي على التشيع والشيعة على حدٍّ سواء، الرغبة القوية في البحث لتقصي ما قاله عنهما، فعدت تلك الليلة إلى بيتي، محمولاً على حمى البحث والتقصي، متحسساً السبيل إلى تحقيق ذلك.

كنت من المولعين باقتناء الكتب الإسلامية التراثية منها والمعاصرة على حدٍّ سواء، وانصب اهتمامي في البحث عنها لدى المكتبات، وأخذ مني ذلك الوقت والمال، عن رضا تام بما أفعله.

وذات يوم، وقع بين يدي كتيب صغير للسيد محمد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه، عنوانه مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن، وهو عبارة عن عدد من المحاضرات، التي كان الشهيد السعيد ألقاها على طلبته، طارحاً مسألة

التجديد في التفسير للخروج من التفسير التجزيئي، إلى مرحلة أكثر تطوراً منه، وهي التفسير الموضوعي.

فأعطاني الكتاب دفعة إلى الأمام، في اعتبار أنَّ الشيعة مسلمون ليس مثلنا فقط، بل ومتقدمون علينا، لأنَّهم ساعون كما كشفه الكتاب، إلى مزيد من تحقيق المفاهيم القرآنية الصحيحة، وإحلالها في المجتمع والأُمَّة محلَّ الفهم والتطبيق، والابتعاد عن الفهم الأُحادي المتجزئ الضيق للقرآن، وإحلال آلية تنسجم تماماً مع ما يستبطنه القرآن من معانٍ ومفاهيم لا تنقدح حقائقها إلَّا بمحاكاة بعضها بعضاً.

بدأت أبحث عن الشيعة من حولي، فقد تناهى إلى مسامعي، أنَّ عدداً من سكان المدينة التي أقطنها، ارتدوا عن مذهبهم المالكي، وقد برر انقلابهم، على أساس أنَّه كان نتيجة انحرافاتهم الأخلاقية، التي رمي بها بعضهم، وتبين فيما بعد بطلانها من الأساس.

وعثرت على ضالتي، فإذا هو كهل في أواخر كهولته، قد حزم ما بقي من عمره، لينتقل إلى شيخوخة، بدأت تتلقاه بكثافة شيب لحيته وجنبات رأسه، وقد تمكن الصلع من أُمِّ رأسه، فتركها صلداء لامعة، إذا انعكس عليها شعاع ضوء، أو داعبتها أشعة الشمس، حذروني منه، وقالوا فيما قالوا بأنَّني سوف أكون عرضة

للتبعات من طرف السلطة الأمنية، لكنَّني صممت على التعرف عليه، مهما كانت النتيجة.

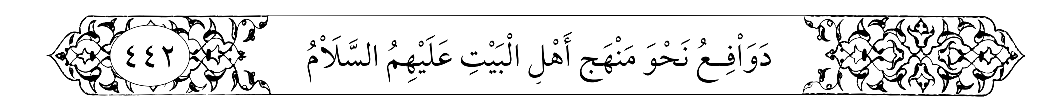
فرح بي الشيخ مبارك... وأدناني من مجلسه، وعبّرت له عن رغبتي في التعرف على عقائد الشيعة، فشكر لي موقفي المتعقل، وبارك إصراري على تقصي الحقيقة بنفسي، وفي سرد مبسط حدثني عن أهل البيت عليهم السلام، والمظلومية التي تعرضوا لها على امتداد أربعة عشر قرناً، فأثر في سرده، وتملكني الحزن لما حصل لسادة الأُمَّة الإسلامية، حتى أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم روحي له الفداء لم يسلم من الأذى ولحقه نصيب هو الآخر في أواخر أيام حياته، ثم إنَّ الشيخ بدأ بالاستدلال على ركن الإمامة عند الشيعة، فجاء بنصوص متفق على صحتها لدى جميع الفرق الإسلامية، وتحديداً من الكتب الستة التي نعرفها بالصحاح، كحديث الثقلين، وحديث المنزلة، وحديث الغدير، وتيقنت من الحقيقة، خاصة وأنَّ الكتب التي ذكرها الشيخ موجودة عنده، وتحققت من وجود تلك الأحاديث فيها.

قلت للشيخ: لقد رمي التشيع بتهم كثيرة أكبرها وطأة اعتقادهم بتحريف القرآن، بل لقد ذهب من ذهب إلى رميهم بأنَّ لهم قرآناً آخر يتعبدون به، فما وجه الحقيقة من ذلك؟

جللت سحابة كآبة وجه الشيخ، ونظر إليَّ بعينين يختزنان حزناً عميقاً، وقال:

لقد بحث أعداء الإسلام الشيعي عن عيب يقذفون به صحة وصدقية واتصال هذا الخط بعصر النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، بواسطة عليٍّ عليه السلام، فلم يجدوا غير سبيل القذف بالباطل، وإنْ وجدت روايات لدى الشيعة تقول بأنَّ القرآن، وقعت فيه نقيصة، فإنَّ تلك الروايات تعدُّ أقلّ بكثير من الروايات، التي أخرجها حفاظ ما سُميت كتبهم بالصحاح، والتي تقول بوقوع النقيصة في القرآن، ومع ذلك لم يلتفت علماء الشيعة إلى تلك الروايات، ترفعاً عنها، وإيماناً منهم بأنَّها لا تمثل شيئاً، من المعتقد السائد عن جمهور المسلمين، في سلامة القرآن من التحريف، لكنَّني ومن أجل أنْ أُلقم هؤلاء المتقولين على الشيعة حجر بهتانهم، أقول لهم: هؤلاء أبناء الشيعة قد ظهروا للعالم بنمط إعجازي في حفظ القرآن، وشاهدنا على الفضائيات أطفالاً في الرابعة والخامسة من العمر، يحفظون القرآن حفظاً لم يسبقه إليهم أحد، وهذه من الألطاف الإلهية، التي أراد بها المولى سبحانه وتعالى أنْ يبرئ المسلمين الشيعة، من تهمة تحريف القرآن بطريقة عملية رائعة.

هذا والمسلمون الشيعة دائبون على تعهد كتاب الله، دراسة وتفسيراً وطباعة، وتلك نسخه في مكتبات الجمهورية الإسلامية في إيران، المخطوطة القديمة والحديثة على حدٍّ سواء، متاحة للجميع، وهؤلاء مفسرو الشيعة رضوان الله تعالى عليهم، قد أخذوا عن أئمة الهدى عليهم السلام تفسيرهم لهذا القرآن، قد فاقت



المائة تفسير، فماذا بعد الحق إلَّا الضلال المبين.

كما أنَّ المحرف حقيقة، هو الذي تعمد إسقاط البسملة من القراءة في الصلاة ونحوها، تحت أيِّ مبرر كان، وزاد في سورة الفاتحة آمين، مع أنَّ الإسقاط والزيادة لم تؤيدهما روايات صحيحة.

بإمكان المسلمين الشيعة رفع دعوى تحريف حقيقية ضدَّ المسلمين السنة – باستثناء الشافعية– متمثلة في هذا الإجراء الذي ورثوه من معاوية الطليق، في حذف البسملة من القراءة في الصلاة، ولقد كادت أنْ تحدث فتنة بهذا الخصوص في بغداد، في القرن الخامس تقريباً، حيث سعى الحنابلة إلى منع قراءة البسملة في الصلاة، فأخرج لهم أحد أئمة المساجد مصحفاً، وقال لهم: أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها.

طالت الجلسة، فتحرجت ولم يتحرج الشيخ، الذي كان مقبلاً عليَّ بكليته، قد ترك همومه وراءه غير عابئ بها، لكنَّني استسمحته في الانصراف، على أنْ أعود إليه لاحقاً، وطلبت منه أنْ يعطيني كتاباً يتناول التفسير عند الشيعة، لأقارن بينه وبين تفاسيرنا، فأعارني ثلاثة كتب، الأول الاحتجاج للشيخ الطبرسي، والثاني كتاب قلائد الدرر للمرتضى، والثالث عيون أخبار الرضا للصدوق، وقال لي قبل ذلك اقرأ هذه الكتب، فمنها ستكتشف تفسيراً روائياً متميزاً عن غيره، بالإقناع والمنطق،

وعدم التعارض مع غيرها من المفاهيم الصحيحة، وبعد ذلك سأُعطيك في كلِّ مرة جزءاً من تفسير الميزان للعلامة محمد حسين الطباطبائي، والذي يعتبر من أعظم التفاسير عندنا، فودعته وانصرفت من بيته محملاً بالكتب أستحث الخطى إلى بيتي.

وما إنْ وصلت حتى ابتدرت الكتب، أبحث في فهارسها، ما يمكن أنْ يميز التشيع عن التسنن، فوجدت فيها ما أثبت لي أنَّ إمامة الأئمة الأطهار من أهل البيت هي إمامة إلهية مسددة من الله تعالى، وأيقنت بأنَّ هؤلاء الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، يمتلكون مخزوناً من العلوم الربانية، أحصاها الله تعالى فيهم، ليكونوا مستحفظين عليها قائمين بها، قدوة وهداة للأُمَّة الإسلامية.

نماذج من التفسير عند أئمة الهدى

تحريم الخمر

كنت أعتقد فيما مضى وبحسب القراءة السنية المخالفة لأهل البيت عليهم السلام وشيعتهم أنَّ الخمر قد وقع تحريمه تدريجياً، فقد أوهمنا هذا الخط بأنَّ الآيات الثلاث التي نزلت تباعاً وعلى فترات متباعدة جاءت لتهيئ المسلمين لتقبل التحريم النهائي لها، فقبلنا ذلك وهضمناه، دون الالتفات إلى أنَّ هذا الفهم تبريري للتغطية على هؤلاء الذين بقوا على معاقرة الخمرة إلى السنة العاشرة من الهجرة الشريفة أي

بضعة أشهر قبل وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

وبعد تبين الحقائق عدت أدراجي أستجلي أثر ما تركته ورائي من دلالات على التلاعب بأحكام الدين ما أجل التستر على أشخاص بعينهم لما لهم من رمزية في تلك الخطوط لو انكشفت أستارهم لانهار بناؤهم المذهبي من أساسه.

السؤال: هل الخمر كانت مباحة في أول الإسلام؟

كنت ممّن كان يعتقد أنَّ الخمر لم تحرم دفعة واحدة وإنّما وقع تحريمها تدريجاً، ولم ألتفت إلى الطرح الذي تبناه أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذه المعضلة، ومررت على ما أُلقي إلى مجتمعنا السني مرور الكرام دون التفات إلى دقائق التفاصيل التي قد تفضي بملتمسها إلى الظفر بالحقيقة، في موضوع وقع الالتفاف عليه تخطية وتعمية على من بقي مستصحباً أُمَّ المعاصي وهي محرمة تحريماً لا لبس فيه.

الرواية التبريرية في تحليل الخمر، والتدرج في تحريمها إلى نزول سورة المائدة تقول: قد أنزل الله تعالى في الخمر ثلاث آيات: الأُولى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[١٢].

---

(١٢): سورة البقرة الآية ٢١٩.

فكان من المسلمين من شارب ومن تارك، إلى أنْ شرب رجل فدخل في الصلاة فهجر، فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(١٣) ، فشربها من شربها من المسلمين، وتركها من تركها، حتى شربها عمر فأخذ بلحى بعير، وشج به رأس عبد الرحمن بن عوف، ثمّ قعد ينوح على قتلى بدر، بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكـائـن بـالـقـلـيـب قـلـيـب بـدر	من الـــفتيان والـــعرب الكرام
وكـائـن بـالـقـلـيـب قـلـيـب بـدر	من الشـيزى الـــمكلل بالسـنام
أيوعـدني ابن كبشـــة أن سـنحياً	وكـيـف حـيـاة أصـــداء وهـام؟
أيـعـجـز أنْ يـريـد الموت عـنـي	وينشـــــرني إذا بليت عظـامي
ألا مــن مــبــلــغ الــرحمــن	عني بـأنِّي تـارك شـهر الصـيـام
فـقـل لله يـمـنـعـنـي شرابي	وقـل لله يـــــمنعني طعـامي

فبلغ ذلك النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فخرج مغضباً يجر رداءه، فرفع شيئاً كان في يده فضربه به، فقال: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى:

﴿إنما يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ

---

(١٣): سورة النساء الآية ٤٣.

عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾(١٤). فقال عمر: انتهينا انتهينا(١٥).

الجواب باعتبار أنَّ الدين الإسلامي غير منفك عن بقية الرسالات فإنَّ الخمر لم تحلل في شريعة من الشرائع أبداً لما فيها من الضرر والخطورة الإثم، وفق ما تحتمله من نجاسة.

الدليل القرآني على تحريم الخمر منذ البداية قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ ﴾(١٦).

والإثم هي الخمر في لغة العرب.

قال الشاعر:

شربت الإثـــم حتى ضـــلّ عقلي كـذاك الإثم تـذهـب بـالعقـــول

عن عائشة قالت: لما نزلت سورة البقرة نزل فيها تحريم الخمر فنهى النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن ذلك(١٧).

---

(١٤): سورة المائدة الآية ٩١.

(١٥): الزمخشري في ربيع الأبرار/ شهاب الدين الأبشيهي في المستطرف ج ٢ ص ٢٩١.

(١٦): سورة الأعراف الآية ٣٣.

(١٧): سـورة المائدة، الآية: ٣٨ / كنز العمال للمتقي الهندي ٣ ص ١٠٧ / منتخب الكنز بهامش مسند أحمد ٢ ص ٤٢٨.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ إلى آخر الآية، قد تقدم البحث المستوفي عن مفردات الآية فيما مرّ، وأنَّ الفواحش هي المعاصي البالغة قبحاً وشناعة، كالزنا واللواط ونحوهما، والإثم هو الذنب الذي يستعقب انحطاط الإنسان في حياته، ذلة وهواناً وسقوطاً كشرب الخمر، الذي يستعقب للإنسان تهلكة في جاهه وماله وعرضه ونفسه، ونحو ذلك، والبغي هو طلب الإنسان ما ليس له بحق، كأنواع الظلم والتعدي على الناس، والاستيلاء غير المشروع عليهم، ووصفه بغير الحق من قبيل التوصيف باللازم، نظير التقييد الذي في قوله:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظالِمِينَ﴾[١٨] .

و كان إلقاء الخطاب بإباحة الزينة وطيبات الرزق، داعياً لنفس السامع إلى أنْ يحصل على ما حرمه الله، فألقى الله سبحانه في هذه الآية جماع القول في ذلك، ولا يشذ عما ذكره شيء من المحرمات الدينية، وهي تنقسم بوجه إلى قسمين: ما يرجع إلى الأفعال وهي الثلاثة الأول، وما يرجع إلى الأقوال والاعتقادات وهو الأخيران، والقسم الأول منه ما يرجع إلى الناس، وهو البغي بغير الحق، ومنه غيره

---

(١٨): سورة آل عمران: ١٥١.

وهو إمّا ذو قبح وشناعة فالفاحشة، وإمّا غيره فالإثم، والقسم الثاني إمّا شرك بالله أو افتراء على الله سبحانه(١٩).

ونقل ابن هشام: إنَّ أعشى بن قيس خرج إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يريد الإسلام... فلمّا كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره، فأخبره أنَّه جاء يريد النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ليسلم، فقال له: يا أبا بصير إنَّه يحرّم الزنا، فقال الأعشى: والله إنَّ ذلك الأمر ما لي فيه إرب. فقال له: يا أبا بصير فإنَّه يحرم الخمر. فقال الأعشى: أمّا هذه فإنَّ في النفس منها لعلالات، ولكنِّي منصرف فأتروى منها عامي هذا، ثمّ آتيه فأُسلم، فانصرف فمات عامه ذلك، ولم يعد إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم(٢٠).

روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ما بعث الله نبياً قطّ، إلَّا وقد علم الله، أنَّه إذا كمل له دينه، كان فيه تحريم الخمر، ولم تزل الخمر حراماً**»(٢١).

ومثلها أخرج عن الإمام عليِّ بن موسى الرضا عليه السلام(٢٢).

---

(١٩): الميزان في تفسير القرآن/ سورة الأعراف الآية ٣٣.

(٢٠): السيرة النبوية ج١ ص٣٨٦/ ٣٨٧.

(٢١): الكافي ج٦ ص٣٩٥ باب إنّ الخمر لم تزل محرمة.

(٢٢): الكافي ج٢ص١٤٨ .

وعلى ذلك عرفت أنَّ المسلمين الشيعة، أجمعوا على تحريم الخمر، منذ فجر البعثة النبوية، لاتصال التشريع الإلهي في تحريم الخمر، منذ آدم عليه السلام، إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها، كلُّ ما في هذه المسألة، أنَّ هنالك أيادي ذهبت إلى اعتماد التدريج في تحريم الخمر، أخذاً بالمنحى التبريري الذي سلكه خط السلطان في ذلك، سماحاً له بمعاقرة الخمر، خاصة وأنَّ رموزاً من الصحابة بقوا على استحلالهم للخمرة، إلى السنة العاشرة من الهجرة النبوية، فلم يجزموا أمرهم فيها، نظراً للإدمان الذي حصل لهم من جرائها، ومنعهم من الإقلاع عنها.

القصر في الصلاة

ذهب هو الآخر مذهب السلطان، ورأى فيه من رأى برأيه المخالف لحكم الله تعالى، وترك أمر القصر من التمام في يد المكلف، بل ذهب منهم من ذهب إلى ترجيح إتمام الصلاة، عملاً بسنة الصحابة، وتحديداً عثمان بن عفان، الذي أتمَّ صلاته وهو في سفر، ومضى على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [٢٣].

روي عن زرارة ومحمد بن مسلم قالا: قلنا لأبي جعفر محمد بن عليٍّ الباقر

---

(٢٣): سورة النساء الآية ١٠١.

عليه السلام، ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي؟... فقال: «**إنَّ الله عزَّ وجل يقول** ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾، **فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التام في الحضر**». قالا: قلنا إنَّما قال الله عزَّ وجلَّ: ليس عليكم جناح. ولم يقل افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال: «**أو ليس قد قال عزَّ وجلَّ:** ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[٢٤] **ألا ترون أنَّ الطواف بهما واجب مفروض، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ذكره في كتابه، وصنعه نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وكذلك القصر شيء صنعه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وذكره الله عزَّ وجلَّ في كتابه**». قالا: قلنا فمن صلَّى في السفر أربعاً يعيد أم لا؟ فقال: «**إن قرئت عليه آية القصر فصلَّى أربعاً أعاد، وإنْ لم تكن قرئت عليه، ولم يعلمها فلا إعادة عليه**»[٢٥].

حكم قطع يد السارق

قال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢٦].

---

(٢٤): سورة البقرة: ١٥٨.

(٢٥): قلائد الدرر في بيان آيات الأحكام بالأثر ج١ ص٢٣٣/ ٢٣٤.

(٢٦): سورة المائدة الآية ٣٨.

دأب الوهابيون، والطالبانيون، وشباب المحاكم، والسلفية الإرهابية، ونحوهم على الإصرار على تنفيذ الحدود من الشريعة الإسلامية، على حسب قراءتهم، ووفق ما أوصلتهم عقولهم، دون الالتفات إلى فهم لحقيقة تلك الحدود، والغاية التي من أجلها شرعت، فنفذت اعتباطاً وتعسفاً وخطأً، بكلِّ قسوة وبلا أدنى شفقة ولا رحمة، ممّا أثار علينا حفائظ دعاة حقوق الإنسان، وقلب نظرة الإنسانية إلى الدين الإسلامي، من دين سماحة ورحمة، إلى دين كلّه دماء وقسوة.

ورأيت هنا، أنْ أنقل ما توصلت إليه من فهم صحيح، عن القصاص في الدين الإسلامي، بحسب الرؤية التي عمل بها أهل البيت عليهم السلام، لتكون نموذجاً مقنعاً، لمن يريد بحق أنْ ينقذ نفسه، من هلكة الذين يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً.

عن أبي جعفر الثاني (محمد بن عليٍّ الرضا) عليهما السلام، أنَّه سأله المعتصم العباسي عن السارق، من أيِّ موضع يجب أنْ يقطع؟ فقال: «**إنَّ القطع يجب أنْ يكون من مفصل أُصول الأصابع، فيترك الكف**». قال: وما الحجة في ذلك؟ قال: «**قول النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: السجود على سبعة أعضاء، الوجه واليدين والركبتين وإبهاما الرجلين، أمّا الأنف وإرغامه فهو سنة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فإذا قطعت يده من الكرسوع والمرفق، لم يبقَ له يد يسجد عليها، وقد قال**

الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾(٢٧) **يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها، وما كان لله فلا يقطع**»(٢٨).

وقد اشترط في إقامة حدِّ السرقة، توفر شروط، منها تحرز المسروق بمانع، وبلوغه المقدار، وهو ربع دينار ذهبي. وقد سئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: فإنْ سرق من منزل أبيه؟ فقال: «**لا قطع، لأنَّ ابن الرجل لا يحجب من الدخول إلى منزل أبيه، هذا خائن، وكذا إذا سرق من منزل أخيه وأُخته، إذا كان يدخل عليهما لا يحجبانه عن الدخول**»(٢٩).

وعن عليٍّ عليه السلام قال: «**لا قطع على السارق، حتى يخرج بالسرقة من البيت، ويكون فيها ما يوجب فيه القطع**».

أمَّا من جهة تطبيق الحدود، فإنَّ القطع الأول يكون أصابع اليد اليمنى، وإذا ما سرق ثانية، تقطع أصابع رجله اليسرى، ﴿تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾، وفي الثالثة يخلد في السجن، فإنْ سرق في السجن قتل(٣٠).

---

(٢٧): سورة الجن: ١٨.

(٢٨): قلائد الدرر في بيان الأحكام بالأثر، ج١ ص ١٦٠/ ١٦١.

(٢٩): قلائد الدرر ج٣ ص٣٧٩.

(٣٠): قلائد الدرر ج٣ ص٣٨١.

معنى اختلاف الأُمَّة رحمة

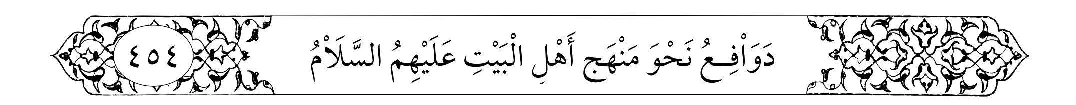
فيما مضى، كان اعتقادي أنَّ حديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**اختلاف أُمَّتي رحمة**». يفتح باب الاختلاف بين مختلف أفراد الأُمَّة، وكتب العلماء والمثقفون في هذا المجال ما رأوه من إجازة للاختلاف، وكان من بينهم الشيخ الغنوشي، الذي أصدر كتيباً بعنوان: حق الاختلاف وواجب وحدة الصف. لكنْ عندما قرأت رأي أئمة أهل البيت في معنى الحديث، ازداد تعلقي بهؤلاء الطاهرين.

عن عبد المؤمن الأنصاري، قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ قوماً يروون أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**اختلاف أُمَّتي رحمة**»، فقال: «**صدقوا**». فقلت: إنْ كان اختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب. قال: «**ليس حيث تذهب وذهبوا، وإنَّما أراد قول الله عزَّ وجلَّ:** ﴿مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣١] **فأمرهم أنْ ينفروا إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ويختلفوا إليه فيتعلموا، ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم، إنَّما أراد اختلافهم من البلدان، لا اختلافاً في دين الله، إنَّما الدين واحد..**»[٣٢].

---

(٣١): سورة التوبة الآية ١٢٢.

(٣٢): علل الشرائع ج١ ص ٣٩ -٣٨ / الاحتجاج ج٢ ص ٩٩-١٠٠.



بين أبي حنيفة وأبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام:

دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمّد فقال لأبي حنيفة: «اتق الله ولا تقس الدين برأيك فإنَّ أول من قاس إبليس، أمره الله عزَّ وجلَّ بالسجود لآدم فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين». ثمّ قال: «**أتحسن أنْ تقيس رأسك من بدنك؟**» قال: لا، قال: «**فأخبرني لأيِّ شيء جعل الله الملوحة في العينين، والمرارة في الأُذنين والماء المنتن في المنخرين، والعذوبة في الشفتين؟**»، قال: لا أدري، قال جعفر عليه السلام: «**لأنَّ الله تبارك وتعالى خلق العينين، فجعلهما شحمتين، وجعل الملوحة فيهما، منّاً منه على ابن آدم، ولولا ذلك لذابتا، وجعل الأُذنين مُرتين، ولولا ذلك لهجمت الدواب، وأكلت دماغه، وجعل الماء في المنخرين، ليصعد منهما النفس وينزل، ويجد منه الريح الطيبة من الخبيثة، وجعل العذوبة في الشفتين، ليجد ابن آدم لذة مطعمه ومشربه**». ثمّ قال جعفر عليه السلام لأبي حنيفة: «أخبرني عن كلمة أولها شرك وآخرها إيمان»، قال: لا أدري. قال: «**هي كلمة لا إله إلّا الله. لو قال: لا إله كان شرك، ولو قال: إلّا الله كان إيمان**».

ثمّ قال: «ويحك أيهما أعظم قتل النفس أو الزنا؟» قال: قتل النفس. قال: «**فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قبل في قتل النفس شاهدين، ولم يقبل في الزنا إلّا أربعة**»، ثمّ قال عليه السلام: «**أيهما أعظم الصلاة أم الصوم؟**» قال: الصلاة. قال: «**فما بال الحائض**

تقضي الصيام، ولا تقضي الصلاة، فكيف يقوم لك قياس؟ فاتق الله ولا تقس».

الرّدّ على القائلين برؤية المولى عزَّ وجلَّ وتجسيمه

أخرج المرتضى في أماليه في معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٣٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِنما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾(٣٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٣٥).

الوجه عبّر به المولى عن نفسه، فمعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٣٦) أي كلُّ شيء هالك إلَّا هو، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٣٧) لما كان المراد بالوجه نفسه، لم يقل ذي الجلال، كما قال: ﴿تبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٣٨) لما كان اسمه غيره.

---

(٣٣): سورة القصص الآية ٨٨.

(٣٤): سورة الإنسان الآية ٩.

(٣٥): سورة الرحمن الآية ٢٧.

(٣٦): سورة القصص: ٨٨.

(٣٧): سورة الرحمن: ٢٦.

(٣٨): سورة الرحمن: ٧٨.

وسئل الرضا عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (*) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٣٩] .

قال يعني مشرقة تنتظر ثواب ربِّها[٤٠].

وسئل عن قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[٤١]. فقال: «**إنَّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان يحلّ فيه، فيحجب عن عباده، ولكنّه يعني: عن ثواب ربّهم محجوبون**»[٤٢].

وسئل عن قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٤٣]. فقال: «**إنَّ الله لا يوصف بالمجيء والذهاب والانتقال، إنَّما يعني ذلك: وجاء أمر ربِّك**».

وسئل عن قوله تعالى: ﴿سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾[٤٤] وقوله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٤٦] وقوله تعالى:

---

(٣٩): سورة القيامة الآيتان: ٢٢ و٢٣.

(٤٠): الأمالي للمرتضى ج ١ ص ٥٩٢.

(٤١): سورة المطففين الآية ١٥.

(٤٢): الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٤٣): سورة الفجر الآية ٢٢.

(٤٤): سورة التوبة الآية ٧٩.

(٤٥): سورة البقرة: ١٥.

(٤٦): سورة آل عمران: ٥٤.

﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(٤٧) فقال: «**إنَّ الله لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع، ولكنَّه يجازيهم جزاء السخرية، وجزاء الاستهزاء، وجزاء المكر، وجزاء الخديعة، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً**»(٤٨).

وفي معنى قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(٤٩) فقال: «**إنَّ الله تبارك وتعالى لا يسهو ولا ينسى، وإنَّما يسهو وينسى المخلوق المحدث، ألا تسمعه عزَّ وجلَّ يقول:** ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾(٥٠) **وإنَّما يجازي من نسيه، ونسي لقاء يومه، بأنْ ينسيهم أنفسهم، كما قال:** ﴿كَالذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(٥١) **وقال:** ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾(٥٢) **أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا، أي نجازيهم عن ذلك**»(٥٣).

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(٥٤)، **بمعنى تعلم**

---

(٤٧): سورة النساء: ١٤١.

(٤٨): الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ١٦٧.

(٤٩): سورة التوبة: ٦٧.

(٥٠): سورة مريم: ٦٤.

(٥١): سورة الحشر: ١٩.

(٥٢): سورة الأعراف: ٥١.

(٥٣): الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ١٦٨.

(٥٤): سورة المائدة الآية ١١٦.

غيبي وما عندي، ولا أعلم غيبك وما عندك»(٥٥).

سأل سائل عن الخبر المروي عن عبد الله بن عمر أنَّه قال: سمعت النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: **إنَّ قلوب بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن، يصرفها كيف يشاء. وكان من دعائه صلَّى الله عليه وآله وسلم: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.**

والجواب: إنَّ الذي يعول عليه من تكلم في تأويل هذه الأخبار هو أنْ يقول إنَّ الإصبع في كلام العرب، وإنْ كانت الجارحة المخصوصة، فهي أيضاً الأثر الحسن، يقال لفلان على ماله وإبله إصبع حسنة، أي قيام وأثر حسن. قال الشاعر يصف راعياً حسن القيام على إبله:

ضعيف العصا بادي العروق ترى له ... عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

وقال الطفيل الغنوي يصف فحلاً:

كميت كركن الباب أحيا بناته ... مقاليتها واستحملتهن إصبع

والإصبع في كلِّ ما أوردناه، المراد بها الأثر الحسن والنعمة، فيكون المعنى ما من آدمي، إلَّا وقلبه بين نعمتين لله جليلتين حسنتين(٥٦). .

---

(٥٥): الأمالي ج ١ ص٣٢٦.

(٥٦):أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد ج١ ص٣١٨/٣١٩.

الله تعالى لا يرى بالعين الجارحة عند الشيعة

في عقيدتي التي تلقيتها من الموروث والمعهد، كنت أعتقد بأنَّني سوف أرى الله تعالى إذا كتب لي وكنت من أهل الجنة، فهو تعالى عن ذلك شيء ليس كالأشياء، له وجه، وعينان، ويدان، ورجلان، ينزل في الدنيا إلى السماء الدنيا، وفي الآخرة يأتي متنكراً فيرده المؤمنون على أعقابه، فيعود لهم على هيئته التي يعرفون (لست أدري متى عرف هؤلاء هيئة الله تعالى)، فيقرون به فيضحك منهم، ويأخذهم إلى الجنة (لست أدري إنْ كان سيدخل معهم أم يبقى خارجها)، ويلتفت إلى النار التي لا تريد أنْ تمتلئ من العُصاة، فيضع فيها ربُّ العزة قدمه، فتسكن عن الطلب.

التفتُ بعد أنْ عرفت عقيدة المسلمين الشيعة، ضلال ما كنت فيه من معتقد فاسد، دسّه إلينا اليهود، الذين كانوا يعتقدون بتجسيم الخالق، فحمدت الله على نعمة العقيدة الصحيحة.

إنَّ الله تعالى لا يرى، لأنَّه ليس بجسم، والرؤية من خواص الأجسام، والمحيط لا يحاط به، روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٥٧). قال:

---

(٥٧): سورة الأنعام الآية ١٠٣.

«إحاطة الوهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾(٥٨) **ليس بمعنى بصر العيون، وليس يعني من أبصر نفسه** ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(٥٩). **ليس يعني عمى العيون، إنَّما عني إحاطة الوهم، كما يقال: فلان بصير بالشعر، فلان بصير بالفقه، فلان بصير بالدراهم، فلان بصير بالثياب، الله أعظم من أنْ يرى بالعين»**(٦٠).

وبالجملة فإنَّ روايات رؤية المولى تعالى، التي اعتمدها خط السقيفة كعقيدة، لا شك في حصولها عندهم، هي من الاعتقادات الإسرائيلية المنحرفة، استطاع دهاة أحبارهم ككعب وأضرابه، أنْ يدسُّوها في أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، ونجحوا في مغالطة السواد الأعظم من المسلمين، الذين اعتمدوا منهج الصحابة في فهم الدين عقيدة وشريعة، وأداروا ظهورهم في مقابل ذلك، عن الأَولى والأحق بالاتباع، وهم أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

تنزيه الأنبياء عليهم السلام عند الشيعة

لم أستسغ في ما مضى صدور المعاصي على الأنبياء، فكنت أتنفر من كلِّ رواية

---

(٥٨): سورة الأنعام: ١٠٤.

(٥٩): سورة الأنعام الآية ١٠٤.

(٦٠): الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ٦٨.

ترد عليَّ بذلك المعنى، وعلى سبيل الذكر لا الحصر، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلَّا ثلاث كذبات، اثنتين منهن في ذات الله عزَّ وجلَّ، قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[٦١] وقوله:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[٦٢] [٦٣].

وفي وصف مشاهد يوم القيامة عن أبي هريرة أيضاً، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبيُّ الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى ما نحن فيه، فيقول لهم: إنَّ ربِّي قد غضب اليوم غضباً، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنِّي كنت كذبت ثلاث كذبات.. نفسي.. نفسي.. نفسي[٦٤].

سئل الصادق عليه السلام عن قوله عزَّ وجلَّ في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[٦٥] قال: «**ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم**»، قال: وكيف ذلك، فقال: «**إنَّما قال إبراهيم فاسألوهم إنْ كانوا ينطقون، فإنْ نطقوا فكبيرهم فعل، وإنْ لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئاً، فما نطقوا**

(٦١): سورة الصافات: ٨٩.

(٦٢): سورة الأنبياء: ٦٣.

(٦٣): جامع الأحاديث البخاري ج ٤ ص١٧١.

(٦٤): البخاري ج ٦ تفسير سورة بني إسرائيل.

(٦٥): سورة الأنبياء: ٦٣.

وما كذب إبراهيم»(٦٦).

وهذا منطق استدلالي أراد به إبراهيم أنْ يثبت لقومه بطلان آلهتهم العاجزة عن النطق وعن الفعل من حركة ودفاع، فنجح في احتجاجه وجاء قوله تعالى متضمناً ذلك: ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٦٧).

وسئل عن قوله تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (*) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾(٦٨).

قال عليه السلام: «**ما كان إبراهيم سقيماً، وما كذب إنَّما عني أنَّه سقيم من انحراف قومه عنه**». وهذا شائع حتى في لهجتنا التونسية، عندما يشعر أحدنا بالملل الضيق من شخص يقول له: لقد أمرضتني.

عن الإمام الرضا عليه السلام في مجلس إثباته لعصمة الأنبياء عند المأمون العباسي قال في شأن إبراهيم عليه السلام:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾(٦٩)،

«**إن إبراهيم عليه السلام وقع على ثلاثة أصناف (من الناس) صنف يعبد الزهرة،**

---

(٦٦): الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ٩٢.

(٦٧): سورة الأنبياء، الآية: ٦٤.

(٦٨): سورة الصافات، الآية: ٨٨ والآية ٨٩.

(٦٩): سورة الأنعام: ٧٦.

وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس، وذلك حين خرج من السرب، (الكهف والبيت تحت الأرض)، الذي أُخفي فيه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ **فرأى الزهرة** ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ **على الإنكار والاستخبار،** ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ **الكوكب** ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ **لأنَّ الأُفول من صفات المحدث، لا من صفات القدم** ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ **على الإنكار والاستخبار** ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(٧٠) **يقول لو لم يهديني ربِّي لكنت من القوم الضالين، فلمّا أصبح** ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ **من الزهرة والقمر على الإنكار والاستخبار، لا على الإخبار والإقرار** ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ **قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس** ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٧١) **وإنَّما أراد إبراهيم عليه السلام بما قال، أنْ يبين لهم بطلان دينهم، ويثبت عندهم أنَّ العبادة لا تحق لما كان بصفة الزهرة والقمر والشمس، وإنَّما تحق العبادة لخالقها، وخالق السماوات والأرض، وكان ما احتج به على قومه، ممّا ألهمه الله تعالى وآتاه، كما قال عزَّ وجلَّ:** ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(٧٢) (٧٣).

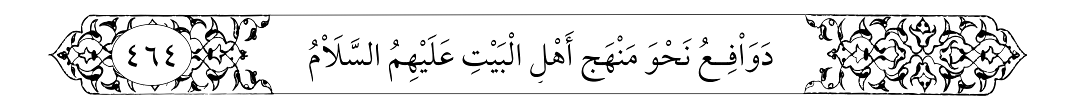
---

(٧٠): سورة الأنعام: ٧٧.

(٧١): سورة الأنعام: ٧٩.

(٧٢): سورة الأنعام: ٨٣.

(٧٣): عيون أخبار الرضا ج٢ ص ١٧٥- ١٧٦.



فأخبرني عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(٧٤).

فقال الرضا عليه السلام: «**إنَّ الله تبارك وتعالى كان أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: إنِّي متخذ من عبادي خليلاً إنْ سألني إحياء الموتى أجبته، فوقع في نفس إبراهيم عليه السلام أنَّه ذلك الخليل، فقال:**

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ **على الخلة، قال** ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٧٥) ، **فأخذ إبراهيم عليه السلام نسراً، وطاووساً، وبطاً، وديكاً، فقطعهن وخلطهن، ثمَّ جعل على كلِّ جبل من الجبال التي حوله، وكانت عشرة منهن جزءاً، وجعل مناقيرهن بين أصابعه، ثمَّ دعاهن بأسمائهن، ووضع عنده حباً وماءً، فتطايرت تلك الأجزاء بعضها إلى بعض، حتى استوت الأبدان، وجاء كلُّ بدن حتى انضم إلى رقبته ورأسه، فخلى إبراهيم عليه السلام عن مناقيرهن، فطرن، ثمَّ وقعن، فشربن من ذلك الماء، والتقطن من ذلك الحب، وقلن: يا نبيَّ الله أحييتنا أحياك الله، فقال**

---

(٧٤): سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

(٧٥): سورة البقرة: ٢٦٠.

إبراهيم: بل الله يحيي ويميت، وهو على كلِّ شيء قدير»(٧٦).

الحاجة إلى تفسير القرآن

التفسير لغة: فسر بمعنى أبان وكشف.

واصطلاحاً: علم يعرف به فهم كتاب الله تعالى، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.(٧٧) .

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٧٨)

.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أنَّ القرآن يحتاج وراء قراءة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلى تبيين.

وقد ظهرت الحاجة إلى مبين ومفسر لكتاب الله من أنَّ كثيراً من الآيات مرتبطة بأسباب نزولها، ودون معرفة تلك الأسباب يتعسر الفهم.

إنّ هناك آيات أحكام مجملة لا بُدَّ من بيانها، كأحكام الطهارة، والصلاة،

---

(٧٦): عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٧٦.

(٧٧):البرهان في علوم القرآن ج ١ص٣٣.

(٧٨): سورة النحل: ٤٤.

والصوم، والحج، والزكاة، والخمس، والأنفال، والفيء، والحلال والحرام من بقية الأحكام.

إنَّ هنالك آيات متشابهة لا بُدَّ من إرجاعها إلى المحكمات لتفسيرها.

واحتياج عصور ما بعد النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلى من يبين لهم مقاصد القرآن أكبر، وقد دعانا الله تعالى إلى التمسك بأهل بيت نبيه عليهم السلام بعد أنْ اصطفاهم وطهرهم تطهيراً، مطلقاً عليهم صفات عدة في كتابه مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(٧٩).

لما أرشدنا الله تعالى أنْ نكون مع الصادقين، تبين من الآية أنَّ صفة الصدق المطلق، غير متعلقة بجميع الناس أو أكثرهم، بل هي صفة خاصة بأُمَّة منهم، عليها مدار هداية الناس وإرشادهم، تلك الأُمَّة خضعت لمواصفات عددها الوحي، كما جمع الله تعالى خصال إبراهيم عليه السلام، فجعله أُمَّة قانتاً لله بمفرده.

أمَّا فيما تعلق بنهجنا الإسلامي، فإنَّ الأُمَّة الممدوحة بالصدق، على لسان الوحي، هي أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين اصطفاهم الله تعالى ليكونوا حفظة دينه، وحملة

---

(٧٩): سورة التوبة، الآية: ١١٩.

تشريعه، والقائمين بالقسط والعدل في عباده، وهم أهل الذكر الذين وجهنا الله تعالى إليهم، لننهل من صفي مواردهم، ونروى من عذب معينهم.

ومثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[٨٠].

أخرج الحاكم الحسكاني الحنفي في تفسير الآية، نقلاً عن أبي جعفر محمّد بن علي باقر العلوم عليهم السلام قال: «**هم الأئمة من عدة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وتلا:** ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (*) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾[٨١] [٨٢]، فالذكر هو الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، كما بينته الآية، وأهل الذكر هم الأئمة من أهل بيته الأطهار عليهم السلام.

وتبين من خلال حديث الثقلين الذي لم يجد مسلم ومن تبعه بُدّاً من إخراجه، والذي قال فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**إنِّي تارك فيكم الثقلين ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله عترتي أهل بيتي**». مسلم باب فضائل أهل البيت عليهم السلام.

إنَّ هؤلاء الذين دعانا الله إلى التمسك بهم مع كتاب الله هم حفظة تراث النبيِّ

---

(٨٠): سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٨١): سورة الطلاق: ١٠.

(٨٢): شواهد التنزيل للحسكاني ج ١ ص ٣٣٧.

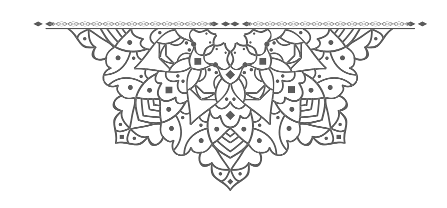
صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وخزنة علوم الدين، والأئمة الهادون بالحق، والحاكمون بالعدل، وجعل التمسك بهم عاصماً من الضلال مانعاً من الزيغ، فالقرآن كتاب الله الصامت، وهم الناطقون به صدقاً وعدلاً وعملاً، لا يفوتهم في ذلك أحد، ولا يدعيه مدعٍ إلَّا وقد ظهر زور ادّعائه.

لم يدم بحثي واستقصائي طويلاً، لأنَّ الحجج التي استدلَّ بها علماء الشيعة على أحقية أئمة الهدى عليهم السلام بقيادة الأُمَّة بعد نبيّها صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا تدع مجالاً للشك فيها، خصوصاً وهي مدونة في كتب خط السقيفة، لم يجد لها حفاظها سبيل دفع، فاعترفوا بها ضمنياً وأداروا لها ظهورهم تأويلاً، فآمنت بها من جهة إخراجهم لها كنصوص صحيحة، واعتقدتها بخلافهم، على أنَّها دلائل على حق عليٍ عليه السلام، والأئمة الهداة من ولده عليهم السلام، في قيادة الأُمَّة الإسلامية بعد مرحلة النبوة، لذلك فإنَّني أحمد الله على هذه المنة والنعمة، التي أنعم بها عليَّ، إذ عرفني من الحق، ما بقي غيري منصرفاً عنه.

الدافع الحادي والثلاثون

إلى منهج أهل البيت عليهم السلام

شيّعتني مسألة إيمان آباء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم



انتهت جلسة التعارف، وتجاذب وجهات النظر، وبسط أسباب تشيع الإخوة الحاضرين، وانصرف كلٌّ إلى شأنه، على أمل التواصل واللقاء.

وبعد أيام خاطبني الأخ بشير... عبر الهاتف، وكان يقطن في مدينة أُخرى، وطلب مني أنْ أُحدد له موعداً، ليعرفني بثلاثة من الإخوة تشيعوا لأسباب مختلفة، عن التي استمعت إليها سابقاً، فعبرت له عن سروري بذلك، والتقينا في اليوم التالي، وفي المكان المحدد وجدته مع ثلاثة رفقاء، يقاربونه في السن، فقام مسلِّماً وقدم لي الإخوة، فرحبت بهم، وهنأتهم على النعمة التي أنعم الله بها عليهم، باتباعهم للإسلام المحمّدي الأصيل، الذي حافظ عليه أئمة الهدى عليهم السلام، من أهل بيت المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ثمّ ابتدرت أولهم بالسؤال عن

السبب الذي دعاه إلى التشيع للهداة الطاهرين عليهم السلام.

هادي... هو أول المتحدثين عن سبب تشيعه، شاب في العقد الثالث من عمره، بهي الطلعة، تظهر عليه علامات الجد والاستقامة، أكمل دراسته الجامعية منذ سنة، لكنَّه بقي دون توظيف، شأنه في ذلك شأن آلاف من الخريجين، الذين يلوحون بشهاداتهم، كأنَّهم يودعون مستقبلهم، منذ فك الارتباط بين التخرج الجامعي والتشغيل، قال:

منذ أنْ بدأت أعي ما يلقى إليَّ من المفاهيم والاعتقادات، لم أستسغ مسألة كفر أبوي النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وكنت كلَّما وقفت على رواية تقول بكفر أبويه، تملكتني قشعريرة فرقاً من الرواية، وتساءلت في نفسي: هل يعقل أنْ تكون هذه الروايات صحيحة؟ هل يليق بمقام النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أنْ يموت أبواه، وأقرب الناس إليه على الكفر والعياذ بالله، مع ما خصه الله تعالى به؟ وكيف نقبل نحن كمسلمين أنْ يسلم، ويحسن إسلام من حارب الله ورسوله عشرين عاماً، وكاد من بعد ذلك للدين وأهله؟ فلا يرى علماؤنا بأساً في ضمه إلى باقي المسلمين من جهة، ويصرّ أغلبهم على القول بكفر آباء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من جهة أُخرى.

لم أكن أملك كتاب سيرة ولا تاريخ، وحتى يتسنى لي أنْ أقف على هذه

المسألة، التي أخذت جانباً من وقتي واهتمامي، قررت أنْ أتردد على المكتبة العامة بالمدينة، حيث يوجد فيها من الموسوعات وأُمَّهات الكتب، ما يشفي غليل الباحث.

السيرة الحلبية، وتاريخ ابن كثير، والإصابة لابن حجر كانت من ضمن الكتب التي تصفحتها، ودققت فيما تعلق بمسألة إيمان قربات النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فيها.

في البداية، كانت مشاعري متوقفة على رفض تلك الروايات، وعدم الاعتقاد بها أو التجاوب مع مضامينها، ثمّ تحولت بعد ذلك إلى ثورة على جميع الروايات، المتضمنة طعناً على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فقد تولدت فيَّ مشاعر ردِّ الفعل، عندما تأكدت بأنَّ هناك من يقف وراء تلك الروايات، ويقصد منها تشويه محيط النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وإيذاءه في أُسرته التي هي من خير الأُسر.

وغيرتي على خاتم الأنبياء والمرسلين صلَّى الله عليه وآله وسلَّم جاءت فطرية وتلقائية، انسجاماً مع الحقيقة الإيمانية، التي تعيش في داخلي، والتي يجب على كلِّ مسلم أنْ تكون مغروسة فيه، نابعة من أعماقه، متحلياً بها في حركته الربانية نحو الآخرة، ومن فقد غيرته على مقدساته، فقد خاب وخسر خسراناً مبيناً.

الروايات التي أخرجها علماء أهل السنة والجماعة، في شأن الافتراء على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، واعتبار كفر والديه عليهما السلام، كان مسلم القشيري البادئ في نقلها، حيث أخرج في باب بيان أنَّ من مات على الكفر فهو في النار، ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقربين، بسنده عن أنس أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: في النار. فلمّا قفا دعاه فقال: إنَّ أبي وأباك في النار(٨٣).

وأخرج رواية أُخرى عن أبي هريرة قال: قال النبيُّ: استأذنت ربِّي أنْ أستغفر لأُمِّي، فلم يأذن لي، واستأذنته أنْ أزور قبرها فأذن لي. (جامع أحاديث مسلم/ كتاب الجنائز/ باب استئذان النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ربّه عزَّ وجلَّ في زيارة قبر أُمِّه)(٨٤).

كما أنَّ الحلبي أخرج رواية أكثر غرابة، تقول إنَّ جبريل عليه السلام ضرب في صدره صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وقال: لا تستغفر لمن مات مشركاً. فما رئي باكياً أكثر منه يومئذ(٨٥).

وتساءلت بعد قراءة هذه الرواية ـ وأنا غير معتقد بصحتها ـ كيف يمكن أنْ

---

(٨٣): جامع الأحاديث لمسلم ـ كتاب الإيمان: باب من مات على الكفر فهو في النار ج ١ ص١٣٢-١٣٣.

(٨٤): السيرة الحلبية ج ١ ص ١٠٥-١٠٨.

(٨٥): السيرة الحلبية ج ١ ص١٠٦ .

نقبل صدور هذه القسوة من جبرائيل، وهو رسول ربٍ رحمنٍ رحيم، وهو بين يدي من تعنونت شخصيته وبعثته، لتكون رحمة للعالمين، أ فيكون من هو مرسل لأجل نشر لواء الرحمة مستثنى منها؟

وعاودتني قصة نزول روح القدس، على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في غار حراء، فإذا هي متفقة، على إظهار جبرائيل، مفرطاً في التعامل مع النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، في تلك الرواية، غطه حتى كاد يأخذ منه الجهد ثلاث مرات، من أجل حمله على القراءة، مع علمه بأنَّه لا يقرأ، كأنَّما هو أحد جلاوزة وزارات الداخلية العرب، المكلفين بانتزاع اعترافات المعتقلين بأشياء لم تصدر عنهم.

أفرط البيهقي في القول، ترسيخاً لمعتقد خط السقيفة، في كفر آباء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فقال: وكيف لا يكون أبواه وجده بهذه الصفة في الآخرة، وقد كانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا. [٨٦] [٨٧].

ولم يخلُ موقف ابن كثير من تطرف، تجاه كلِّ ما يتصل بأهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فلم يتوانَ عن تدوين ضغائنه، وإحنه كعادته فقال في تاريخه: وإخباره عن أبويه وجده عبد المطلب بأنَّهم من أهل النار، لا ينافي الحديث الوارد

---

(٨٦): دلائل النبوة ج١ص١٩٢.

(٨٧): السنن الكبرى للبيهقي ج ٧ ص ١٩٠.

عنه، أنَّ أهل الفترة والأطفال والمجانين، يمتحنون في العرصات يوم القيامة، فيكون منهم من يجيب، ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب، فلا منافاة ولله الحمد والمنة.[٨٨] .

والاعتقاد بكفر أبوي وجدِّ وعمِّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، أصبح من العناوين المميزة لأهل السنة والجماعة، فأغلب علمائنا لا يتورعون في إرسال ذلك إرسال المسلَّمات، ويرونه حجراً من أحجار بنائهم المذهبي، يصعب التخلي عنه بعد هذه القرون الطويلة من الاعتقاد.

وتساءلت في نفسي: ألا يعدُّ الاعتقاد بكفر قربات النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أذية له؟ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (*) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[٨٩].

لذلك توجب أنْ ينتبه هؤلاء الطاعنون على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، بأنَّهم يواجهون خطأً فادحاً ذا وزرين:

الأول: أذية الله ونبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، المنزه والمبرأ من كلِّ

---

(٨٨): البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص٢٣٩.

(٨٩): سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

العيوب والنقائص.

والثاني: أذية المؤمنين من قرابته، والذين تشهد سيرتهم العطرة بأنَّهم مؤمنون وموحدون، زيادة على ما روي عن إيمانهم.

أمَّا روايات كفر أبي طالب، التي أخرجها مسلم في كتابه، وتبعه عليها من جاء بعده، فهي غير متفقة في بنائها اللغوي، ففي حين ذكرت إحداها، أنَّ أبا طالب من أهون الناس عذاباً، وألبسته نعلين من نار، ذكرت الثانية خلافها، فجعلت بدل النعلين ضحضاحاً يبلغ كعبيه، وخالفتهما الثالثة بأنْ جعلت بدلهما جمرتين على رجليه.

وفي رواية أُخرى أخرجها الحلبي: كلُّ قبر لا يشهد صاحبه أنْ لا إله إلَّا الله، فهو جذوة من النار، وقد وجدت عمّي أبا طالب في طمطام من النار، فأخرجه الله لمكانه مني وإحسانه إليَّ، فجعله في ضحضاح من النار(٩٠).

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنَّ العرب لم تتعود على إطلاق ضحضاح إلَّا على قليل الماء، وقد جاء في لسان العرب: الضَّحْضَحُ والضَّحْضاحُ: الماء القليل يكون في الغدير وغيره، والضَّحْلُ مثله.(٩١) .

---

(٩٠): السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٥٢.

(٩١): لسان العرب لابن منظور/ جذر: ضحح.

وعرفت فيما بعد، أنَّ رواية الضحضاح، رواها أعداء أهل بيت النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، عن رجل واحد، هو المغيرة بن شعبة، صاحب دعاية الطلقاء من بني أُميّة، وباني حجر زاوية السبِّ واللعن، التي تربَّت عليها ثلاثة أجيال من الأُمَّة الإسلامية، هذا والسنة النبوية عند هؤلاء غير مدونة، وعداء الرجل لعليٍّ وأهل بيته عليهم السلام غير خاف، وقد عدّه ابن أبي الحديد المعتزلي من المنحرفين عن عليٍّ عليه السلام، وخبر بهذه القيمة، يكون المغيرة مصدره، حريٌّ بمن يمتلك مقداراً من دين أنْ يردّه.

قال ابن الجوزي: ولا يختلف المسلمون أنَّ عبد المطلب مات كافراً، وكان للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يومئذ ثماني سنين. وأمَّا عبد الله فإنَّه مات والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حمل، ولا خلاف أنَّه مات كافراً، وكذلك آمنة ماتت وللنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ست سنين.[٩٢] .

وقد لفت انتباهي أثناء بحثي، ما أخرجه الحلبي نقلاً عن السهيلي، في ذكر الحكمة من اختصاص قدميه (أبو طالب) بالعذاب، وزعم بعض غلاة الرافضة أنَّ أبا طالب أسلم، واستدل على ذلك بأخبار واهية، ردَّها الحافظ ابن حجر في الإصابة، وقد قال: وقفت على جزء جمعه بعض أهل الرفض، أكثر فيه من

(٩٢): الموضوعات ج١ ص٢٨٣.

الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب، ولم يثبت من ذلك شيء.

فقلت في نفسي من هؤلاء الذين أطلق عليهم رافضة؟ هل هم مسلمون، أم غير ذلك؟

لم أقبل تقرير هؤلاء الذين خصوا الرافضة، بإيمان قربات النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، لأنَّني عثرت على روايات تقول إنَّ أبا طالب مثلاً أسلم قبل موته: فقد ذكر الحلبي في سيرته قال: وذكر أنَّه لما تقارب من أبي طالب الموت، نظر العباس إليه يحرك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه فقال: يابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرت بقولها[٩٣].

الذي لم أستسغه هنا هو إصرار هذا النهج المذهبي على المضي قدماً في تكفير أبوي النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وجدّه وعمّه، مع وجود دلائل تثبت لهم الإيمان، كرواية الحلبي هذه.

وجاءت وصية أبي طالب قبل موته، لتأكد على حقيقة إيمانه، فقد أوصى أولاده عند وفاته قائلاً: أُوصيكم بمحمّد خيراً، فإنّه الأمين في قريش، وهو الجامع لكلِّ ما أوصيكم به، كونوا له ولاةً، ولحزبه حماةً، والله لا يسلك أحد منكم سبيله

---

(٩٣): السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٥٠ / شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٤ ص ١١٦/ البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٣/ تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٢٠.

إلَّا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلَّا سعد.[٩٤] .

وقلت في نفسي: إنَّ هاتين الروايتين، تصلحان لكي تكونا دليلاً، على بطلان دعوى الاعتقاد بكفر أبي طالب عمِّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وإثبات إيمانه في المقابل، بما فيهما من إقرار منه بالشهادتين في الرواية الأُولى، ووصيته المهمة في الرواية الثانية، والتي تضمنت دعوة صريحة باتباعه، ومؤازرته والسير على دربه، وأيُّ إيمان أوضح من هذا؟

فأمسكت بذلك الخيط، وواصلت بحثي، على أنْ أُغير الوجهة بعد ذلك، إلى هؤلاء الذين لقبوا روافض، باعتبار أنَّهم المجمعون على ضرورة الاعتقاد بإيمان آباء النبيِّ وعمِّه أبي طالب.

وعرفت بعد ذلك أنَّ الروافض، لقب أُطلق على المسلمين الشيعة، لأسباب سياسية بحتة، تعلقت بالصراع على السلطة، مع طواغيت العصور، في إيحاء خبيث بأنَّ هؤلاء فرقة غير إسلامية.

وبحثت في كتب الفرق فإذا بالشيعة فرق مثل فرق السنة والجماعة، اندثر أغلبها ولم يبقَ ظاهراً سوى الشيعة الإمامية الاثني عشرية، أمّا البقية فلم يبقَ منهم

---

(٩٤): السيرة الحلبية: ١ | ٣٥.

سوى الشكل وغاب المضمون، وإذا بالإمامية الاثني عشرية قد تميزت بعدد من الخصال، التي لم أعثر عليها في غيرها، لعلَّ أهمها التكامل العقائدي والتراثي والوجود العملي والعلمائي المميز، فقررت أنْ أُبحر في ذلك العباب الزاخر، وكان لي ذلك فأبحرت، ولله الحمد والمنة كما أقول أنا، لا كما قال ابن كثير.

ماذا قال المسلمون الشيعة الإمامية الاثنا عشرية في شأن إيمان قربات النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؟

ذكر اليعقوبي في تاريخه: ورفض عبد المطلب عبادة الأوثان والأصنام، ووحّد الله عزَّ وجلَّ، ووفى بالنذر، وسنَّ سنناً نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنّة الشريفة من النبيِّ بها، وهي الوفاء بالنذر، ومائة من الإبل في الدية، وألَّا تنكح ذاتُ محرم، ولا تؤَتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المَوءودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحدّ عليه، والقرعة، وألَّا يطوف أحد بالبيت عرياناً، وتكريم الضيف، وألَّا ينفقوا إذا حجّوا إلَّا من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذات الرايات[٩٥].

استطعت أنْ أستجلي من هذه الرواية، أنَّ عبد المطلب جدَّ النبيِّ صلَّى الله عليه

(٩٥): تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٩.

وآله وسلَّم كان موحداً لأنَّ ما عددته الرواية من خصال وأعمال، لا تمت إلى الجاهلية بصلة، وهي تعاليم من دين إبراهيم عليه السلام وشيء من ملته، التي توارثها أبناء إسماعيل عليه السلام، إلى أنْ حضنها زعيم مكة، وربَّى أبناءه عليها.

وقد أخرج ابن حجر في فتح الباري: وكأنَّه ممّا بقي عندهم من أُمور الشرع على سنن الاعتكاف... إنَّما لم ينازعوا النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في غار حراء مع مزيد الفضل فيه على غيره، لأنَّ جدَّه عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته وكبر سنه، فتبعه على ذلك من كان يتأله فكان صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يخلو بمكان جده، وسلَّم له ذلك أعمامه، لكرامته عليهم[1]. وقد وقد قال في ذلك الإمام عليٌّ عليه السلام: «... **ولقد كان يجاور في كلِّ سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة**».[2] .

.

وقد أخرج ابن أبي الحديد المعتزلي: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم دفنه بنفسه. كما أنَّ الإمام الحسين عليه السلام أجاب عندما سئل عن إيمانه قال:

---

(١): فتح الباري لابن حجر ج ١٢ ص ٢١٣.

(٢):نهج البلاغة الخطبة المسماة بالقاصعة.

«واعجباً، إنَّ اللهّ تعالى نهى رسوله أنْ يقرّ مسلمة على نكاح كافرٍ، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، لم تزل تحت أبي طالب حتى مات»[١].

كما أخرج عن الإمام محمّد بن عليٍّ الباقر عليه السلام قال: «لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان، وإيمان هذا الخلق في الكفة الأُخرى، لرجح إيمانه»، ثم قال: «**ألم تعلموا أنَّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أنْ يحج عن (عمّه) عبد الله -أبي النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم- وأبيه أبي طالب في حياته، ثمّ أوصى في وصيته بالحج عنهما**».

وأخرج الشيخ الكليني: قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ مَثَل أبي طالب، مَثَل أصحاب الكهف، أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك، فآتاهم اللهّ أجرهم مرّتين، وكذلك أبو طالب**»[٢].

أمَّا من الوجهة القرآنية، فقد أخرج السيد محمَّد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[٣] معناه وتقلبك في الساجدين الموحدين، من نبيٍّ إلى نبيٍّ حتى أخرجك نبياً.

---

(١): شرح نهج البلاغة ج ١٤ ص ٦٨.

(٢): أُصول الكافي ج ١ / ٤٤٨ .

(٣): سورة الشعراء، الآية: ٢١٩.

عن ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا: «**أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ، حتى أخرجه من صلب أبيه، عن نكاح غير سفاح من لدن آدم**». راجع سورة الشعراء الآية ٢١٩ من التفسير المذكور.

المأثورات من أشعار أبي طالب والدالة على إيمانه

أخرج ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة، عدداً من القصائد المنسوبة لأبي طالب منها:

يرجون منا خطة دون نيلها ... ضراب وطعن بالوشيج المقوم

يرجون أنْ نسخى بقتل محمد ... ولم تختضب سمر العوالي من الدم

كذبتم وبيت الله حتى تفلقوا ... جماجم تلقى بالحطيم وزمزم

وتقطع أرحام وتنسى حليلة ... حليلاً ويغشى محرم بعد محرم

على ما مضى من مقتكم وعقوقكم ... وغشيانكم في أمركم كلَّ مأثم

وظلم نبيٍ جاء يدعو إلى الهدى ... وأمر أتى من عند ذي العرش قيم

وذكر أيضاً:

أعوذ بربِّ البيت من كلِّ طاعن ... علينا بسوء أو يلوح بباطل

ومن فاجر يغتابنا بمغيبة ... ومن ملحق في الدين ما لم نحاول

كذبتم وبيت الله نبزي محمد ... ولما نطاعن دونه ونناضل

وننصره حتى نصرع دونه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد ... وأحببته حبَّ الحبيب المواصل

وجدت بنفسي دونه فحميته ... ودافعت عنه بالذرى والكواهل

فلا زال للدنيا جمالاً لأهلها ... وشيناً لمن عادى وزين المحافل

أيده ربُّ العباد بنصره ... وأظهر ديناً حقه غير باطل

وأبو طالب عرف بنصرته التامة والكاملة للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ولولا مكانته ووجوده في التصدي لمشركي قريش، ومنع أذاهم للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لما أمكن للدعوة أنْ تستمر، في تلك الأجواء الخانقة، ولقد آزر أبو طالب النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منذ بداية نبوته، لما علم بذلك وقال له: (اخرج يابن أخي فإنَّك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً، والله لا يسلقك لسان، إلَّا سلقته ألسن حداد، واجتذبه سيوف حداد، والله لنذللن لك العرب ذلّ البهم لحاضنها.

ثم أنشأ قائلاً:

والله لن يصلوا إليـــك بجمعـــهم حتى أُوســد في التراب دفينـــا

فأنفذ لأمرك ما عليــك مخــافــة وأبشــــــر بذاك وقرَّ منك عيو نا

ودعوتني وزعمت أنَّك ناصـحي فلقد صــــدقت وكنت قدماً أمينا

وعر ضت ديناً قد علمـــت بأنَّـــه من خيـــر أديـــان البـــرية دينا

لو لا ا لملامـة أو حـذاري سـبـه لوجدتني سـمحاً بذاك مبـــينـــا

وقد بقي أبو طالب على موقفه، المساند والداعم والحامي لابن أخيه إلى أنْ مات، تغمده الله برحمته الواسعة، ولم تتنفس قريش من ضيقها الذي وضعها فيه، وتخرج من قمقمها إلَّا بعد موته.

لماذا لا يقبلون هذه الرواية حتى كرامة واحتراماً للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؟

جاء في السيرة الحلبية، وقد بحثت في جزئها الأول، ما أخرج الرجل بخصوص آباء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فرأيته قد خاض مع جملة الخائضين، ودلل على إيمان أُمِّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم برواية أخرجها عن عائشة قالت: حجّ بنا النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حجة الوداع فمرَّ على عقبة الحجون، وهو باكٍ حزين مغتم، فبكيت لبكائه، ثم طفق يقول يا حميراء استمسكي، فاستندت إلى جنب البعير، فمكث طويلاً، ثمّ عاد إليَّ وهو فرح متبسم، فقلت له: بأبي أنت وأُمِّي

يا رسول الله، نزلت من عندي وأنت باكٍ حزين مغتم، فبكيت لبكائك، ثمّ إنَّك عدت إليَّ وأنت فرح متبسم، فممَ ذاك؟ قال: ذهبت إلى قبر أُمِّي فسألت ربِّي أنْ يحيها لي فأحياها، فآمنت وردّها الله تعالى[1].

ومع أنَّ الجوزجاني، وابن الجوزي، والذهبي، ردّوا الرواية، فإنَّ الحافظ ابن حجر أقرّها في لسان الميزان، ولم يلتفت إلى أقوالهم.

هؤلاء المنكرون لإيمان أبوي النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم -على خطأ اعتقادهم- رفضوا حتى إمكانية أنْ يمنّ الله على نبيِّه بإحياء أبويه فيؤمنون به، وردّوا الرواية المتعلقة بذلك، وهذا إنْ دلَّ على شيء فإنَّما يدلّ على جبلة متعصبة عمياء، كلوحة تدعو إلى الاشمئزاز والقرف.

وأقول أخيراً لو أنَّ معشار هذه القرائن، اجتمعت في شخص آخر، بعيد النسب عن آل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، لحكموا بإيمانه ولأجزموا عليه، ولكنْ طالما أنَّ للمسألة صلة بالعامل المذهبي المتوارث، فإنَّ الأمر اتخذ شكلاً آخر من التعنت والإصرار، على البقاء في مستنقع الاتباع الأعمى.

ونظرت في ما أُثر عن عليٍّ عليه السلام، من خطب ورسائل في نهج البلاغة،

---

(١): السيرة الحلبية ج ١ ص ١٠٥.

فإذا به يخاطب معاوية بقوله: «**وما أنت والفاضل والمفضول، والسائس والمسوس، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء، والتمييز بين المهاجرين الأولين، وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم... لم يمنعنا قديم عزّنا ولا عادي طولنا على قومك أنْ خلطناكم بأنفسنا، فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء، ولستم هناك، وأنَّى يكون ذلك ومنّا النبيُّ، ومنكم المكذب، ومنا أسد الله، ومنكم أسد الأحلاف، (أبو سفيان لُقب بذلك في غزوة الأحلاف، والمسماة بالأحزاب والمعروفة بغزوة الخندق)، ومنا سيدا شباب أهل الجنة، ومنكم صبية النار (أولاد مروان بن الحكم أخبر عنهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ومنا خير نساء العالمين، ومنكم حمالة الحطب (أُمّ جميل بنت حرب، عمّة معاوية)**»[1].

وكثيراً ما تناول أمير المؤمنين أُصول معاوية، وكشف معدنه الخبيث، وشهّر به على الملأ، فلم يجد ابن الطلقاء ما يدرأ به عن نفسه، ولو كانت مسألة كفر آباء النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وعمّه معلومة، أو معروفة عند أهل ذلك العصر، لما تردد ابن هند في الكيل منها إلى عليٍّ عليه السلام، رداً للعائبة التي انفرد بها، فدلَّ ذلك على أنَّ التهمة باطلة، لا أصل لها واقعاً، وقد انتُحلت بعد ذلك

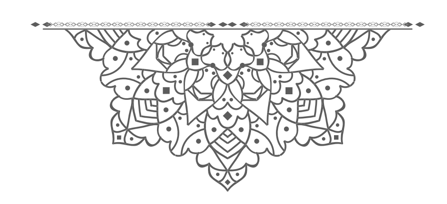
(١): نهج البلاغة المختار من كتب أمير المؤمنين رقم ٢٨ ص٤٨٨/ ٤٨٩ تعليق الدكتور صبحي الصالح.

العصر انتحالاً.

فهل بقي بعد الذي وجدته، واستقيت من أُمَّهات الكتب حجة لمرتاب، في ثبوت إيمان شيخ البطحاء وسيد بني هاشم؟

وعلى ذلك كانت قناعتي، وجاء قراري بأنْ أترك هذه المذاهب، بما نصبته من أشواك تعصبها، التي لم ينجُ منها حتى النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وعميت بعد ذلك أعين بصائرها، عن تمييز الحق من الباطل، والتحقت بمن هو أجلّ قدراً، وأطيب منهلاً وأعذب ورداً، وأجلى حقيقة، منَّة من الله تعالى على أنْ هداني إلى اتباع أوليائه، أئمة الهدى عليهم السلام وسفينة النجاة، والحجج على أهل الدنيا، بالبراهين الساطعة، والدلائل الواضحة، التي لا يردّها سوى شقيّ أعمى البصيرة، والحمد لله ربِّ العالمين.

خاتمة المطاف



الآن وبعد أنِ انتهينا من جميع إفادات الإخوة الكرام، يمكننا أنْ نلخص الأسباب التي دعت الإخوة الحاضرين إلى اعتماد إسلام أهل البيت عليهم السلام، والتشيع لهم، وترك ما دونه من إسلام منسوب إلى الصحابة، وما هو في حقيقته إلَّا خليط من حق وباطل، أسسه الطغاة من بني أُمية، على مدى أكثر من قرن، سهر على غرسه حكامهم في أجيال الأُمَّة، فنشأ سوادهم على ذلك، والناس على دين ملوكهم.

وبتتبعنا للحجج التي دفعت بهؤلاء الباحثين، إلى اعتبار أنَّ الإسلامَ الشيعي الإمامي الاثني عشري، هو الإسلام المحمّدي الصحيح، الذي لم تشبه شائبة التحريف، ولا أصابه نزق الظالمين، نجد أنَّ تلك الحجج قد انقسمت في مجموعها إلى محورين أساسيين:

المحور النقلي والمعبر عنه بالروائي، حيث اعتمد علماء المسلمين الشيعة فيه،

على النصوص التي هي عند مخالفيهم، كأساس أول في الاحتجاج، وهي مقسمة بدورها إلى قسمين:

القسم العقائدي:

وقد أعطى للتوحيد حقيقته، من حيث ذات الله تعالى المقدسة وصفاته ووضعها موضعها، وقد سلك مسلكاً تنزيهياً واضحاً، نفى عنه كلَّ ما ادّعاه غيرهم، من تحقق رؤيته في الدنيا والآخرة، ومصاحبته إلى الجنة، وأعطوه حقه في العدل بينما نسبه غيرهم إلى الظلم.

كما أعطى الإسلام الشيعي، النبوة والأنبياء عليهم السلام موضعهم الذي يستحقون، فنفوا عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كلَّ الروايات المكذوبة، التي شوهت الكتب التي تلقب بالصحاح، والتي تمسُّ من شخصه وتحطّ من كرامته، كالادعاء عليه بأنَّه كان يطوف على نسائه التسع، في ليلة واحدة وبغسل واحد، وتبوله قائماً في سباطة قوم، وحبه لسماع الباطل، ومشاهدته لامرأة عارية تغتسل، وتسبيحه لذلك الجمال، والادعاء بسحره من طرف يهودي، وتذكير قارئ له بما نسيه من قرآن، وأمره لامرأة بإرضاع شاب، نبت في ذقنه الشعر ليصبح ابن زوجها، وعبوسه لمجيء أعمى، ومحاولاته المتكررة للانتحار كلَّما انقطع عنه الوحي، فينقذه جبريل في آخر لحظة.. إلى غير ذلك من الترهات والأباطيل، التي اعتمدها

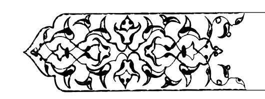
المخالفون للإمامة الإلهية، كما نفوا عن بقية الأنبياء عليهم السلام، ما نسب إليهم من كذب وظلم، وأقروهم على عصمتهم التي يجب أنْ يكونوا جميعاً عليها، لضرورة البعثة، وما تتطلبه من مثال كامل الصفات والخصائص لا تشوبه شائبة تعيبه وتعطل دوره، وتقلل من حجته.

القسم التشريعي

وقد أظهر أئمة أهل البيت عليهم السلام، وعياً كاملاً بالشريعة الإسلامية ودقائق تفاصيلها، من أبسط الأحكام إلى أعقدها، بينما تاه غيرهم في مسائل، لا تتطلب غير تطبيق ظاهر الآية، كآية الوضوء مثلاً، والبسملة في الصلاة مفروضة كانت أم مسنونة.

أمَّا المحور العقلي، فقد تميز إسلام أهل البيت عليهم السلام، بإعطاء العقل المستنير مكانته في البحث والتحليل والاستنباط، وفق الشروط المؤهلة لذلك، وبفضل العقل أمكن الوصول إلى الحقائق والاطلاع عليها، ومن خلال المقارنة والموازنة بين النصوص، أثبتوا بالعقل ما يجب في التوحيد من تنزيه مطلق، والنبوة والإمامة من تعيين وعصمة، ودفع الشبهات عنهما..

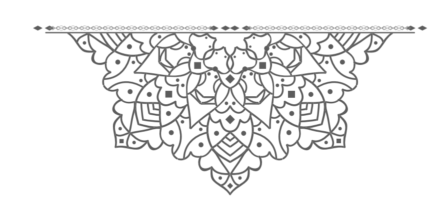
في أجواء مليئة بالطمأنينة والارتياح، وفي خاتمة لقاء تميز بانفتاح قلوب وعقول شاءت لنفسها، وأراد لها الله سبحانه وتعالى أنْ تسلك طريق الهدى،



اختتمت جلسة الإفادة، وانفض جمعها، وتفرق الإخوة المؤمنون منها كلٌّ إلى جهته، آملين أنْ تكون لإفاداتهم، التي أدلوا بها بخصوص تشيعهم لأئمة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام، الذين نصَّ عليهم المولى سبحانه وتعالى، ليكونوا حفظة دينه بعد نبيّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وحكاماً بشريعته، وولاة لأُمور مسلميه.. النتيجة المرجوة، لمن لم يتعرف على دوافع ترك المسلمين لمذاهبهم، التي تعبدوا بها زمناً، واعتنقوا بدلها منهج الإسلام الشيعي الإمامي الاثني عشري -نسبة إلى الأئمة الاثني عشر الذين نصَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بكونهم أئمة للمسلمين- ظاهرة الانتقال من التسنن إلى التشيّع، والتي ظهرت هنا وهناك في مختلف مناطق العالم، أرقت وتؤرق أنفساً وحكومات، واستوطنت الشرَّ ووطنت أنفسها عليه، فاندفع منها من اندفع مستميتاً، يطلب إطفاء نور الهداية إلى أئمة الهدى، ومصابيح الدجى والعروة الوثقى، وحبل الله المتين الذي لا ينقطع، وسائلهم في تلك المخططات، وأدواتهم لبلوغ تلك الغايات الادعاء بالباطل، واللجوء إلى الكذب الذي استجار به من سبقهم إلى سوق الوهم، ووهن عزمهم في النهاية، ولم يستطيعوا وقف شيء من ذلك المدِّ القادم، ليحق الحق بكلمات الله التامات، ويتم الله نوره رغم أُنوف الظالمين، وأعوانهم من الكاذبين.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العلمين.

الفهرس



دفعني إلى منهج أهل البيت الأمل الحقيقي عند الشيعة في ظهور الدين على يد المصلح ٢٢

الدافع الثاني إلى منهج أهل البيت مظلومية الزهراء وأهل البيت عليهم السلام ٣٢

الدافع الثالث إلى منهج أهل البيت عقيدة أهل البيت عليهم السلام في التوحيد ... ٥٢

الدافع الرابع إلى منهج أهل البيت عقيدة أهل البيت عليهم السلام في النبوة ٦٧

الدافع الخامس إلى منهج أهل البيت شيعني حديث الاثني عشر خليفة ٧٧

الدافع السادس إلى منهج أهل البيت حديث انقسام الأُمة والفرقة الناجية ٨٩

الدافع السابع إلى منهج أهل البيت الكذب على الشيعة هو الذي شيعني ١٠٧

الدافع الثامن إلى منهج أهل البيت شيعتني آية الوضوء ١٢٤

الدافع التاسع إلى منهج أهل البيت شيعتني الصلاة البتراء ١٣٣

الدافع العاشر إلى منهج أهل البيت شيعتني البسملة ١٤٣

الدافع الحادي عشر إلى منهج أهل البيت شيعني حديث الطائفة الظاهرة على الحق ١٥٢

الدافع الثاني عشر إلى منهج أهل البيت مودة قربى النبي صلى عند الشيعة ١٦٣

الدافع الثالث عشر إلى منهج أهل البيت شيعتني حجج في كتب السنة المعتمدة....١٧٨

الدافع الرابع عشر إلى منهج أهل البيت شيعني حديث الثقلين ١٩٥

الدافع الخامس عشر إلى منهج أهل البيت حديث الغدير وحادثته..................٢١٠

الدافع السادس عشر إلى منهج أهل البيت اتصال التشيع بعهد النبي وانقطاع غيره.٢٢٢

الدافع السابع عشر إلى منهج أهل البيت شيعتني الثورة الإسلامية في إيران ٢٣٧

الدافع الثامن عشر إلى منهج أهل البيت رزية الخميس هي التي شيعتني ٢٥٤

الدافع التاسع عشر إلى منهج أهل البيت مسألة الاصطفاء في القرآن ٢٧٢

الدافع العشرون إلى منهج أهل البيت شيعني كتاب علل الشرائع.................٢٨٥

الدافع الحادي والعشرون إلى منهج أهل البيت إهمال السنة النبوية المطهرة وإفراغ القرآن الكريم من معانيه.................................. ٢٩٥

الدافع الثاني والعشرون إلى منهج أهل البيت فوجئت بحقيقة الشيعة والتشيع ٣٠٩

الدافع الثالث والعشرون إلى منهج أهل البيت مناهضةالشيعةللظالمين على مرالتاريخ . ٣٢١

الدافع الرابع والعشرون إلى منهج أهل البيت اتصال الاجتهاد وبقاء بابه مفتوحاً.. ٣٣٨

الدافع الخامس والعشرون إلى منهج أهل البيت شيعني الحسين عليه السلام ٣٤٨

الدافع السادس والعشرون إلى منهج أهل البيت وسطية الشيعة ودعوتهم إلى الوحدة . ٣٦٩

الدافع السابع والعشرون إلى منهج أهل البيت شيعتني روحية أئمة أهل البيت ٣٨٥

الدافع الثامن والعشرون إلى منهج أهل البيت شيعتني فطرتي وكتاب المراجعات ... ٣٩٧

الدافع التاسع والعشرون تناقض القائلين بالشورى في الحكم هو الذي شيعني ٤١١

الدافع الثلاثون إلى منهج أهل البيت شيعني التفسير الصحيح للقرآن الكريم....... ٤٣٦

الدافع الحادي والثلاثون إلى منهج أهل البيت شيعتني مسألة إيمان آباء النبي ٤٦٩

خاتمة المطاف ٤٨٨

الفهرس.. ٤٩٢

